المشـــروع القــومى للترجمة

أيــريـن فرانــك
ديفيد براونستون

ترجمة: أحمد محمود

طريق الحرير

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

طريق الحرير

تأليف:
أيرين فرانك
ديفيد براونستون

ترجمة:
أحمد محمود

هذه ترجمة كاملة لكتاب:

THE SILK ROAD
A HISTORY

BY:

IRINE M. FRANÇK

DAVID M. BROWNSTONE

Published By:

FACTS ON FILE

New York - Oxford

1986

الفهـــرس

إلى عـــزة..

معا على طريق الشوك والحرير

أحمـــد

عـــودة الحـــياة

فى الثالث عـشر من مـايو ١٩٩٦ نُصبت خيـمة بيـضاء عمـلاقة فى صـحراء إيران. اجتمعت داخلها وفود ٤٠ دولة، بينهم رؤساء دول آسيا الوسطى، تركمانستان وأوزبكستان وقازاقستان وأذربيجان وقرغيزستان، وتركـيا وباكستان وأفغانستان وأرمينيا وجورجيا وبالطبع إيران. أما هدف الاجتـماع فكان إعلان قيام «طريق الحـرير الجديد» من خلال خط السكك الحديدية الإيرانية التركمانية الذى يكمل شـبكة سكك حديد آسيا ويحيى طريق الحرير الذى يربط بين بكين شرقاً والبحر المتوسط غرباً.

ووصف رئيس الوزراء الصينـى لى بينج خط السكك الحديدية الذى سيـربط بين بكين وإسطنبول عبـر إيران وآسيا الوسطى بـ«طريق الحرير للقرن الحـادى والعشرين». والواقع أن هذا الجـزء الذى افتُتـح مؤخـراً ويبلغ طوله ١٦٥ كـيلومـتراً، بين سـرخس على الحـدود التركـمانية الإيرانية ومـشهد شمال شـرقى إيران، ومعه شبـكة السكك الحديدية التى تربط آسيا، يشكل ورقة رابحـة بالنسبة لإيران على الصعيد السـياسى. فهى تأمل من خلال هذه الشبكة أن تستـعيد مكانتها كـمفترق طرق بين آسـيا وأوروبا والشرق الأوسط. وهو الدور الذى سبق لها القيام به فى الماضى. كما أنه سـيربط دول آسيا الوسطى بالمياه الدافئة، الأمر الذى قد يثـير حـفيظة روسيـا. وسيكون وصول بـضائع الصين إلى عـالم البحـر المتوسط والشرق الأوسط أسهل من خلاله.

وهكـذا تعـود الحـيـاة إلى طريـق الحـريـر الذى خطه التـجار منذ مـايربو على الألفى سـنة، عندمـا كـانـوا ينقلون النفـائـس بين الشرق والغـرب. وهو الطريق الذى سار علـيه الغـزاة والفـاتحـون، كـالإسـكندر الأكـبـر والرومان والـفرس وجـيوش الـفتح الإسـلامى وجحافل جنكيزخـان وهولاكو وتيمور لنك. وحمل هذا الطريق الدعاة والمبشرين البوذيين واليهود والمسيحـيين والمسلمين. وعليه سار الرحالة العظام أمثـال شيان تسونج وابن بطوطة ومارَكـو بولـــو، الذين لولاهـم لما عرفنا كـيف كان حال الطريق فى العـصور التى عـاشوا فيها.

وقد عاش هذا الطريق سنوات عز وازدهار، وأخرى من الكساد والانقطاع. أما أكثر أيامه ازدهاراً فكانت عندما خضعت البلاد الواقع فيها لإمبراطوريات قوية، كما حدث فى عهد الفرس والمغول. فى حين أدى ضعف الدول التى يمر فيها وحدوث حروب وصراعات فيما بينها إلى انقطاع الطريق.

وعلى مر التاريخ كانت هناك مدن تظهر وأخرى تختفى، تبعاً لموقعها من طريق الحرير. تماماً كما حدث مع تدمر والبتراء اللتين ازدهرتا بمرور تجارة طريق الحرير عليهما ثم انهارتا وطواهما النسيان حين ابتعد مسار الطريق عنهما.

وشهد طريق الحرير أنواعاً شتى من التجارة، لعل أغربها ما عُرف باسم «التجارة الصامتة»، حيث كان أحد الطرفين يترك بضاعته فى مكان متفق عليه ثم يأتى الطرف الآخر بما يريد مقايضته بتلك البضاعة ويضعه ويغادر المكان. فإذا عاد الطرف الأول وأعجبه ما تركه الطرف الثانى مقابل بضاعته أخذه وانصرف، وإلا فإنه يغادر المكان دون أن يأخذ شيئاً. وهنا يعود الطرف الآخر ويزيد المقابل ويغادر المكان. فإن قبل الطرف الأول فى هذه المرة أخذ بضاعة الآخر وانصرف، وإلا استمرت هذه العملية إلى أن يرضى وتتم الصفقة. وطوال ذلك لايرى أحد الطرفين الآخر أو يلتقى به.

وكانت مطايا تجار طريق الحرير ودواب حملهم هى الجِمال البلخية ذات السنامين والعربية ذات السنام الواحد والحمير والبغال. وشهد طريق الحرير استئناس الحصان وتوليد سلالات قوية من الخيل استُخدمت فى الركوب وجر عربات سريعة أحدثت ثورة فى مواصلات طريق الحرير، وكان لها دور فى مساعدة الغزاة والمقاتلين على سرعة القتال والانتقال. وظهرت أساطير عن الخيل أهمها أسطورة الخيول السماوية التى وُلدت فى الماء وحملت الحكام شبه الأسطوريين إلى السماء حيث يخلدون. وبسبب تلك الخيول أرسل إمبراطور الصين الجيوش إلى فرغانة لإحضارها بالقوة، بعد أن رفض ملك كوقند إرسالها له بالحسنى.

وكان الحرير يوماً أهم سلعة تنقل على هذا الطريق، وخاصة أن الصين ظلت زمناً طويلاً تحتفظ بسر تربية دودة القز وصناعة الحرير. وأدى هذا إلى نسج الحكايات والأساطير عن الحرير فى الغرب. ووصل الأمر بالبعض إلى القول بأن الحرير نبات، بل إن هناك نوعاً من الحملان تزرع فى الأرض ويؤخذ منها الحرير. وكان أهل الغرب يعرفون الصين باسم

«سيريس»، وهو مشتق من الكلمة التى تعنى الحرير بلغة آسيا الوسطى. وكان المتشددون من الرومان يرون فى حرير الصين إفساداً لحياتهم وإهداراً لثروات بلادهم.

ولم يكن الحرير وحـده ما كان ينقله التجـار على طريق الحرير. فهناك أيضـاً اليشب، ذلك الحجر شـبه الكريم الذى عشقه الصيـنيون، والذهب والفضة والزجاج وغيـرها. كما انتقلت على طريق الحرير سلعـة فى غاية الأهمية أنتجتـها الصين، وهى الورق. هذا المنتج أحدث ثورة فى عـالم الثقافة والمعـرفة، وخاصة أن الصـينيين ابتكروا أيضاً طريقة للطـباعة بالقوالب الخشـبية. وانتقلت هذه الطريقـة إلى أوروبا على طريق الحرير، لتفـتح الباب أمام جوتنبرج ليخترع طريقة الطباعة بالحـروف المتحركة. هذا إلى جانب أنواع كثيرة من الفواكه والخضروات والحبوب التى انتقلت بين الشرق والغـرب بعد أن كانت معروفة فى جهة دون الأخرى.

والأكروبات التى تشـتهر بـها الصين حـالياً انتقلت إليـها عبـر طريق الحرير من آسـيا الوسطى. فـقد اتجـه اللاعـبون إلى الصـين مع غـيرهم مـن أهل الفن والغناء والرقص. وانتقلت مع ذلك موضـة الملابس وأغطية الرأس وأسلوب المعيشـة وفنون الرسم والتصوير. إلى جانب الصناع المهرة الذين كان الفاتحون ينقلونهم قـسراً إلى عواصم بلادهم، كما فعل المغول.

كل هذا كان هو الدافع وراء رغـبتى فى ترجمة هذا الكتاب الذى يحـكى قصة الطريق العظيم، ودوره الذى يكاد يفوق دور أى طريق آخـر فى تاريخ البشرية. وهو كـتاب شامل لتاريخ طريق الحرير تفتقر إليه المكتبة العربية، من حيث جمعه بين تاريخ البلاد التى يمر بها الطريق وجغرافيتها وثقافتها وفنونها وصناعتها.

ولا أخفى عـليكم القول بأننى واجـهت أثناء الترجـمة بعض الصعوبات التى تتـعلق بالأعلام الجغرافية والتاريخية، لاختلاف كتـابتها باللغة الإنجليزية عن لغاتها الأصلية العربية والفارسية والصينية والتركية، بل واختـلاف المصادر العربية فى كتابتها. وكان لزاماً علىّ أن أرجع إلى كثير من المراجع للتأكد من الشكل الصحيح لكل اسم وكلمة. إلا أن لذة البحث والمعرفـة هونت علىّ أى مـشقة فى ذلك، حـيث كان أى تعـب يزول بمجرد عثـورى على ضالتى.

وكانت هناك مشكلة أخرى، وهى أن المؤلف أورد مقتطفات من مصادر عربية ذكر اسم مؤلفها دون ذكر اسم الكتاب أو رقم الصفحة أو الطبعة. فكان علىّ - والأمر كذلك - أن أجد المصدر أولاً ثم أبحث فيه كله، أو على الأقل فى جزء كبير منه، إلى أن أعثر على الفقرة المطلوبة. حدث ذلك مع «رحلة ابن بطوطة» و«مسالك الممالك» للاصطخرى و«نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر» للدمشقى و«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» للمقدسى و«مروج الذهب» للمسعودى. وقد أحللت الفقرة العربية كما جاءت فى النص الأصلى محل ما يقابلها بالإنجليزية، وهو الأفضل.

وأرجو أن يجد القارىء العزيز مبتغاه فى هذا الكتاب، الذى أتمنى أن يثرى المكتبة العربية بقصص وتاريخ طريق الحرير.

المترجم

الفصل الأول

الخيـــط الحريـــرى

أيهـــا الأمـــراء والأباطرة والملوك العظمـــاء والدوقـــات والماركيزات والفرسان وأعضاء البرلمان والناس من كل الطبقات، يا من ترغبون فى معرفة شعوب البشرية العديدة وأقاليم العالم الكثيرة المتباينة، لتأخذوا هذا الكتاب وليُقرأ عليكم. فسوف تجدون فيه كل ماهو عجيب إلى جانب التواريخ المختلفة لأرمينيا الكبرى وبلاد فارس وبلاد التتار والهند وبلاد كثيرة أخرى.

من «كتاب سر ماركو بولو»

١٢٩٨
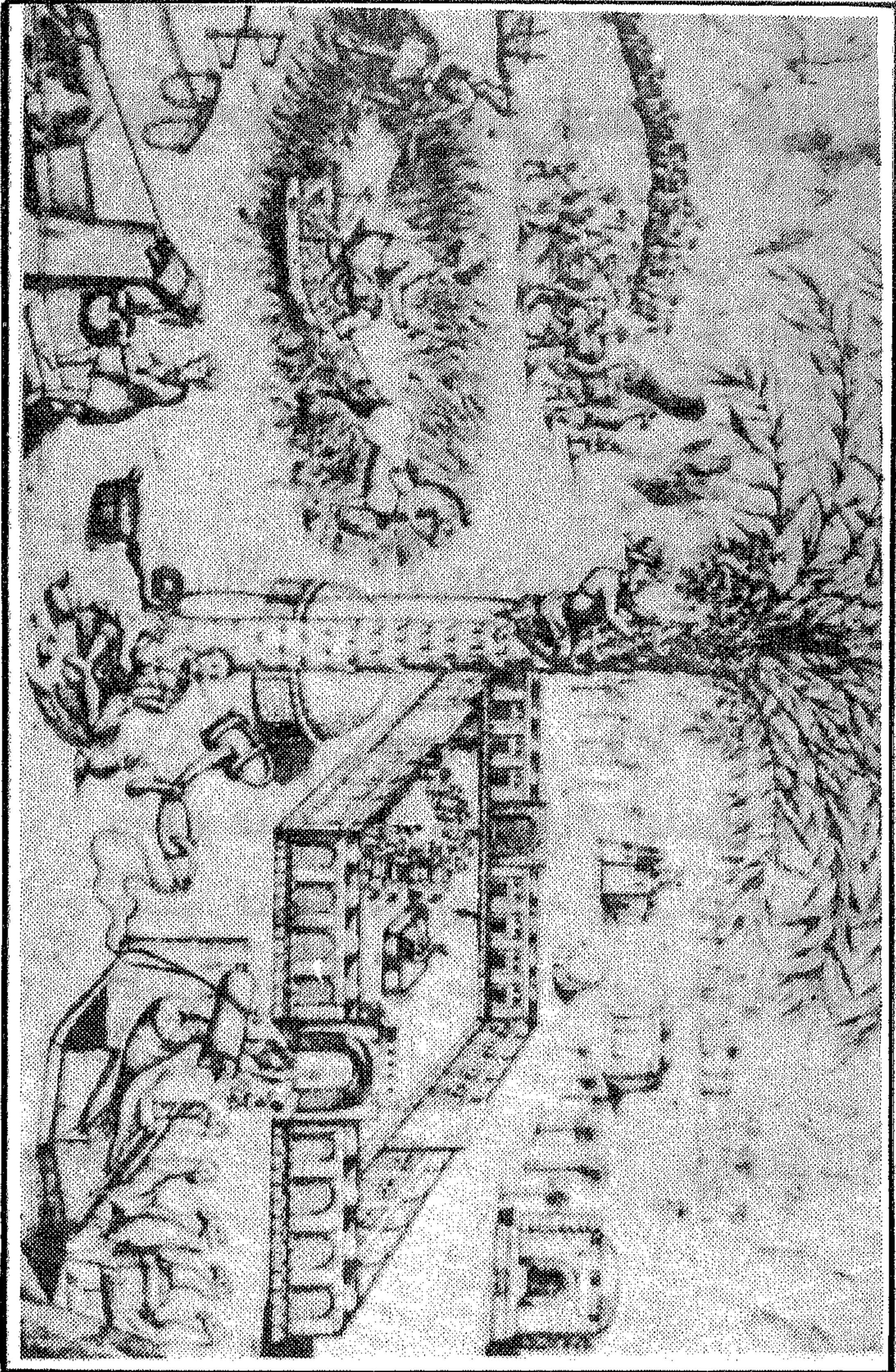
مدن القوافل كهذه المدينة التى فى بلاد فارس كانت توفر المأوى والمؤن للمسافرين على طريق الحرير على مر آلاف السنين. (رسم انجلبرت كيمفر 1680 ـ المكتبة البريطانية).

كل ما كـان يرجوه ماركو بولـو من العالم هو أن يستـمع الناس إلى ما رواه عن تلك العجـائب التى رآها على طول طريق الحـرير الذى كثـرت حوله الروايات. وعندمـا سجل ماركو بولو مشاهداته فى نهاية القرن الثـالث عشر الميلادى، لقى ذلك تقدير عدد قليل من الناس ولم يصدقه إلا عدد أقل. فـقد كان الأوروبيون الأجلاف غير المتـعلمين الذين تميزوا بضيـق الأفق فى العصـور الوسطى، فى ريب من رواياته عن المدن القـديمة الواقـعة وسط بحار الـرمال وعن ملوك البـدو الذين يرفلون فى ثياب من الحـرير ويجلسون عـلى عروش طُليت بالذهب وعن المدن الشرقية التى تفوق مدن أوروبا عظمة وجمالاً.

ولكن مالم يـدركه ماركـو بولو، أو من عاصروه، إدراكـاً كاملاً، أنـه جاء فى حقـبة متـأخرة من تاريخ هذا الطريق العظيم الذى يقطع قـارة آسيا. فقـد أتيحت له فرصـة ثمينة لرؤية طريق الحرير فى أواخر عصوره الزاهيـة. فذلك هو أعظم طرق العالم القديم، طريق الإسكندر الأكبر والإمبراطور دارا العظيم وتشانج شيان وجنكيز خان[١].

وعلى مـر الآلاف من السنين التى سـبقت زمن مـاركـو بولو، سار فى طريق الحـرير التجـار والباحثون عن الثـروة والحجاج والجنود والمغـامرون والمهاجرون والممـثلون الجوالون واللاجئون. أما التـاريخ المتعارف عليه لبدء السير فـى طريق الحرير فهو سنة ١٠٥ أو ١١٥ قبل الميلاد. ففى ذلك الوقت سار الصينيون حتى منتصف الطريق عبر آسيا، ليربطوه بطريق مشابه يسير من عند البحر المتوسط إلى وسط آسيا. ومع ذلك فالواقع يقول إن طريق الحرير أقدم من ذلك بكثير، فربما يعود إلى ألفى سنة قبل ذلك أو يزيد، إذ ظل طريق الاتصال بين البحر المتوسط والصين مالايقل عن أربعة آلاف سنة.

وفى القرن التاسع عشر أطلق المستكشف الألمانى البارون فرديناند فون ريشتهوفن[٢] اسم Die Seidenstrasse، أى طريق الحرير، على هذا الطريق الذى يقطع قـارة آسيا، وإن كان أهل الإمبراطورية البيزنطيـة أطلقوا عليه اسماً مشابهاً. كمـا استولى الحرير دون سواه على عقـول هؤلاء المراقبين. إذ احـتفظت الصين بسـر إنتاجه مدة لاتـقل عن ألفى سنة، كانت خلالهـا المصدر الوحيد للأقـمشة الرقـيقة الفاخـرة التى تصل الغرب حتى القـرن السادس الميلادى. وفى الوقت نفسه كان الصينيون يسعون إلى الحصول على سلع نادرة من الغرب،

(١) سيأتى الحديث عنهم بالتفصيل فيما بعد. (المترجم).
(٢) جغرافى وجيولوجى ألمانى بارز كان لدراساته عن الصين أثر كبـير فى تطوير علم الجغرافيا الحديث. توفى سنة ١٩٠٥. (المترجم).

مثل أحجار اليشب البيضاء والخضـراء المقدسة واللازورد والزجاج الملون الرقيق وخيول آسيا الوسطى القوية التى مكنتهم من توسيع إمبراطوريتـهم لتمتد إلى منتصف الطريق إلى البحر المتوسط بحـثاً عنهـا. إلا أن الحرير هو ماجـذب الغربيين وجـعل إمبـراطورية تلو الأخرى تزحف شرقاً على امتداد طريق الحرير.

وإذا كان طريق الحرير أحد أعظم الطرق التجارية فى العـالم، فقد يكون كذلك أكثرها أهميـة من حيث كونه طريقاً لـتبادل الأفكار. فعلى هذا الطريـق انتقلت بعض أهم الأفكار والتقنيـات فى العالم، كالكتـابة والعجلة والنسيج والزراعـة وركوب الخيل وغيـرها. وكان للدين أيضاً دور كـبير على طول طريق الحرير. وربما يكون الإسـلام والبوذية أهم الديانات التى صاغت شخصيـة الطريق فى عصر كل منهما. إلا أن ديانات كثيـرة أخرى عبرت قارة آسيا عـلى هذا الطريق. مثال ذلك المسيـحية والزرادشتـية والمانوية[١] واليهودية والمزدكية[٢] والكونفوشية والتاوية[٣].

وفى الوقت نفسه ساعد طريق الحرير على حـدوث تبادل من نوع مختلف. فكثير من الزهور والفواكه التى يعتبرها الغرب نبـاتات محلية موطنها الأصلى هو الصين وانتقلت إلى الغـرب من خـلال طريق الحرير. من هـذه الزهور والفواكـه الورد والأزاليـا والكريزانيـتم والفاوانيا والكاميليا والبرتقال والخوخ والـكمثرى. وكما أعطت الصين الغرب أخذت منه. ومما أخذته العنب والنبـيذ والبرسيـم والخيار والتين والرمـان بالإضافة إلى السمـسم والثوم والكزبرة وعبّاد الشمس. وكـانت الخيول والجمال ذات السنامين، وهى دعـامة الحضارة فى آسيا، قد استـأنسها الإنسان لأول مرة فى آسيا الوسطى ثم ذهبت بعـد ذلك إلى شرق آسيا وغربها عبر طريق الحرير والطريق المشابه له فى الشمال وهو طريق السهوب الأوراسية.

وفى العـصور الـوسطى، وبينمـا كانت أوروبا تعـانى من الضـعف، أرسلت الصـين المزدهرة إلى الغـرب بعضـاً من أعظم إسـهامـاتها، وإن لم تتـعـمد ذلك. وشـملت تلك الإسهامات الورق والطباعة، أو ما أطلق عليـه مايكل إدواردز «سقالة العالم الحديث»، إلى جانب التفكير الجديد والتطورات العملية فى الطب والفلك والهندسة، علاوة على الأسلحة التى تشمل القوس والنشاب ومعدات الحصار والبارود والعجلات الحربية.

---

(١) ديانة فارسية أسـسها مانى بن فاتك، وهى مزيج من الزرادشتيـة واليهودية والمسيحية. كـما أنها ديانة ثنائة تؤمن بوجود إلهين للخير والشر. (المترجم).

(٢) اتخذت اسمها من أهورا مزد إله الخير فى هذه الديانة. وهى نفسها الزرادشتية.

(٣) ديانة ومذهب فلسفى أسسها فى القرن السـادس لا تسو الذى يخاطب العواطف ويميل إلى التأمل الصوفى. (المترجم).

ولا عجب ـ إذن ـ أن يحظى هذا الشريان الآسيوى باهتمام بعض الشخصيات العالمية العظيمة. فمنذ أقدم العصور وهذا الطريق به من المغريات مايستحق اهتمام أكثر الغزاة طموحاً.

ورغم أهمية طريق الحرير، فقد كان أبعد مايكون عن الطريق الطبيعى. فالجغرافيون يقولون إن مساره يقع خلال مايبدو امتداداً للصحراء الكبرى فى آسيا. إذ أن المسافة من البحر المتوسط حتى قلب الصين كلها صحراء. صحيح أن بعض المناطق قاحلة أكثر من غيرها، إلا أن المنطقة فى غالبها أرض جرداء. وعلى امتداد الطريق تأخذ القشرة الأرضية أحياناً شكل الهضاب المرتفعة والجبال الشاهقة. ورغم جفاف هذه المناطق أيضاً بعض الشىء، فهى توفر قدراً من الراحة، بسبب مايتجمع من ماء ليسقط على المرتفعات مكوناً الأنهار والجداول التى تنساب فى السهول الصحراوية وتصب ماءها فى الواحات التى تحيط بها الرمال. والواقع أن الأراضى التى يمر فيها طريق الحرير من أكثر مناطق العالم طرداً للسكان. إنه يمر فى أراض شديدة الحرارة تخلو من الماء ويربط الواحات الواحدة بالأخرى. لذلك كانت أهمية هذا الطريق لكل من الشرق والغرب هى وحدها ماأبقى عليه مفتوحاً كطريق رئيسى لآلاف السنين.

ومع ذلك لم يكن الناس جميعاً مغرمين بالاتصال بآسيا. فعلى مر العصور كانت هناك شكوى من إفساد رفاهية الشرق لسكان الغرب وإبعادهم عن الحياة البسيطة التى تتميز بالنقاء. وكوزماس انديكو بليوستيس البيزنطى المسيحى الذى عاش فى القرن السادس الميلادى نموذج لأصحاب هذه الشكوى. فلم يرض عن «الرجال الذين لايمكن إثناؤهم عن الذهاب إلى أطراف الأرض لجلب الحرير لمجرد طمعهم فى المال». أما الفرس واليونان والرومان والعرب والصليبيون فقد أغرتهم الأقمشة الفينيقية الأرجوانية والحرير الصينى وعطور الجزيرة العربية والتوابل الهندية وجواهر آسيا الوسطى. ولم يسهم الحرير وغيره من النفائس فى ترويض الغربيين وحدهم، فقد حدث ذلك لموجة إثر أخرى من قبائل بدو آسيا الوسطى الذين تميزوا بالغطرسة، والشراسة أحياناً.

وعلى امتداد تاريخ الطريق لم يتمكن من قطعه ذهاباً وعودة إلا القليل من الناس. وهذا الطريق الذى يمتد لمسافة خمسة آلاف ميل تقريباً يمر عبر العديد من البلاد التى تغار على أراضيها ومما يحققه الوسطاء التجاريون من أرباح. وكانت بلاد فارس أكثر تلك البلاد غيرة. فقد مكّن مرور طريق الحرير عبر أحد ممرات الهضبة الإيرانية الحكام على مر العصور

من الحيلولة دون اتصال الشرقيين والغربيين اتصالاً مباشراً. وحتى فى أزهى عصور طريق الحرير، أى فى عصر أسرة هان والعصر الرومانى اللذين استمتعت فيهما الصين بالزجاج الملون الفاخر من الغرب ونعمت روما بالثياب الحريرية، لم نجد ذكراً لإنسان قطع طريق الحرير ذهاباً وعودة. وفى العصور الوسطى، التى حكم فيها المسلمون الغرب ولمعت أسرة تانج فى الشرق، لم يقطع الطريق بحرية سوى عدد قليل من الناس. فعلى الدوام كان قطاع أو آخر من هذا الطريق المحفوف بالعذاب يُبتلى بالحروب أو الثورات.

ولم تتوحد آسيا تحت راية قوة واحدة إلا فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر. وفى تلك الفترة وفر المغول، الذين يعتبرهم الغرب مجرد شعب مدمر، الأمن والسلامة للمسافرين بين الشرق والغرب. وفى تلك الحقبة القصيرة من السلام المغولى اتجه التجار الأوروبيون إلى الصين فى رحلات منتظمة، حتى أن هناك من كتب دليلاً إرشادياً يدل المشترين على مايشترون من سلع ومايتوقفون فيه من محطات على الطريق ليجدوا أفضل الأسواق. وكان ماركو بولو وأبوه وعمه هم أول من فتح الطريق لهؤلاء التجار الذين كانوا يقطعون مسافات طويلة. وبعد عشرات السنين زاد عدد المسافرين على طريق الحرير، لدرجة أن البعض كان يسافر بين الشرق والغرب لمجرد المتعة. ولم يحدث ذلك إلا مرات قليلة جداً على مر تاريخ الطريق.

وفى منتصف القرن السادس عشر سجل جون بابتست راموسيو كاتب سيرة ماركو بولو كيف كان معاصرو آل بولو من الإيطاليين يرون جهودهم الرائدة (مقارنة برحلة كريستوفر كولمبس الأولى إلى العالم الجديد):

... إذا لم يخدعنى تحيزى الوطنى، فظنى هو أن الرأى السليم قد يكون تفضيل الطريق البرى على رحلة [كولمبس] البحرية. فحسبك ذلك القدر الكبير من الشجاعة التى يحتاجها المرء للقيام بهذه المهمة الصعبة فى طريق بالغ الطول والمشقة، حيث يُفرض عليه أحياناً أن يحمل زاداً لنفسه وطعاماً لمطيته، ليس لأيام وإنما لشهور عدة. بينما حمل كولمبس عند سفره بحراً كل المؤن الضرورية. وبعد رحلة دامت ٣٠ أو ٤٠ يوماً أوصلته الريح إلى حيث شاء، فى الوقت الذى أمضى البنادقة عاماً كاملاً كى يقطعوا كل تلك الصحارى الشاسعة والأنهار العاتية.

وبزوال دولة المغول انقضت آخر أيام طريق الحرير العظيمة. إذ عادت شعوب آسيا إلى

ماكانت عليه من انقسام وفرقة وعاد الشرق والغرب ينظر كل منهما للآخر نظرة كلها خيال ورومانسية. وكثيراً ما تميزت تلك النظرة بغرابة شديدة. وعند سقوط القسطنطينية، فى منتصف القرن الخامس عشر، ظل طريق الحرير مقطوعاً تماماً لبعض الوقت. ورغم استئناف التجارة والسفر عبر آسيا، لم تقم لطريق الحرير قائمة. وفى عصر الكشوف الجغرافية كان أهل غرب أوروبا يفتحون طرقاً بحرية جديدة، ليس إلى العالم الجديد فحسب وإنما كذلك إلى الصين حول آسيا وأفريقيا. ولم يكن هناك بأس من قطع الرحلة فى عام أو يزيد وضياع العديد من الأرواح، خاصة قبل أن يتعلم البحارة كيف يتقون مرض الاسقربوط. ولم يكن الطريق البحرى يمر فى أراضٍ تابعة لأحد، ولم يكن الوسطاء يقاسمون التجار أرباحهم. لذلك كان ظهور الطرق البحرية سبباً فى أفول نجم ذلك الطريق البرى، الذى ظل آلاف السنين مسيطراً على آسيا. لقد انقطع الخيط الحريرى.

وفى عصور الانحطاط التى تلت ذلك، نسيت الشعوب التى تعيش على امتداد طريق الحرير تلك العظمة التى شهدها أسلافهم. أما تلك المدن التى شيدها الفاتحون العظام وأحياها المستوطنون واللاجئون وأثراها التجار وعمَّرها الكهنة، فقد انكمشت، وغالباً ماهجرها أهلها وتركوها نهباً للرمال.

بعد ذلك بدأت عملية طويلة وبطيئة لإعادة الاكتشاف. فقد قام المستكشفون والمغامرون والباحثون وعلماء الآثار والرحالة بالكشف شيئاً فشيئاً عن قصة هذا الطريق وقدموها للعالم. وأسماء المدن التى وجدوها تفوح جميعاً برومانسية الشرق. ففى غرب آسيا كانت حلب والبتراء وتدمر وصور وصيدا وبابل وبغداد. وعلى الهضبة الإيرانية كانت الرى. وعلى حدود مناطق السهوب القاحلة فى تركستان كانت سمرقند وبخارى وطشقند وبلخ. وفى سلسلة جبال البامير كانت كاشغر ويرقند. وفى صحراء حوض التاريم كانت خوتان وشان شان وكوتشا وقره شهر ولولان وتورفان وهامى. أما فى الصين نفسها فكانت تونهوانج وكهوف الألف بوذا والمعابد القديمة وتشانج آن ولويانج[١].

وقد علا شأن هذه المدن وغيرها مع علو شأن طريق الحرير ثم أفل نجمها مع أفول نجمه. ومع أن أيام الطريق العظيمة ولت منذ زمن بعيد، إلا أن عبقها مازال يفوح على طول الطريق، بدءاً من شوارع مدينة تدمر ذات الأعمدة، حيث شربت ملكة تاجرة[٢] من

(١) سوف يأتى الحديث بالتفصيل عن هذه المدن والمواقع جميعاً. (المترجم).
(٢) هى الملكة زنوبيا، أو الزباء، ملكة تدمر. (المترجم).

كأس كليـوباترا، وحتى أسوار بلخ التى وُجـد عندها جيش من التمـاثيل مدفوناً فى مقـبرة ملكية، مما يشير إلى عظمة الحضارة الصينية القديمة.

وتعد قـصة طريق الحـرير نظرة بعيدة وعـميـقة فى التاريخ الإنسـانى. إنها قـصة كل الشعـوب التى سكنت صحارى آسـيا وسهـوبها وجبـالها، وأهم من هذا كله قصـة معظم القوافل التى فتحت هذا الطريق العظيم الذى يمر من قلب القارة وأبقت عليه حياً.

الفصل الثانى

علـــى الطــريـــق

... ليس هناك نهر من ماء يمكن مقارنته بهذا النهر الدائم من القوافل، الذى حمل نصف تاريخ العالم من مرحلة إلى أخرى ومن قفار إلى قفار ومن إقليم إلى إقليم، بقوة البشر الضئيلة.

فرياستارك

طريق الحرير الآن في ذمة التاريخ. وقد يحاول أي رحالة على قدر كاف من الجرأة والتهور أن يقطعه في الوقت الحالي، حيث يبدأ من الصين مروراً بالاتحاد السوفيتي وإيران والعراق وسوريا، وربما يمر أيضاً بأفغانستان وتركيا وباكستان والهند ولبنان وإسرائيل والأردن ومصر. وحتى في حالة قدرة المرء على التسلل عبر الحدود المغلقة وعبور تلك المناطق التي تشتعل فيها الحروب، فإن المسافر سيمكنه رؤية جزء متواضع من طريق الحرير، قياساً على ماكان عليه من عظمة في تلك الأيام الخوالي. فالسكك الحديدية والطرق السريعة تمتد الآن عبر آسيا، وإن كانت سيئة وخادعة في معظمها، بينما لم يكن في الماضي سوى مدقات ضيقة تسير فيها القوافل. والشيء الذي اختفى أيضاً هو تلك المحطات التي كانت تتوقف عندها القوافل وكانت تنتشر على امتداد القارة. وهذه المحطات كانت بمثابة استراحات للمسافرين ودوابهم، ومازالت آثارها قائمة كشواهد على مسار طريق الحرير القديم.

وفي الوقت نفسه شمل التغير مدن القوافل، التي كانت تتسم بالعظمة يوماً من الأيام. ولايرجع هذا إلى قرون طويلة من النسيان ودخول التكنولوجيا الحديثة فحسب. فالأرض نفسها صارت مختلفة. إذ أصبحت بعض المدن الواقعة على طريق الحرير تبعد عشرة أميال، بل وعشرين ميلاً، عن مواقعها القديمة. وجاء هذا الانتقال هروباً من الرمال المحرقة وسعياً وراء مصادر المياه. فالجداول الصغيرة، التي كان يغذيها ذوبان الجليد، صارت مياهها تغيض بسرعة في الأرض بالغة الحرارة. أما المدن الواحات التي كانت تميز الطريق، خاصة تلك الواقعة على الحافة الجنوبية لحوض التاريم[1]، فترقد الآن تحت عشرات أو مئات الأقدام من الرمال. إن الكثبان الرملية التي تتدفع بلا توقف تغطي هذه المدن الآن. وكانت مدينة بلخ، الواقعة شمالي أفغانستان وتزوج فيها الإسكندر الأكبر الأميرة روكسانا، تسمى في يوم من الأيام جنة الله على الأرض، لما تنعم به من أراضٍ خصبة ونهر متدفق يغذيه ذوبان الجليد الذي كان يغطي القمم المحيطة بها. أما الآن فقد جف النهر وهجر الناس المنطقة. وفي الأجزاء الغربية من قارة آسيا، غيّرت الأجزاء السفلي من نهري دجلة والفرات مسارها مرات عديدة على امتداد القرون. ومواقع بعض المدن القديمة غير معروفة على وجه الدقة. وربما يكون بعضها قابعاً الآن تحت المستنقعات.

يضاف إلى ذلك أن نمط المعيشة أيضاً طاله التغيير. فالمناطق التي كان عبورها يحتاج

---

(١) إقليم في غرب الصين يقع بين سلسلتي جبال تيان شان وكون لون وتبلغ مساحته ٣٥٠٠٠ الف ميل مربع. (المترجم).

إلى أيام أو أسابيع أو شـهور، تقطعهـا السيارة أوالطائرة أو القطار الآن فى سـاعات أو أيام قليلة. أمـا الشعـوب التى كانت منذ قـرون قليلة مـضت معـزولة، بسبب بعـد المسافـات والخرافات التى أعقبـت الأيام الأولى للسفر عبر القارة، فقد أصبـحت الآن وثيقة الاتصال بالعالم. لقد أصبح الإرسال التليفزيونى يصل الخيام الواقعة فى أقاصى السهوب.

والآن ليست هناك سـوى طريقة واحدة للسفـر على طريق الحرير، وهى عبـر الخيال. فإذا كان الحاضر قد حجب الماضى، فـمازال بمقدورنا إحياء طريق الحرير فى أذهاننا كى نراه على نفس الصـورة التى بدت لمئات الآلاف من المسـافرين، الذين جـعلوه على مـر القرون واحداً من أعظم طرق العالم. فقد كان ومازال أشهر الطرق البشرية قاطبة وأكثرها ازدهاراً. والذى يعيـننا على بعث أحاسـيس طريق الحرير ومناظره وأصـواته وروائحه، التى تميـز بها على مـر العصـور، هى تلك الكلمـات التى سطرها العديـد من الرحالة البـارزين، الذين اجتذبهم هذا الطريق وجعلهم يكتبون عنه.

بعض الرحالة العالميين، أمثال ماركو بولو، تركـوا سجلات لامثيل لها من الحياة على طول الطريق فى عصر السلام المغولى الفريد الذى يدعو للدهـشة. كما أن الحوليات الصينية على مر العـصور تحدثت بالتـفصيل عن الاتصـالات التى كانت تجرى مع البلدان الأجنبـية بأسلوب يجمع بين الواقع والخـيال. وهو الشىء نفسه الذى تميزت به كـتابات المؤرخين فى الغرب فى الوقت الذى سـجّل الرسل من أنحاء أوراسـيا محـاولاتهم لعقد تحـالفات على امتداد الصحـارى والجبال والسهوب. وترك حجـاج ولاجئون دينيون، بوذيون ومسـيحيون وزرادشتيـون ويهود ومسلمون وغيرهم، كـتابات تتحدث عن رحلة العذاب التى قـاموا بها بحثاً عن المعرفة. وكتب التجار عبر آلاف السنين كتباً إرشادية مستفيدين من خبراتهم. وقد حاولوا بذلك الحفاظ على الطرق التجارية غير واضحة المعالم على امتداد آسيا، فى مواجهة الأخطار الجمة التى كانت تتعرض لها. وبعد عدة قرون أعاد بعض المستكشفين، أمثال مارك أوريل ستاين وسـفن هيدن والبارون فردينـاند فون ريشتهوفن وأويـن لاتيمور[١]، اكتشاف الطريق الممتـد من الشرق إلى الغـرب ونشروا اكتـشافاتهم فى سلسلة مميزة من الكتب فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ولاتقدَّر خبرات من أعادوا اكتشاف الطريق بثمن. فهؤلاء يؤكدون ماوصلنا من الرحالة

---

(١) سوف يأتى الحديث بالتفصيل عن نشاط هؤلاء المستكشفين فيما بعد. (المترجم).

الأوائل فيـما يتعلق بنمط الحـياة على طول طريق الحرير. وفى سنة ١٩٢٨، وقـبل وصول تغيرات القرن العشرين إلى قلب قارة آسيا، كتب أوين لاتيمور قائلاً:

إذا كان لما قمت به من أهمية تذكر، فإن هذا يعود فى المقام الأول إلى استقائى ما حصلت عليه من معلومات أثناء سفرى على الطريق القديم داخل آسيا مع قوافل أشبه بتلك التى قطعت الطريق نفسه منذ مئات، أو بالأحرى آلاف السنين. فالتقاليد هى التقاليد. كما أن مخاطر العطش والبرد والعواصف الرملية والثلجية وغارات اللصوص لم تتغير. ولم يكن رجال القوافل والتجار مختلفين فى شىء ذى بال. كل مارأيته وأحسست به وسمعته قد يكون هو مارآه أى أجنبى سافر على الطريق منذ مائتى أو ألفى سنة وأحس به وسمعه، مع اختلاف لايذكر. ولم تكن معى أية خرائط أستعين بها فى تحديد خط سيرى اليومى. [وأشار قائلاً: كان الرسم سيثير أغرب الشكوك. كما أن البوصلتين اللتين كانتا معى تعطلتا عن العمل.] وقد تكون مشاكل الاتجاهات والمسافات التى أصابتنى بالحيرة هى ذاتها التى واجهت ماركو بولو أو ويليام أوف روبروك. إلا أننى امتزت عنهما بشىء واحد، وهو معرفتى بلغة الناس الذين عشت بينهم.

ولحسن حظنا أننا أيضـاً لانعانى من مشكلة اللغـة. فكل هذه الكتابات متوافـرة باللغة الإنجليزية من خلال باحثين آسيويين لا يضارعهم أحد عاشوا فى هذا القرن والقرن الماضى. وبالاستعانة بما كتبه هؤلاء يمكننا إعادة بناء شكل الحياة على طريق الحرير فى مخيلتنا. وقد تكون السيـاسة، بل والجغرافـيا، قد تغيـرت خلال تلك الفترة الطويلة. إلا أن الحـياة التى عاشها الرحالة على امـتداد طريق الحرير كانت متشابهة إلى حـد بعيد. وربما تعيّن علينا أن نبـدأ بتتبـع آثار هؤلاء الرحالة الذين ربطوا الشـرق بالغرب عن طـريق سلسلة لاتنقطع من القوافل على مر العصور.

***

قد تكون النقطة التى انطلق منهـا المسافرون هى مدينة تشانج آن الصينيـة العظيمة ذات الأسوار. وظلت تلك هى المدينة الأولى أو الـثانية فى الصين لعـدة قرون. وغالباً مـاكانت عاصـمة البلاد. وترجع مـعرفة الغرب بهـذه المدينة فى الوقت الراهن إلى جيش التـماثيل

الرائع الذى يضم جنوداً وخيولاً بالحجم الطبيعى واكتشف سنة ١٩٧٤ داخل مقبرة تشين شى هوانج أول من وحد الصين. وبحلول سنة ٢١٠ قبل الميلاد صارت تشانج آن عاصمة كبيرة. وبلغ عدد سكانها المليونين فى القرن السابع الميلادى. وهو نفس تعداد مدينة شيآن الحديثة القريبة منها. وفى تلك العصور البعيدة، عندما كانت العاصمة تنتقل شرقاً إلى لويانج أو غيرها، كانت تشانج آن تظل هى المدينة التجارية الرئيسية بالنسبة للتجارة الغربية ورأس جسر لطريق الحرير، إلى جانب كونها مدينة عالمية يفد إليها أهل الشرق والغرب لبيع الحرير والموسلين والجواهر والزجاج الفاخر والصناعات المعدنية والعطور والتوابل والشاى وغيرها من السلع التى كانت تلقى رواجاً. كما ظلت تشانج آن لفترة طويلة المنفذ الذى تدخل منه الأفكار الجديدة والديانات وتجتازه الشعوب القادمة من الغرب.

وتقع المدينة فى وادى نهر وى فى قلب الصين القديمة. وكانت تمتد على المنحدر الجنوبى للوادى، حيث بدت أسوارها وقصورها من إحدى الزوايا وكأنها مسرح مدرج، حسب وصف أحد المحدثين لها. وكانت المدينة تضم العديد من القصور والمسارح والمتنزهات وتنعم بشبكة من البحيرات والقنوات. لذلك كانت على قدر كبير من الجاذبية وتزخر بالحركة والنشاط، لكونها مركزاً للتجارة والصناعة. أما السلع والبضائع فكانت تُجلب إليها من الأرياف المحيطة بها ثم تُعد، قبل أن تنطلق بها القوافل غرباً. ومن هناك أيضاً كانت السلع التى تُستورد من وسط آسيا وغربها توزع عبر الطرق الإمبراطورية على الأقاليم المختلفة.

وبعد أن يغادر المسافر تشانج آن من خلال بوابتها الغربية، يجد نفسه فى وادى نهر وى الذى يتميز بالخصوبة والاتساع. وهنا يكون اللونان الغالبان هما الأخضر والأصفر. أما الأخضر فهو لون الحقول والبساتين. وقد تناول ماركو بولو بالوصف «السهول الجميلة المزروعة بأشجار التوت»، تلك الأشجار التى تتغذى على أوراقها دودة القز الثمينة. وأما الأصفر فهو لون الكثبان الرملية الناعمة التى تنقلها الرياح عبر آلاف السنين من السهوب الشمالية لتتراكم بارتفاع يصل إلى أقدام عديدة.

وهذه ذاتها هى الرمال التى تشكل الكثبان الحمراء الذهبية فى الصحراء الجرداء التى يخترقها طريق الحرير. ولكن الذى يحدث هنا هو أن المياه الوفيرة تحيل تلك التربة الرسوبية إلى أجود أراض زراعية فى العالم. واللون الأصفر يغلب على الأرض والهواء معاً، حتى أن أباطرة الصين الأقدمين اتخذوا لأنفسهم لقب «هوانج دى» أى «سيد الأرض» أو «سيد

التراب الأصفر» . غير أن الغبار كان أقل جاذبيـة بالنسبة للمسافرين، إذ كان يدخل عيونهم وأنوفهم وأفواههم ويغطى كل مايحملونه .

وكان المسافرون وهم في طريقـهم إلى داخل آسيا يتجهون غرباً بمحـاذاة نهر وى لمسافة ٢٥٠ أو ٣٠٠ ميل بعـد خروجهم من تشانج آن . وقـد شيّد الصينيـون في سنة ٣٠٠ قبل الميلاد أول أجيال سور الصين العظيم، مستخدمين في ذلك الطين، فى المكان الذى كان يعد وقتهـا الحدود الخارجيـة لمنطقة نفوذهم. وكان الطريق المتـجه غرباً، وأطلق عليه الـصينيون الطريق الإمبراطورى، تجرى له الصيانة باستمرار ليستخدمه المسافرون. فكانت أرض الطريق إما على قدر كاف من الصلابة أو يجرى تمهيدها في معظم الأجزاء كى تصلح لسير العربات ذات العجلات. في حـين كانت الدوريات الصينيـة تجوب الطريق لحماية المسـافرين وجمع الضرائب، التى تُحمل إلى الإمبراطور. ولم يكـن أفراد القوافل مضطرين إلى حمل زادهم معهـم. إذ كانوا يحصلون عليه من المزارع المحـيطة بالطريق ويشترونه من المحطات المـقامة عليه بصورة منتظمـة. كما لم يكن هناك مايبرر مـبيتهم فى العراء أو الخيـام. فأماكن النوم كانت متوافرة.

وعند أعالى نهر وى كان المسافرون ينحرفون قلـيلاً نحو الشمال الغربى ثم يسيرون فى طريق جبلى تحـيط به الغابات إلى أن يصلوا إلى أعالي نـهر هوانج (النهر الأصفـر) قبل أن يسيروا نحو الشمال. وكان المسافرون يعبرون النهر عند نقاط اختلفت على مر العصور. إلا أنها كانت فى أغلب الأحيان على مقربة من مدينة لانج تشو الحديثة.

وينبع نهـر هوانج من سلسلة الجبـال المعروفة باسم كـون لون، وهى الحافـة الشمـالية للكتلة الضخمة التي تشكل هضبة التبت. وكذلك من جبال الهيمالايا الواقعة جنوبها. بعد ذلك يميل طريق الحرير ناحيـة الشمال الغربى متجهاً إلى قلب آسيـا بمحاذاة جبال نان شان (الجبـال الجنوبية) ليقطع مـسافة تزيد على ٢٠٠ مـيل. وفى هذا الممر يكون المسافـرون قد ابتعدوا عن الرياح المحملة بالأمطار الآتيـة من المحيط الهادى. وبدءاً من هذه النقطة وطوال الطريق الممتد غرباً، كانت مصادر المياه الوحيدة هى الجداول والآبار التى يغذيها ذوبان الجليد الموجود على حاجز الجبال الشاهقة الواقعة فى آسيا الوسطى.

وكان الطريق على امتداد سفوح نان شان يخترق مايمكن اعتباره واحة ممتدة يرويها نهر صغـير اسمـه صولو. أما مايـلي تلك الواحة فكان امتـداد صحراء جـوبى المهلكة. وكان الشريط الذي تكثر فـيه المراعي والأراضى الخصبة، والمعـروف باسم ممر كانسو، هو الطريق

الطبيعـى نحو الغرب. ودفعت أهمـية هذا الإقليم الصينيين إلى مد سـورهم العظيم بحيث يكون داخله، بمجرد الـدخول فى علاقـات مباشـرة مع الغرب قبل قـرن تقريباً من مـيلاد المسيح. فسـور الصين العظيم يمتـد على طول ممر كانسو، بدءاً من الانحناء الشمـالى لنهر هوانج. وأُقيمت أبـراج ونقاط للمراقبة على طـول الطريق، كما كان الجنود يُسـتدعون عند وقوع الاضطرابات.

وعند نهاية ممر كـانسو، أى بين الحضارة والبـرية، كانت تقع مدينة البـوذية، وتعرف أيضا باسم مدينة الرمال. فـفى هذا المكان كان المسافرون يواجهون الكثبان الرملـية الضخمة التى تتميز بها منطقة تمتد لمسافة تزيد على ألف وخمسمائة ميل. وعلى مقربة من هذه المدينة تقع كهوف الألف بوذا الشـهيرة، وهى عبارة عـن صخرة ضخمة تـضم العديد من صوامع الرهبان. وفى هذا المكان وفى سـنة ١٩٠٧ اكتشف أوريل ستـاين كنزاً من المخطوطات من بينها «السوترا الماسية»، وهى أقدم كتاب مطبوع فى العالم على شكل لفافات ويعود تاريخه إلى سنة ٨٦٨ ميلادية (يذكر أنه عثر فى أماكـن أخرى على شذرات مطبوعة تعود إلى قرن قبل هذا التاريخ).

وعند آخر محطة رئيـسية داخل حدود الصين، وهى تونهوانج، كـان المسافرون يعدون أنفسـهم لنوع مخـتلف تماماً من السـفر. فهـاهم الآن على مشـارف الصحـراء، أو الرمال المتدفقة، كما كان الصينيـون يطلقون عليها. وكان مزارعو الواحات فى تلك الأراضى التى تشتد فيها حرارة الجو يشكّون فى إمكانيـة الزراعة بدونِ الرى اعتماداً على المطر وحده. وما أن يعبـر المسافرون تونهوانج حـتى يضطروا إلى حمل زادهم ومايكـفيهم من ماء مـابين بئر وأخرى. وكانت المسافة بين البئرين تصل أحياناً إلى عدة أيام.

وفى الوقت نفـسه كان لابد أيـضاً من تزويد الدواب بالماء والطعـام، لقلة المراعى فى الأراضى القاحلة التى يمرون بها. وهكذا كانت الجِمال أفضل راحلة، فقدرتها على الصوم مكنتها من السـير لمسافات طويلة بقليل من الماء والطـعام. ولم يمنع ذلك استخدام الحـمير والخيول على طريق الحرير، لقدرتها على حمل الأمتعة الثقيلة.

كانت الجِمال وسيلة الانتقال الأساسية للمسافرين على طريق الحرير. وتختلف الجمال فى آسيا الوسطى عن جِمال الجزيرة العربيـة فى كونها ذات سنامين. وهى قادرة على تحمل برد الليل القارس وزمهرير الشتاء، إلى جانب تحملها لحرارة الصحراء أثناء النهار. والمعروف عن الجِمال قـدرتها على شم الماء من مـسافات بعيـدة، إلى جانب تحـذيرها من العواصف

الرملية التى تكاد تخنق المسافرين أو تدفنهم إذا لم يأخذوا حذرهم. وجاء فى تاريخ بيه شى الصينى:

عندما توشك هذه الرياح على الهبوب تكون الجمال المسنة وحدها هى القادرة على التنبؤ بهبوبها. ففى الحال تجتمع كلها وتدفن أفواهها فى الرمال. ويرى المسافرون فى ذلك دليلاً على هبوب العاصفة، فيقومون على الفور بتغطية أنوفهم وأفواههم باللبّاد. وهذه الرياح سريعة وتمضى فى لحظة وتنتهى. وإن لم يحم المسافرون أنفسهم تعرضوا لخطر الموت المفاجىء.

لم يكن الماء والطعام والعواصف الرملية هى وحدها مايواجهه المسافرون على طريق الحرير من مشاكل. فما أن يعبروا سور الصين العظيم حتى يتعرضوا لخطر آخر، وهو قُطَّاع الطرق. فمع أن جدب تلك المناطق كان يحول دون إقامة أعداد كبيرة من البدو الرحل أو عصابات اللصوص، إلا أنه كانت هناك جماعات صغيرة من اللصوص تغير على القوافل. وكانت تلك الجماعات تحصل على حاجتها من الماء من بعض الآبار المنعزلة وتستولى على ماتحتاجه غير ذلك من القوافل التى تمر من هناك محملة بكل ماهو ثمين. وكان ذلك سبباً فى قلة عدد من يغامرون بالمرور فى تلك المناطق من قلب آسيا. وأغلب هؤلاء كانوا من الحجاج أو رسل الملوك الذين يقومون بمهمات عاجلة. وكثيراً ما كانوا يتجمعون فى قوافل كبيرة تضم مئات الجمال ويحميها رجال مسلحون يكونون فى صحبتها. ورغم ماتوفره الكثرة من حماية، كانت تلك القوافل أكثر عرضة للنهب بسبب بطء حركتها الناتج عن كبر حجمها. وما إن تصل القافلة إلى الرمال المتدفقة حتى يغادر الجميع المركبات ذات العجلات ويسيرون بجانب الدواب المحملة.

وعلى مر التاريخ قطع معظم المسافرين طريق الحرير سيراً على الأقدام، بما فى ذلك المحدثون منهم كستاين ولاتيمور. فقد كانت دواب الحمل من جِمال وحمير وثيران وخيل أثمن من أن تستخدم لحمل المسافرين. كان يكفيها حمل الزاد من ماء وطعام، إلى جانب البضائع أو الخراج. بل إنه فى العصر الحديث، عندما بدأ المستكشفون فى الذهاب إلى آسيا الوسطى بالسيارات، كانت المركبات تخصص للمعدات المهمة وليس لركوب المسافرين. أما الجمال فكانت تحمل البنزين شديد الأهمية، ليكون وقوداً للآلات فى المناطق القاحلة. وبذلك كان الجميع يمشون على الأقدام، مما جعل القوافل تسير ببطء شديد كأنه الزحف،

بسبب ثقل ماتحمله الدواب. وفى المقابل كانت جماعات البدو الراكبة المغيرة على قدر كبير من السرعة.

***

بعد اجتياز تونهوانج كان المسافرون المتجهون غرباً يواجهون صحراء حوض التاريم. وغالباً ماكانت تحيط بهم سلاسل جبال ثلجية قاحلة. ففى الجنوب تقع سلسلة كون لون وفى الغرب جبال البامير وفى الشمال جبال تيان شان (الجبال السماوية) وفى الشمال الشرقى جبال بيه شان (الجبال الشمالية). وكانت صحراء التاريم محرومة من الأمطار القادمة من المحيطات والبحار المحيطة بقارة آسيا وتبعث الحياة فى المناطق التى تسقط عليها. وهذه المنطقة من أشد بقاع العالم جفافاً وقحطاً. والصحراء هنا ليست «مستأنسة» كتلك التى تنقَّل فيها بنو إسرائيل فى غرب آسيا وتعيش فيها قبائل من البدو تجوبها سعياً وراء مايكفل الحياة لها ولقطعانها. أما الصحراء التى تشكل قلب حوض التاريم فلا تصلح موطناً لإنسان أو حيوان أو نبات.

وأكبر مناطق صحراء حوض التاريم هى تاكلا مكان وتمتد ٦٠٠ ميل من الشرق للغرب و٢٥٠ ميلاً من الشمال للجنوب. وهذه المنطقة عبارة عن كثبان رملية حمراء ذهبية متحركة يصل ارتفاع بعضها إلى ثلاثمائة قدم. وهى كفيلة بالقضاء على كل مظاهر الحياة. ومع ذلك هناك بعض النباتات على مسافات متباعدة، مثل أشجار الطرفا أو الحور أو نبات البوص. وهى تنمو على حواف المجارى المائية القديمة. وجذوع الأشجار الميتة من أكثر المناظر شيوعاً فى تلك المنطقة. وكثيراً ماتتجمع حولها الرمال لتشكل مايطلق عليه أقماع الطرفا، التى يصل ارتفاع بعضها إلى خمسين قدماً. وفى الطرف الشرقى من حوض التاريم تقع مساحة أقل من الأرض القاحلة الموحشة، وتسمى صحراء لوب (صحراء الملح). وهى عبارة عن سهول تكسوها الطفلة الصلبة أو الملح المتبقى من بحر داخلى مالح.

والمياة القليلة فى حوض التاريم مصدرها جداول صغيرة ناتجة عن ذوبان الجليد تسير فى ممرات حفرها الماء على مر السنين ثم تختفى فى الصحراء. وعلى امتداد الحافة الجنوبية لحوض التاريم تتجمع هذه الجداول فى سلسلة من الواحات الواسعة. كما أن المياه القادمة من الجبال الغربية والشمالية تتجمع مكونة نهراً أكثر أهمية، هو نهر التاريم، على امتداد القوس الشمالى من الحوض بيضاوى الشكل. وفى بعض الأحيان كان منسوب هذا النهر يرتفع بسبب مياه نهر خوتان الذى يقطع مجراه تاكلا مكان متجهاً نحو الشمال، ويأتى عليه

وقت يكون فيه جافاً تماماً. وكان نهر التاريم يصب فى البحر القديم الذى كان يطلق عليه لوب نور (بحر الملح). وكان فى العصور القديمة عبارة عن مستنقع ملحى. وقد تقلصت بقايا لوب نور الآن لدرجة أن أى تغير فى الموسم يؤدى أحياناً إلى تغير مجرى الجداول التى تغذيه، مما يؤدى إلى تغير موقعه. ولهذا السبب أطلق علماء الآثار المحدثون على لوب نور اسم «البحيرة المتنقلة».

وتحدث ماركو بولو عن المصاعب التى تحيط بعبور هذا الإقليم الصحراوى قائلاً:

تتكون [هذه الصحراء] كلها من تلال وأودية رملية ليس بها مايؤكل. ويعد مسيرة يوم وليلة تجد ماءً عذباً قد يكفى لخمسين أو مائة شخص مع دوابهم دون زيادة. وعلى امتداد الصحراء قاطبة ستجد الماء بهذه الكيفية. ففى مايقرب من ثمانية وعشرين موضعاً ستجد ماءً صالحاً للشرب، وإنما بكميات ليست كبيرة. كما أنك ستجد فى أربعة مواضع أخرى ماءً صالحاً بعض الشىء. والحيوانات البرية لاوجود لها هناك، إذ لايوجد ما تقتات عليه وهذه الصحراء يرتبط بها شىء مثير للدهشة، وهو أنه إذا شد المسافرون الرحال ليلاً وتصادف أن تخلف أحدهم أو غلبه النعاس أو ما شابه ذلك، فإنه عندما يحاول اللحاق برفاقه يسمع أرواحاً تتحدث فيتصور أنها أصحابه. وفى بعض الأحيان تناديه الأرواح باسمه. ولذلك فإنه غالباً ما يضل هذا المسافر ولايهتدى إلى صحبه أبداً. وهناك العديد ممن هلكوا بهذه الكيفية. وأحياناً أخرى يسمع المسافر الشارد مايشبه وقع أقدام عدد كبير من الناس وهمهماتهم بعيداً عن الطريق الحقيقى. وعندما يتصور أن هذه أصوات قافلته يتبعها ليكتشف عند طلوع النهار أنه خُدع وأنه وقع فى مأزق. بل إن المرء يسمع تلك الأرواح وهى تتحدث فى وضح النهار. ومرّات تسمع أصوات آلات موسيقية مختلفة أوضحها الطبول. ومن ثَمَّ اعتاد المسافرون أن يكونوا قريبين من بعض فى مثل هذه الرحلة. وكل الدواب هى الأخرى معلق فى رقابها أجراس كى لاتضل بسهولة. وعندما يحين موعد النوم توضع علامة تدل على اتجاه السير فى المرحلة التالية. وهكذا يتم عبور الصحراء.

والمسافرون عبر الصحراء فى كل مكان من العالم يصفون الأصوات الوهمية والسراب الذى قد يقود من هو غير حريص إلى حتفه. ويصف كثيرون من هؤلاء المسافرين تلك الأصوات بأنها من صنع الأرواح الشريرة. إلا أن العلماء المحدثين يرون أن أصوات الصحراء ناتجة عن التغيرات الحادة فى درجات الحرارة فى جو يكاد يخلو من السحب، مما يؤدى إلى سقوط الرمال من فوق الكثبان المرتفعة. وبغض النظر عن أسباب تلك الأصوات، فقد ساهمت بالإضافة إلى ذلك السراب فى وضع كل من الصورة الخيالية والحقيقة الواقعة للخطر بالنسبة للمسافرين عبر آسيا الوسطى.

والمنطق يقول أن مثل هذا الإقليم، بما هو عليه من عداء للحياة ومايعانيه من انقطاع عن العالم الخارجى، ماكان له أن يستأثر بهذا القدر من اهتمام العالم. إلا أن وقوع حوض التاريم على الطريق الرئيسى عبر آسيا جعله قطاعاً أساسياً من طريق الحرير. وعلى امتداد قرون من الزمان شق المسافرون خلاله طريقاً فى وهن خيوط الحرير يمتد من واحة إلى أخرى مكوناً ممراً موحشاً بين الشرق والغرب.

***

كان على المسافرين الذين يقررون بدء الرحلة - رغم كل هذا - أن يختاروا عند وصولهم إلى تونهوانج بين الطريقين الشمالى أو الجنوبى حول حافة حوض التاريم. وكان الطريق الجنوبى أكثرهما مشقة وصعوبة، لبعد الشقة بين واحاته. إلا أن المسافرين غالباً ماكانوا يفضلونه، لأن انعزاله يحول دون محاولة العصابات الجوالة الهجوم على القوافل أو إقامتها فى هذه المنطقة. كما أن المسافرين لا يتعرضون كثيراً لهجمات قُطَّاع الطرق القادمين من كون لون، لقلة الطرق الطبيعية عبر الجبال. كما كان من المستحيل عبور الممرات المائية لشدة انحدارها. وما إن يبتعد المسافرون عن حماية سور الصين العظيم من خلال بوابة يانج كوان حتى ينحرفوا قليلاً نحو الجنوب، بمحاذاة حافة حوض التاريم بيضاوية الشكل. وكان الصينيون يطلقون على هذا الطريق نان شان بيه لو (الطريق الواقع شمالى الجبال الجنوبية).

وكانت الرحلة فى هذا الجزء من طريق الحرير عبارة عن سلسلة من الممرات القصيرة، تتسم فى غالبها بالخطورة وتقع بين إحدى مدن الواحات ذات الأسوار وغيرها. وفى الطريق كان المسافرون يضطرون إلى إقامة معسكراتهم فى العراء، حيث ينامون على مايحملونه من فراش داخل خيامهم الخفيفة. وكانت القوافل تتحرك فيما بين المدن بأسرع مايمكن، إذ كان استمرار حياة البشر والدواب متوقفاً على الوصول إلى البئر التالية وإيجاد مايكفى من ماء.

وبما أن الماء كان شيئاً حيوياً، فإن المسافرين، ومنهم المستكشفون المحدثون أمثال شتاين وهيدن، كانوا يفضلون السفر على هذا الطريق فى الشتاء لتمكنهم من حمل مايحتاجونه من ماء على هيئة كتل من الثلج. وفى الأوقات الأشد حرارة كانوا يسافرون فى الليل البارد على هدي النجوم. وكان بعض قادة القوافل والمرشدين يدرسون فى المدارس البحرية بالهند. فالمعروف أن طرق السفر على هدي النجوم فى البر والبحر سواء. وفى النهار كان المسافرون يحتمون بخيامهم من أشعة الشمس الحارقة. وما إن يصلوا إحدى الواحات، ليكونوا مرة أخرى خلف الأسوار التى تحميهم، حتى يستريحوا أسبوعاً أو أسبوعين من عناء السفر ويصلحوا متاعهم ويتزودوا بالمؤن ثم يستعدوا لاستئناف السير.

كانت شان شان (تشرتشن) أول وأكبر مدينة يستريح فيها المسافرون على الطريق الجنوبى ويتزودون منها بالمؤن، وقال ماركو بولو: «هذا الإقليم رملى تماماً، وكذلك الحال بالنسبة للطريق على امتداده... وكثير من الماء الذى تصادفه مر المذاق وغير صالح للشرب»، رغم إشارته إلى أن بعضه عذب وحلو. وأورد ماركو بولو هذه الحكاية التى تصف المنطقة الموحشة المحيطة بشان شان:

عندما يمر أحد الجيوش بهذه الأرض يهرب الرجال بزوجاتهم وأطفالهم وماشيتهم لمسيرة ثلاثة أيام فى الأراضى الرملية. ولمعرفتهم بمواقع المياه، فهم قادرون على العيش هناك والحفاظ على حياة ماشيتهم. ويستحيل على أى إنسان اكتشاف مكانهم. فالريح تهب وتغطى الرمال آثارهم.

من الواضح إذن أن أرضاً كهذه ماكان ليدخلها إنسان لم تطأها قدماه من قبل. لذلك كان المسافرون على طريق الحرير يحرصون دائماً على استئجار قادة القوافل والمرشدين ذوى الخبرة.

بعد ذلك يصل المسافرون على الطريق الجنوبى إلى مدينة خوتان العظيمة. وهى لم تكن مجرد مركز للتزود بالمؤن، بل كانت أحد المراكز الثقافية الكبرى فى آسيا الوسطى. كما أنها لم تكتسب أهميتها لوقوعها على طريق الحرير فحسب، بل ـ أيضاً ـ لأنها كانت قريبة من أول طريق جبلى يمر عبر جبال قره قورم إلى كشمير والهند. وهو تقريباً نفس مسار طريق قره قورم السريع الذى يربط الصين وباكستان حالياً. وعلاوة على ارتفاع هذه المنطقة وبرودتها، فهى أيضاً جافة ومكشوفة، كما يدل على ذلك اسمها الذى يعنى «الحصى

الأسود». أما ممر قسره قورم فهو على ارتفاع ١٨ ألف قدم. وظل هذا الطريق مهماً لعدة قرون. إذ كان الطريق الرئيسى الذى وصلت من خلاله البوذية إلى قلب آسيا الوسطى من موطنها الأصلى فى الهند. وكانت المدينة التى يرويها نهر خوتان تسر الناظرين وتنعم بالخير. وقد وجد ماركو بولو أن «كل شىء موجود هناك بوفرة».

والشىء الذى اهتم به الصينيون اهتماماً خاصاً هو اليشب[1] بلونيه الأخضر والأبيض، وكان موجوداً بوفرة فى قيعان الأنهار الجبلية القريبة من خوتان. وقبل زمن طويل من إرسال الحرير إلى البحر المتوسط فى الغرب، كان استيراد اليشب يتم عبر طريق التاريم الجنوبى إلى الصين. وكان المسافرون إلى الهند يسيرون فى بعض الأحيان عبر الجبال الواقعة خلف خوتان. وغالباً ما كانوا يمضون فى السير على الطريق الجنوبى إلى مدينتى يرقند وكاشغر إلى جبال البامير الأقل انحداراً ثم يتجهون جنوباً قبالة الأجزاء المرتفعة من جبال هندوكوش، وبعد ذلك يسيرون مع الممر الطبيعى عبر مايعرف الآن بأفغانستان وباكستان ليصلوا إلى السهول الهندية. وهذا هو الطريق الذى سلكه الغزاة عبر العصور.

***

كان المسافرون الذين يسيرون فى الطريق الذى يبدأ من تونهوانج شمالى تاكلامكان يتبعون مساراً مختلفاً إلى جبال البامير. فبعد مغادرتهم سور الصين العظيم من خلال بوابة يومن كوان المعروفة باسم «بوابة اليشب»، كانوا يسيرون لبعض الوقت فى طريق مواز تقريباً للطريق الجنوبى، عبر منطقة شبه صحراوية تقع وراءها صحراء لوب القاحلة تماماً. وكان على المسافرين الذين يعبرون الأراضى الملحية أن يحملوا كل مايحتاجونه من ماء وطعام. فلم يكن هناك مايأكلونه أو يشربونه فى تلك المناطق الجدباء. وعلى الطرف الأقصى من الصحراء، كان المسافرون فى قديم الزمان يجدون المستنقعات المالحة وأطراف لوب نور، على ضحالتها، حيث الرطوبة والخضرة. وعند أطراف المستنقعات كانت تقع المدينة الواحة لولان المعروفة باسم «مدينة الموتى»، وكانت توفر لهم الغوث والمأوى. وعندما كان ذلك هو الطريق الرئيسى إلى الغرب، أطالت الصين خط أبراج المراقبة ومحطات الإرشاد والحصون التابعة لسور الصين العظيم عند لولان. وأدى هذا إلى توفير الحماية والطعام، الذى كانت تخرجه الأرض التى تروى رياً خفيفاً.

---

(١) اليشب تطلق على معدنين هما الجاديت والنفريت، وهو أبيض وأحياناً أخضر ويحظى بتقدير كبير كحجر للزينة، حيث يستخدم فى الحلى والحفر عليه. (المترجم).

وما إن يجتاز المسافرون لولان حتى يجدوا صحراء أكثر رمالاً إلى أن يصلوا إلى كورلا التى تلتقى عندها المياه القادمة من جبال تيان شان القريبة مع تلك الآتية من الجبال الغربية البعيدة. ويخلق ذلك وادياً وسط الصحراء عامراً بالمراعى يجعل السفر يسيراً. وكان الصينيون يطلقون على هذا الطريق اسم تيان شان نان لو، أى الطريق الواقع جنوب الجبال السماوية. وكانوا يسمونه أيضاً «طريق الوسط». وما يدعو للأسف أنه بنهاية القرن الثالث الميلادى انحسر ذلك القدر الضئيل من المياه الذى كان يساعد على وجود الحياة فى إقليم لولان كما أن الجزء الداخلى من آسيا صار أكثر جفافاً فأصبحت المدينة مهجورة ولم تعد واحة كما كانت.

وفى ذلك الوقت، كان على المسافرين الراغبين فى السفر إلى شمال تاكلا مكان أن يبحثوا عن بديل آخر. لذلك كانوا يتجهون شمالاً عبر ممر كانسو ومن ثم يتجهون غرباً نحو ذلك العدد القليل من الواحات الواقعة فى هذه المنطقة. وكانوا يسيرون مسافة طويلة قبل أن يعودوا مرة أخرى إلى الطريق الرئيسى عند كورلا. إلا أن هذا البديل كان يتسم بالصعوبة لوقوع جزء من صحراء جوبى الشاسعة، التى تحد الصين من الشمال، خلف سورالصين العظيم. ويصف المؤرخ الصينى ماوتوان لين الصحراء فى تلك المنطقة قائلاً:

.. على المرء أن يعبر سهلاً من الرمال يمتد لمسافة تزيد على ألف فرسخ. ولايرى الإنسان شيئاً فى أى اتجاه سوى السماء والرمال، دون أن يكون هناك أدنى أثر للطريق. ولايجد المسافرون مرشداً لهم سوى عظام البشر والدواب وبعر الجمال. وطوال هذا الطريق الذى يقطع البرية تسمع أصواتاً، تكون غناءً تارة ونحيباً تارة أخرى. وكثيراً مايتوه المسافرون الذين يتتبعون تلك الأصوات لمعرفة مصدرها ويضلون طريقهم. إنها أصوات الأرواح والعفاريت.

وزغم خطورة هذه الصحراء، كانت المسافة بين الواحات الواقعة على جانبها الأقصى أقصر من تلك التى على طريق لولان القاحل.

***

كان المسافرون يخرجون من حماية ممر كانسو وسور الصين العظيم قبل تونهوانج بحوالى تسعين ميلاً، عند مدينة أنشى التى يسمونها أحياناً «مدينة الشمَّام»[1] بسبب زراعة

(١) يزرع فى هذه المناطق نوع من الشمام يميل إلى الاستدارة والصفار، طعمه حلو ورائحته طيبة، يسمى قاوُون. (المترجم).

هذه الفاكهة فى واحـات الإقليم. وعند اتجاههم ناحية الشمال الغربى عـبر صحراء جوبى، كانوا يجـدون العديد من الواحات التى تروى بوفـرة وتقع على مقربة من سلسلة بيـه شان وكانت أولى تلك الـواحات حوضـاً خصبـاً له أسماء عـديدة مثل «هامى» و «كـومول» و «ايو». وفى بعض الأحـيان كان يطلق على الطريـق الشمالى الغـربى «الطريق إلى هامى». وكان الطريق بدءاً من هامى يتـجه شمالاً بمحـاذاة التلال ثم يميل نحـو الجنوب الغربى إلى تورفان، وهى حوض كبـير يقع على عمق ثلاثمائة قدم تحت سطح البـحر. وساعد ذوبان الجليد فوق قمم الجبال على جعل هذا الحوض مركـزاً زراعياً على مر العصور. كما أنه كان استراحـة للمسافرين المتعـبين. وتظهر رؤيتهم لهذا الإقليم فى الاسـم الصينى الذى أطلقوه على الطريق وهو «طريق مابين أشجـار الصفصاف». وبالمثل كانت الواحة الـرئيسية الأولى فى حوض تورفان تُسمى قديماً «نبع التنين». ويقول مارك أوريل ستاين:

كان اسمها باللغة الصينية صفة تليق بالنبع الذى يهب الحياة وسط صحراء صخرية. فالخيال الصينى يميل دائماً إلى ربط المعالم الطبيعية البارزة بالوحوش المقدسة.

وتحتل تورفان أيضاً موقـعاً استراتيجياً لوقوعها عند بداية ممر جـبلى رئيسى يسلكه كثير من المسافرين القادمين من السهوب الواقعة خلف جبال تيان شان إلى حوض التاريم. وفيما يتعلق بالبـدو الغزاة، كانت تورفـان فى حد ذاتها مصـدر جاذبية لهم. إلا أنهـا كانت فى الوقت ذاته قاعدة شديدة الأهمية لشن الهجوم على تجارة طريق الحرير الثمينة أو غزو الصين نفسـها. وفى زمن السلم يسافر العـمال المهاجـرون من تورفان عبر ممرات تيـان شان لجنى محـاصيل الحقـول الواقعة على سـفوح الجبـال. ويحدث ذلك فيـما بين موسـمى الزراعة المعتاديـن فى تورفان الأكثر حرارة (والـواقع أن تورفان حار صيفـاً. وغالباً ماينتـقل النبلاء المحليون إلى غرف تحت الأرض اتقاءً للحر. فى حين كـان نظراؤهم البدو يصعدون الجبال للغرض نفسه).

وكان بعض المسافرين المتجهين من الصين إلى تورفان يختارون طريقاً مختلفاً. إذ كانوا يبتعدون أكثر عن سور الصين العظيم فى اتجـاه الشرق عند يومين موغلين أكثر فى الصحراء وملتفين حول واحـة هامى. وكان ذلك الطريق الشمالى الجديد مفيداً بصـورة خاصة عندما تكون أى من واحتى هامى أو تورفان فى حالة نزاع أو تتعرض لهجوم مباشر. إلا أن طريق هامى المتجه إلى تورفان كان مفضلاً فى أغلب الأحيان، خاصة بالنسبة للقوافل الكبيرة التى عليها أن تضمن وجود الماء الوفير.

ومهما كان الطريق الذى سيسلكه المسافرون إلى تورفان، فإنهم بعد أن يغادروها ينحرفون إلى الجنوب الغربى فى محاذاة سفوح جبال تيان شان إلى واحة قره شهر المفضلة لديهم ثم يتجهون إلى طريق لولان عند مدينة كورلا الواقعة عند ملتقى الطرق. وبعد ذلك يسيرون غرباً إلى واحتى كوتشا وأكسو الرئيسيتين. وعندما لم تكن هناك سلطة مركزية تسيطر على آسيا الوسطى، كانت الواحات الرئيسية، مثل تورفان وهامى، دويلات مستقلة تتبعها ملحقاتها من المدن ذات الأسوار. وكان المسافرون فى ذلك الوقت يجدون مشقة كبيرة فى ترحالهم ويتكبدون نفقات باهظة. فكل مدينة يمرون فيها تحصل منهم الضرائب نقداً أو عيناً على كل أنواع البضائع. وكانت الضرائب عموماً عبارة عن مبلغ محدد عن كل حمل. ولم يكن أمام المسافرين إلا الدفع، لحاجتهم إلى المأوى والمؤن التى توفرها لهم تلك المدن. فى حين كانت الأراضى المحيطة بها موحشة. وكان المسافرون الذين يحملون مايكفى من المؤن يتعمدون الالتفاف حول الواحات الرئيسية مثل هامى، إذا كان هذا فى مقدورهم. وكان هدفهم من ذلك تحاشى الضرائب والنفقات الضخمة التى يدفعونها للحصول على المؤن منها. إلا أنه عندما كانت آسيا الوسطى جزءاً من إمبراطورية كبرى، كانت الحكومة المركزية تُرشِّد الأعباء الضريبية على التجار وتوفر الحماية والدواب المستريحة إلى جانب كميات وفيرة من الطعام على طول الطريق. وغالباً ماكان يتم ذلك من خلال المهاجرين الذين ترسلهم إلى تلك المناطق كمزارعين جنود.

وبغض النظر عمن بيده السلطة، كانت كوتشا وأكسو مركزين مهمين على الطريق الشمالى عبر حوض التاريم. وغالباً ماكانت كوتشا مركزاً إدارياً للإقليم فى ظل حكم الصينيين والترك وغيرهم. فقد كانت ممرات عديدة فى جبال تيان شان تصب فى إقليم كوتشا. وذكر أوريل ستاين: «رغم كونها مغلقة بالثلوج فى جزء من الشتاء وأوائل الربيع، فإنها جميعاً كانت مفتوحة بقية العام أمام الدواب المحملة بالبضائع». وعبر هذه الممرات كان يتوافد التجار من السهوب الشمالية ليشاركوا فى تجارة طريق الحرير ويقايضوا ذهبهم وفراءهم وجلودهم وخيولهم بالأعمال الفنية التى تصنعها الشعوب المستقرة.

ومع ذلك أدى ارتفاع تلك الممرات وضيقها إلى جعل الدفاع عنها أيسر من تلك الواقعة شمالى تورفان وهامى، وجعل كوتشا أقل عرضة للهجوم الغادر. وكان إقليم كوتشا ذاته بمثابة مانع، ليس أمام البدو الشماليين بل فى وجه الصحراء الواقعة فى الجنوب. وهو يشغل سهلاً متسعاً على امتداد نهر صغير. وذكر أوريل ستاين أنه:

... بمثابة خندق أو سياج طبيعى يحول دون تقدم الرمال المتحركة. إذ أن قرب منطقة الكثبان الرملية الشاسعة فى تاكلا مكان يهدد بدفن المناطق الزراعية.. عندما يقل ريها لأسباب طبيعية أو بشرية.

وكان المسافرون يجدون فى كوتشا كذلك منطقة للراحة وإصلاح متاعهم. وسواء كانت بدايتهم من لولان أم من تورفان، فقد كان ذلك هو منتصف الطريق تقريباً إلى البامير عبر الحوض. وحتى فى العصور الحديثة، التى تعد أكثر جفافاً من عهود طريق الحرير الأولى، كان المسافرون يبتهجون لرؤية بساتين كوتشا وحقولها التى تسر العين وكذلك الأسواق العامرة الواقعة عند أطرافها.

وكان إقليم أكسو، وهو المركز الرئيسى الثانى على الطريق فى اتجاه الغرب، ملتقى طريق أيضاً. وكما هو حال كوتشا، يقع أكسو على أحد روافد نهر التاريم، وإن كان اليوم أكثر جفافاً وأقل رياً عما كان عليه فى الماضى. وبعض الممرات التى تخترق جبال تيان شان تميل إلى الانخفاض واليسر بحيث تعبرها العربات بسهولة. وما يجعل الأمر أكثر يسراً هو أن نهر خوتان الذى يجف موسمياً، ويعد المصدر الرئيسى لرى الحزام الذى يقطع وسط تاكلا مكان، يربط مباشرة بين أكسو وخوتان ويصل مابين الطرق الشمالية والجنوبية عبر الصحراء.

وسواء كان الطريق الذى يسلكه المسافرون من الصين هو طريق التاريم الجنوبى أو ما يطلق عليه ستاين «الطريق الآسيوى المركزى العظيم»، فقد كان عليهم أن يعبروا جبال البامير، عمود آسيا الفقرى، للوصول إلى الغرب. فالطريقان اللذان يتفرعان حول التاريم يلتقيان عند سفوح البامير. ويحدث ذلك عند يرقند أحياناً، ولكنه كثيراً ما يحدث عند كاشغر. وموقع كاشغر شديد الروعة. فجبال تيان شان الشمالية وجبال كون لون الجنوبية تحيط بها. وهى تشكل مع جبال البامير خطاً متصلاً من القمم التى تطوق كاشغر عند أقصى نقطة فى غرب التاريم. ويشير ستاين إلى «روعة منظر الجبال الثلجية» المحيطة بكاشغر من ثلاث جهات.

وعند هذه النقطة كان المسافرون على طريق الحرير يواجهون مانع جبال البامير الشرقى. وكان أفراد القوافل الآتية من تشانج آن يصعدون ببطء وعزم نحو منابع مياه آسيا. وإذا ماوصلوا إلى كاشغر يصبحون على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر. إلا أن بعض قمم البامير يصل ارتفاعها إلى خمسة وعشرين ألف قدم. وهى من الارتفاع والصعوبة بما

يجتذب أكثر متسلقى الجبال حباً للمغامرة. وهذا أيضاً ماجعل الفرس يطلقون عليها «سقف العالم» ويطلق الصينيون على هذه الجبال تسونج لنج (جبال البصل). إذ أنهم يلقون باللوم على هذا النبات فيما يتعلق بالدوخة والغثيان اللذين يعود سببهما الحقيقى إلى عدم كفاية الهواء فى المرتفعات. ولحسن حظ المسافرين الذين لاينشدون متعة النظر إلى القمم التى تغطيها الثلوج، كان من الممكن اجتياز الجانب الشرقى القاحل لهذه الجبال من خلال ممرات عريضة يسهل الوصول إليها. والواقع أن «البامير» تشير إلى هذه الأودية المرتفعة التى تقع عند سفوح الجبال. ومن الواضح أن قوافل طريق الحرير كانت تستخدمها، دون أن يكون لأحدها حظ أكثر من سائر الأودية.

والجزء الأول فى رحلة الصعود من كاشغر أو يرقند كان أصعب الأجزاء وأشدها انحداراً. وفى بعض المناطق كان الطريق شديد الانحدار والوعورة على الدواب المحملة. وكما يحدث فى سائر سلاسل الجبال الوعرة، فقد تُنزل أحمال الدواب التى تُقاد عبر الممرات الضيقة بينما يحمل الحمالون الأمتعة لمسافات قصيرة. وفى بعض الأماكن كان المدق يُوسَّع لتيسير مرور الجمال وغيرها من دواب الحمل. وعن اجتياز أوريل ستاين جبال البامير لأول مرة قال:

> **فى الوقت الذى بلغنا فيه أرضاً أقل وعورة على الهضاب التى تطل على منابع النهر الجليدى الكبير الواقع أسفل الوادى، شعرت بفرح شديد لاجتيازى الحاجز الجبلى الضخم الذى تحدث عنها إيماوس القديم وكان يفصل بين سيثيا[١] «الخارجية» و«الداخلية» اللتين ذكرهما بطليموس.**

وما إن يصبح المسافرون فوق منابع مياه آسيا حتى يصبح سيرهم أيسر عبر هضاب أكثر اعتدالاً فى انحدارها وأودية أنهار متسعة. وبعض هذه الطرق الطبيعية، التى يتراوح عرضها بين ستة وعشرة أميال، كانت صالحة أيضاً لسير العربات. إلا أن البرد كان قارساً فى المرتفعات. وتصادف أثناء رحلة ستاين عبر جبال البامير أن هبت عاصفة فى أواخر شهر يوليو، حيث لاحظ أن درجات الحرارة هبطت إلى مادون التجمد بين عشية وضحاها. وقد

(١) السهوب الواقعة شمالى البحر الأسود وسكنتها مجموعة من البدو يتحدثون الإيرانية فيما بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد، ويشير هيرودوت وبعض السجلات الشرق أوسطية إلى أنهم نزحوا من آسيا الوسطى أو سيبيريا. وفى القرن الأول الميلادى عبروا القوقاز إلى الشرق الأدنى إلى أن طردهم الميديون فى القرن السابع الميلادى. (المترجم).

رأى أن طريق القوافل صالح معظم السنة أو كلهـا. كما أن أودية الأنهار وفرت الماء والكلأ للقوافل العابرة. وكانت المستوطنات الدائمة للرعاة والمزارعين موجـودة فى الأودية المتسعة على ارتفاع تسعـة آلاف قدم. وفى أشد الشهور حـرارة كان البدو يعيشـون على ارتفاعات تزيد على ذلك. وهكذا كان المسـافرون يجدون المأوى والمؤن على طول الطريق لمدة ثمـانية إلى تسعة أشـهر فى السنة. وحتى فى فصل الشـتاء كانوا يسيـرون لمسافة سبعـين ميلاً، أو ثلاث مراحل سـهلة، فوق منابع المياه قبل أن يـصلوا إلى أول مستوطنة دائمـة على الجانب الأقصى. وكان ستاين يرى أن بعض الطرق المغلقة فى شهور الشتاء يمكن عبورها، كما هو الحال بالنسـبة للمـمرات فى أى مكان آخر، إذا كـانت هناك «حركـة كافيـة لخلق مدق فى الثلوج والإبقاء عليه مفتوحاً»، كما كان يحدث فى العصور الزاهية لطريق الحرير.

وبعد رحلـة طويلة فى حوض التاريـم الجاف وجبـال البامـير الشرقـية القـاحلة، كان المسافـرون يجدون على الجانب الأقـصى من الجبال أرضـاً ذات أنهار وبساتين أطلق عليـها البعض اسم بابل الشرق. وفى مدن تلك السفوح التى تحصل على كفايتها من الرى لم يكن السكان قانعين بمجـرد العيش على ضفاف الأنهار. لذلك أقامـوا شبكة متطورة من القنوات كى يصل الماء إلى كل أجـزاء مـدنهم. ووصل الأمر فى عـدد من المدن أنه كـان يصل كل بيت. وكانت أودية الأنهـار التى يسير عليـها المسافرون فى جـبال البامـيـر تقودهم إلى هذه الأرض وفيرة الرزق. أما اختيارهم للأودية فكان يختلف تبـعاً لاختلاف مقاصدهم وحسب الظروف السـياسـية السـائدة فى ذلك الوقت. وكـان النهران الرئيـسيـان، وهما سـرداريا (سيحون)[1] وأموداريا (جيحون)[2]، ينبعان من جـبال البامير وينحرفـان شيئاً فشيـئاً ناحية الشرق ليصـبا فى بحر آزال. (فى بعض القرون كـان جزء من ماء جيحـون يصب فى بحر قزوين) وعلى طول الطريق كانت هذه المجارى المائية تلتـقى بالعديد من الجداول الصغيرة، التى لم يعد بعضها يصل إلى الأنهار الكبيرة ويتلاشى فى رمال الأرض الجافة المحيطة به.

وغالباً ماكان يُطلق على هذا الإقليم تركستان الغربية أو الروسية. ففى العصور الحديثة أصبحت اللغة والثقافة التركية سائدتين فيه. وهو يضم جمهوريات تركمانستان وأوزبكستان وقازاقستان السوفـيتية والقطاع الشمالى من أفغانستان. (ومـقابل ذلك يسمى حوض التاريم تركستان الشرقية أو الصينية وأحيـانا كاشغريا أو سنكيانج. وهو اليوم أرض صينية). وكون

(١) كان اسمه قديماً «ياكزارتيس». (المترجم).
(٢) كان اسمه قديماً «أوكسوس». (المترجم).

هذه الأماكن معروفة لقليل من الناس فى الوقت الحالى دليل على العزلة السياسية الحديثة لهذا الإقليم. ففى هذه البقعة كان يقع واحد من أعظم تقاطعات الطرق فى آسيا، حيث يتقاطع طريق الحرير مع الطريق الشمالى الجنوبى الرئيسى الذى يربط بين سهول الأوراس فى الشمال والسهول الهندية فى الجنوب. وأصبحت المدن الواقعة على أودية الأنهار عند هذا الملتقى ذات شأن عظيم. ويعود ذلك فى المقام الأول إلى التقاء التجار القادمين من أنحاء القارة فى هذا المكان لتبادل البضائع، إلى جانب الأفكار فى كثير من الأحيان.

والمسافرون على طريق الحرير الذين كانت لديهم الرغبة فى الاستفادة من التجارة الثمينة مع الهند كانوا يسيرون عبر جبال البامير إلى بلخ. وغالباً ماكانوا يذهبون إليها من يرقند أو كاشغر. وكانت الطرق الجبلية الأخرى قد انفصلت قبل ذلك لتتجه إلى كشمير أو الهند فوق قره قورم أو هندوكوش المرتفعة. إلا أن بلخ كانت عند بداية الطريق الهندى العظيم، وهو طريق الغزوات الرئيسى إلى جانب كونه طريق التجارة وطريق السفر عبر الحدود الشمالية الغربية فى سهول البنجاب. وكانت مدينة بلخ تقع تقريباً فى نقطة تتوسط طريق الحرير. إلا أنها كانت فى الوقت ذاته رأس جسر على الطريق المؤدى إلى داخل الهند. وأنطاكية ودمشق وبابل وروما وبيزنطة وتشانج آن كلها أسماء مألوفة للأذن الحديثة بصورة أكبر عما كانت عليه بالنسبة لأهالى بلخ. ومع ذلك كانت بلخ على مدى ألف وخمسمائة سنة نداً لكل هذه المدن العظيمة.

وتتضح أهمية بلخ من تاريخها. وهناك اعتقاد بأن زرادشت وُلد بها. وبعد ذلك اتخذ الإسكندر الأكبر عروساً منها، وكان عرسه من أشهر الأعراس فى التاريخ. وبعد ذلك كانت مركزاً كبيراً للبوذية يقصده الحجاج من أنحاء شرق آسيا. ثم أصبحت المدينة درة فى عقد المدن الذى ضم المدن الإسلامية فى آسيا. وجاء جنكيز خان ليقضى على عظمتها فى النهاية. وحتى فى عصور تدهورها كان يزورها رحالة عظام فى زمن المغول أمثال ماركو بولو وابن بطوطة. وكانت بلخ التى تحتل مكاناً جميلاً على ضفاف أحد روافد أعالى جيحون عاصمة لـ «أرض الألف مدينة». وإذا كان موقعها مهجوراً فى وقتنا هذا، حيث لم يعد النهر الذى كان يرويها يجرى فى ذلك المكان، فإن عدم بروزها حالياً فى شمال أفغانستان يتناقض مع تلك الأهمية الكبيرة التى تمتعت بها فى التاريخ الأوراسى.

***

ومن بلخ يسير المسافرون المتجهون غرباً عبر السهوب الترابية نحو مدينة القوافل

الرئيسية مرو، وكانت قديماً تسمى أنطاكية خراسان، لوقوعها فى إقليم خراسان الفارسى. وهى إحدى المدن التى أسسها الإسكندر الأكبر، أو طورها على أقل تقدير. وغير هؤلاء من المسافرين على طريق الحرير يصلون مرو من طريق مختلف، بعضهم من خلال معبر جبلى قصير نسبياً من كاشغر إلى أرض فرغانة عند أعالى نهر سيحون. وظلت فرغانة لفترة طويلة أفضل مكان لتربية الخيول والجمال. فسهولها الخصبة تنتج محصولاً وفيراً يتميز بالطول من غذائها المفضل وهو البرسيم الحجازى. وكان لفرغانة دور مهم فى فتح الصين للنصف الشرقى من طريق الحرير. وما إن يخرج المسافرون غرباً من فرغانة، وهى قطاع طويل من الأرض تحيط به الجبال من ثلاث جهات، حتى يجدوا أنفسهم فى سهل مفتوح، وهو لسان من السهوب الأوراسية الكبرى. وهنا تقوم سلسلة من مدن القوافل العديدة التى تمتد غرباً نحو الهضبة الإيرانية، منها سمرقند (وكانت تسمى فى السابق مرقندا) وبخارى.

وكانت سمرقند وبخارى على قدر كبير من التحصين، تماثلها فى ذلك بلخ ومعظم المدن الأخرى الواقعة فى هذا الإقليم بغض النظر عن حجمها. ويرجع ذلك إلى تعرضها للغارات من السهوب فى الشمال ومن المناطق الجبلية فى سائر الاتجاهات. وغالباً ماكان حول كل منها سور خارجى، يحيط بالحقول والقرى والضواحى والبساتين والقلاع الخاصة، ويليه سور داخلى أصغر يضم قلب المدينة. وفى العصور المتأخرة على الأقل، كانت توجد فى هذا الجزء قلعة، وربما قصر، يحيط به خندق مملوء بالماء عليه جسر متحرك، إلى جانب معبد كبير. وكانت الديانة تتغير على مر العصور. وكانت القنوات كبيرها وصغيرها تجلب الماء إلى قلب كل مدينة مباشرة. وفى العصور المتأخرة سمح نظام متطور من السدود والأهوسة والقناطر للسكان بتحويل الماء المتدفق فى موسم الفيضان بعيداً عن المدينة.

وكانت الأسواق منتشرة على أطراف المدن وكثيراً ماكان أهمها قائماً على مقربة من الأبواب التى تخدم الطرق الرئيسية، مثل طريق الحرير، وغير بعيدة عن دور العبادة التى كان الناس يتجمعون عندها دائماً. ومنذ أقدم العصور خُصصت أحياء بعينها للتجار الجوالين. وكثيراً ماتجمع التجار القادمون من المدن والبلاد الأخرى وأقاموا الخانات، التى كانت تسمى أربطة فى بعض الأحيان. وكانت أماكن يأوون إليها ويتخذون منها مخازن لبضائعهم. وكانت هناك ترتيبات مماثلة للحرس المسلح المصاحب للقوافل أو الحاميات المقيمة المسئولة عن الأمن على طول الطريق وإدارة أبراج المياه التى شيدت فى السور الخارجى، بحيث تفصل بين كل منها مسافة نصف ميل تقريباً.

كانت هذه المدن فى عصورها الزاهيــة مستوطنات كبيرة الحـجم. وتشير آثار مدينة بلخ إلى أنها كانت تمتـد على مسافة ١٦ ميـلاً. ويحتمل أن سمـرقند كان يعيش فيهـا أكثر من نصف مليون نسمة فى بعض عصورها. وحتى مـدينة بيقند القديمة والأقل شهرة فى إقليم بخارى يقال أنهـا كانت تضم ثلاثة آلاف رباط. ومن الواضح أنه كانت هناك حـركة مرور ضخمة فى هذا الإقليم. وهناك سـبب وجيه لتسمية الطريق بيـن سمرقند وبخارى بالطريق الملكى أو الطريق الذهبى. وهو مـتاخم للسهـوب الجرداء المعـروفة باسم قره قـوم (الرمال السوداء) وتحيط به الجبال والهـضاب. وتعد منطقة ماوراء النهر الواقعة شـرقى نهر جيحون مكاناً ملائماً لالتقاء الثقافات.

وهناك طريق بديل شائع الاستعمال عبر البامير يمتد من يرقند إلى أعالى نهر جيحون. والواقع أنه فى القرن الأول الميلادى كتب الكاتب اليـونانى الرومانى بطليموس عن مكان قد يكون فى هذا الإقليم اسمه البرج الحجرى، كان من عادة التجار الغربيين والهنود والصينيين أن يلتقوا فـيه لتبادل البـضائع. وليس معروفـاً ـ على وجه الدقة ـ أين كان البـرج الحجرى هذا. والترجـمة التركـية لهـذا الاسم هى تاشكرجان. وهناك مـدن كثيـرة بهذا الاسم فى الإقليم. وربما كانت هناك «أبراج حجرية» كثيرة موجودة قبل ذلك. وقد يكون فى مكان ما بالقرب من منابع نهر يرقند.

وكان هناك بديل آخر أمام المسافرين غرباً من الصين: إذ كان بإمكانهم تجنب السير فى صحراء تاكـلامكان وجبال البامـير معاً عن طريق الدوران حـول حلقة الجبال المحـيطة بها. وكان باسـتطاعتهم اجتـياز بيه شان المنخـفضة إلى حوض جـونغاريا شبه القـاحل. وما إن يصلوا إلى هناك حـتى يكون بمقدورهم الاتجـاه غرباً عن طريق عـبور جزء بـارز من الجبل معتـدل الانحدار، أو الدوران حوله من خلال ممر جونغـاريا، وهو الممر القديم الذى يربط بين جبال جونغار وجبال ألتاى (الذهبيـة). وبعد ذلك يجدون أنفسهم على الجانب الشمالى من تيان شـان، التى تنبع منها الـروافد الكثيـرة التى كانت السـبب فى أن يطلق على هذه المنطقة: «أرض الأنهار السبعة».

وكان نهر إيلى، الذى كـان يجمع هذه المياه ليصـبها فى بحيرة بلخـاش فى الشمال، بمثابة طريق مريح للمسافرين على طريق الحرير. وأثناء سيرهم كانوا يمرون على العديد من المدن الصغـيرة، وأهمها بيـشباليك، التى كـانت فى أغلب الأحيان مـركزاً إدارياً للإقليم، والماليك، وهى مـدينة أرضها خـصبة وعـامرة بالحـقول وبساتين الفـاكهـة الغنَّاء. وكانت

الهجمات التى تعرضت لها هذه المدن من السهوب سبباً فى أنها لم تصبح أكبر مما كانت ولا أكثر مما هى عليه. وخلف هذه المدن كانت تقع إيسيك قول (البحيرة الدافئة)، وسميت بهذا الاسم لأنها لم تكن تتجمد بسبب ارتفاع نسبة الملح فى مائها. وهذا الطريق، الذى أطلق عليه الصينيون اسم «تيان شان بى لو» (الطريق الواقع شمال الجبال السماوية)، كان يتبع منحنى تيان شان ثم يلتقى بجبال البامير غرباً ثم جنوباً ويسير بالمسافرين إلى مدينتى القوافل فى تركستان الغربية سمرقند وبخارى.

ولو كان العالم يعيش فى سلام لأصبح ذلك المسار الرئيسى لطريق الحرير. ففيه لم يكن المسافرون يمرون على صحراء مخيفة مثل تاكلامكان، ولا مرتفعات شاهقة كالتى فى جبال البامير. كما لم تكن هناك ضرورة للسير على الأقدام. فالعربات كانت جاهزة للاستخدام على الأراضى المنبسطة. صحيح أنه كانت هناك مناطق صحراوية، مثل قزيل قوم (الرمال الحمراء) الواقعة بين نهرى سيحون وجيحون، وقره قوم (الرمال السوداء) الواقعة بعدها. ولكن هذه الأراضى كانت أيسر من أراضى حوض التاريم القاحلة. وكانت إمكانية استخدام العربات تعنى قدرة المسافرين على حمل كميات كافية من الماء، دون زيادة أعباء القافلة بلا داع. باختصار، كان هذا هو أفضل طريق من الصين إلى تركستان الغربية حتى ذلك الوقت.

ولكن بما أن السلم أمر نادر الوجود فى هذا العالم، فقد كان الطريق شمالى الجبال السماوية مفضلاً فقط لمرات معدودة على مر التاريخ، وبالتحديد فى ظل حكم أسرة تانج الصينية ثم فى عهد المغول، عندما كانت القوى العظمى فى آسيا فى أوج عظمتها وتصميمها على تأمين سلامة المسافرين فيما وراء الخطوط الدفاعية الطبيعية من الجبال. أما فى سائر الأزمنة، وهى معظم التاريخ، فكان المسافرون على طريق الحرير يضطرون إلى سلوك طريق ملتو فى جبال البامير. فوعورة مايحيط به من جبال وأراض صحراوية يضمن له السلامة من قُطَّاع الطرق، الذين يندر وجودهم شمالى جبال تيان شان.

ومهما كان المسار الذى يسلكه المسافرون غرباً ليصلوا إلى الجانب الأقصى من جبال البامير، وهى الخط الفاصل التقليدى بين شرق آسيا وغربها، فقد كانوا يقصدون مرو. والحقيقة أنه نادراً ماكان هؤلاء هم أنفسهم المسافرون الذين بدأوا رحلتهم من الصين. فعادة ماكان الناس يسافرون لمسافة تتراوح بين ألف وألفى ميل فقط ليتاجروا أو يحجوا إلى الأماكن المقدسة أو يزوروا قصور البلاد الأخرى، ثم يعودون إلى ديارهم. وربما تمنى كثير

من الناس قطع مسافة طريق الحرير بالكامل. إلا أن أغلبهم حالت الظروف دون قيامه بذلك. واستطاع ماركو بولو القيام بهذه الرحلة فقط لأن المغول فى القرن الرابع عشر كانوا يسيطرون بحق على الطريق كله. ومن الغريب أن الصين، التى كانت شديدة الخوف من الأجانب فى فترات كثيرة من التاريخ، فتحت الطريق فى بعض الأحيان للمسافرين من الأمم الأخرى. وفى عهد أسرة تانج المزدهر كان الغربيون يُقابلون بترحاب فى تشانج آن، وكانت أزياؤهم وموسيقاهم وفنونهم ومعتقداتهم الدينية مثار اهتمام أكثر الموضات شيوعاً فى ذلك الوقت. وكان الحاجز الرئيسى فى السفر عبر طريق الحرير لقرون عديدة يقع على الهضبة الإيرانية. وأصبحت مدن مثل بلخ وتاشكورجان أسواقاً عالمية، وليس مجرد محطات على الطريق. وتعود بعض أسباب ذلك إلى أن شعوب الغرب كانت راغبة فى احتكار حركة المرور على الطريق، بهدف زيادة أرباحها. وإذا كانت نجحت فى ذلك كثيراً، فقد أغلقت أيضاً الطريق كله أمام الآخرين.

والهضبة الإيرانية نفسها عبارة عن مثلث مرتفع رأسه ناحية الجنوب فى اتجاه الجزيرة العربية. وتحيط بها سلاسل جبلية على جوانبها الثلاثة وفى الوسط صحراء لا حياة فيها تقريباً، وهى بقايا ملحية لما كان فى يوم من الأيام بحراً كبيراً. وكانت القوافل تضطر إلى اتباع سلاسل الجبال، ففيها فقط يمكنهم أن يجدوا الماء. وسار طريق الحرير مع السلسلة الشرقية الغربية، وهى جبال البرز الواقعة على امتداد الساحل الجنوبى لبحر قزوين لتشكل قاعدة المثلث المقلوب. وفى بعض فترات التاريخ، كان المسافرون، وخاصة التجار، يحاولون تحاشى الهضبة الإيرانية عن طريق الانحراف شمالاً إلى الشاطىء الشرقى لبحر قزوين ثم يعبرون البحر إلى المنطقة التى تقع فيها مدينة باكو الحالية. فكانوا يسيرون مع وادى نهر الرّس إلى الركن الجنوبى الشرقى من البحر الأسود ليصلوا إلى مقاصدهم فى أوروبا، دون أن يمروا بالأراضى الإيرانية. وكان آخرون يتجهون إلى الجنوب الشرقى حول بحر قزوين ليصلوا إلى الساحل الشمالى للبحر الأسود. إلا أن الشعوب التى حكمت الهضبة الإيرانية كان لها من القوة ما أتاح لها إجبار معظم المسافرين على طريق الحرير على عبور أراضيها.

وكان لبلاد فارس منتجاتها التى تضيفها إلى خليط تلك المنتجات التى كانت تمر على طريق الحرير. واعتمدت شعوب الهضبة على سكان السهول فى الشرق الأدنى فيما يتعلق بالأقمشة والحلى الفاخرة. وفى المقابل قدمت هى المواد الخام الأساسية، حيث كانت

أراضيهـا المقفرة غنية بالموارد الطبـيعية وخـاصة المعادن والجواهر. كـما كانت أول من ربّى سلالات الخيول. وظلت فترة طويلة تمد شعوب الغرب بـالخيل، مثلما أمد بها مربو فرغانة الشرق. وهذا المسار الرئيسى المنفرد، الذى يتـجه من الشرق للغرب فى طريق الحرير، كان مهماً لسكان المرتفعات وسكان السهول على حد سواء.

ونتيجة لذلك، ومنذ عصور ضـاربة فى القدم، قامت على جانبى هذا الجزء من طريق الحرير سلسلة من المدن ذات الأسوار. وكان الجنود والتجار الأجانب والصناع ضمن أول من سكنوا تلك المدن. فالواقع أن كثيراً من المدن ظهرت إلى الوجود بسبب التجارة. وعند عبور المسافرين للهـضبة الإيرانية من مرو كانوا يصلون إلى هيكاتومـبيلوس (مدينة الألف بوابة)، وكانت يومـاً عاصمة للإقليم. وعندمـا كان ذلك المسار يقطع جـبال البرز، كان المسـافرون يعبرون ممراً ضيقاً، أُطلق عليه «البوابات القزوينية»، قبل أن يخرجوا عند مدينة راجى (الرى فيمـا بعد) بالقرب من طهـران الحالية. وبالقرب منهـا (على مقربة من قزوين الحـالية) تقع ألموت، وهى الحصن الرئيسى للحشاشين، حيـث كان «شيخ الجبل» يقود طائفة ظلت قرنين من الزمان تفرض نفوذها على المنطقة بالقتل والرعب.

وعلى الجانب الأقصى من الهضبة الإيرانيـة كانت تقع ايكباتانا (همذان الحالية)، وهى عاصمـة أخرى لإحدى الممالك الكـثيرة التى تنافست على السيطرة علـى الجزء الغربى من طريق الحـرير. ومن هذا المكان كـان الطريق الرئيسى يهـبط من جـبال زاجـروس، الحافـة الشرقية للهضبة، إلى السهول، حيث دفع لسان جبلى نهر دجلة إلى الاقتراب من الفرات. وفى ذلك المكان، عند «وسط» بلاد مـابين النهرين، قامـت سلسلة من المدن العظيمـة بينها بابل وسلوقية وطيسفون وبغداد. وكل من هذه المدن تدين بجزء كبير من نفوذها إلى موقعها على طريق الحرير. وكـانت المنطقة أشبه بالألعـاب النارية الدوارة. فالطرق الفرعـية تخرج منها إلى كل اتجاه، حسب حالة الطقس وفصول السنة المختلفة.

***

وعند تقـاطعات الطرق النـهرية، كـان المسافـرون على مـر العصـور يختـارون طريق الصحـراء الكبرى، الذى يسـير فى اتجـاه الشمال الـغربى إلى أول مدن القـوافل فى حلب وأنطاكية بسوريا، وهما مدخل عالم البـحر المتوسط. وهذا المسار كان يتبع المنحنى الداخلى للهلال الخصيب على امتداد حافة الصحراء السورية الواقعة فى قلب الهلال الخصيب. وهى ليست صحـراء بالمعنى الذى عليه الحال فى تاكلامكان. فـهذه الصحراء كـانت أرضاً قاحلة

عاش فيها البدو مع قطعانهم عيشاً مريحاً فى أوقات كثيرة. وإن كان الجفاف يضطرهم للخروج إلى أراض أوفر ماء وأكثر خصوبة. كما أنها خلت من الكثبان الرملية. وفى القرن الثامن عشر كتب الرحالة بارثلميو بليستيد يصف هذه الصحراء قائلاً:

... هذه الصحراء توصف عادة على أنها سهل رملى منبسط. ولكن واقع الأمر هو أن الجزء الأكبر منها عبارة عن حصباء رملية أشبه ببعض المروج عندنا فى انجلترا. وفى بعض مواضعها تكثر الأحجار الكبيرة غير الثابتة. بينما تكثر فى مواضع أخرى التلال الصغيرة، وهى أشد جدباً من الوديان أو السهول.

وفى هذا المكان قد يتزعج المسافرون من شدة الحر ومن السباع والنمور ومن الذباب الذى يتجمع حول الفم والعينين بحثاً عن الرطوبة، إلا أنه لم يكن هناك احتمال لهلاك أفراد القوافل المسافرة على طريق الصحراء الكبرى عطشاً. إذ كان الماء متواقراً إلى حد ما على طول الطريق، وإن كان فى أغلبه عكراً أو مائلاً إلى الملوحة أو تكثر به الطحالب، كما يقول بليستيد:

حتى أفضله حالاً سرعان مايصبح غير صالح للشرب. فعند الوصول إلى إحدى البرك يهتم كل إنسان بجماله. لذلك فإن الكثير منها يرد الماء فى وقت واحد فيتعكر بعد قليل ولايعود صالحاً للاستعمال. وقد اضطُررت إلى التعايش معه وشربته فى قوام قهوة الأتراك، الذين يهزون الإبريق قبل صبّها.

وفى طريق الصحراء الكبرى كان المسافرون عموماً يتحاشون أى مستوطنات كبيرة. وبدلاً من ذلك كانوا يعسكرون خارجها فى الخلاء. ورغم ضياع فرصة التجارة مع الأسواق الواقعة على الطريق، فإنهم كانوا يتهربون من دفع المكوس والضرائب والرشاوى التى كانت تطالبهم بها كثير من المدن الواقعة فى أودية الأنهار. كما أن الأنهار نفسها لم تكن تستخدم كثيراً فى النقل. ومن المدن الواقعة عند أسفل نهرى دجلة والفرات كان المسافرون والتجار يبحرون فى النهر إلى موانىء الخليج الفارسى ليبدأوا من هناك طريق التوابل العظيم الذى يربط كل جنوب آسيا عن طريق البحر. ولكن أعالى الأنهار لم تكن صالحة للسفر. فهناك الفيضانات فى فصل الربيع والمجارى المائية المنخفضة قليلة الماء فى الأوقات الجافة من السنة. ناهيك عن دوّامات الفرات وأمواج دجلة الشديدة. والشىء الأكثر خطورة هو أن

ضفاف الأنهـار كانت مأوى للقراصنة المستـعدين دائماً للانقضـاض على المسافرين. ولندرة الأخشاب فى المنطقة، فإن الأطواف التى تسيـر مع تيار النهر كانت تقـوم فى الغالب على جلود الحيوانات (القرب) المملوءة بالهواء، وهى غير مأمونة وكثيراً ماكانت تنفجر.

وطريق الصحراء الكبـرى هو الآخر كان به «قراصنة»، إلا أنهم فى كثيـر من الأحيان كانوا على استعداد لاستبـدال دور قاطع الطريق بدور من يوفر الحماية، بشرط أن يدفع لهم مبلغ كاف من المال. وكما هو الحال بالنسبة لأهل الجبال الذين يقومون على حراسة الممرات الاستـراتيجية، كـان لصوص الصحـراء يحصلون على جزء من أقـواتهم مما يدفع لهم كى لايهاجموا المسـافرين. وكان ذلك إما على هيئة جزء من البـضائع أو رسوم على كل حمل من الأحمال. وفى بعض الأحـيان كان يرسل مع القافلة «جواز مرور بشـرى» لتوضيح أن الرشوة المعلومة قـد دفعت للقبيلة المسيطرة على المنطقـة، وكانت تعتبر وقتـها أن أى هجوم على القافلة اعتداء عليها. وفى فترات كثيرة، كانت فيها قبائل الصحراء تنعم بقدر وافر من السلام، كان هذا النظام معمولاً به بصورة جيدة. وفى بعض الأوقات، وخاصة فى العصور اليونانية الرومـانية، كانت هذه المنظقة تعـيش فى سلام أدى إلى امتداد الطرق المنتظمـة عبر الصحراء نفسها فى اتجاه البلدان الساحلية. وهناك طريق كثر استخدامه فى تلك الفترة، وهو الطريق الذى كـان يبدأ من مـدينة دورا أوروبوس الحـدودية فى أعالى نهـر الفرات مـروراً بالصحراء حتى واحة تدمر (مـدينة النخيل). ففى هذا المكان الواقع بين تلين، حيث تتدفق العيون الكبريتيـة المانحة للحياة، نشأت مدينة عظيمة ذات شـوارع طويلة تقوم على جوانبها الأعمدة والكثير من المعابد والمصارف والأضرحـة. وكان نفوذ التدمريين شديداً، حتى أنهم كانوا فى وقت من الأوقـات دولة عازلة شبـه مستقلـة بين الإمبراطورية الرومـانية مترامـية الأطراف وجيرانها الشرقيين على طريق الحرير.

[illegible] يقطع الصحراء يبدأ من بابل ويسير فى أراض أشد جفافاً ليصل [illegible] مدينة ذات جمال جذاب حفـرت فى الصخور الذهبية والوردية والخضراء [illegible]تنه للرمادى. إنها حـصن طبيعى يشكله واد ضيق تلوذ به القوافل بعد عـبور الصحراء. وفى القرون الأولى كانت البتراء واحدة من أهم مدن آسـيا التى تتقاطع عندها الطرق. فقد كانت مـركزاً تتجمع فـيه وتنطلق منه الطرق فى كل الاتجـاهات. وإلى جانب الطريق الذى يقطع الصحراء، كانت البتراء وثيقـة الاتصال بميناء إيلة القريب عند رأس خليج العقبة على البحـر الأحمر. ومن خـلاله كانت تتصل بطريق التـوابل العظيم فى الشرق. ومن البـتراء

كانت القوافل تنطلق إلى الساحل وإلى غزة وإلى مصر (وخاصة الإسكندرية) وإلى مدن صور وصيدا وبيبلوس (جبيل) وبيروت الفينيقية، التى كانت بمثابة مراكز تنوير وموانىء توزيع لعالم البحر المتوسط بأسره. ولكن البتراء، التى ربما تكون أهمها، كانت تقع على طريق البخور، وهو طريق قوافل داخلى عظيم يبدأ من جنوب الجزيرة العربية قاطعاً إياها شمالاً إلى دمشق ثم يسير مع المنحنى الداخلى الغربى للهلال الخصيب ليصل إلى حلب وأنطاكية.

وأى من هاتين المدينتين لم تكن بمثابة نهاية لطريق الحرير وحده، بل كانت أيضاً نهاية لطريق البخور. كانت حلب مدينة عربية فى المقام الأول، أُقيمت على مرتفع صخرى بجوار أحد الجداول. وسيطرت حلب على أراضٍ ريفية شبه قاحلة تحيط بها. وكانت علاقاتها الأساسية مع طرق القوافل الداخلية، حيث إنها تقع على بعد سبعين ميلاً من البحر المتوسط. أما أنطاكية فكانت مدينة يونانية رومانية ذات تأثيرات مسيحية قوية. وقد استفادت أنطاكية من نسيم البحر المتوسط لوجود ممر فى الجبال التى تحجبها عنه وتستخدمه القوافل الآتية من الشرق. وكانت شهرة جو أنطاكية الصحى وجمالها سبباً فى أنها كانت منتجعاً صيفياً للهاربين من الساحل الرطب الذى تكثر فيه الملاريا، أو الحر اللافح فى الأجزاء الداخلية. ومن موقعها على نهر العاصى، كانت السفن فى الغالب تنقل البضائع لمسافة ثمانية عشر ميلاً إلى البحر المتوسط، حيث تقع سلسلة من الموانىء. وفى العصرين اليونانى والرومانى كان الغلبة لأنطاكية. إلا أن حلب، وهى أقدم بكثير، استعادت أهميتها فى العصر الإسلامى. وتعود شهرة المدينتين وثراؤهما إلى التقاء الفرع الغربى من طريق الحرير وطريق الصحراء الكبرى وطريق البخور القادم من الجزيرة العربية عندهما.

ولكن هذه الطرق الصحراوية المؤدية إلى البحر المتوسط كانت تتطلب سلاماً، وهو سلعة نادرة فى أغلب الأحيان. فعندما تتقاتل قبائل الصحراء وعشائرها فيما بينها، فإن الرشوة التى تدفع لإحداها يكون تأثيرها ضعيفاً على من سواها. لذلك فإن جيشاً من الرماة لم يكن كافياً لمصاحبة أى قافلة. وفى ذلك الوقت كان المسافرون على طريق الحرير يفضلون السير فى مسالك أخرى. فمن بابل كان كثير من المسافرين يسيرون مع المنحنى الداخلى لنهر دجلة، الذى ظهرت فيه العديد من المدن على مر التاريخ ثم انهارت. ومن أشهر هذه المدن آشور ونينوى (الموصل)، وهما أهم مدن الإمبراطورية الآشورية. وكانت هناك تفريعة أخرى من طريق الحرير تبدأ من عند همذان على الهضبة الإيرانية وتتجه مباشرة إلى نينوى. ومن

هناك كان الطريق يدور حول الهلال الخصيب مع الحافة المرتفعة من هضبة الأناضول ليصل إلى حلب وأنطاكية.

وفى عصور كثيرة كان المسافرون يضطرون إلى تجاوز هاتين المدينتين ويصعدون هضبة الأناضول عند نقطة معينة فى هذا المنحنى، الذى يقع إلى الشمال منهما، ثم يتوجهون إلى الموانىء الكبرى على بحر إيجه، وهى ميليتوس أو إفسوس أو سميرنا (أزمير حالياً) أو فوسية أو طروادة، التى قد تكون شهرتها فى الإلياذة أكثر ارتباطاً بالطرق التجارية منها باختطاف ملكة. وفيما بعد صاروا يقصدون بيزنطة (التى أصبح اسمها القسطنطينية وتسمى الآن استانبول) وميناءى البحر الأسود سينوب وترابيزوس (التى صارت تريبيزوند والآن أصبحت طرابزون). وطرق هذه المنطقة موغلة فى القدم. ففى أعالى دجلة اكتشف علماء الآثار مدينة عمرها عشرة آلاف سنة تحتوى مبانيها على كتل حجرية مسطحة تزن طناً. ولابد أن هذه الحجارة جلبت من خارج المنطقة. وفى العصور القديمة كانت هضبة الأناضول مقصداً يساوى فى أهميته بلاد مابين النهرين. وكان طريق الحرير يمر خلالهما.

وفى الأوقات التى كان يشتد فيها التنافس فى السهول كما حدث فى زمن ماركو بولو، كان المسار الرئيسى للطريق يظل بالكامل فى المرتفعات، حيث كان ينحرف عند تقاطع همذان فى اتجاه الشمال الغربى حول بحر قزوين ليقطع الجزء المعروف الآن بأذربيجان ويصل إلى مدينة تبريز القديمة. ومن هناك يسير فى مرتفعات أرمينيا، بالقرب من بحيرتى أورميا وفان عند جبل أرارات (الذى يقال إن سفينة نوح عليه السلام رست عليه)، ليصل طرابزون المؤدية إلى أوروبا عن طريق البحر الأسود ومسالك البحر المتوسط. وفى بعض الأحيان كان الرحالة المحدثون يسمونه الطريق الذهبى إلى سمرقند.

إلا أن هذا الطريق ليس قريباً كما يبدو على الورق. فالتلال شديدة الانحدار والطقس متطرف، حيث الجليد الذى يجعل الطريق غاية فى الخطورة جزءاً كبيراً من السنة. وفى كتابه «أرمينيا» الصادر فى أوائل القرن التاسع، كتب الرحالة الإنجليزى روبرت كرزون عن صعوبة الطريق بين طرابزون، الواقعة على صخرة مرتفعة تشرف على البحر الأسود، ومدينة أرضروم، مركز القوافل الرئيسى على الطريق الجبلى من إيران أو بلاد فارس (وكانت فى أيام كرزون المكان الوحيد الذى يمكن الحصول منه على خيول مستريحة بين بلاد فارس وتركيا). وأشار كرزون إلى التلال التى تغطيها الثلوج قائلاً:

... كان الطريق يتكون من سلسلة من الحفر، عمق كل منها ست بوصات تقريباً. ويفصل بين كل واحدة والأخرى ثمانى عشرة بوصة. وكان عرض المدق ست عشرة بوصة.

وعندما هبطوا من على طريق المرتفعات هذا، الذى أطلق عليه السكان المحليون بحق اسم «السُّلَّم»، كانوا «يندفعون إلى أسفل وينزلقون ويسقطون فى الحفر العميقة ويخرجون منها». وكانت قافلة كرزون محظوظة، إذ كانت خيولها واثقة الخطى فوصلت بسلام. إلا أنه وصف رؤيته لمجموعة من المسافرين الفُرس الذين حل بهم البلاء على الطريق:

... كانوا يجلسون صفاً على حافة هاوية ينظرون فى أسى إلى عدد من الخيول التى تحمل متاعهم وقد سقطت فيها وكانت تتمرغ فى الجليد الواقع أسفل منهم بمئات الأقدام. وحسبما قُدِّر لى أن أرى، لم يبد أنها نفقت، حيث إن الجليد قد خفف الصدمة.. [ولكن] لم يبد أن هناك أى احتمال للصعود بها [على الطريق] مرة أخرى... وأحسب أن خيولهم نفقت من التجمد قبل أن نبعد عنهم كثيراً.

ولم تكن الخيول وحدها من يلقى هذا المصير. إذ يمضى كرزون قائلاً:

كثيراً ما كان يؤتى بالجثث المتجمدة إلى المدينة. ومن الأمور الشائعة فى فصل الصيف، ومع ذوبان الجليد، أن يُكتشف العديد من جثث من هلك من البشر وجيف ما نفق من الخيول فى الشتاء المنصرم. وكان ذلك حدثاً معتاداً، لدرجة أنه كانت هناك عادة، أو قانون، فى جبال أرمينيا، وهى أنه مع كل فصل صيف يخرج القرويون إلى أكثر الممرات خطورة ويدفنون الموتى الذين كانوا متأكدين من وجودهم. وكان لهم حق قانونى فى ملابسهم وسلاحهم وعدة الخيل، بشرط إرسال كل بالات البضائع والخطابات والطرود إلى الأماكن المرسلة إليها.

لم يكن طريقاً سهلاً بأى حال من الأحوال. وفى هذا بعض التفسير لغلبة طرق الصحراء السورية الموصلة إلى البحر المتوسط، بغض النظر عما قد يحف بها من أخطار.

وفى نهايــة المطاف كان المسافـرون عبـر هضبة الأناضـول يصلون القسطنطيـنية، التى يعرفهــا اليونـان ببيزنـطة والمسـلمـون فيما بعـد بإستانبول أو إسطمبـول، براً أو بحراً عن طريق طرابزون. ورغم وجود القسطنطينية بالفعل فى أوروبا، لوقوعها على الجانب الشمالى من البـوسـفور، وهو الخـط التقليـدى الفـاصل بين القارتين، فـإنهـا ظلت زمناً طويلاً، ومازالت حتى اليوم، مدينة آسيوية الشخصـية. وبسبب وقوع المدينة على شبه جزيرة يسهل الدفاع عنها ويحـدها ميناؤها الهلالى الشهير بـالقرن الذهبى، فقد وسعت تحصـيناتها البرية مرات عـديدة مع نموها. وفى النهاية صـارت هذه المدينة ذات السبعـة تلال (مثل نظيـرتها رومـا) فى مأمن من أى هجـوم برى، لأنها تحـتـمى خلف ثلاث مجـموعـات كبـرى من الأسوار. وبعد انهيار روما فى الغرب، ظلت القـسطنطينية لقرون عديدة المحطة الأخيرة فى طريق الحرير.

***

وهكذا قطع طريق الحرير الصحارى والجبال ليربط الصين بعالم البحر المتوسط. ويعود هذا الفضل إلى طريق السهوب الأوراسية. وتقع السهـوب الأوراسية شمال الصين، شمال تيان شـان وبيه شان، وشـمال بحار الأرال وقزوين والأسـود وشمال جـبال وسط أوروبا. وهى سهل فسـيح يمتد لمسافة تزيد علـى الثمانية آلاف ميل من المحـيط الهادى إلى المحيط الأطلسى.

وكانت هذه السـهوب متـسعة ومـستوية لتـبدو وكأنها خـلقت من أجل العربات ذات العجلات. وربما يكون البدو الذين عاشوا هناك آلاف السنين أمضـوا جزءاً كبيراً من حياتهم فى موقع السلطة. إلا أن بيـوتهم وكل متعلقـاتهم كانت تحملها عـادة عربات كبيـرة تجرها الثيـران فى الغالب. وفى القـرن الثالث عـشر كتب الراهب الأوروبـى ويليام دى روبروك وصفاً شيقاً للحياة على العربات فى السهوب المكشوفة:

تقـود امـرأة واحدة ثلاثين أو أربعين عـربة لأن الأرض منبسطة. إنهم يربطون العربات معاً وتجرها الثيـران أو الجمـال واحدة وراء الأخرى. وتجلس المرأة فى العربة الأولى وتقود الثيران فى حين تتبعها العربات الأخـرى. وإذا تصـادف وصولهـا إلى جـزء سيىء من المدق فـإنهم يفصلونها ويعبرون بها الواحدة وراء الأخرى. وهى تسير ببطء شديد، كما يسير الخروف أو الثور.

وكان المسافرون فى السهوب يشعرون بقدر أكبر من الراحة. فلم يكونوا مضطرين للسير بصعوبة فى الرمال المتراكمة أو عبر الجبال وهم يحملون فى بعض الأحيان شيئاً من متاعهم بأنفسهم (أو يستخدمون حمالين محليين للقيام بذلك) فى الممرات الصعبة. وعندما كانت حركة السفر نشيطة على طريق السهوب، خاصة فى العصور المغولية، كان بإمكان المسافرين الحصول على العربات والدواب من السكان المحليين الذين كان عملهم هو تأجيرها، فى الأماكن التى لاتلزمهم الحكومة بتأجيرها.

وفى وصفه للممر الواقع بين سراى شمال بحر قزوين ومراكز القوافل على نهر جيحون، يبين الرحالة المسلم ابن بطوطة من القرن الخامس عشر الميلادى أن السفر فى السهوب، وحتى المرور فى مناطق صحراوية مثل قيزل قوم، لم يكن شاقاً جداً بالنسبة للمسافرين، مهما كان احتمال صعوبته على الجمال:

ثم سرنا منها [السرا] ثلاثين يوماً جاداً لا ننزل إلا ساعتين إحداهما عند الضحى والأخرى عند المغرب. وتكون الإقامة قدر مايطبخون الدوقى ويشربونه.. وكل إنسان إنما ينام أو يأكل فى عربته حال السير، وكان فى عربتى ثلاث من الجوارى. ومن عادة المسافرين فى هذه البرية الإسراع لقلة أعشابها. والجمال التى تقطعها يهلك معظمها، ومايبقى لاينتفع به إلا فى سنة أخرى بعد أن يسمن. والماء فى هذه البرية فى مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة..

ويبدأ طريق السهوب الأوراسية من الأراضى المنبسطة الحجرية شمالى الصين. وهى خليط من السهوب شبه القاحلة والصحراء الموحشة. وكان المسافرون من بكين (بيه چنج) يسيرون عبر صحراء جوبى شمال غربى السهوب المغولية ثم يتجهون غرباً بالقرب من جبال ألتاى، ويعبرون ممر جونغاريا ليخرجوا شمال بحيرة بلخاش على السهوب القرغيزية الفسيحة كثيرة الكلأ. ومن هذا المكان كانت السهول تمتد أمامهم. ونادراً ما كانت تقابلهم أى عقبة حتى يبلغوا أوروبا. وهناك، حيث تواجههم جبال الكربات، التى تشبه عصا البومرانج[١]، ودون أن يتحملوا مشقة عبور الممرات الجبلية، كانوا يهبطون من عليها من

---

(١) قطعة مقوسة من الخشب الصلب يستخدمها سكان أستراليا الأصليون فى رشق هدف ما. ومنها ما يرتد إلى راميه. (المترجم).

جهـة الشمال إلى سهـول بولندا وألمانيا أو الجنوب إلى وادى نهـر الداتوب. وأى الطريقين يصل إلى قلب أوروبا.

وكان شمـال أوروبا الهدف الرئيسى للرحـالة المحدثين المسافرين على طريـق السهوب الأوراسية. إلا أنه فى العصور القديمة كانت حركة السفر تتجه فى الغالب إلى مدن القوافل فى تركستان الغـربية أو إلى عالم البحر المتوسط، الذى كـان وقتها مركز الحـضارة الغربية. ومن الساحل الشمالى للـبحر الأسود كان المسافرون ينطلقـون من إحدى المدن التجارية فى القرم إلى المـدينة العظيمة المـعروفة الآن باسم إسطنبـول. وهى المدخل إلى العالم الـيونانى وعالم البحـر المتوسط الأكثر اتسـاعاً. وإذا اختاروا البـقاء على اليابسة، كانوا يـسيرون بين البحـر الأسود وبحر قزوين خـلال ممر دربند الضيق فى جبال القـوقاز، الذى لولاه لكانت عقبة فى الطريق.

وكان امتـداد طريق السهوب الأوراسيـة دون أى عائق فى أوراسيا الـسبب فى أنه كان الطريق الطبيعى بين الشرق والغرب. ومن المؤكد أنه كـان طريق جيوش قبائل البدو فى كل العصور. حيث إنها كان تجتاح السهول سعياً إلى تكوين إمبراطورية. وربما كان مبتغاها أقل تواضعاً، وهو الـسعى وراء المراعى الأفضل. ومن المؤكد أيضاً أنه كـان الطريق المفضل فى تلك الفترات القليلة التى كان السفر فيهـا مأموناً، وخاصة فى العصر المغولى. إلا أنه رغم الدور المهم الذى قام به فى تاريخ أوراسيا، كطريق لبـعض الاتصالات الرئيسية الأولى بين الشرق والغرب، فإن تعرضه لخطر شعوب السهوب دائمة التنافس كان معناه أنه لايمكن أن يصبح الطريق الرئيسى للمسافرين الذين قد ينالهم الأذى.

ومن المدهش أن كـلا الطريقـين، طريق الحـرير وطريق الـسهـوب الأوراسيـة، كـانا يستخدمان بصورة بدائية آلافاً من السنين. ونحن أبناء العـالم الحديث قد نعتبر أنفسنا رحالة لانظير لنا. ولكن الشعـوب التى فتحت لأول مرة طرقاً فى أرض أوراسيـا هى من يستحق التقدير، حيث أفنت حياتها فى الترحـال والسفر آلاف الأميال وهى تشق الطرق التى تنتشر فى الأرض حتى الآن. وكانت قـبل التاريخ تفعل ذلك بدون مركبـات أو دواب تحمل عنها متاعها. إن قصتها جزء من قصة طريق الحرير التى بدأنا نعرفها من عهد قريب.

الفصل الثالث

زمن اليَشْب والبرونز

تمنى الإمبراطور مو أن يحقق طموحه عن طريق السياحة فى أنحاء المعمورة ومن خلال ترك آثار عجلات مركباته وسنابك خيله على أرض كل بلد طلعت عليه شمس.

من تعليق على

Classic of Spring and Autumn
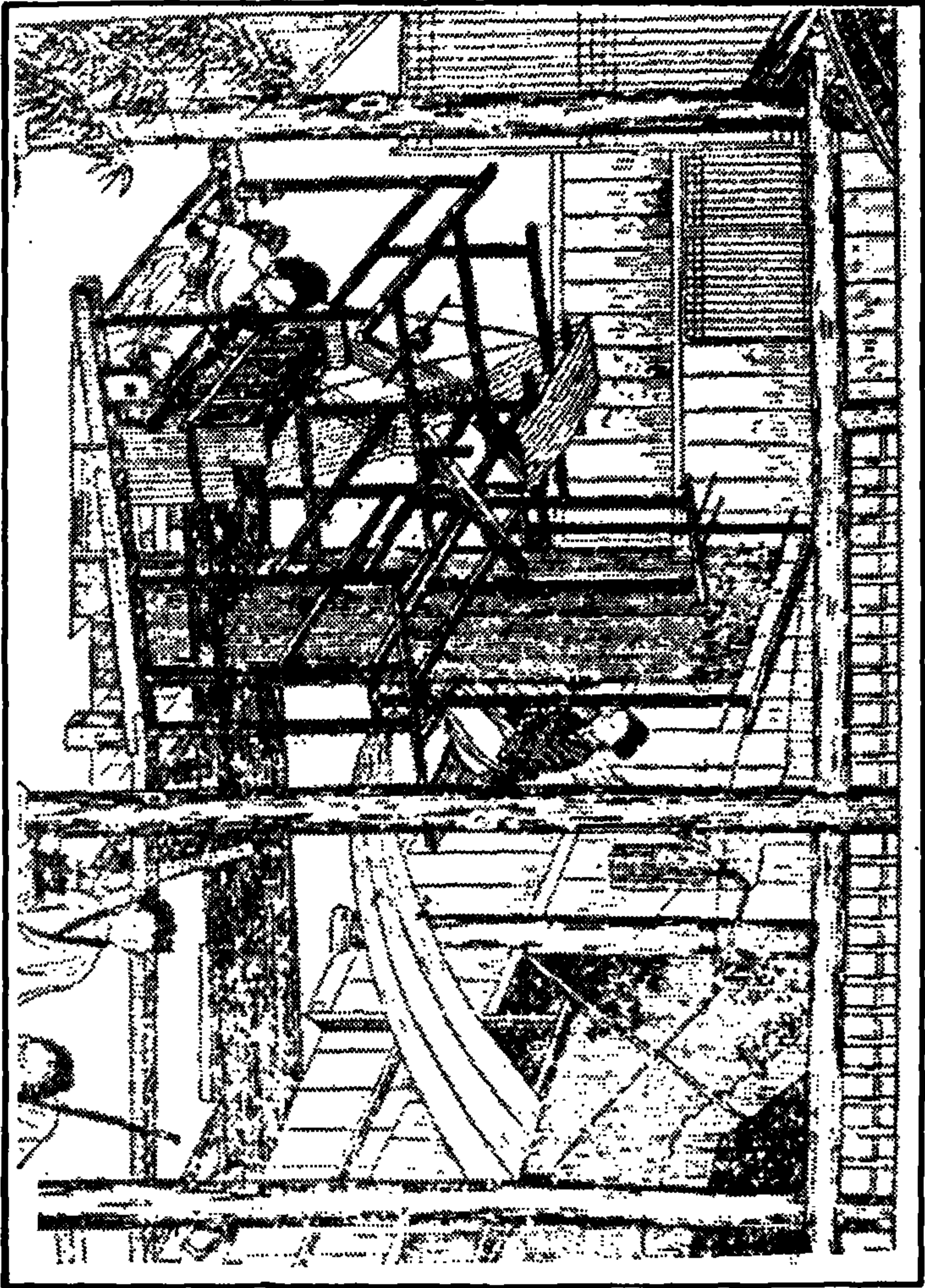
كانت الأقمشة الحريرية ذات النقوش الكثيرة تحتاج إلى أنوال كبيرة معقدة كهذا النول الصيني (من Encyclopaedia Britanica الطبعة الحادية عشرة).

لاندرى متى سافر الصينيون لأول مـرة إلى قلب آسيا الوسطى. فالروايات الصينية عن الرحلات الأولى تعد خيالاً أكثـر منها تاريخاً. ومن بين تلك الروايات «رحلات الإمبراطور مو» التى تضمنتـها مجموعة تسمى «حـوليات البامبو» كُتبت فى القـرن الثالث قبل الميلاد. ويفترض أن الإمبـراطور مو نفسه تولى الحكم خلال أسرة تشو نـحو سنة ألف قبل الميلاد. وحيث إنه كان من المعتاد فى الصين القديـمة نسبة أى إنجاز مُشرِّف للأباطرة، ويشمل ذلك كل شيء بدءاً من اكتشاف تربية دودة القز حتى اكتشاف العقاقير الطبية، فقد يكون ما أوحى بهذه الرواية هى تلك الرحلات التى قام بها بالفعل تجار ومستكشفون صينيون مجهولون ثم نسبت وقـتها إلى الإمبـراطور مو، مع بعض الإضافـات الخياليـة. (وبنفس الطريقة، وفى الفترة ذاتها تقريباً، اكتسبت الأنشطة التجـارية التى مارسها اليونان بحماس صبغة أسطورية كجزء من أسطورة هرقل).

وكشـأن معظم المسافـرين غرباً، يقال إن الإمـبراطور مو بدأ رحلـته من ممر يو، بوابة اليشـب الشهيـرة التى تميزت بـها حدود الصـين الغربـية الرئيسـية لآلاف السنـين. ووجد الإمبـراطور على السهول الواقـعة خلف الحدود أناسـاً مثله «من نسل هو تسـونج» إله نهر هوانج (الأصفر)، ذلك الوادى الخـصيب الذى كان يشكل قلب الثقافة الصـينية. ولقى مو ترحيـباً من الملوك المحليـين الذين قدمـوا له «جلود عشـرة فهـود و٢٦ جواداً» على سـبيل الهدية. وعندما وجد مو أناساً آخرين من نسل هـو تسونج أثناء تقدمه غرباً، قدموا له المزيد من الهدايا ومنها «باى»، وهى حلية مستديرة من اليشب يتوسطها ثقب وكانت تستخدم رمزاً للمناصب الحكوميـة. وكان «الباى» يُلقى فى النهر فى احـتفال خاص، قـرباناً لإله النهر، ويلقى معه ثور وحصان وخنزير وخروف، حيث يضحى بهـا جميعاً للغرض نفسه. وتمضى الحكاية قائلة إن إله النهر خرج من الماء شاكراً وقال:

مـو أيهـا الإنسـان، لتـبقى إلـى الأبد على العرش وليكن حكمك مميـزاً بالحكمـة والازدهار... دعنى أطلعك على كنوز جـبل تشى أون وربوع كون لون الجميلة، حيث تقع أربعة سهول يخرج منها سبعون نبعاً. امض بعـد ذلك إلى جـبل كـون لون وانعم بالنظر إلى كنوز جـبل تشى أون.

وجـبل كون لون فى الميـثولوچيـا الصينـية هو مـوطن الآلهة. وهو بذلك صنو جـبل الأولمب عند اليـونان. وهو أيضاً مـوطن أنصـاف الآلهة الذين يُرجَع إليـهم فضل تأسـيس

الحضــارة الصينيــة. وكون لون هو أيضــاً (على الأقل فى العصــور الحديثــة) اسم للسلسلة المرتفعة من الجبــال التى تفصل هضبة التبت الضخمة عن حــوض التاريم. وكان الممر الذى يصل سلسلة كون لون بصحراء تاكلامكان هو طريق التــاريم الجنوبى، الذى أصبح فيما بعد أحد طرق الصين الرئيسية المتجهــة غرباً. ولم يكن اليشب الذى اشتهر به الإقليم، وخاصة حول خوتان، هو أقل مايتميز به. وقد برز اليشب فى مـغامرات الإمبراطور مو، كما تشير القصة:

... صعد الإمبراطور جبل كون لون وزار الأماكن الخاصة بهوانج دى [الإمبراطور الأصفر، الجد الأسطورى للشعب الصينى الذى تقول كتب التاريخ أنه حكم البلاد فيما بين ٢٦٩٧ و٢٥٩٧ قبل الميلاد]. ولكى يميز [الإمبراطور] الموضع الذى دفن فيه إله السحاب لتعلمه الأجيال التالية، جعل على قبره كومة من التراب... وفى آخر شهر من شهور الصيف صعد الإمبراطور جبل تشى أون فى الشمال، حيث قُدّر له أن يرى من هناك البرية وقد امتدت فى الاتجاهات الأربعة...

ويقال إن جبل تشى أون كان أكثر الجبال ثراءً فى العالم. فهو مستودع الأحجار الكريمة واليشب الثمين. وكان الموضع الذى تنمو فيه كل المحاصيل الوفيرة. والأشجار فيه باسقة والأحراج جميلة. جمع الإمبراطور بعض العينات كى يزرعها فى المملكة الوسطى [الصين] بعد عودته. ويقال أيضاً إن الإمبراطور استراح عند سفح الجبل خمسة أيام وروّح عن نفسه بالموسيقى... و[أهديت له] نساء عديدات. ويقال إن بلاد الطائر الأحمر كانت مشهورة بنسائها الجميلات ويشبها الثمين.

وتزداد القصة إثارة عندما يسافر مو إلى مــايسميه مؤرخوه «الغرب الموحش»، وهو فى طريقه لتنصيب الحكام الذين يحكمون بعض أجزاء من البلاد.

... اتجه الإمبراطور نحو الغرب قاصداً الجبل المر. وكان اسم الغرب الموحش هو حديقة الوفرة. توقف الإمبراطور للصيد حيث تذوق العشب المر. [ليست هناك أى تفاصيل أخرى تساعدنا على تخمين أى عشب هو المقصود]. ومضوا فى طريقهم غرباً حتى.... بلغوا تلك الأراضى الخاضعة لسيطرة الأم الملكية الغربية.

وتعددت محاولات ربط شـخصية ما فى غرب آسيا بـ «الأم الملكيـة الغربية» التى جاء ذكرها فى أساطيـر كثيرة يعود بعضـها إلى القرن الثامن قبل الميـلاد، وربما قبل ذلك. وقد وصل الأمر ببعض الباحثين إلى اعتبارها ملكة سبأ، التى كان يعتقد فى زمن الإمبراطور مو أنها كانت تحكم جنوب غربى الجزيرة العربية، وكانت تسيطر على طريق البخور إلى سوريا وبلاد مابين النهرين. وهل كانت الأم الملكية مستوحاة من شخصية حقيقية، واتصال حقيقى مع الغـرب، أم كانت إلهـة أسطورية، هذا أمـر قد لايتـاح لنا أبداً أن نعرفـه. إلا أنه من الواضح أن كل من أرَّخ لرحلات الإمبراطور مو كان يعتقد أن اللقاء له أهميته:

... زار الإمبراطور الأم الملكية الغربية وهو يحمل صولجاناً [حجرياً] أبيض و«پاى» أسود. وقد أهداها مـائة قطعة حرير مطرزة وثلاثمـائة قطعة من أقمشة [أخرى]. وبعد أن انحنى أمامها عدة مرات، قبلت الأم الملكية هداياه.

وفى اليوم التالى دعا الإمبراطور الأم الملكية لتناول الطعام على بِركة الزمرد. وفى هذه المناسبة ارتجلت هذه الأغنية:

تبدو الجبال والتلال
كأنها سحب تصعد للسماء.
وعلى امتداد الأرض تتناثر بلادنا
تفصلها البحار وسلاسل الجبال.
إذا قُدِّر لك طول العمر
فلتأت مرة أخرى

ورد الإمبراطور قائلاً:

عندما أعود إلى الشرق
حاملاً للملايين النظام والسلام
وعندما يتمتعون بالرفاهية وسعة العيش
سأعود إليك.
احسبى ثلاث سنوات من الآن
أعود بعدها إلى هذه البلاد.

بعد ذلك مضى الإمبراطور إلى جبال شي [الغربية] وسجل زيارته على صخورها. كما زرع شجرة تذكارية... وأطلق على المكان اسم شي وانج موشان [جبل الأم الملكية الغربية].

وعندما عاد الإمبراطور نظم قصيدة أخرى تقول:

فى ذلك الغرب الأقصى

تبسط حكمها على السهل شديد الاتساع

تصاحبها النمور والفهود

وتنام مع الغربان.

وفى طريق عودته، زار الإمبراطور العديد من الأمراء الآخرين حيث تلقى كميات كبيرة من الهدايا وقدم مقابلها الكثير. وعلى سبيل المثال قدمت أسرة تشى للإمبراطور مو:

... مجموعتين من الخيول البيضاء، تتكون كل منهما من ثلاثة، وأربعين من الخيول البرية والجاموس البرى وسبعين كلباً. كما قدموا له أربعمائة فرس وثلاثة آلاف رأس من الماشية لتؤكل.

أما الإمبراطور فقد أهدى بدوره:

... قطعة قماش مصنوعة من شعر الكلاب وتسعاً وعشرين كأساً ذهبية وأربعين حزاماً من الأصداف وثلاثمائة لؤلؤة حمراء ومائة كانج [مكيال] من القاسيا والزنجبيل.

وتقول الرواية إن أسرة تشى قبلت الهدايا بـ«الانبطاح على الأرض». وتبادل الهدايا بهذا القدر من الفخامة كان يعد فى فترات كثيرة من التاريخ نوعاً من «التجارة» بين الصينيين، الذين كانوا يفضلون المحافظة على الفكرة الوهمية الخاصة بـ«الهدايا» التى تقدم لهم والعطايا التى يقدمونها هم طواعية، وإن كان هذا النمط من التعامل قد جرى تنظيمه تنظيماً دقيقاً لكى يكون ما نسميه نحن تجارة.

وأثناء عودة الإمبراطور مو لبلاده تصحبه ست فرق من جنوده، توقف من أجل حملة صيد كبرى اصطاد خلالها «طيوراً وحيوانات لاحصر لها ولا عد». وقد نزعت «الفراء الثمينة والريش الجميل» وحملته العربات إلى الوطن. وتمضى الرواية قائلة إن الإمبراطور

أخذ لنفسه «حمل ١٠٠ عربة». ولكن حتى الإمبراطور لم يكن محصناً ضد مخاطر اجتياز الصحراء:

... كان يشعر بالعطش ولم يكن الحصول على الماء ممكناً فى الصحراء. لذلك طعن [جندى] الحصان الأيسر فى عربته فى رقبته وقدم لسيده الإمبراطور شراباً من الدم الصافى. شعر الإمبراطور بقدر كبير من الرضا وأعطاه قطعة حلى من اليشب...

وفى الختام وصلت القافلة إلى «نهاية سلسلة جبال الأحجار المتراصة»، وهو مايعنى أنهم عادوا ثانية إلى بلادهم.

ومهما كانت نسبة الحقيقة إلى الخيال فى الروايات الخاصة برحلات الإمبراطور مو، فقد يكون السبب فى إشارتنا إليها هو أنها تتضمن بالتأكيد بعض المعلومات عن شعوب آسيا الوسطى وتعطى اهتماماً لابأس به لمنتجاتها وإمكانية التبادل المستمر لها. وكانت بعض الهدايا التى تلقاها الإمبراطور، وخاصة القمح، لم تكن معروفة فى الصين من قبل ودخلتها فى هذه الفترة فقط. وتشير الأساطير الفارسية التى تعود لهذه الحقبة ذاتها إلى بعض المعلومات الخاصة بالصيد، رغم أنها هى الأخرى أبعد ماتكون عن كونها تاريخاً محققاً. وسواء سافر المغامرون والتجار الصينيون إلى آسيا الوسطى فى عهد الإمبراطور مو أم لم يسافروا، وماهو الحد الذى وصلوه غرباً إن كانوا سافروا بالفعل، فمن المؤكد أنه كانت هناك شبكة تجارية بين القبائل وبعضها، ليس فقط مع الصين وإنما مع سائر مناطق آسيا.

ولم يكن ذلك أمراً مستحدثاً. فقد كانت شعوب كل مناطق أوراسيا فى حركة واتصال مستمرين، مثل الذرات داخل بالون الهواء الساخن، منذ زمن يعود كثيراً إلى ماقبل العصر الجليدى المتأخر. إذ اتضح أن هناك تطابقاً بين الإبر والحلى المصنوعة من العظام والأسنان والأصداف، وماشابهها من آثار الشعوب التى تنتمى لثقافات العصر الجليدى فى غرب أوروبا، وتلك الآثار الخاصة بالمناطق الشمالية من الصين. وهذا التطابق من الشدة بحيث يصعب التمييز بينها، كما يقول بعض الخبراء.

وظل الاتصال مستمراً فى العصور المظلمة التالية، فى حين كانت شعوب أوراسيا تطور مهارات وتقنيات ما نسميه الآن «حضارة». ومنذ مابين عشرة آلاف إلى اثنى عشر ألف سنة بدأت هذه الشعوب فى استئناس كل من النباتات والحيوانات، وهو مايعد إرساء لقواعد الثقافتين العظيمتين اللتين انقسمت إليهما القارة الضخمة، وهما الرعى والبداوة من جهة

والزراعة من جهة أخرى، أو ما اصطلح عليه بـ«السهوب والأراضي الزراعية». ولكن إذا كان نمط حياة كل من المجموعتين مختلفاً عن الآخر، فإن الاتصال بينهما ظل قائماً، سواء من خلال الحروب أم التجارة البدائية. وأظهرت الاكتشافات الحديثة أن هذا الاتصال كان يتم بين العشائر على امتداد أوراسيا. وحيث إن بعض هذه الشعوب انتقلت من صنع الأدوات من الصوان والحجر إلى العمل بالمعادن (الذهب والفضة والنحاس ثم البرونز فى وقت لاحق ومن بعده الحديد)، فسرعان ماحذت حذوها شعوب أخرى. وأساليب صناعة الفخار، الذى تعد بقاياه غاية فى الأهمية لعلماء الآثار المحدثين، واختراع العجلة وطرق استئناس الحيوانات وفكرة الكتابة، أخذت جميعها فى الانتشار فى أنحاء أوراسيا بعد فترة من الزمن.

وتعارف علماء الآثار على رسم صورة للحركة من الغرب للشرق، حيث تنقل الثقافات الرفيعة فى الشرق الأدنى، أى فى مصر وبلاد مابين النهرين، الابتكارات إلى الصين عبر الهضبة الإيرانية وسهوب آسيا الوسطى وصحاريها. وطبقاً لوجهة النظر هذه، كانت الأجزاء الداخلية من آسيا قناة توصيل فى المقام الأول، فى حين كانت الصين خلال العصور الأولى متلقياً سلبياً فى المقام الأول. ولم تصبح لها حضارتها المميزة إلا فيما بعد. ورغم أن الخطوط العريضة لهذه الصورة قد تكون صحيحة، يرى بعض علماء الآثار فى أيامنا هذه أن هذا فيه قدر كبير من التسطيح. وهم يعتقدون أن بعض الابتكارات المهمة فى الثقافة القديمة، التى قد تكون العجلة والزراعة من بينها، خرجت من آسيا الوسطى. وبغض النظر عن اتجاه الحركة، فمن الواضح أن كثيراً من الجوانب الأساسية للحضارة شاعت فى أنحاء آسيا. فهى تارة تنتقل من شعب لآخر وتارة أخرى تحملها الشعوب جميعاً فى ترحالها.

وبما أن سكان آسيا انقسموا شيئاً فشيئاً إلى «السهوب والأراضى الزراعية»[1]، فإن تبادل التأثير بين الجماعتين أخذ ينتج عنه ظهور طرق السفر المنتظمة. فالذين يعيشون فى أودية الأنهار، التى تُروى بصورة جيدة، وفى الواحات المنتشرة فى أنحاء آسيا أصبحوا يعيشون حياة أكثر استقراراً تقوم على الزراعة. ولأنهم يشعرون بالأمن خلف أسوار مدنهم، فغالباً ماكانوا يبتكرون صناعات كالنسيج وعمل الأوانى الفخارية والمشغولات المعدنية اتسمت جميعاً بأنها أكثر تقدماً من تلك التى يقوم بها بدو السهوب. فهؤلاء كانوا يتنقلون بقطعانهم

---

(١) أى: البدو الرُّحَّل والفلاحون المستقرون. (المترجم).

بحثاً عن المرعى، حيث لم يكن نمو النباتات فى السهوب بالكثافة التى تتيح لهم الاستقرار فى مكان واحد.

ولايعنى هذا أن البدو الرحل كانوا يتنقلون كيفما اتفق، دون أن يكون لهم اتجاه محدد. فغالباً ماكان الرعاة البدو يتبعون طريقاً منتظماً للهجرة، إذ يتجهون إلى السهول فى الشتاء وإلى المرتفعات الباردة التى يكثر فيها الماء فى الصيف. إلا أنه ما أسهل تغيير هذا النمط بتغير المناخ أو عدد السكان، وهو مايدفع الجماعات إلى توسعة أراضيها على حساب غيرها. وأثر ذلك أشبه بتساقط صف من قطع الدومينو، التى تدفع كل واحدة منها التى تليها. وكان البدو الرحل يجورون على أراضى الفلاحين. غير أنه فى زمن الاستقرار كانت هجرة قبائل البدو مفيدة لكل من الرعاة والفلاحين. فالبدو يرغبون فى الحصول على سلع المدينة الفاخرة، بينما يحتاج الفلاحون المستقرون إلى المواد الخام اللازمة لصناعاتهم. وكان البدو يحملون هذه السلع على ظهور الدواب التى يرعونها فى هجراتهم الموسمية. لذلك كان البدو فى العصور القديمة جداً يأتون للمدن بالنحاس والقصدير والفيروز من إيران وبالذهب من جبال ألتاى فى منغوليا وباللازورد من أفغانستان وبالفراء من سيبيريا وبالقطن من الهند، إلى جانب منتجاتهم كالصوف والجلود والماشية. وأثناء قيامهم بذلك شقوا الطرق الرئيسية فى أنحاء آسيا، ومنها طريق الحرير.

ولاينبغى أن تتخيل أن هذه الاتصالات والمقايضات كانت تتم بالضرورة بطريقة تتسم بالمنطق أو النظام. فأى صفقة تجارية جيدة كانت تعقدها الشعوب القديمة يمكن أن تكون التسمية الأدق لها هى الحرب أو السرقة، حيث كانت تحصل على ماترغب فيه بقوة السلاح أو على سبيل غنائم النصر. بل إن بعض الشعوب أعطت السرقة صفة رسمية على أنها «تجارة قرصنة». فكانت إحدى المجموعات تنقض ليلاً وتستولى على الطعام أو غيره مما ترغب فيه. وغالباً ماكانت تخرب سلعاً أخرى فى الصفقة. وبعد ذلك تترك ماتعتبره ثمناً عادلاً قبل أن تغادر المكان.

وهناك شكل تقليدى آخر من التجارة البدائية لم يقتصر على أوراسيا وحدها، بل ذاع فى أنحاء العالم. ويسمى هذا الشكل التجارة الصامتة وكذلك المقايضة البكماء. ففى أحد الأماكن المناسبة التى تم الاتفاق عليها ضمناً، يضع أحد طرفى التجارة البضاعة التى يرغب فى مقايضتها ويغادر المكان. بعد ذلك يظهر الطرف الآخر ويضع مايشعر أنه مساو لذلك من البضائع. ثم يعود الطرف الأول. ويتناوب الطرفان فى الظهور ويضيفان إلى أكوام

البضائع أو ينقصان منها، إلى أن يرضى كلاهما بالمقابل. بعد ذلك يرحل كل منهما ومعه بضاعة الآخر. وكانت هذه العملية تتم بالكامل دون أن يتكلم الطرفان أو أن يلتقيا وجهاً لوجه. ولكن الشيء المؤكد أن هذا النمط يوحى بأن هناك دائماً قدراً من الثقة، وإن كان محدوداً.

ولم تتوصل شعوب أوراسيا إلى تجارة تتسم بقدر أكبر من المباشرة إلا بعد مضى زمن طويل. وكان ذلك من خلال التجار الجوالين والأسواق التى تقام فى أوقات وأماكن ثابتة.

***

فى حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد بدأ الرعاة استئناس الحيوانات التى كانوا روضوها كى تصبح دواب حمل تستخدم فى تجارة المسافات البعيدة. وقد استؤنست حمير النوبة البرية التى جيء بها من أعالى النيل. وسرعان ما انتشر استخدامها فى الساحل الشرقى للبحر المتوسط ومنطقة الهلال الخصيب والهضبة الإيرانية ثم فى شمال الصين فى وقت لاحق. وكانت الحمير عماد القوافل فى غرب آسيا فى تلك القرون البعيدة. وفى الفترة نفسها، وفى السهوب الأوكرانية الواقعة شمالى البحر الأسود وبحر قزوين غالباً، تم استئناس الخيول البرية. وكانت تلك خيول صغيرة الحجم لايزيد ارتفاعها على أربعة أقدام، أقرب لخيول برزفالسكى البرية الموجودة حالياً. كان الغرض منها فى البداية هو أكل لحومها والاستفادة من بعض المنتجات الفرعية الأخرى، كما هو الحال بالنسبة للماشية. ولكن بعد أن أنتج البدو فى آسيا الوسطى سلالة أكبر حجماً وأشد قوة، كان هذا الاستئناس سبباً فى حدوث ثورة بعد عدة قرون.

وفى الوقت نفسه كانت الشعوب المقيمة فى النصف الغربى من طريق الحرير تبتكر اتصالات بعيدة المدى تتسم بأنها أكثر تطوراً. وفى حين ظهرت إمبراطوريات وأسرات ثم انهارت، يبدو أن العلاقات التجارية امتدت واستمرت. وظهرت طبقة من التجار فى الأماكن التى كانت فيها التجارة من قبل عارضة وغير منتظمة. وكانت المعادن الثمينة، كالنحاس والقصدير، وهما المكونان الرئيسيان للبرونز شديد الأهمية، يؤتى بها منذ زمن بعيد إلى بلاد مابين النهرين من الهضبة الإيرانية. وبحلول سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد بدأ وصول الجواهر والأحجار الكريمة والمعادن، مثل الألباستر والعقيق الأحمر والأصداف والزجاج البركانى والحجر الزجاجى الأسود (المستخدم فى صنع السكاكين الحادة جداً). وقد

انضمت هذه إلى الأحجار شبه الكريمة، مثل اللازورد الذى كان يؤتى به عبر الطريق نفسه. أما الأخشاب فكانت تأتى من جبال إيران، حيث كانت تكثر فيها الغابات فى ذلك الوقت. وبذلك توافرت مواد البناء لبابل وغيرها من مدن بلاد مابين النهرين. فى حين كانت أجزاء من معابد بابل وسومر تُشيَّد من الرخام وغيره من الأحجار التى جُلبت من هضبة إيران المرتفعة.

وفى ذلك العهد البعيد، يبدو أن تجار بلاد مابين النهرين أقاموا مراكز فى المدن الواقعة على الطريق الإيرانى لجمع منتجات الرعاة وعمال المناجم والمزارعين المحليين. وكانوا ينقلون تلك المنتجات إلى غرب آسيا للتجارة فيما بين المدن الكبرى فى مصر والشرق الأدنى وبلاد مابين النهرين. وبينما تنقل بعض التجار بين المدن التى يقيمون بها والأماكن التى يحصلون منها على بضائعهم، استقر غيرهم فى المدن البعيدة. وغالباً ماكانوا يقيمون فى ذلك الحى المخصص للأجانب. وهناك أقاموا علاقات دائمة مع الموردين المحليين وعملوا كوسطاء بينهم وبين التجار الجوالين. ولولا ذلك لاضطروا إلى إقامة العلاقات من جديد فى كل زيارة (وكل زيارة وأخرى تفصل بينهما شهور أو سنوات). بل يبدو أن بعض المدن الواقعة على الهضبة الإيرانية تحولت إلى مراكز للإنتاج بصورة أو بأخرى. وإحدى هذه المدن كانت تنتج نوعاً من السلاطين الحجرية التى يبدو أنها كانت تُعد للتصدير، إذ أنها كانت أكثر شيوعاً فى بلاد مابين النهرين منها فى إيران. وكانت السلاطين الإيرانية تتجه أيضاً ناحية الغرب، حيث وجدت فى بلاد فرغانة المستقرة اعتباراً من سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد تقريباً. وفى تلك القرون كانت الأنماط توضع كى يتبعها الجيل وراء الجيل من التجار على طريق الحرير.

والتجار المقيمون فى المحطات التجارية البعيدة كانوا معرضين للأخطار، كما هو الحال بالنسبة لخلفهم فى الزمن الحالى. وكثير من السجلات التى بقيت من الحضارات القديمة فى بلاد مابين النهرين عبارة عن وثائق تجارية. ويتحدث بعضها بكل وضوح عبر آلاف السنين عن مخاطر التجارة والرحلات التى تقطع مسافات طويلة. وكتب أحد التجار من محطة على الهضبة الإيرانية يقول:

منذ وصولى إلى هنا وأنا فى هم والبلاد كلها فى هم. فلا تأت هنا فى عامنا هذا... وإلى أن أرسل لك رسالة، لا تأت! ومن الأفضل أن تعود إلى صوصا.

وكتب آخر يقول:

عندما دخلت [المدينة البعيدة]... أخذ صبى الحمار ورحل. وزاد الأمر سوءاً عندما مرضت وكنت على شفا الموت. أما فيما يتعلق بالجارية التى كنت سأرسلها لك فقد ماتت... لقد قلت لى: «سأجعل المانوسف، أخاك، يحضر لك ١٢ مينا من الفضة مع حملة تأتى بعدك». أرسله بحق السماء! لا تؤخره أكثر من ذلك. وما إن أنتهى من أعمالى هنا حتى أكون فى الطريق إليك. لاتقلق، فأنا فى صحة جيدة. توجد هنا جارية عرضتها على المسافرين، ولكن أحداً لم يقبلها منى، إنهم يقولون: «الرحلة محفوفة بالأخطار».

واستمر توسيع الشبكة التجارية حتى الألف الثانية قبل الميلاد. وفى بابل، شملت قوانين حمورابى الشهيرة التجارة. وتشير وثائق تلك الفترة إلى وجود مجموعة من الترتيبات المتقدمة بعض الشىء. وفى العصور السابقة لذلك كان يبدو أن جزءاً كبيراً من هذه التجارة يتم نيابة عن القصور والمعابد، تلك المؤسسات التى كانت تملك المال وتستأجر الكثير من الصناع العاملين فى الدولة. ولكنه بقدوم عصر حمورابى[1] (إن لم يكن قبله) بدا وكأن التجار يعملون بصورة مستقلة. وكان بعضهم يقطع المسافات الطويلة المضنية بنفسه. بينما كان آخرون يستأجرون وكلاء يتاجرون لهم. وهكذا كانت قوافل الحمير المحملة بالبضائع الثمينة تجتاز صحارى الشرق الأدنى وأوديته متجهة إلى مرتفعات الأناضول وأرمينيا وإيران وتعبر السهوب إلى جبال البامير لتتجه إلى أفغانستان والهند فى الجنوب الشرقى. وكان يفضل حمل ماخف وزنه وغلا ثمنه من سلع. ولم يقتصر الأمر على مقايضة التجار لبضائعهم بالسلع المحلية، بل امتد ذلك ليشمل سلعاً جُلبت من أماكن أخرى.

وكانت الرسائل التى يبعث بها التجار وهم ذاهبون للتجارة تشير فى الغالب إلى نوعية البضائع التى سيرسلونها وتحدد مايجب عمله عند وصولهم. وكانت المعاملات التجارية فى بلاد الرافدين يتم تخليصها من خلال منظمة للتجار تسمى «كاروم». وكان التجار أنفسهم يطلق عليهم «تام كاروم». وفى نموذج لـ«الرسالة الشارحة» كتب أحد تجار بلاد مابين النهرين عن الثلاثين مينا من الفضة التى سبق وأرسلها:

---

(١) أحد ملوك بابل تولى الحكم من ١٧٩٢ إلى ١٧٥٠ قبل الميلاد، وهو مشهور بقوانينه، كما كان إدارياً كفؤاً ومحارباً شجاعاً. (المترجم).

هذه الفضة تخص أمانة كوداتوم... اشتروا سلعاً من المدينة ـ اشتروا بنصف ما لنا من فضة أقمشة من الكتان، وبنصف الفضة قصديراً؛ ولتكن مشترواتكم مناسبة ومريحة له. وعندما تشتروا، لاتشتروا القماش ذا الألوان الزاهية... أنتم إخوانى ـ وكما حافظت علس الفضة هنا، عليكم أن تحافظوا عليها هناك عندما تكلفون أحداً بشراء البضائع، وعند بوابة المدينة تصرفوا كممثلين لى، وإذا تأخر داداچا [الوكيل المكلف بإعادة البضائع] أرسلوا البضائع مع أول شخص يسافر إلينا.

وكثيراً ماتظهر عبارات «أنتم إخوانى» أو «أنت والدى»، التى لاتشير للمعنى الحرفى للكلمة، فى العديد من مثل هذه الرسائل. أما الواقع فتشير إليه الصرخات الحزينة الكثيرة، مثل «لماذا لم تفعلوا مثلما طلبت منكم؟». وكان الوكلاء يتقاضون أجرهم عادة قطعة من البضائع. وكان السائسون الذين يرعون الحمير ويعتنون بالبضائع طوال الرحلة يتلقون بعض لفائف القماش مكافأة لهم.

وخلال شبكة تجار كهذه، كانت البضائع تأتى من أماكن بعيدة كالهند وهندكوش وجبال البامير فى قوافل تسير فيما نطلق عليه الآن طريق الحرير عبر الجسر الإيرانى مروراً بوسط بلاد مابين النهرين، شديد الأهمية بالنسبة لإقليم بابل، ثم تسير عبر الهلال الخصيب إلى مدينة حلب القريبة من ساحل سوريا لتبلغ مدناً أخرى على البحر المتوسط. وكانت التجارة تنعم بقدر كبير من الحظوة لدى كل من يهتم بها، مماجعل التجار ينزلون أثناء سفرهم ضيوفاً فى قصور البلاد التى يفدون إليها. وغالباً ماكان يتولى الأمراء المحليون حماية الأمن فى الطرق الواقعة داخل مناطق نفوذهم. كما كانوا يساعدون التجار بتوفير المخازن وإعانتهم على تحصيل الأموال التى يدين بها سكان الدولة لهم. إلا أن هؤلاء الأمراء كانوا عادة مايطالبون بمقابل لتوفير هذه الحماية. وكان ذلك يجرى فى بعض الأحيان بصورة غير مباشرة.

وعندما كانت الموانع الجغرافية تجبر المسافرين على السير فى طريق بعينه، أو عندما كان أحد الأقاليم يحتكر منتجاً حيوياً عليه طلب شديد، كالقصدير أو الذهب، كان للحكام المحليين نفوذ كبير فى علاقاتهم مع الإمبراطوريات الواقعة فى السهول ويفترض أنها أقوى وأكثر تطوراً. وكان ذلك ينطبق على شعوب الهضبة الإيرانية التى ظلت زمناً طويلاً تستخدم موقعها على امتداد طريق الحرير لكسب المزيد من الثروات والنفوذ.

إلا أن التجارة، أو بالأحرى المنتجات التى تجلبها، كانت من الأهمية بحيث دعت أكثر من إمبـراطورية فى السهول إلى إرسـال جيوشـها إلى المرتفعـات فى محاولة لتـأمين طرق التجارة وتدفق الإمدادات الحيوية. وعلى سبـيل المثال، ورد أن سرجون ملك أكاد، الواقعة فى المنطقـة التى أطلق عليها فـى زمن لاحق اسم بابل، أرسل حملة فى عـام ٢٣٠٠ قبل الميلاد تقريباً لإنقاذ مستوطنة تجار أُقيمت على هضبة الأناضول.

***

تتبـعنا افتـتاح النصف الـغربى لطريق الحـرير حتى الخط الفـاصل عند جبـال البامـير والتطورات المبكرة التى شهدها. ولـكن ماذا عن نصفه الشرقى؟ إن مانعـرفه عن هذا الجزء أقل بكثير. فلم تمض أعـمال الأثريين فى الصين وحوض التاريم بصـورة ملائمة إلا خلال المائة سنة الماضيـة، وهى فترة شهـدت فيها تلك المنطقـة حروباً أهلية وحروباً عـالمية. ولم تُكتشف حتى الآن سجلات تاريخية مكتـوبة أو روايات من الحياة اليومية، كتلك التى نراها فى غرب آسيا، تعود إلى تلك الفترة المـبكرة من تاريخ الصين. فالكتابات التى بقيت حتى الآن تعود إلى عصر قريب نسبيـاً، بالمقاييس الغربية. ولا غرابة فى ذلك، حيث إن الكتابة وصلت الصين بعد غـرب آسيا بمئات، وربما آلاف، السنين. وتعود أقدم الكتـابات الصينية إلى سنة ١٣٠٠ قـبل الميلاد فـقط. وهى عظام الكاهن الشهـيرة التى اكـتُشفت فى الـقرن العشـرين وتؤكد بوضوح بعض السـجلات التاريخـية اللاحقة الخـاصة بالأسرات الصـينية القديمة. (يحدد التراث الصينى غير المؤكد ابتكار الكتابة بما يزيد على ألف سنة قبل ذلك). والمشكلة هى أنه فى زمن أسرة تشين العظيمة فى القرن الـثالث قبل الميلاد، كان هناك جهد ضخم لتجميع وثائق الصين القديمة فى سجلات تاريخية مترابطة ومتصلة. ولكن مايؤسف له أن الحكام فى الوقت ذاته دمـروا العـديد من الوثائق التى كـان يعـتمـد عليـهـا كاتبـو السجلات. لذلك فإن لدينا أعمالاً قليلة نسبياً تعـود إلى ماقبل عصر تشين، كُتب معظمها فى الفترة من القرن التـاسع إلى القرن السادس قبل الميلاد تقريباً. وهى تعتـمد على أعمال أقدم منها وعلى التراث الشفاهى، وكلها مفقودة الآن. وهذه أسس لاتكاد تقوى على رسم صورة للنصـف الشرقى من طريق الحرير. إلا أنـها ليست عـديمة الفائـدة، إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الأساطير والخرافات قد تقـوم على شىء من الواقع، كما هو الحال بالنسبة لقصة طروادة التى رواها هوميروس.

ويتحـدث الكثير من هذه الحكايات، مـثل حكاية الإمبراطور مـو، عن شي وانج مو،

الأم الملكية الغربية. حيث تظهر دائماً متمتعة بمعرفة أو قدرات غير عادية وتعيش فى مكان أشبه بالبستان، يسمى أحياناً أرض الزهور. وتوجه الدعوة إلى مجموعة مختارة من البشر، وكذلك من غير البشر، لتناول الطعام على مائدتها. ويحث البطل الأسطورى القديم هو آى، وهو أشبه بهرقل عند الإغريق لكونه نصف إله ونصف إنسان، عن الأم الملكية الغربية ليحصل منها على حبوب تجعله مخلداً. وفى حكاية أخرى أعطت شي وانج مو مبعوثين صينيين بعض الخواتم المصنوعة من اليشب وبعض أقماع الخياطة (الكستبان) من اليشب الأخضر وخرائط طبوغرافية. ويفترض أن بطلاً أسطورياً آخر تعلم على يديها. ويقال إن ممثلاً واحداً على الأقل للأم الملكية الغربية زار البلاط الصينى وأحضر معه هدايا من اليشب الأبيض.

وطبيعى أن تتضمن هذه القصص الأسطورية أوصافاً خيالية لأشياء غريبة، كالحمار الذى يمكن «طيه» عندما لايستخدم، أو المرأة التى تحمل عندما تسير على آثار أقدام أحد العمالقة. إلا أن الإشارات الكثيرة إلى البضائع والمعرفة الآتية من الغرب يعنى احتمال وجود اتصالات للصينيين بالخارج عن طريق ممر كانسو، وعلى الأقل جزء من الطريقين الواقعين شمال حوض التاريم وجنوبه، فى عصر قديم جداً. وربما سافر بعض المواطنين الصينيين بالفعل (وهو ماقد يكون صحيحاً فى العصور القديمة أيضاً)، وهذا يعطى حكايات هذه الرحلات النادرة صبغة خيالية تتزايد مع تناقلها عبر الأجيال. وإذا كانت الخبرة اللاحقة توفر نمطاً ما، فإن هناك احتمالاً أكبر بأنه فى وقت مبكر جداً نشأت مجموعة من تجار آسيا الوسطى مارست التجارة على الطريق الممتد بين الشرق والغرب وأصبح معروفاً فيما بعد باسم طريق الحرير. وفى ذلك الزمن البعيد، ربما كان من الأفضل أن يسمى طريق اليشب. فكما تشير القصص الصينية، كانت قيمة اليشب مرتفعة وكان يوصف بأنه يأتى من الغرب.

ونحن هنا لسنا مضطرين للاعتماد اعتماداً تاماً على أساطير الماضى التى تناقلها الناس كثيراً. فاليشب نفسه شاهد على حركة التجارة. وهو اسم شائع لنوعين من الأحجار الكريمة، لكل منهما ألوان عديدة. الأول هو الجاديت وهو متوافر بكل ألوان الطيف بما فيها الأبيض والأسود. وهذا الحجر شديد الندرة ويوجد بصورة أساسية فى بورما. ويبدو أنه لم يكن معروفاً فى الصين حتى القرن الثامن عشر الميلادى. والنوع الثانى هو النفرين، ويسميه الصينيون «جوهرة السماء» وتتدرج ألوانه بين الأخضر الداكن، وهو غالى الثمن، وبقية درجات الأخضر الفاتح (ويتوقف ذلك على كمية الحديد الموجودة فى الحجر) حتى اللون الأبيض شبه الشفاف الذى يسمى أحياناً دهن الضأن.

تلك هى أنواع اليشب التى كان يرغبها قدماء الصينيين. وقد بدأ ظهورها فى الصين حوالى سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد وربما قبل ذلك. ولكن النفرين لايظهر بصورة طبيعية فى الصين نفسها. ومن المؤكد أنه لم تستخرج كميات لها قيمتها فى تلك الأزمنة البعيدة. بل إن هناك اعتقاداً بأن أنواع اليشب هذه تأتى من الجبال القريبة من خوتان ويرقند، على بعد ١٥٠٠ ميل عبر حوض تاريم. (ولايمكن تحديد مصادر اليشب كيميائياً بصورة مؤكدة، لأن تكوين اليشب يتغير بعض الشىء بمرور الزمن). لذلك فإنه من المحتمل أن النصف الشرقى من طريق الحرير، الذى اصطلح المؤرخون على أنه افتُتح فى القرن الثامن قبل الميلاد، كان فى واقع الأمر طريقاً تجارياً طوال ألفى سنة قبل ذلك.

وكون اليشب ذا أهمية فى الحضارة الصينية منذ أقدم العصور يتضح فى أساطير البلاد وخرافاتها. وكما تشير حكاية رحلات الإمبراطور مو، كان اليشب يستخدم على نطاق واسع لأغراض تتعلق بالمراسم. وكانت الفروق بين مراتب موظفى الإمبراطورية تظهر من خلال درجة اليشب المستخدم فى نقش رموز مناصبهم. وكان الأغنياء يأكلون فى صحون من اليشب ويعلقون تمائم من هذا الحجر الكريم، اعتقاداً منهم بأنه يزيد فرصتهم فى الخلود. وكانت الأدوات المصنوعة من اليشب تُدفن مع الموتى، الذين تقدر أسرهم على شرائه. إذ كان يعتقد بأنه يمنع تحلل الجثمان. وبخلاف هذه الاستخدامات، كان اليشب يستخدم للزينة فى كل شىء من الحلى والتماثيل الجميلة إلى المزهريات والبارافانات التى تحمل نقوشاً محفورة.

ومع ذلك لم يكن اليشب مجرد زينة. فلأنه حجر شديد الصلابة ذو حد يصلح للقطع، فقد استُخدم أيضاً لصنع العدد والأدوات. ومن الواضح أنه قادر على قطع بعض المعادن كالحديد. وعُثر على فئوس تسمى «سلتية» مصنوعة من اليشب تعود إلى عصور ماقبل التاريخ، ليس فقط على طريق التاريم المتجه إلى الصين، ولكن أيضاً على ضفاف نهرى سيحون وجيحون وجنوب بحر قزوين وبلاد الرافدين حيث كان لليشب قيمته كذلك كأحد الجواهر، وإن لم يكن بنفس القدر الذى له عند الصينيين.

والواقع أن توزيع الأدوات والحلى المصنوعة من اليشب قد يميز طريقاً يمتد عبر آسيا، هو طريق الحرير. فقد رأينا أن تجار غرب آسيا كانوا يصلون بتجارتهم فى الألف سنة الثالثة قبل الميلاد حتى الهضبة الإيرانية وأن التجارة اتجهت من هناك إلى فرغانة حيث وجدت صادرات إيران من الفخار. ويبدو أن مكتشفات اليشب تشير إلى أنه مع بداية الألف الثانية

قبل الميلاد امتد طريق تجارى عبر آسـيا. لم يكن طريقاً متصلاً يمكن لأى إنسان أن يقطعه، وإنما سلسلة من الحلقات التجارية الكثيرة التى تربط غرب آسيا والصين عبـر مسافة قدرها خمسة آلاف ميل تقريباً.

***

كان طريق الحرير أيضاً الدرب الذى يحتـمل أن تكون الأفكار والتقنيات قد انتقلت من خلاله عبر القارة، كما هو مؤكد بالنسـبة لبعضها. وقد اصطُلح على أن الكتابة ابتُكرت فى الصين فى هذه الفـترة. فقـد قيل إنها استـوحيت من آثار أقدام الطيـور على الرمال. وهو وصف يصدق أكثر على الخط المسمارى المسـتعمل فى بلاد مابين النهرين فى ذلك الوقت، كـما أشـار كـثيـرون. ويرتبط ابتكـار الكتابة فى الـصين بحكم الإمـبـراطور هوانج دى، الإمبراطور الأصفر الأسطورى الذى اصطُلح على أنه عاش فى الفترة من ٢٦٩٧ إلى ٢٥٩٧ قبل الميلاد. وطبقاً لطريقة الصينيين فى نسبـة الاكتشافات إلى الإمبراطور، فإن الفضل يعود إليه فى الحسابات الرياضية ودورة التقويم الصينى، ومدتها ستون سنة[1]، والقوارب والنقود والطوب والبوصلة والبامبو وبعض الآلات الموسيقية والعربات التى تجرها الثيران والطب.

وبالنظر إلى فورة النشاط بصورة مذهلة فى ظل حكم الإمبراطور هوانج دى، فقد كان هناك ما أغرى بعض الباحـثين الغربيين إلى إرجاع كل الحضارة الصينية الـقديمة تقريباً إلى أصول غـربية. بـل إن منهم من تجاوز ذلك بقـوله إن هوانج دى نفسـه لم يكن شـخصـية تاريخية فحسب، وإنما أحـد الفاتحين من بلد اليشب فى جبال البامـير وأنه أحد ملوك آسيا الوسطى وقائد فـرقة من الأتباع الصـفوة ذوى العيـون الزرقاء والبشـرة البيضـاء. ولم تمتد إمبراطوريتـه شرقاً إلى الصين فـحسب، وإنما غرباً حتى بلاد الرافـدين. وقيل أنه نقل إلى الصين أجـزاء كبيرة من ثقـافة الشرق الأدنى. وتبدو وجـهة النظر هذه على قدر كبـير من التعصب والشـوفينية وتقوم على قـدر أكبر من اللازم من الافتراض. فى الوقت نفـسه اتجه كثير من الباحثين المحدثين إلى النقيض ونظروا إلى الصين وكأنها تطورت فى معزل تام عن بقية العالم. وهؤلاء يتـجاهلون الوجود المحتمل للصلات القائمـة بين القارات منذ العصور التاريخية السحيقة، وإن كان ذلك من خلال وسطاء لاحصر لهم.

---

(١) السنة فى التوقيم الصينى ١٢ شهـراً قمرياً يضاف إليها شهر نسىء سبع مرات كل ١٦ سنة، لتـعادل السنة الشمسية مع السنة القمرية فى عـدد أيامهما. والزمن فى التقويم الصينى عـبارة عن دورات كل منها ٦٠ سنة. وبدأت أول دورة سنة ٢٦٣٧ قبل الميلاد. (المترجم).

وربما تقلل وجهتا النظر هاتان من قيمة الدور الذى قامت به شعوب آسيا الوسطى. ومن أسباب ذلك قلة مانعرفه عن تلك الشعوب بصورة مباشرة. ولكن نمط التاريخ الحديث يشير إلى احتمال أن يكون تأثيرها كبيراً، عرقياً وفكرياً، على الشعوب الأكثر استقراراً على طرفى طريق الحرير. وتشير أساطير الصين، وحكاية الإمبراطور مو شاهد على ذلك، إلى أن هوانج دى ورجاله كانوا «غرباء» ولدوا خارج أرض الصين الصغيرة فى ذلك الوقت وتقع على امتداد نهر هوانج (الأصفر) وأنهم جاءوا من الأراضى الواقعة غرب ممر كانسو. وبغض النظر عن حقيقة أصول هوانج دى أو مساهماته أو حتى وجوده، فقد يكون من العدل أن نقول إنه من خلال طريق اليشب القديم جاءت إلى الصين بعض التقنيات والممارسات الجديدة من الغرب لتساعد فى إطلاق شرارة ازدهار ضخم فى البلاد.

والحرير اكتشاف آخر من اكتشافات عصر هوانج دى، وهو أكثر الاكتشافات أهمية فى موضوعنا هذا. وجرى العرف على أن فضل الحرير يعود إلى ليه تزو كبرى زوجات الإمبراطور، التى كَرَّمها الصينيون بلقب سى لنج تشى (سيدة دودة القز). وطبقاً لما هو متعارف عليه، كانت ليه تسير تحت شجرة توت فى بستانها وتصادف أنها التقطت شرنقة بيضاء من بين الأوراق. وبينما هى تلهو بها سقطت فى كوب الشاى الذى أمامها بالصدفة. ووجدت ليه أن بإمكانها سحب خيط أبيض طويل منها. والواقع أننا لاندرى كيف ولا متى بدأت تربية دودة القز. ولكن الشىء المؤكد هو أنه بحلول الألف الثانية قبل الميلاد، عندما كانت الصين تخطو خطواتها الأولى نحو عصر التاريخ المسجل، كانت تربية دودة القز قد ترسخت.

ورغم بساطة تقنيات تربية دودة القز الشديدة، ظل الغرب جاهلاً بها لقرون عديدة. وخيوط الحرير عبارة عن ألياف ينتجها نوع معين من الدود أثناء تشكيله الشرانق، التى تعد مخابىء يحتمى فيها. وفى هذه الشرانق يتحول الدود إلى فراشات. ففى خلال عدة أيام تفرز دودة القز أليافاً شديدة الوهن تلفها حول نفسها على هيئة الرقم **"8"**. وبعد فترة تتراوح بين عشرة أيام وخمسة عشر يوماً تخرج دودة القز من الشرنقة فى صورتها الجديدة كفراشة، مالم يحدث مايعوق هذه العملية. وتتقطع الخيوط أثناء ذلك. وهذه الخيوط المقطعة تستخدمها ثقافات كثيرة فى غزل خيوط حريرية خشنة. إلا أن الصينيين وجدوا طريقة للحفاظ على الخيوط سليمة. فعن طريق وضع الشرانق فى ماء مغلى وتقليب الماء بعصا متشعبة، أمكنهم إذابة البروتين الصمغى المسمى «سيرسين» الذى يمسك بالخيوط معاً.

وأتاح لهم ذلك فك الألياف على هيئة خيوط متصلة يبلغ طول الواحد منها أكثر من نصف ميل.

ولكن الخيوط التى فُكت كانت أرق وأرفع من أن تستخدم منفردة. لذلك كانت تفك خيوط أكثر من شرنقة فى وقت واحد وتضم إلى بعضها لتصبح خيطاً واحداً. وهذه العملية، وتسمى «اللف»، كانت دقيقة وتأخذ الكثير من الوقت، لأن الخيوط دائماً أقل سُمكاً وأشد وهناً عند الأطراف وتحتاج إلى توصيلها ببعضها بحرص شديد. ومع ذلك كانت معظم الخيوط تظل ضعيفة، مما أوجب برمها معاً فى عملية أخرى تسمى «الغزل»، حيث يتفاوت أسلوب البرم ومقداره تبعاً لنوع الخيط المطلوب.

وكان الخيط المغزول يلف بعد ذلك على هيئة شلات. (فى العصور الحديثة تُقتل الشرانق فى الغالب بتعريضها للبخار أو الهواء الساخن، وغالباً مايبقى السيرسين إلى مرحلة لاحقة، حيث يتمتع الحرير الخام بقوة أكبر أثناء عمليتى اللف والغزل. وبعد ذلك يمكن التخلص من السيرسين فى العادة بغلى خيوط الغزل أو الأقمشة المنسوجة أو صباغتها، وكلاهما له نفس الأثر).

وكانت مخلفات الحرير، وخاصة من الشرانق المعطوبة أو الخيوط المقطّعة، تمشط وتغزل أيضاً، وإن كان الغزل الناتج عن ذلك (شأنه شأن الحرير الخشن) أقل شفافية ولمعاناً من أنواع الحرير الفاخرة. وكانت نفايات الحرير، التى لاتصلح حتى للغزل، تستخدم كمادة عازلة فى الملابس الشتوية، وهو مايشبه البطانة الوبرية فى المعاطف الحديثة. وغالباً ماكان يُستفاد من طور العذراء، وهو مابين طورى الدودة والفراشة، بتحميره وأكله. ولكن الحرير الناعم اللامع الذى استُخدمت فى صنعه الخيوط المتصلة هو الذى جعل التجار يقطعون مسافة تقدر بنصف الكرة الأرضية.

وتتطلب تربية دودة القز الكثير من المهارات والمعرفة وتقديرالوقت والصبر والدقة. فدودة القز مخلوق مطالبه كثيرة. ودودة Bombyx mori هى أكثر الأنواع شيوعاً وتنتج أفخر أنواع الحرير الصينى وأكثرها بياضاً. وهى تعيش على أوراق التوت الأبيض، حيث تلتهم كميات كبيرة من هذه الأوراق لمدة تزيد على الشهر. وما تأكله يومياً يعادل وزنها تقريباً. وخلال هذه المدة تغير جلدها أربع مرات، قبل دخولها فى مرحلة الشرنقة. وبعض أنواع الدود تنتج حريراً ملوناً. وتتفاوت الألوان تبعاً لغذاء الدودة. ودودة القز شديدة الحساسية بالنسبة لتطرف درجات الحرارة والضوضاء وكذلك الروائح. والذين كانوا يرعون

دودة القز كــان عليهم أن يوفروا البـيئة الملائمـة بكل دقة وأن يعرفـوا بالضبط الوقت الذى يقتلون فيه الفراشـة التى لم تكتمل داخل الشرنقة. إلى جانب تمتعهم باللمـسة الرقيقة التى يحتاجها فك الخيوط الواهية.

وتتجلى أهمية تربية دودة القز عند الصينيين فى جعل النساء فى كل أسرة، بما فى ذلك الإمبـراطورات والأميرات، مـسئـولات عن إنتاج الحرير. وكــان هناك جزء مـعين من كل مزرعـة أو بستـان يجنبـه أصحـابها ليكون «أرض التـوت». وفى هذا المكان تقدم الرعـاية لأشجار التوت وتقطف الأوراق الصغيرة الغضة وتقدم طعاماً لدودة القز. وفى فترات كثيرة من تاريخ الصـين كان يمكن دفع الضـرائب حريراً. لذلك كـانت ثروة الأسرة تقـوم على موهبة النساء وجـهودهن فى تربية دودة القز. وكانت شلات الحـرير تجمع فى ورش تسيطر عليها الدولة، حيث تنـسج وتتحول إلى لفائف من قماش ذى عرض ونقش مـحدد تفرضه الموضة الصينية، ثم الأسواق الأجنبية فيما بعد. وجرى العرف أيضاً على إرجاع الفضل إلى سى لنج تشى فيما يتعلق باختراع النسيج. ومـن المؤكد أن النساجين الصينيين أنتجوا بعض الأقمشة الفاخرة التى لامثيل لها من هذه الخـيوط الحريرية الرقيقة. ورغم انتشار تربية دودة القز فى كل بيت من بيوت الصين، فإن السر لم يتعد سور الصين العظيم طوال عدة قرون. ولم يصل إلى الغرب حتى القرن السادس الميلادى. وبذلك تبدو أهمية الاحتكار الصينى.

***

فى الألفى سنة الثالثة والثـانية قبل الميلاد، عندما كانت شعـوب الصين والهند وغرب آسيا فى سبيلها للتوصل إلى أسلوب جديد للحيـاة أكثر استقراراً، كانت تزداد بعداً أكثر من أى وقت سبق عن الشعوب البدوية فى آسيا الوسطى. فى تلك العصور القديمة زادت حدة التوتر بين السهـوب والأراضى الزراعية، بين الرعاة والفلاحين، بين الســهول والمرتفعات، بين المدينة والريف. وكان وراء ذلك توتر بين من يعرفون القـراءة والكتابة والأميين. وكانت معرفـة القراءة والكتابة ماتزال أحد مـلامح الحياة فى المدينة. وبالنسبـة لأهل بابل وسومر، الذين يحتمل أن يكونوا أول من ابتكر الكتابة[1] فى الألف الرابعة قبل الميلاد، كانت المدنية تنتهى عند جـبال زاجروس. (وإن كـان من المثير أن نعـرف أن السومريـين قد يكونون فى

(١) بدأ الخط السومرى برسم الأشياء ثم بُسطت الرسوم وحُولت إلى رموز. وبعـد ذلك استُخدم الرمز الخاص بكلمة شائعة للدلالة على جميع أصوات هذه الكلمة. وأدى التـمثيل الصوتـى إلى ابتكار رموز كتابيـة للغة بالكامل. وأقدم كـتابة تصويرية تعود إلى سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد. (المترجم).

الأصل مهاجرين من آسيا الوسطى). وغالباً ما كان الصينيون أيضاً يرون الأقوام التى وراء حدودهم برابرة، وكانوا يقارنونهم بالكلاب والحشرات. ولم يسلم علماء الآثار الأوائل من وجهة النظر هذه، خاصة أن القليل الذى عرفوه عن قبائل البدو فى تلك الحقبة غير الواضحة وصلهم من الكتابات المتناثرة التى تركتها ثقافات السهول المستقرة.

ولكن الرعاة الذين احتقروهم كانوا يساهمون فى الحضارة، وفى قصتنا عن طريق الحرير، فى أوائل الألف الثانية قبل الميلاد. وكان استئناس الجمل أهم شيء بالنسبة لمسافرى المسافات الطويلة على طريق الحرير. والجمل، وهو حيوان لا حظ له من رشاقة المظهر، يتمتع بقدرة غير عادية على السير عدة أيام بلا ماء، وهو أمر ضرورى للسفر فى الصحراء. والجمال تحتاج أيضاً إلى قدر يسير من الطعام. فهى تعيش فترات طويلة على أقل قدر من أكثر نباتات الصحراء خشونة. فهى تسحب مخزونها من الدهون الموجودة فى سنامها المميز. والسنام هو أوضح ما يميز النوعين الرئيسيين من الجِمال: فالجمل العربى لديه سنام واحد والبلخى له سنامان. وكتب كوو بيئو الكاتب الصينى من القرن الثالث الميلادى وصفاً رائعاً يمكن أن ينطبق على كل من الجمل العربى والجمل البلخى:

الجمل حيوان مستأنس غير عادى. إنه يحمل سرجاً من اللحم فوق ظهره. وهو ينطلق بسرعة على الرمال المتحركة. ويظهر فضله فى الأماكن الخطرة ولديه معرفة خفية بالعيون والينابيع. والواقع أن معرفته تتسم بالحذق والمهارة!

ولايُعرف على وجه الدقة متى رُوضت الجمال كى يستخدمها الإنسان ولا أى الأنواع استؤنست أولاً. وربما جيء بالجمل ذى السنامين من موطنه الأصلى فى المنطقة المحيطة ببلخ إلى بلاد مابين النهرين فى أول الأمر. ولكن إذا كان هذا هو ماحدث فإن استخدامه لم يدم هناك. فالجمل ذو السنامين تكيف بصورة غير عادية مع الأراضى الرملية والأراضى شديدة الوعورة فى آسيا الوسطى، وكذلك مع تطرف درجات الحرارة فى تلك المنطقة. وهو أقصر طولاً من الجمل العربى وجسمه أكثر امتلاءً، وتكون له طبقة كثيفة من الوبر فى الشتاء يتجرد منها كل ربيع على هيئة خصلات كبيرة. أما الجمل العربى فقد استؤنس حوالى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد. وهو أكثر ملاءمة لظروف الشرق الأدنى وشمال أفريقيا. وهكذا اقتسم النوعان العالم تقريباً، أو طريق الحرير على الأقل. فكلاهما يتمتع بقدر غير عادى من السرعة والتحمل. كما أن الجمال تتمتع أيضاً ببعض الصفات التى توفر لها الحماية وتحتاج

إليها احتياجاً شديداً فى الصحـراء، حيث العواصف الرملية تهب كل يوم. فعين الجمل لها جفنان. ويمكن للجـمال أن تغلق أنوفهـا لمنع دخول الأتربة. وحتى الآذان بها حـاجز من الشعر عند فتحاتها. وحاستا الإبصـار والشم لديها أنقذتها ومن معها من المسافرين، الذين كادوا يموتون من الحـر والعطش، حيث ساعدتهم على تحديـد مواقع الماء عن طريق رائحة الخضرة الضعيفة التى تحملها الريح.

والواقع أن الجمال كانت على قدر كبيـر من الفائدة، حتى أن الرحالة الآسيويين كانت لديهم الرغبـة فى التعرف على شـخصيـاتها التى لاينكر أحد صـعوبتهـا. وعندما لاتكون الجمال قد أُحسن السيطرة عليها أو تدريبها، أو عندما تغضبُ أو تكون فى موسم التزاوج، فإنها تصبح شديدة الخطورة، فترفس ذلك البـائس الذى أثار غضبها أو تعضه أو تبصق فى وجهه. وربما يخـدع مظهرها الإنسان غير الحذر، وهو مـا أدركه أرثر كانون دويل[1] عندما كان يستعد للقيام برحلة بالجمل فى الشرق الأدنى فى بداية القرن العشرين:

> **[الجمل] أغرب حيوانات العالم وأكثرها خداعاً. فمظهره يتسم بهدوء واحترام لايجعلانك تصدق أن تحتهما ذلك القدر من الشر الأسود. إنه يقترب منك بأسلوب محبب فيه سمو، كأى سيدة ذات أصل طيب فى إحدى مدارس الأحد. كمـا تشعـر أن مـاينقصـه هو نظارة فى طرف مروحة. وبعد ذلك يمد شفتيه برفق للأمام، مع نظرة بعيدة فى عينيه. ولايسعك وقتها إلا أن تقول: «هذا الحبُّوب الجميل سوف يقبّلنى». ولكن ما إن يصطك أمـامك صفان من الأسنان الخضراء المخيـفة حتى تجد نفسك تقفز للخلف قفزة لم تكن تحلم بها وأنت فى عز شبابك. وبسقوط القناع لايكون هناك ماهو أشد بشاعة من وجـه جمل. ولايبدو أن أى قدر من اللطف معه أو طول مدة امتلاكه يمكن أن يجعله أليفاً. ومع ذلك لابد من التمـاس بعض العذر لمخلوق يحمل ٦٠٠ رطل يسيـر بها ٢٠ ميلاً يومياً ثم لايطلب إلا القليل من الطعام ولا يسألك أى قدر من الماء.**

وكان المسافـرون فى العالم القديم يلتمسـون العذر للجمال. وكان الجـمّالة الخبراء فى

---

(١) روائى إنجليزى ابتدع شخصية شيرلوك هولمز، وكانت له اهـتمامات بالتاريخ وكتب عدة روايات تاريخية وهي ما أراد أن يعرفه الناس به وليس بالقصص البوليسية. توفى سنة ١٩٣٠. (المترجم).

التعامل مع هذه المخلوقات العنيدة يلقون قدراً كبـيراً من الاحترام والتبجيل. إذ كانوا، مثل الجمال التى يرعـونها، صنفاً مختلفاً من البـشر. وكانوا يتوارثون خبرتهم جـيلاً بعد جيل. وكانت الجمال نفـسها تلقى تقديراً كبيراً لدى بعض الشـعوب، حتى أن إيذاءها يأتى ضمن المحظورات. ووجد أُوين لاتيمور أثـناء سفره فى السهوب المغولية فى بدايـة القرن العشرين أن:

رجال القوافل لايمكن أن يذبحوا جملاً أو يأكلوا لحمه أو يبيعوا جلده. وإذا أصاب الوهن أحد الجمال، بحيث لايمكنه متابعة القافلة، فإنهم يتركونه على جانب الطريق ليموت. ولا يقتله صاحبه، خوفاً من أن تلحق روحه بالقافلة وتسكن الجمال الأخرى.

ولاندرى إن كان الحظر يعود إلى أزمنة قديمة أم لا. فلا يبدو أنه كان مطبقاً فى غرب آسيا. كما لم يكن شائعاً فى آسيـا الوسطى. ففى أوقات الشدة كان رجال القوافل يشربون فى بعض الأحـيان دم الجـمل أو حـتى بوله ويأكلون لحم الجمـل الذى ينفق فى الطريق أو يقدمون الجمل الضعيف لجباة الضرائب والمكوس المحليين، على سبيل الرشوة.

***

ولكن إذا كان قـد قُدِّر للجمل بعـد استئناسـه أن يكون دعامة السـفر فى آسيـا، فإن الحصـان هو الذى ساعد على إحـداث ثورة فى أوراسيا. وكان الحـصان هو الملكية المميـزة للبدو فى آسيا الوسطى. وطوال الألف الثالثة قـبل الميلاد كان هؤلاء الرعاة يهذبون الحصان ويولِّدون حيوانات أكبر حجماً وأشـد قوة. وفى وقت ما بعد سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد كانت هذه السلالات القوية قد ربطت فى نوع جديـد من العربات اسمه العَجَلَة. وكانت الدواب الأخرى تستـخدم، بدرجات متـفاوتة من النجاح، فى جر عـربات ثقيلة بطيئة الحـركة لها عجلات مـصمتة فى بلاد مـابين النهرين منذ سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد تقـريباً. وبحلول سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد تقـريباً، انضمت العربات ذات العجلتـين إلى تلك العربات ذات الأربع عجلات. وكانت العربات ثقـيلة الحركة مصممة بحيث تحمل سائقـاً يقودها ومحارباً يقاتل بالرمح أو البلطة أو النشاب. ولكن فى أوائل الألف الثانية قبل الميلاد، ربطت شعوب آسيا الوسطى الحصـان فى نوع جديد من العربات يتمـتع بقدرة أكبر على المناورة. وسـرعان ما أصبح أخف وزناً باستـعمال العجلات ذات البـرامق. وزاد على ذلك أن بدو آسيا الوسطى ابتكروا قوساً مـركباً صمم بحـيث يمكن إطلاق سهامه بدقـة وقوة من على مركبـة تتحرك

بسرعة. وكان هذا النوع أرقى بكثير من القوس والنشاب العاديين. وهذه التركيبة منعت أى إنسان من الوقوف فى وجه هؤلاء البدو فترة من الزمن.

ولكُن الهدوء النسبى الذى شـهدته الألف الثالثة قبل الميلاد، بما فـيها من تجارة طويلة المدى تميزت بهـا بداية العصر البرونـزى، مزقته مـوجة من الغزاة من داخل آسيـا. وعندما ظهروا لأول مـرة فى غرب آسيا لم تكن الخـيل مألوفة، مما جـعل ضحايا هذه الهجـمات تعساء الحظ يطلقون عليها «حمير الجـبال». ويتردد صدى ذكريات الدمار الذى أحدثه راكبو العربات المغيرون فى العهد القديم وفى كثير غيره من السجلات التى تعود إلى الألفين الثانية والأولى قبل الميلاد. وهاتان اثنتان فقط من المراثى الكثيرة:

... فإذا هم بالعجلة يأتون سريعاً... الذين سهامهم مسنونة وجميع قسيهم ممدودة. حوافر خيلهم تحسب كالصوان وبكراتهم كالزوبعة.

اشعيا ٥: ٦ ـ ٢٨

... وزحف مهلك الأمم. خرج من مكانه ليجعل أرضك خراباً. تخرب مدنك فلا ساكن... هو ذا كسحاب يصعد وكزوبعة مركباته. أسرع من النسور خيله. ويل لنا لأننا قد أُخربنا.

ارميا ٤ : ٧ ـ ١٣

وكان للعجلـة والقوس المركّـب أكبر أثر مدمـر عندما استخـدمتها القبـائل البدوية التى يطلق عليها بصـورة عامة هندوأوروبية. وهؤلاء قـوم متعددو الأجناس يشتـركون فى اللغة وقدر كبـير من الثقـافة. وفى تلك الفترة انطلقـوا فى كل الاتجاهات من السهوب الـروسية شمـالى البحر الأسود. وبعـد أن تفرق الهندوأوربيون فى اللغـة والثقافة والأرومـة، عندما انتصروا على شـعوب أخرى واختلطوا بهـا، أصبحوا البلاء الذى أصـاب أوراسيا فى تلك العصور المظلمة. ونجاحهم على مدى الألف سنة التالية تؤيده حقيقة أن معظم سكان أوروبا وإيران والهند يتحدثون بلغات بينها صلات مشتركة مشتقة من هؤلاء القوم، ومن ثم اسمهم وهو «هندوأوروبى». وحدث فى الألفـين الثانيـة والأولى قبل الميلاد أن سـيطروا على جزء كبـير من آسـيا أيضاً، بما فى ذلك الـسهوب الأوراسـية وحوض التـاريم. وما الحـثّيون[١]

(١) قوم قدموا إلى آسيا الصغرى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد من أوروبا أو جنوب روسيا. واستطاع ملكهم مورشيلى الأول أن يحتل سوريا ويزحف على بابل ويقضى على سلالة حمورابى. (المترجم).

واليونان والسيث[1] والسلاف[2] والبلط[3] والجيـرمان والكلت[4] والأرمن إلا بعـضـاً من الهندوأوربيين الذيـن اندفعوا نحو أوروبا وغـرب آسيا. وتحـرك السيث أيضاً نحـو الشرق. وكذلك فعل الإيرانيون والهنود (الآريان) وغيرهم من القبائل التى لاحصر لها.

وكان الهندوأوروبيون أبعد مايكونون عن الشـعب الموحد. وتبعاً للنمط القديم الخاص ببدو السهوب، كانوا أشبه بأولاد العم الذين يتشاجـرون داخل عشيرة كبيرة مختلطة. وكان الأقوى هو الذى يسيطر على أفضل الأراضى. وفى أوقـات زيادة السكان والقحط والتفوق التكنولوجى، أو مجـرد الرغبة فى التـوسع، كانوا يدفعـون بالأضعف إلى الأراضى الأقل أهمية. وكانت نتـيجة ذلك موجة تليها أخـرى من الهجرات فى كل الاتجاهات من أراضى السهوب المفضلة شمالى البحر الأسـود وبحر قزوين، مع هجرات أقل تحدث كتوابع لها فى أنحاء أوراسيـا. حيث إن نفس النمط يكرر نفســه فى أنحاء اليابسة. وهذه هى قـصة جزء كبير من أراضى آسـيا فى الألفين الثانية والأولى قبل الميلاد. وحيث إن قـبائل البدو كانت لاتعرف القـراءة والكتابة، فإننا نعتـمد فى معـرفة القصة بصـورة كبيرة على آثار مـوجات المهاجرين على الشواطىء الأكثر استـقراراً الذين يعرفون القراءة والكتابة، فى الصين والهند وإيران وبلاد مابين النهرين وسوريا والأناضول وكذلك أوروبا. وهذه القصة تعبر بنا الحدود الوهمية بين ماقبل التاريخ والتاريخ.

ففى سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد تقريباً كان النصف الغربى من طريق الحرير يعانى من وطأة الاجتياح الإيراتى لأراضى بلاد مابين النهرين والهند التى تتـمتع بالثراء والاستقرار. وسقط ورثة مملكتى سومـر وبابل أمام راكبى العـجلات الإيرانيين وأقـاربهم الأبعدين من الحثـيين الذين اندفعـوا من هضبة الأناضـول. وسقطت حلب، التى كانت أقـوى مدينة على طرف طريق الحرير عند البحر المـتوسط. أما بابل فقد دُمرت وسُلبت نفائسـها. وفى ذلك العصر المظلم هاجرت أقوام كثيرة من الهلال الخـصيب إلى مصر. (أطلق المصريون على المهاجرين البدو اسم «عـابيرو» التى حرفت بعـد ذلك إلى «عبرى» واقـتصرت فـقط على مجمـوعة واحدة، هم اليـهود). ولم تكن مصر نفـسها بمنأى عن الهجـمات المدمرة، وإن اسـتعادت استقـلالها على وجه السرعة. أما الهند فكانـت أسوأ حظاً. فحضارتها العظيـمة التى تقوم

---

(١) أهل سيثيا التى سبق ذكرها. (المترجم).

(٢) مجموعة عرقية فى وسط أوروبا وشرقها تشمل الروس والصرب والكروات وغيرهم. (المترجم).

(٣) سكان المنطقة التى تعرف الآن بجمهوريات البلطيق، وهى ايستونيا ولاتفيا ولتوانيا. (المترجم).

(٤) شعب هندوأوروبى يمثله الآن أهل أيرلندا وويلز. (المترجم).

على الأنهــار، وتتركز فى وادى نــهر السند، وكــانت لها علاقــات تجارية برية وبحــرية مع سومر، دُمرت تماماً ولم تستعد ازدهارها إلا بعد عدة قرون.

وتشبه خريطـة النصف الغربى من طريق الحرير، طوال بقية الألف الثانــية قبل الميلاد، الكاليدوسكوب[1] الذى تتـغـيــر الأشكال داخله كلمــا حــركتـه. غـيــر أن الغلبـة لم تدم للهندوأوروبيين. فسرعان ما أدخلت ثقافات بلاد مابين النهرين الراقية أسلوب العجلة ضمن عدتها الحربية.

والواقع أنه كانت بها أعداد تزيد عما لدى قــبائل البدو فى السهوب من الصناع المهرة، وهم صانعو العــربات والعجلات والسروجية والحــدادون. كما أنها ولّدت خيولهــا الخاصة بها. فما يُعرف بالحصان العربى وُلِّد من سلالة من آســيا الوسطى. كما وفرت ماتحتاجه من أخشاب ومعادن لصنع العــجلات الحربية. وحيث إن كليهما متوافــر فى الهضبة الإيرانية أو بلاد بعيدة فى الشرق، فإن شعوب السهول كانت لها جهود متواصــلة لتأييد الطرق الموصلة إلى مرتفعات إيران، للحصول على احتياجاتها الحيوية.

وكانت لغة التجارة المستــخدمة على هذا الطرف الغربى من طريق الحرير هى الأكادية، لغة بابل القــديمة. وظلت مستخــدمة لفترة طويلة. وفى الغــالب كانت الترتيبــات التجارية طويلة المدى تســير حسب أنماطهــا القديمة، وإن كــانت كثيــراً ماتتــوقف فى تلك الأوقات المضطربة. ويأتى القصدير فى مقدمة الموارد التى يشتد عليها الطلب. إذ كان يستخدم لخلطه بالنحاس لعمل البرونز، الذى كان مايزال أبرز المعادن فى ذلك الوقت. (كان القصدير مهماً جداً فى تلك الــفترة المتــأخرة من العصــر البرونزى لدرجــة أن بحارة الشــرق الأدنى كانوا يجوبون كل أنحــاء البحر المتــوسط ويتجهون إلى كــورن وول فى الجزر البريطانيــة بالمحيط الأطلسى لتوفير واردات إيران المحدودة من هذا المعدن). وكان الصناع التجار الذين يعملون على طول النصف الغربى من طريق الحــرير والطرق الفرعيــة القريبة يشتــرون المعادن الخردة ويصنعون منها أدوات نافعة وحلياً ثم يبيعونها.

***

فيما يتــعلق بالألف الثانية قبل الميلاد، عندمــا كانت آسيا على أعتاب عــصور تاريخية

(١) آلة بصرية بداخلهــا قطع من الزجاج والورق والخرز الملون فى مــؤخرة أنبوب دوار. وعند النظر إليــها من خلاله تتغـير أشكالها باستــمرار لتكون صوراً متناســقة بسبب انعكاسها على ثــلاث مرايا كل منها موضوعــة أمام الأخرى بزاوية ٦٠ درجة. (المترجم).

مهمــة، لم تصلنا سوى بعض الصور المتباعــدة غير الواضحة عمــا كان يحدث فى النصف الشرقى من طــريق الحرير. ومن المؤكد أن الصــين تطلع علماء الآثار المحــدثين على دلائل الاتصالات مع أهل الغرب. ففــى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد كــانت الصين، ونقصد بها تلك الأرض الواقــعة على نهر وى وأعالــى نهر هوانج، تحت حكم أسرتى شيــا وشانج وهما أول الأسرات الأسطورية التى قدم علم الآثار لنا مــعلومات عنها، وإن كانت التواريخ الثابتة قليلة. وفى تلك الفترة كان فخار الصين المزخــرف بالمشط شديد الشبه بفخار سيبيريا والجــزء الأوروبى من روسيــا. ومن الواضح أن الصيــنيين بدأوا فى اســتخــدام العجــلات الحربيــة. والشيء المثيــر هو أنهم ربما بدأوا فجــأة فى استــخدام البرونز. وربما يــكونون قد تعلموا تشكيل البرونز من شعوب آسيا الوسطى، خاصة تلك التى كانت تعيش فى السهوب الأوراسية. ويوضح عالم الصينيات المشهور رينيه كروسيه ذلك فيقول:

... العديد من نصال السهام بالغة القدم التى اكتُشفت فى الصين... تبــدو من أصل سيــبيــرى. بل إن العديد من المزهريات القــديمة التى تعــود إلى عــهد شانج تكشف عن تقليد ساذج لأشــغال خشبيــة، حيث نسخ عــامل البــرونز نموذجــه بأمــانة، لدرجــة تقليــد الخــدوش وآثار الســكين. ويبــدو أن الصــينيين، عندمــا واجهــوا التقنيــات السيــبيرية فى تشكيل المعــادن، كــان عليــهم أن يأخــذوا مــزهرياتهم الصلصــال القديمة ومزهريات الطقوس الخشبيــة ويحولوها إلى برونزية بين عشية وضحاها.

وبغض النظر عن بداية تشكيل البــرونز فى الصين، ابتكر عمــال شانج فناً جمــيلاً من تماثيلهم ومزهريات الطقوس المعدنية. وهو فن نادراً ما كان له نظير، فى الصين أو أى مكان آخر من العــالم. كما أنــه يتميــز كثيــراً بنمط خاص به من أشكال الحــيوانات، وهى فكرة يحتمل أنهم أخذوها من شعــوب آسيا الوسطى ليجعلوها خاصة بالصين بعــد فترة وجيزة. واستمر هؤلاء الصناع المهرة الصينيــون فى العمل فى اليشب، الذى ظل على مايبدو يأتيهم عبر طرق حوض التاريم.

وفى ظل حكم أسرة شانج كانت الصين دولة توســعية. ولم يكن الناس يطلقون على بلدهم اسم الصــين. فمن الواضح أن هذا اسم غربى أُطلق عــليها فــيما بعــد. وإنما كانوا يسمونها «المملــكة الوسطى»، وهى المنطقة الوحيدة الصالحة للسكنى وســط البرية الموحشة.

ولكن شعب شانج انبرى لتغيير ذلك كله. فقد انطلقوا فى كل اتجاه من قلب الأرض الصينية ليغزوا القبائل شديدة التباين فى المنطقة ويبتلعوها على مر القرون، حيث انصهرت فى بوتقة الأمة التى تعرفها الآن باسم الصين. ويعلق رينيه جروسيه على الصين القديمة قائلاً:

... إذا كان على المرء أن يقارن تاريخ الصين بتاريخ أى مجتمع إنسانى عظيم آخر، فلابد أن يتجه إلى كندا أو الولايات المتحدة. ففى كل من الصين وأمريكا كان الاهتمام المبدئى والأساسى، بعيداً تماماً عن التقلبات السياسية، هو غزو مساحات شاسعة من الأراضى البكر باستخدام شعب مكافح لم يجد أمامه سوى أقوام شبه بدوية.

ولم تكن هذه العملية سريعة كما حدث مع الأمريكيين الذين انتهوا منها خلال ثلاثمائة سنة فقط. ففى الصين احتاج دمج البلاد لتصبح وحدة ثقافية واحدة، الجزء الأكبر من فترات امتدت ٤ آلاف سنة.

وكان توسع شانج انتقائياً كذلك. حيث بدأ بالأراضى الواقعة على طرق التجارة الرئيسية. وليست مصادفة أن كلمة «شانج» تعنى «تاجر». ومن أشد الأسر الرائدة وأقواها فى ذلك الوقت عشيرة تشو التى اتجهت إلى ماكان وقتها الحدود الصينية على نهر وى. وتقول الأسطورة أنهم جعلوا قبائل الصيد والالتقاط هناك «تحرث الأرض وتبذر الحب». ولم يكن طريقهم سهلاً واضطروا أكثر من مرة إلى الانسحاب من أراضيهم الزراعية عالية الجودة، الواقعة بالقرب من المكان الذى ستقوم عليه تشانج آن فيما بعد، ليعودوا إلى نهر هوانج.

ولكن تشو أصبحت شديدة القوة على مر ثلاثة قرون من الكفاح ضد «البرابرة»، حتى أنه عندما أنجبت أسرة تشانج طاغية لايحتمل فى منتصف القرن الحادى عشر قبل الميلاد، قادت تشو تمرداً ناجحاً قضى على أسرة تشانج وافتُتح عهد أسرة تشو. وطوال ثلاثة قرون ظلت حاضرة تشو فى وادى وى إلى أن أخرجهم منها «برابرة الغرب» سنة ٧٧١ قبل الميلاد واضطُروا إلى اتخاذ عاصمة أبعد منها ناحية الشرق بالقرب من لويانج فى أرض وادى هوانج القديمة. والمؤكد أن عيونهم كانت على الغزاة المحتمل قدومهم من الغرب.

والواقع أن الشيء المتعارف عليه هو أنه ربما بقيت أسرة تشو فترة أطول، لو لم يطلب الإمبراطور العون مرات عديدة بلا داع. فكانت الإشارات النارية التى يقصد بها تنبيه الجيش

تضاء كثيراً لتسلية عشيقة الإمبراطور. وعندما كان هناك هجوم حقيقى، لم يستجب الجيش. وتقول القصة إن عاصمة تشو سقطت فى أيدى الغزاة.

وفى عهد تشو أُوليت الطرق اهتماماً كبيراً، حيث كانت الطرق الواسعة للخراج والتجارة والطرق السريعة للإدارة والرقابة. وتشير قصيدة من القرن التاسع قبل الميلاد إلى الرعاية التى حظيت بها تلك الشرايين الحيوية:

طرق تشو [ناعمة] كحجر المسن

مستقيمة كالسهم

طرق حيثما يمر السادة والمسئولون

طرق حيثما ينظر عامة الشعب

واعتمد كافة السادة والمسئولين والجنود على العجلات لتسير بهم بسرعة فى أنحاء الأرض. وكانت الواحدة من تلك المركبات المفتوحة من الخلف تحمل سائقاً ورماحاً وقواساً، وجميعهم يرتدون دروعاً ذات ألوان زاهية ويحملون أعلاماً ملونة متطايرة. وكان يجر العجلات فى العادة أربعة من الخيول القصيرة قوية العضلات لكل منها شكيمة مزينة بأجراس دقيقة الحجم. وهذه الأجراس استُخدمت فيما بعد لتزيين الجمال. وحتى السادة فى البلاط كانوا يضعون زينة من اليشب على أحزمتهم لتحدث «صليلاً منغماً». وقد بدأ استخدام الجمال ذات السنامين، التى أطلق عليها الصينيون «جمال الجبل» أو «حاملو الأكياس»، فى الصين فى بداية الألف الأولى قبل الميلاد أيضاً.

وفى ذلك الوقت كان الحرير يسيطر على الطرق الصينية الداخلية، حتى أنه كان يستخدم كوسيلة مشتركة للمقايضة. ولكننا لانستطيع تأكيد إذا ماكانت تجارة الحرير مع قبائل البدو فى آسيا الوسطى، مقابل اليشب أو الخيل أو الجمال أو الذهب ـ وجميعها كانت تأتى من خارج الصين ـ قد بدأت أم لا. رغم أن هذا الاحتمال يبدو قوياً.

وفى عهد أسرة تشو كانت «الصين» ببساطة بلداً صغيراً ريفياً فى المقام الأول، تحيط به العديد من الإمارات الصغيرة التى كان لكل منها حاكمها وطرقها وممارساتها. إلا أنها كانت تشترك فى شىء من اللغة والثقافة. ولكن أسرة تشو حكمت الطريق الرئيسى المتجه غرباً. ورغم أنهم كانوا عرضة للهجوم من ذلك الإقليم، فيبدو أنهم أبقوا على خطوط الاتصال مع أقطار آسيا الوسطى مفتوحة. وكان الإمبراطور مو الأسطورى أحد أفراد عشيرة تشو.

وتتضمن القصص التاريخية التى تعود إلى العصور القديمة العديد من الإشارات المشوقة إلى زوار جاءوا من الغرب حاملين هدايا جديدة، ربما كان بينها قماش من الحرير الصخرى (اسبستوس) المصنوع من ألياف معدنية وجدت فى جبال شمال شرقى أفغانستان، فى الإقليم الذى يسمى بذخشان، حيث يستخرج اللازورد أيضاً. ويصف «كتاب العجائب»، وهو كتاب صينى قديم ربما يعود إلى عهد تشو، أحد الجبال الذى «يفتقر إلى الخضرة ولكنه يحتوى على كميات وفيرة من اليشب الأبيض والأخضر. أما فيما يتعلق بحيواناته، ففيه أعداد كبيرة من الجمال». كما يشير أيضاً إلى أن اليشب يظهر على «الجانب المشمس» لجبل قريب. بينما «توجد على الجانب المظلم كميات ضخمة من الحديد». وهذا الوصف فيه تلميح قوى إلى تركستان الصينية، خاصة المنطقة المحيطة بخوتان. ولكننا لانعلم الكثير عن الطرق الواقعة فى حوض التاريم فى تلك القرون، التى كان فيها الهندوأوروبيون من الغرب يجتازون القارة فى طريقهم إلى حدود الصين.

وتوحى أساطير الهضبة الإيرانية بوجود اتصالات مع الصين فى تلك الفترة. ففى حوالى سنة ألف قبل الميلاد بدأت موجة جديدة من الإيرانيين تعبر الهضبة الإيرانية، فى ذلك الوقت الذى يفترض أن الإمبراطور مو الصينى زار فيه الأم الملكية الغربية. ومع أن أساطيرهم ليست أكثر نفعاً، كسجلات تاريخية، من حكايات الرحلات الصينية القديمة، فهى تحمل إشارات إلى معارف الصين منذ أقدم العصور وتوحى بما هو أكثر من ذلك. ويقال إن الملك الإيرانى القديم جمشيد تزوج ابنة الملك ماتشين (الصين العظيمة). ويقال إن الملك نفسه لاحقه أعداؤه فى أراضى الصين والهند. ويقال إن ملكاً إيرانياً آخر أوصى لثانى أبنائه بأجزاء من آسيا الوسطى والصين. وتشير الأساطير إلى أنه أعطى ابناً آخر جزءاً من الصين وخوتان عند زواجه. ويُفترض أن بطلاً ملكياً آخر من الإيرانيين أسر إمبراطور الصين على فيله الأبيض. وفرض ثالث سطوته على حكام الصين وآسيا الوسطى. إلا أن رابعاً طارد أحد حكام آسيا الوسطى حتى عاصمته وذبحه فيها.

ومن المحتمل أن الإيرانيين، عندما أشاروا إلى البلاد الشرقية، كانوا يتحدثون عن أقاليم تقع فى أقصى الغرب من الصين بمعناها الضيق داخل آسيا الوسطى (كما سيحدث فى عصور لاحقة)، مع أن هذه الأراضى لم تكن واقعة تحت النفوذ الصينى المباشر. ولكن انتشار هذه الأساطير وورود حكايات الرحلات الخاصة بآسيا الوسطى عند طرفى حوض التاريم يجعل وجود اتصالات تجارية، وربما سياسية ـ استمرت زمناً طويلاً على امتداد النصف الشرقى من طريق الحرير ـ أمراً محتملاً. وإذا كان الأمر كذلك، فقد قُطعت هذه

الاتصالات منـذ ثلاثة آلاف سنة مع بداية الألف الأولى قبل الميـلاد، حيث هب بدو آسـيا الوسطى من جديد.

***

مرة أخـرى احتل الحصـان مركز الصـدارة فى ثورة جديدة. فطوال الألف الثانيـة قبل الميلاد كـان الرعاة البدو فى آسيـا الوسطى يجرون التجارب على ركـوب الخيل. ولم تكن تلك مهمة يسـيرة. فهذه المخلوقات القوية المبـتهجة ذات العقل المستقل تـقاوم هذه العملية بشدة. ولكن قبائل البدو لم تكن وحدها فيـما تبذله من جهد. إذ حاول آخرون فى الشرق الأدنى ركوب الخيل فى المعارك وأثناء الصيد. ولكن ممارسة ذلك لم تكن على نطاق واسع. ولعل السبب هو صعوبة القيام بأى شىء سـوى الركوب. مع التسليم بعدم وجود سرج أو رِكاب لمساعدة الراكب علـى البقاء على ظهر الحصان. وكانت شكيـمة اللجام المزينة، التى ربما ابتُكرت لاستـعمالها فى العـجلات الحربية، هى وحـدها التى أتاحت للراكب قدراً من السيطرة على الحصان. ولكن بحلول سنة تسعمائة قـبل الميلاد كانت قبائل البدو فى سهوب غرب آسيا الوسطى قد تعلمت كيف تتحكم فى خيولها وتوجهها باستخدام النصف الأسفل من الجسم، بحيث تكون للذراعـين حرية استعمال القـوس والسهم. وشيئاً فشـيئاً هُجرت العجلة الحربية بصنعتها المتقنة المكلفة وسائقـها وراميها. وكان الرامى الراكب يتمتع بالسرعة والقوة. وحـيث إنه لم تكن هناك حاجـة إلى معدات خـاصة، فـإن كل ذكر - وفى بعض جماعات البدو كل أنثى - كان يمكنه أن يصبح جندياً، فى بلاد توافرت فيها الخيل.

وهكذا وُلدت الفروسـية، ووُلدت معهـا فنون جديدة للقتـال يمكنها نقل الغزاة عـبر مساحـات شاسعة بسرعـة مذهلة. ويصف ستيـوارت ليج فى كتابه The Heartland هذه التغيرات قائلاً:

بعد أن تحررت جماعات الفرسان من العجلات والملابس الخاصة أصبح بمقدورها الآن أن تنتقل بخفة من السهوب إلى المناطق الزراعية. لقد نشروا الفزع وفرقوا المقاومة المحلية بدفعات من السهام التى يطلقونها وهم يجرون بأقصى سرعة. وبات بإمكانهم الإغارة على القرى خلال بضع ساعات فيجمعون الغنائم ويختفون قبل إحضار الدفاع المنظم ليتصدى لهم. وكانوا يقومون بعمليات فى أرض العدو تستمر زمناً غير محدد، حيثما وُجدت مناطق ريفية خلاء وعشب أو

علف يستولون عليه لإطعام خيولهم. فإذا لقوا معارضة جادة انسحبوا وانقضوا على مكان آخر. أما إذا كان الدفاع ضعيفاً أو لاوجود له، فإنهم يستمرون فى تقدمهم ويستدعون أعداداً أكبر من جنسهم ويحولون الغارة الخاطفة إلى حملة. وبهذه الطريقة سرعان ماتتحول نقرات الاختبار إلى دقات مطرقة. وسرعان ماتجعل سنابك الخيل التى تدق الأرض والسهام المدوية التى يطلقها الرماة الراكبون القادمون من قلب البلاد، الكل يشعر بوجودها، فى المناطق الواقعة على حدودها الجنوبية الغربية.

انتشر هذا النمط من القتال فى أنحاء آسيا شيئاً فشيئاً. ولم يصل فقط إلى هؤلاء الهندأوروبيين الذين اتجهوا شرقاً نحو الصين، وإنما إلى شعوب أخرى فى السهوب الأوراسية، وهم أسلاف شعوب كالمغول والمنشو[١]. وعلى امتداد السهوب أصبح المحارب الراكب، أو الخيّال، أهم الملامح المميزة فى تلك الأنحاء. وحافظت العربات على أهميتها فى السهول، ولكنها استُخدمت بصورة أساسية فى نقل البضائع. وكانت هناك مقطورات ضخمة عريضة تجرها عدة أزواج من الثيران تستخدم فى سحب «البيوت المتنقلة» الخاصة بقبائل البدو والمغطاة باللباد، وهى خيام شبه دائمة تسمى الواحدة منها «يورت». وفى وقت من الأوقات، ورغبة منها فى الدفاع عن نفسها، استحدثت بعض الشعوب المقيمة فى المدن سلاح الفرسان أيضاً. ولكنها نادراً ماكانت فى مستوى هؤلاء القوم الذين ركبوا الريح وكان الحصان بالنسبة لهم مركز الحياة. وظلت قبائل البدو السريعة بركوبها الخيل تحكم جزءاً كبيراً من السهوب، أو على الأقل تثير قلق البلاد المستقرة المحيطة بها، حتى العصور الحديثة.

ومع ذلك لم يكن كل هؤلاء الخيالة غزاة وحسب. فبينما استمر الإيرانيون فى شن هجماتهم على الهضبة التى حملت اسمهم فيما بعد، لم يكن الغزو بغتة. إذ كانت غزواتهم عبارة عن هجرة بطيئة لم يقف فى وجهها شىء. وكانت تقوم بها عائلات بأكملها ومعها قطعاتها. واستمرت تلك الهجرة فترة امتدت ثلاثة أو أربعة قرون. وغالباً ما كان القادمون الجدد يلتحقون بالعمل كخيالة للأمراء المحليين. وشيئاً فشيئاً استولوا على سلسلة من الدول المدن الواقعة على المسار الرئيسى لطريق الحرير. وأثناء ذلك عرفوا الكثير عن

---

(١) مغول منشوريا الذين غزوا الصين فى القرن السابع عشر وأسسوا أسرة تشنج التى ظلت تحكم حتى سنة ١٩١٢. (المترجم).

أهميـة الطريق التجـارى الذى كان يمـر فى أرضهم الجـديدة. وكان الغزاة الهـندوأوربيون الأوائل الذين جاءوا إلى تلك المنطقة قد ذابوا تمامـاً فى السكان المحليين. ولم تتأثر شعوب المناطق البعيدة إلا قليـلاً بالتغييرات الضخمـة التى حدثت على طريق الحرير. ولكن هؤلاء الإيرانيين احتفظوا بثقافتهم المميزة. بينما استفادوا من الثقافات القديمة على طول الطريق.

ولايعنى هذا أن هجـرة الإيرانيين لم تلق أى مقـاومة. فقـد استـمرت شعـوب مابين النهرين هى الأخـرى فى إرسال التجـار والجيوش إلى الهضـبة، فى محـاولة للسيطرة على طريق التجارة. بل إنها قاتلت بقدر أكبر من الشدة من أجل السيطرة على الطريق مع ظهور الحديد.

وكان الحديد معروفاً فى غرب آسيـا ومصر منذ الألف الرابعة قبل الميلاد كمنتج فرعى لتشكيل المعـادن، وخاصة الذهب. ولكن الحـديد الذى ينتج بهذه الطريقـة كان نادراً ويأتى بعد البرونز فى المرتبة. لذلك كان يستخدم على نطاق كبير فى المراسم. وفى بعض الأحيان كان يُرصع به الذهب ليكون حلية. وحتى سنـة ١٥٠٠ قبل الميلاد وبعدها بقليل، لم تكن تلك التـقنيات قد تطـورت بحيث تنتج حـديداً أقوى وبكمـيات تكفى لأن يصـبح قوة فى المجتـمع، خاصة فى صناعـة الأسلحة. ويبدو أن هذا النوع من الحـديد أُنتج لأول مرة فى هضـبة الأناضـول، فى إقليم أرمينيـا الغنى بالحديد. واحـتكر الناس هناك تقنيـات تشكيل الحديد لفترة طويلة. وكان الحكام المحليون يسيطرون على صادرات واسعة النطاق إلى أعداء محـتملين، فى الوقت الذى يشكون فـيه بأعلى صوتهم من عـجزهم عن إرسال أكـثر من نصل خنجـر واحد من المعـدن الثمـين إلى «الصديق». ولكن عندمـا تقاتل صناع الحـديد الأرمن هؤلاء مع جيراتهم الجنوبيين، بـدأ السر يتسرب شيئاً فشـيئاً. وإن كان ذلك بالطرق الحربية من خلال أسر الصناع وجعلهم يظهـرون براعتهم لمصلحة سادة جدد. وبحلول ستة ألف قبل الميلاد كانت المعارف الخاصة بتشكيل الحديد قد انتشرت من أرمينيا إلى اليونان فى الغرب وإلى القوقاز فى الشمال وفى أنحاء الهـضبة الإيرانية فى الشرق وعلى امتداد الهلال الخصيب.

أما أكثر من اسـتفاد بتكنولوجيا الحديد هذه فكانوا الآشـوريين، وهم شعب سامى أو عربى مثل كثير من سكان الشرق الأدنى. فـبحلول سنة ٩٠٠ قبل الميلاد كان لديهم جيش مجهز بمعدات حديدية أثار الرعب فى المنطقة. ومن عاصمتهم نينوى، الواقعة على المنحنى الشمالى لنهر دجلة، بسط الآشوريون سطوتهم على جيراتهم من بابل حتى سوريا وفرضوا

حمايتهم للطريق الحيوى عبر الهضبة الإيرانية. ولأن الحديد كان أيضاً أكثر وفرة من البرونز وأرخص منه سعراً، أصبح من الممكن توفير كميات من الأسلحة تكفى لعدد أكبر من الجنود. وبذلك استعاد المشاة أهميتهم كأحد أسلحة الجيش. وكانت قوة الجيش الآشورى المسلح بالحديد وسرعته حائلاً دون وقوع أى هجوم آخر من قبائل البدو فى الشرق لبعض الوقت.

بل إن الآشوريين نافسوا الإيرانيين فى السيطرة على النصف الغربى من طريق الحرير، خاصة بعد أن حُرموا من حديد أرمينيا واضطُروا إلى الاعتماد على الواردات الآتية من إيران ومن أقصى الشرق. ورغم امتلاك الآشوريين للأسلحة الحديدية، فقد ظلوا يقاتلون من العجلات الحربية، وهو اختيار سيىء على مدقات القوافل التى لم تصمم للمركبات ذات العجلات. كما أن العجلات لم تكن نداً للرماة الإيرانيين الراكبين، الذين كانوا يطوقونها من كل جانب. وكانت نتيجة ذلك أن الآشوريين أسرعوا بإدخال سلاح الخيالة. والواقع أن كثيراً من غزواتهم كانت فى جوهرها غارات للسلب. ووصل بعضها حتى منطقة طهران الحالية. وكان الغرض منها جمع الخيول للجيش الآشورى.

ورداً على ذلك، أقامت القبائل الإيرانية العديدة تحالفاً ضد الآشوريين. وهذا التحالف هو الذى وحّد بعد فترة النصف الغربى من طريق الحرير لأول مرة.

الفصل الرابع

الطريق الملكى

والآن هذه هى حقيقة هذا الطريق. فعلى امتداده تقع محطات البريد الملكية والنُزُل الممتازة. وهو يسير فى أرض مأهولة ومأمونة... وهذه الأرض تجرى فيها أربعة أنهار صالحة للملاحة يحتاج عبورها إلى معدية... وإجمالى المحطات مائة وعشر محطات ونُزُل كثيرة من سرديس حتى صوصا...

ـ هيرودوت
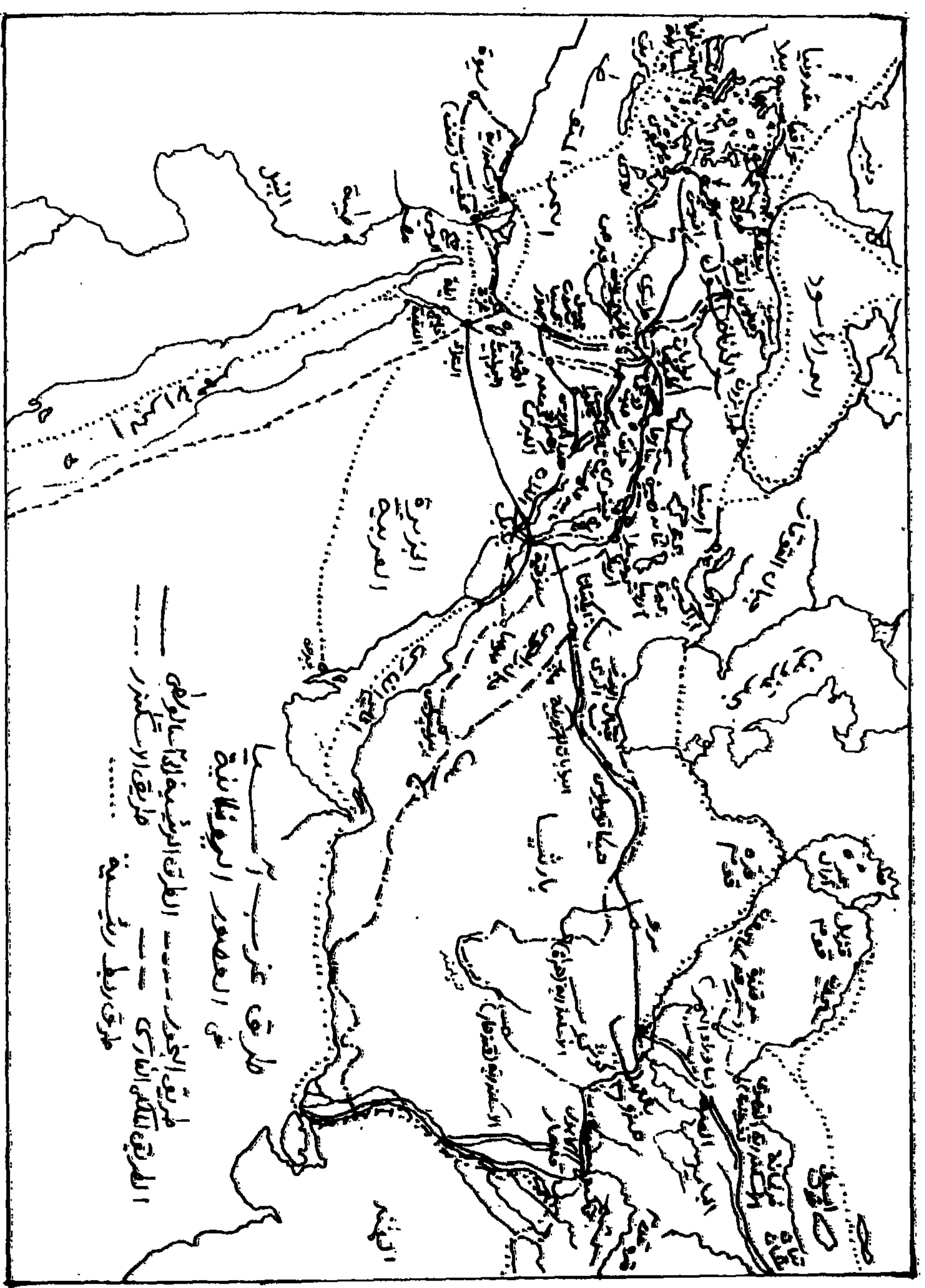
حتى الآن يبدو طريــق الحرير وكأنه طريق للتجار والغـزاة فى المقام الأول. إلا أنه فى القرون الأولى من الألف الأولى قـبل الميلاد أُدخلت تغيـيرات على حركة السـير أدت إلى تحويـل النصف الغربى من الطريق فى حـقبـة من الزمـان إلى طريق لكل الطوائف. طريق يسافـر عليه الأطبـاء والموسيقـيون وصناع المعادن ولاعـبو الأكـروبات والكُتّاب والمزارعون والنحاتون والعاهرات ومن لاهدف لهم سوى المغامرة. باختصار، كل الشرائح التى شكلت الثقافة. كل هؤلاء كانوا يسافرون أو يشاهدون الـعالم أو يبحثون عن وطن جديد أو يسعون إلى الشهرة أو يـجرون وراء الثروة، أو يأملون فى تحقيـق هذا كله. ويتحمل مسـئولية هذا التحول شعبان، هما الفرس واليونان.

فى بداية هذه الفـترة كـان الفرس مجـرد قبـيلة من القبـائل الإيرانية التى أقـامت فى الهضبة الإيرانية. وكانت قاعدتهم جنوبى جبال زاجروس، إذ لم يقيموا على طريق الحرير. وكان هذا الجـزء من الهضبة يسـيطر عليه الميديون، وهم القـبيلة الرئيسيـة الأخرى فى هذا الاتحاد الكونفدرالى الفضفاض. وكانت عاصمة الميديين إيكبتانا (ومعناها مكان الاجتماع)، وتسمى اليوم همذان، تقع مباشرة على طريق الحرير. ومن هذا المكان كانت تنطلق حملات الميديـين ضد الآشوريين للـسيطرة على الطريق العظيم. وكـثيـراً ما كان الآشـوريون، من الناحية الأخرى، يتوغلون فى الهضبة ويحاولون تحقيق مكاسب مؤقتة على طريق الحرير من خلال إقامة مستوطنات يهودية تمتـد إلى الرى شرقاً (بالقرب من طهران الحالية)، جرياً على العادة الاستعمارية الخاصة باستخدام المنشقين فى تعمير الحدود.

ولكن بحلول نهاية القرن الثامن قبل الميلاد أوقف الغزاة من الشمال الصراع بين الميديين والآشوريين. إذ تدفقت جحافل من الرماة الراكبين السيميريين[١] والسيث عبر ممرات جبال القوقاز الضيقة إلى الشرق الأدنى. وكان هجومـهم مختلفاً تماماً عن وصول القبائل الإيرانية خلسـة وببطء. ولكنه لم يكن هجـوم عصـابة من الدهمـاء البدو خـرجت لترويع الشـرق الأدنى. ويشرح المؤرخ اليونانى هيرودوت، وهو يكتب فى القرن الخامس قبل الميلاد، كيف جاء ذكر هذه الواقعة. فبـعد أن روى لنا كيف هزم ملك ميديا[٢] الفرس وشن الحرب على الآشوريين، مضى قائلاً:

(١) قوم طردهم السيث من القرم فى القرن الثامن قبل الميلاد فهاجروا إلى الأناضول وغزوا ليديا فى القرن السابع قبل الميلاد ومنوا بهزيمة نكراء على يد السيث سنة ٣٦٠ قبل الميلاد. وما يُعرف عن مصيرهم بعد ذلك قليل جداً. (المترجم).

(٢) مملكة قديمة فى غرب آسيا كانت تقع جنوبى بحر قزوين وكانت عاصمتها إيكبتانا. (المترجم).

فاز فى معركة ضد الآشوريين. إلا أنه أثناء حصاره للمدينة ودخل مملكته جيش ضخم من السيث... وقد كان دخولهم آسيا أثناء قيامهم بطرد السيميريين من أوروبا. وبينما كانوا يطاردونهم دخلوا أرض الميديين.

ساقوا أمامهم شعوب البلاد ودمروا جزءاً كبيراً من الشرق الأدنى، كما يقول هيرودوت:

ظل القوقاز يسيطرون على آسيا على مدى ٢٨ سنة. وكان عنادهم وعدم اكترائهم سبباً فى دمارها. فإلى جانب الحصول من كل إنسان على الخراج الذى فُرض عليه، كانوا يجوبون البلاد ويستولون على أى شىء تركه إنسان.

ولكن الميديين خرجوا سالمين من مواجهتهم مع السيث. فخلال تلك الفترة أعاد الزعيم الميدى سياخرز تنظيم جيشه، كما يقول هيرودوت:

يقال إن [سياخرز] رجل حرب يفوق أسلافه فى عظمته. وكان أول من جمع محاربى آسيا فى حاميات وكلف كلاً منها بمهمة منفصلة. فالبعض رمّاح والبعض الآخر قواس بينما يقاتل آخرون من فوق ظهور الخيل. وكان السائد حتى ذلك الوقت هو اختلاط الحابل بالنابل دون أى تمييز.

وبعد فترة تمكن الميديون من إجبار الجزء الأكبر من القوقاز والسيميريين على الانسحاب شمال جبال زاجروس فى المرتفعات الأرمينية. ولكن كثيرين من هؤلاء المحاربين الجوالين ظلوا فى ميديا وكونوا نواة جيش جديد أكثر فاعلية أصبح يحكم الهضبة الإيرانية. وتحالف الميديون مع بابل المتمردة ضد الآشوريين. وفى سنة ٦١٢ قبل الميلاد استولوا على نينوى عاصمة المملكة التى كانت كثيراً ماتفاخر بحكمها الإرهابى. وبعد ذلك اقتسم الميديون والبابليون جزءاً كبيراً من غرب آسيا فيما بينهما. وكان الميديون يحكمون طريق الحرير من نهر جيحون حتى الفرات، بالإضافة إلى جزء كبير من الأناضول. فى حين سيطر البابليون على طريق الصحراء الكبرى من نهرى بلاد مابين النهرين حتى المتوسط.

غير أنه كانت هناك قوة أخرى ترقب طريق التجارة العظيم عبر إيكبتانا، وهم الفرس

الذين تأهبوا للتحرك ضد أقاربهم الأبعدين الميــديين. وعندما أحس البابليون بتهديد الميديين لهم، مع علمهم التـام بالنبوءات العبـرية الخاصة بسقـوط بابل، تحالفوا مع الفرس بزعـامة قورش الثـانى. ومع أن الفرس وقتـها كانوا شـعباً شبـه مستـقر، فقد ظـلوا وثيقى الصلة بجذورهم. ونقش أحـد أسلاف قورش على لوح من الذهب هذه العبـارة: «أرض الفرس هذه التى أملكها فيـها الخيل الجياد والرجـال الأفاضل». وحاول الميديون إضعـاف البابليين بقطع طريق الحرير. ولكن الـفرس نجحوا فى آخـر الأمر فى تحقـيق أهدافهم الاستعـمارية واستولوا على ايكبتانا وجعلوها العاصمة الصيفية لإمبراطوريتهم.

ولكن قـورش لم يقنع بذلك. فمـا كان ليـرضى بأقل من السـيطرة على كل النصف الغربى من طريق آسيا العظيم. وذلك بالنسبة له كان يعنى كل آسيا الصغرى، إذ كان الملك الثرى كريسوس[1] مازال يسيطر على ماوراء أرض ميديا القديمة، حيث تجمعت فى الموانىء اليونانية ثروات الشرق كى تتجه إلى بلاد اليـونان الأوروبية. واستولى قورش على سرديس عاصمة كريسوس التى كانت تبدو منيـعة ثم شق طريقه إلى المدن الساحلية اليونانية الواحدة تلو الأخرى، بادئاً بذلك قروناً من الحـرب بين الفرس واليونان. وبعد ذلك تحول اهتـمامه إلى الشرق، حيث كانت قبائل مغيرة من البـدو تسعى للوصول إلى الهضبة الإيرانية. وسار قورش فى جبال البـرز وخرج إلى السهوب وعبر نهـر جيحون وجعل نهر سـيحون حدوده الشرقية. كما شيَّد سلسلة من المدن المحصنة لحماية إمبراطوريته من غارات بدو السهوب.

فى هذه المنطقة، التى يقول البعض إنها بالقـرب من الرى ويقول آخرون إنها قريبة من بلخ، كان نبى يدعى زرادشت قـد وضع قبل فترة قـصيرة أسس الديانة الزرادشـتية. ولأن الزرادشتية صورة معدلة من الديانة المجوسية[2] التى كانت القبائل الإيرانيـة تؤمن بها، فقد انتشرت بصورة كبيرة فى أنحاء آسيا الوسطى، خاصة فى المناطق الواقعة على طريق الحرير. واشتركت الزرادشتية فى عدد من الأفـكار مع اليهودية، التى كانت تسعى إلى أن يكون لها شكل متماسك فى ذات الفترة. من هذه الأفكار الإيمان بالمخلص أو المسيح وبالبعث واليوم الآخر وبكتاب فى السماء تسجل فيه أعمـال البشر وبالفردوس. وهناك مايدعو إلى التساؤل عما إذا كانت مسـتوطنات التجار اليهود، التى أقامهـا الآشوريون عند الرى وربما أبعد منها

---

(١) ملك ليديا، وهى مملكة قديمة غربى آسيا الصغرى التى كانت تسيطر على معظمها. وحكم فى الفترة من ٥٦٠ إلى ٥٤٦ قبل الميلاد. وهو مشهور بثروته الضخمة. (المترجم).

(٢) المجوس هم أتباع زرادشت الذين يعبدون النار التى لابد أن تحفظ فى بيت النار بعـيداً عن الشمس وعيون غير المؤمنين. (المترجم).

شرقـاً، أداة التوصيـل التى جرى من خلالهـا التبـادل الدينى بين الجماعـات الرئيسـية فى الديانتـين أم لا. والشىء المؤكـد هو أن الديانة الزرادشتـية، بـإبرازها لقوى الخير والشر المتصارعة فى العالم، كـان لها أثر كبير على المسيحية، خاصة فى أشكـال المسيحية بالشرق الأدنى التى اعـتبرها الـبعض هرطقـة. وصـارت الزرادشـتيـة بعـد ذلك الدين الرسـمى للإمبراطورية الفـارسية. إلا أن الفرس فى تلك العصـور القديمة لم يسمحـوا فقط بوجود أديان عدة، وإنما بوجود شعـوب كثيرة. وكانوا يهدفـون من ذلك إلى وجود إحساس واهم بأن هناك استقلالاً فى إطار الإمبراطورية الأم.

وإذا عدنا مـرة أخرى إلى مـابين النهرين، وجـدنا أن قورش قـضى على حكم الملوك البـابليين الذى دام طويلاً واسـتولى على أراضى الهـلال الخصـيب وسلسلة مدن القـوافل الكبيرة والموانىء التى تربط بلاد فارس بالجزيرة العربية ومصر وعالم البحر المتوسط. واعتبر كثيرون، وخاصة اليهود، قورش محرراً، فـانتصاره كان بمثابة إنهاء لـ«الأسر البابلى». كما أنه هو الذى سمح لهم بالعودة إلى أورشليم ليعيـدوا بناء الهيكل. وفى سفر عزرا ١ : ٢ ـ ٣ بالتوراة:

هكذا قال كورش ملك فارس. جميع ممالك الأرض دفعها لى الرب إله السماء وهو أوصانى أن أبنى له بيتاً فى أورشليم التى فى يهوذا. من منكم من كل شعبه ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم... ويبنى بيت الرب إله إسرائيل.

ووسَّع خلفاء قورش من بعده حدود الإمبراطـورية الفارسية: غرباً إلى مصر[١] وشمال أفريقيا وشمالاً إلى تراقيا[٢] وشرقاً إلى جبال الأفغان والهند. وبذلك كانت أكبر إمبراطورية يشـهدها العـالم حتى ذلك الوقت. ومع بداية القـرن الخامس قـبل الميلاد وحَّد خلـفه دارا العظيم أرضه الشاسعة بشبكة لا نظير لها من الطرق. ومن أشهر هذه الطرق الطريق الملكى الفارسى الذى ربط عاصمة الفرس القديمة صـوصا مع مدينة كريسوس القديمة سرديس فى الأناضول. وخرج طريق فـرعى من صوصا ليعـبر جبال زاجروس إلى إيكبـتانا على طريق الحرير.

(١) قاد قمبيز الثانى (٥٢٩ ـ ٥٢٢ قبل الميـلاد) الذى خلف والده قورش إلى مصر على رأس حملة قوامها ٥٠ ألف جندى وبذلك قامت فى مصر أول أسرة حاكمة فارسية سنة ٥٢٥ قبل الميلاد، هى الأسرة السابعة والعشرون. وكانت تلك هى المرة الأولى التى تُحكم فيها مصر من خارج حدودها. (المترجم).

(٢) شمالى بحر إيجة. (المترجم).

وكما هو حال الطرق السريعة الحديثة، أُنشئت تلك الطرق السريعة بحيث لاتمر فى المدن الكبرى، لأن السير فى شوارع تلك المدن سوف يعطل المسافرين. كما أن الطرق السريعة تجعل وصول الأعداء إلى أبواب المدن سهلاً. وكان الرسل الذين يركبون خيلاً سريعة يقطعون مسافة ١٦٠٠ ميل بين صوصا وسرديس فى تسعة أيام، تزيد إلى عشرة إذا امتد السير حتى ميناء سميرنا (أزمير الحالية) أو ميناء افسوس. وكانت خدمة الرسل هذه على قدر كبير من الشهرة، حتى فى العصور الوسطى، حيث كان اسمها ـ angareion ـ رمزاً للسرعة. ويصف لنا هيرودوت الطريقة التى كانت تعمل بها هذه الخدمة:

> **ليس هناك شىء على الأرض يمكنه الآن قطع المسافات أسرع من هؤلاء الرسل، الذين هم نتاج مهارة الفرس. ويقال إنه على قدر الأيام التى تحتاجها الرحلة يكون عدد الرجال والخيل الواقفين على الطريق. كل رجل وحصان يقطعان مرحلة من الرحلة. وهؤلاء لا يُوقفهم جليد أو مطر ولا حرارة أو ظلمة عن تحقيق ماكُلفوا به بأقصى سرعة. ويُسلِّم الخيَّال الأول مايحمله إلى الثانى والثانى إلى الثالث. وهكذا ينتقل من يد إلى أخرى، كما هو الحال فى سباق حاملى الشعلة تكريماً لهيفايستوس.**

وهؤلاء ليسوا فقط أسلاف الذين عملوا فى «پونى إكسبريس»[1]، بل أسلاف كل أنظمة البريد فى العالم. كما أن هيئة البريد الأمريكية استعارت نصاً من تعليق هيرودوت ليكون شعاراً لها:

> **لاينبغى للجليد أو المطر أو ظلمة الليل أن تثنى هؤلاء الرسل عن إنجازهم المهام التى كُلفوا بها بسرعة.**

***

وكسابق عهده امتد الطرف الغربى من طريق الحرير فى ذلك الوقت إلى بابل التى ظلت ملتقى طرق مابين النهرين. وكانت تمر عليه قوافل كثيرة عبر طريق الصحراء الكبرى إلى حلب ودمشق. وكانت القوافل فى أغلب الأحيان تعبر نهر دجلة بالقرب من عاصمة

---

(١) نظام قديم كان متبعاً فى الغرب الأمريكى لنقل البريد عن طريق فرسان يقطع كل منهم مرحلة يسلم عندها ما معه لغيره ليوصلها إلى ثالث. ونخص بالذكر تلك الخدمة التى كانت بين سانت جوزيف بولاية ميسورى وسكرامنتو بولاية كاليفورنيا (١٨٦٠ ـ ١٨٦١). (المترجم).

الآشوريين نينوى (وهى الموصل الآن) وتعبر الفرات عند زوغمـا، التى يعنى اسمها «جسر» أو «عبـور». غير أنه مع اتجـاه الإمبراطوريـة نحو الشمـال الغربى إلى الأنـاضول والمدن اليونانيـة الواقعة على بحر إيجـة والبحر الأسود، حـمل الطريق الملكى الفارسى كثـيراً من المسافـرين والتجار إلى أمـاكن أبعد عبـر الإمبراطورية. ورغم أن الطرق الـبرية التى تمر فى الأناضول كانت طويلة وشاقة، فقد كان يفضلها المتجهون إلى بلاد اليونان. فالقراصنة كانوا يجعلون السفر فى البـحر المتوسط محفوفاً بالمخاطر. ومن حلب كانت مـرحلة مختلفة من الطريق الملكـى الفـارسى ـ وهو الطريق المفـضل فى زمـن هيـرودوت ـ تدور حـول خليج إيسوس الذى يشبه الإصبع، عبر بوابات كيليكيا الضـيقة ثم تصعد هضبة الأناضول لتتصل بالطريق الرئيسى عند أنقرة. ومن الطبيعى أن القوافل كانت تسير أبطأ كثيراً من رسل البريد الذين وصفـهم هيرودوت الذى يقـدر أن أى مسافـر يسيـر على قدميـه أو أى قافلة تسـير بسرعـتها البطيئـة المعتادة كانت تحـتاج إلى تسعين يومـاً لتكمل الرحلة على الطريق الملكى الفارسى.

وكانت حـاجات المسافرين تُلبى بشكل جيد. وأغلب الظن أن ذلك كـان يجرى على غرار الأنماط التى نشـأت على مدى الألفى سنة السابقـة لخدمة تجار المسـافات الطويلة على الهضبة الإيرانية. إذ أقيمت محطات الإقامة والتـموين على مسافات معقولة. فكانت قريبة من بعضها ولا يفصل بينها فى بعض الأحيان سوى اثنى عشر ميلاً، فى أراضٍ جبلية وعرة حيث كـان الطريق فى بعض المرات قد شُق فى الصخـر الأصم. فى حين كانت المسـافات بينها تزداد فى الأراضى المنخفضة الأكثر سهولة، حيث يتوقع المسافرون قطع مسافات أطول فى اليوم الواحد. وكانت العبارات، وبعد ذلك الجسور الدائمة الموسمية المقامة على قوارب، تُستـخدم كثيـراً عند معابر الأنهـار عندما لايكون خوض مـياهها ممكناً. وفـضلاً عن ندرة الأخشاب وأحجار البناء فى السهول، كان من النادر استخدام الجسور الدائمة لأن أنهار بلاد مابين النهرين كانت تفيض فيضاناً شديداً.

ورغم كون الطريق الملكى أشهـر الطرق الفارسية فى تلك الفـترة، فلم يكن فريداً بأى حال من الأحوال. إذ كـان نفس القدر من الاهتمام بأمن المسـافرين وراحتهم مـتوافراً على الطرق الرئيسية فى أنحاء الإمبـراطورية، بما فى ذلك طريق الحرير بطبيعة الحال. والواقع أن السلام النسبى الذى ساد الأراضى الفارسية الشاسعـة أتاح للسفر والتجارة أن يتما بقدر أكبر من السهولة والربحية لكل الأطراف عما كان عليه الأمر فى السابق.

وحدث فى تلك الفترة أن بدأت مدن القـوافل الكبرى فى سوريا ـ وهى حلب وحماة وحمص ودمشق بصورة خـاصة ـ تتبوأ مكانة بارزة بحق، حيث كانت تتلقى بضائعـها عبر طريق الحرير إلى جـانب التوابل والعطور عبـر طريق البخور بالجـزيرة العربية وغـيرها من النفائس عن طريق البحر من الهند. وكان الآراميون (وهم إحدى المجموعات السامية الكثيرة التى كانت تعيش فى الصحراء السورية وماحولها) تجاراً نشطين فى مدن القوافل تلك، حتى أن لغتهـم أصبحت لغة تجاريـة شائعة، أى اللغة المشـتركة (lingua franca)، على الثلث الغربى من طريق الحرير. وشجع الفرس التجارة تشجـيعاً كبيراً فى كل أنحاء الإمبراطورية، حيث أدخلوا الموازين والمقاييس الثابتة وصكوا العملات لتحل محل أنظمة المقايضة القديمة، وهى دفع ثمن السلعة عيناً. ونتيجة لتوافر قدر أكبر من الأمن وماتبع ذلك من انخفاض فى تكاليف النقل والمخاطر، أصبح طريق الحـرير لايقتصر على نقل البضائع النفـيسة أو المعادن الحيوية، وإنما تعدى ذلك إلى كميات كبيرة من سلع الحياة اليومية كالأدوات المنزلية والملابس الرخيصة والحبوب.

فى هذا النوع من التجـارة كان الجمل صاحب السـيادة. ربما كان الحصـان مطية رسل الملوك والغزاة شديدى السرعة. ولكن الجمل فى ذلك الوقت كان دعامة تجارة طريق الحرير. وبينما كان الجمل العـربى فى الغالب قاصراً على السهول الحـارة، كان الجمل ذو السنامين سائداً فى المرتفعات. وكثيراً ماكان ضمن الخراج الذى يُرسل إلى حكام الجبال. بل إن صور الجمال ذات السنامـين نُقشت على جدران القصر الفـارسى فى پريسبوليس[١] وقد وضعت الأجراس حول أعناقها وقيِدَت بالأرسن. وكان الجمَّالة أشخاصاً مهمين على طريق الحرير. وليس مـصادفة أن اسـم زرادشت بالفارسـية كـان «زرا أوشترا» أو «زراتوسـترا» ومـعناها «الجمَّال». وفى القرن الرابع قبل الميلاد قُدمت وسيلة مُعِينة لدواب الحمل التى كان عليها أن تسافـر على الطرق الوعرة، عندما ابتُكرت الحـدوة المصنوعة من النحاس أو الجلد أو شـعر الخيل[٢].

ويتجلى مدى اتسـاع ثراء إمبراطورية الفرس فى النقش الذى كتبـه دارا على قصره فى صوصا سنة ٥٢١ قبل الميلاد تقريباً:

---

(١) أصبحت تسمى «إصطخر» بعد ذلك. (المترجم).

(٢) أُستخدمت حـدوة الحصان المصنوعة من الحديد لأول مرة فى القـرن الثانى قبل الميلاد تقريباً، رغم اسـتخدام الحديد فى أغراض أخرى قبل ذلك بزمن طويل. (المترجم).

هذا هو القصر الذى شيدته فى صوصا. جُلبت زخارفه من مكان بعيد... حُفرت الأرض و... سُحق الركام... وصب البابليون قوالب الآجِر الذى تجففه الشمس... خشب الأرز... من جبل يسمى [لبنان]... أحضره الآشوريون إلى بابل. ومن بابل جاء به الأيونيون(١) والكاريون(٢) إلى صوصا. وجىء بخشب الياكو من قندهار [فى الهند] ومن كرمان(٣). وجىء بالذهب من سرديس(٤) ومن باكتريا (بلخ) حيث شُكّل هنا. وحجر اللازورد والعقيق الأحمر الكريم الذى شُكّل هنا جىء به من بلاد الصُغد(٥). وجىء بحجر الفيروز الكريم من خوارزم وشُكّل هنا. وجىء بالفضة والأبنوس من مصر. وجىء بالزخارف التى زُيّنت بها الجدران من الجزر الأيونية. وجىء بالعاج الذى شُكّل هنا من أثيوبيا ومن السند ومن أراخوزيا. وجىء بالأعمدة الحجرية التى شُكّلت هنا من عيلام(٦). والحجّارة الذين نحتوا الحجر كانوا أيونيين وسرديسيين. والصاغة الذين صاغوا الذهب كانوا ميديين ومصريين. والرجال الذين صبوا الآجر المحروق كانوا بابليين. والرجال الذين زينوا الجدران كانوا ميديين ومصريين.

وفد إلى هذا القصر أمراء ورسل أجانب وأطباء وكُتّاب وفنانون وكل الصفوة السياسية والثقافية فى منتصف الألف الأولى قبل الميلاد.

وأحدث الحكم الفارسى تغييرات أخرى فى طريق الحرير. فنُفِّذت أشغال عامة ضخمة، مثل شق العديد من القنوات المغطاة لتوفير الرى فى الهضبة الجافة، حيث كان الماء أثمن من أن يُترك ليتبخر فى القنوات المكشوفة. وفى السهول التى يكثر فيها الماء، جُففت المستنقعات لزيادة الأراضى الزراعية. وشجع دارا على وجه الخصوص نقل أصناف جديدة من النباتات فى كل أنحاء إمبراطوريته تشجيعاً كبيراً. ففى هذه الفترة انتقل البرسيم

(١) سكان مجموعة جزر يونانية غزوا الأراضى اليونانية ثم هاجروا إلى جزر بحر إيجة وشواطىء آسيا الصغرى. وهم يُنسبون إلى جدهم أيون. (المترجم).

(٢) سكان كاريا وهى منطقة قديمة جنوب غربى آسيا الصغرى. (المترجم).

(٣) تسمى أيضاً كرمانشاه، وهى مدينة إيرانية قريبة من خليج عُمان. (المترجم).

(٤) مدينة قديمة فى غرب آسيا الصغرى كانت عاصمة ليديا القديمة. (المترجم).

(٥) إقليم كان تابعاً للإمبراطورية الفارسية القديمة، يقع بين نهرى سيحون وجيحون وسُميت أيضاً ماوراء النهر. (المترجم).

(٦) مملكة قديمة شرقى بابل وشمالى الخليج العربى، عاصمتها صوصا. (المترجم).

الحجازى، وهو العلف المفضل للخيول، من الهضبة الإيرانية إلى آسيا الصغرى واليونان. وفى خطاب من دارا إلى أحد حكامه كتب يقول: «إنى أزكى عزمك على تحسين أرضى عن طريق نقل أشجار الفاكهة». وفى هذه الفترة أيضاً وصل الفستق إلى حلب لأول مرة والسمسم إلى مصر والأرز إلى بلاد مابين النهرين.

***

فى تلك الفترة كان النصف الشرقى من طريق الحرير مازال فى الظل. وربما سار بعض الرسل والتجار الأجانب شرقاً عبر جزء من هذا الطريق. ولكن يبدو أن الطريق، مثله مثل الصين ذاتها، كان مقسماً بين العديد من الدويلات والعشائر. إلا أنه كان هناك طريق يمتد مسافة طويلة عبر اليابسة فى الفترة نفسها، وهو طريق السهوب الأوراسية الذى يبدأ عند حدود الصين الشمالية وينتهى عند السهوب الأوروبية شمال البحر الأسود. وهناك، فى الأرض التى يُفترض أنها موطن الشعوب الهندوأوروبية القديم، كان يحكم القوقاز الأقوياء.

وربما كان أكثر مانذكره للسيث الآن هو مجموعتهم الرائعة من أدوات الزينة والمعدات الذهبية. وكان كل شىء بدءاً، من عدة ركوب الخيل إلى صحونهم وزينتهم الشخصية، إما مصنوعاً من الذهب الخالص أو مطلياً بالذهب. وكان جزء كبير من تلك الأشياء من عمل صناع مهرة فى المستعمرات اليونانية الجديدة على سواحل البحر الأسود. وهناك كان اليونان يقايضونها بالحبوب التى ينتجها هؤلاء السيث الذين كانوا يميلون إلى الزراعة. إلا أن الذهب الذى كان التجار السيث يأتون به مع الفراء عبر السهوب من الشرق له نفس القدر من الجاذبية.

وزعم مغامر يونانى اسمه أريستيس أنه تعقب القوافل السيثية شرقاً من عند الأسواق الواقعة شمالى البحر الأسود للحصول على الذهب، فى القرن السادس أو السابع قبل الميلاد. وقد ضاعت قصيدة أريستيس الخيالية التى تحكى تجاربه، ولكن هيرودوت يلخص لنا كيف أن أريستيس أعلن أنه:

> **... سافر إلى الإيسيدون بوحى من أبولو. وفى الأرض الواقعة وراء الإيسيدون يعيش الأريماسپى، وهم قوم بعين واحدة وخلفهم الغرافين التى تحرس الذهب وبعدهم أهل ما وراء الريح الشمالية الذين يمتدون حتى البحر، وتتوقع كل هذه الأمم أن أهل ما وراء الريح الشمالية يزعجون جيرانهم، بدءاً بالأريماسپى...**

وكانت العناصر الخيالية الواضحة والأسماء غير المألوفة فى هذه القصة سبباً فى عدم الاعتقاد بعدم صحتها لفترة طويلة. ولكن بعد التحليلات الدقيقة التى قام بها أفراد مثل ج. ف. هدسون، يعتقد كثيرون الآن أن القصة وصفت طريقاً حقيقياً يمر فى أوراسيا.

ويستمر هيرودوت فى حديثه عن هذا الطريق المزعوم قائلاً:

وفيما يخص الجُرْد [ربما يقصد المغول الذين يفتقرون إلى شعر الجسم الوفير عند القوقاز] فالأرض والأقوام التى تسكنها معروفة جيداً. فهناك من القوقاز من يسافر إليها. وليس من العسير الحصول على المعلومات من هؤلاء أو من اليونان فى أسواق بورثينيس [دنيبر] أو أسواق بنطش [البحر الأسود] الأخرى. والسيث الذين يسافرون يقومون بأعمالهم من خلال سبعة مترجمين بسبع لغات... وأرض الجُرد الممتدة إلى البحر معروف يقيناً أنه يعيش بها الإيسيدون. إلا أن المنطقة الواقعة بعد ذلك ناحية الشمال من الجرد والإيسيدون غير معروفة، فيما عدا تلك القصص التى يرويها هؤلاء الناس عنها... وهناك رواية عن الإيسيدون تقول إن فى الأرض الواقعة وراءهم أناساً ذوى عين واحدة وغرافين تحرس الذهب. وقد أجاز السيث هذه الرواية... أما فيما يتعلق بأهل ماوراء الريح الشمالية، فلم يقدم السيث أو لا غيرهم فى تلك المنطقة أية رواية عنهم بخلاف ماذكره الإيسيدون ومن جهتى أنا، فإنى لا أصدق أن الإيسيدون حكوا عنهم شيئاً. لأنهم إن كانوا فعلوا ذلك لتحدثوا عنهم كحديثهم عن ذوى العين الواحدة.

وهنا نجد تناولاً للموقف يتسم بقدر أكبر من العملية، بما يتضمنه ذلك من بعض الشك الصريح. واعتماداً على المزيد من وصف هيرودوت، اعتقد هدسون أن قوافل الذهب السيثية كانت تخرج من مدينة عند مصب نهر الدون، ربما كانت تانيس (التى أصبحت تانا) فى منطقة «خالية من الأشجار البرية والمزروعة لمسيرة خمسة عشر يوماً إلى الشمال». وبعدها تقع أرض بها قدر يسير من الغابات، حيث يبيعون الفراء، ثم صحراء لمسيرة سبعة أيام. ويمضى هيرودوت قائلاً:

... وبخصوص أرض هؤلاء السيث، فكلها مستوية وتربتها عميقة.

ولكن الأرض بعد ذلك تصبح وعرة وكثيرة الحجارة. وبعد أن يقطع المرء مسافة طويلة من الأرض الوعرة، يصل إلى أناس يعيشون عند سفوح جبال شاهقة.

ويرى هدسون أن هذا الوصف ينطبق على الطريق من نهر الدون عبر السهوب إلى الفولجا، الذى يبدأ نمو الأشجار عند ضفته الشرقية، وتقع وراءه أرض ملحية جرداء. والجبال «المرتفعة التى لايمكن اجتيازها» هى فى تصوره أنها جبال ألتاى (الذهبية) التى يتم بلوغها بعد المرور فى سفوح وعرة متكسرة.

والواقع أن قمم ألتاى التى تغطيها الثلوج كانت أمراً مدهشاً لسكان السهوب الذين تعودوا على منظر السهول التى لاملامح لها. ولابد أن التلال فى تلك المنطقة كانت تشكل حاجزاً أمام السفر اليسير لهؤلاء الذين لا علم لهم بممر جونغاريا الذى يمر خلاله طريق السهوب الأوراسية بسهولة إلى السهوب المغولية. وفى هذا الموضع من جبال ألتاى توجد مناجم الذهب السيبيرية العظيمة. وهى المناجم التى وفرت أكبر كمية من الذهب للسيث. ذلك الذهب الذى عرف طريقه أيضاً إلى تركستان الروسية حول بحر آرال، ثم عبر طريق الحرير إلى غرب آسيا. وبعد ذلك يضع هدسون الإيسيدون فى إقليم لوب نور (وهو الموضع ذاته الذى وضعهم فيه الجغرافى اليونانى الرومانى بطليموس فى القرن الثانى الميلادى).

وبعد وصول هدسون إلى ذلك الحد من القارة، أى ماوراء ألتاى ولوب نور، رأى أن أهل ماوراء الريح الشمالية «الذين يمتدون إلى البحر» هم فى الواقع أهل الصين. فالمعروف أن مناخ الصين معتدل. وفى المقابل نجد أنه فى سيثيا، كما يقول هيرودوت: «يستمر الشتاء ثمانية أشهر وخلال الأربعة الباقية يظل الجو بارداً». وأشار هيرودوت أيضاً إلى أن أهل ماوراء الريح الشمالية كانوا نباتيين. ومن المؤكد أن الصينيين كانوا كذلك، على الأقل مقارنة بقبائل البدو فى آسيا الوسطى الذين كانوا يسخرون منهم كأكلة لحوم.

وهذا الافتراض الخاص بطريق برى يقطع آسيا تدعمه اكتشافات حديثة من الحرير الصينى تعود إلى تلك الفترة فى مقابر تقع بين جبال ألتاى مروراً بسيثيا، بل وتمتد إلى وسط أوروبا. وحتى ذلك الوقت، إن لم يكن قبله بكثير، كان الصينيون يقايضون حريرهم الذى لامثيل له بالفراء واليشب والجمال والخيل، التى لاقبل بتوفيرها إلا لقبائل البدو فى السهوب. وكانوا يأملون خلال ذلك فى تأمين بعض مظاهر السلام على حدودهم.

وإذا صح مايقوله هدسون، يكون أريستيس أول إنسان نعرفه بالاسم سافر من أوروبا عبر آسيا إلى أطراف الصين ويعرض لنا لمحة عن تجارة القوافل بعيدة المدى التى امتدت عبر آلاف الأميال من الأراضى غير المستقرة. فهل امتدت شبكة تجارية شبيهة على طول طريق الحرير؟ إننا لانعرف ذلك على وجه الدقة. ومن المؤكد أن اليشب كان يجتذب الصينيين كما يجتذب الذهب الأوروبيين. إلا أنه لايوجد تحت أيدينا سجل لمسافر عبر التاريم فى نفس الفترة، لمقارنته بما قاله أريستيس. والواقع أنه فى زمن هيرودوت، أى بعد أريستيس بقرن أو قرنين على الأقل، يبدو أن الطريق التجارى عبر السهوب كان قد انقطع.

فهيرودوت كان ينقل ما سمعه وما ذكر أنه لم يتمكن من العثور على ما يؤكده فى الروايات المعاصرة. ويُفترض أن طريق السهوب الأوراسية، الذى كان الأسهل دائماً، قد سقط فريسة لعبيه القاتل، وهو تعرضه الدائم لقبائل السهول البدوية المتصارعة دائماً.

***

وسرعان ماشرع اليونان، الذين قدموا لنا هذه الصورة الجزئية عن الطريق الذى يقطع آسيا، فى تطوير النصف الغربى من طريق الحرير فى القرون التى سبقت ظهوره كطريق سريع يربط بين سوريا والصين. وربما أخضع الفرس الطريق والإقليم لحاكم واحد. إلا أن اليونان هم الذين وفروا له وحدته الثقافية، وإن كان ذلك لفترة وجيزة. والرجل المسئول عن ذلك لايمكن أن يكون سوى الإسكندر الأكبر.

وعندما وصل الإسكندر إلى موقع الطريق، كانت الأيام العظيمة التى شهدتها بلاد اليونان الكلاسيكية قد ولت. ورغم أن الإسكندر تعلم على يد أرسطو، فلم يكن نتاج العصر الذهبى لبلاد اليونان لأنه جاء من بلاد مقدونيا الشمالية الأشد قسوة. ولكنه ألزم نفسه بمهمة الثأر لهزيمة اليونان على أيدى الفرس، إلى جانب تحقيق المجد لنفسه. ليس فقط من خلال إقامة إمبراطورية على غرار تلك التى أقامها دارا، إنما بفتح كل بلاد العالم المعروفة ونقل الثقافة الهلينسية إلى أنحاء غرب آسيا.

كان طبيعياً أن يبدأ بعبور هالسبنطس (الدردنيل)، تلك القناة الضيقة التى تفصل بين البلقان والأناضول. وبالتحديد بين شبه جزيرة غاليبولى والمنطقة التى كانت فى السابق تحت حكم خصم اليونان القديم، طروادة. وظل ذلك لفترة طويلة المعبر الرئيسى بين أوروبا وآسيا. أما قناة البوسفور الواقعة فى الشمال الشرقى، وتقوم عند رأسها استنبول الحالية، فلم تبرز إلا بعد ذلك. وكانت طروادة وكل المدن المطلة على بحر إيجة تتنافس منذ زمن

بعيد على التجارة الواردة من غرب آسيا عبر هضبة الأناضول. وكان الإسكندر يعى جيداً أهمية هذه التجارة الغنية بالنسبة للتاريخ اليونانى. وعند وصول الإسكندر إلى آسيا فى ربيع سنة ٣٣٤ قبل الميلاد، كما يقول مؤرخوه، توقف أولاً عند موقع طروادة ليقدم فروض الولاء والطاعة لأخيل بطل حرب طروادة. وتصف المؤرخة مارجريت بريانت ذلك قائلة:

... وهناك استعرض أعمال التضحية المدهشة المقدمة لأثينا الإلياذة وتلقى الدرع الذى يُعتقد أنه كان ملكاً لأخيل وتقديم القرابين للموتى الهومريين العظام، وقد اكتسبت أهميتها من ذلك السحر الشعرى الذى أُضفى، فى ذهن الملك الشاب، على العمل كله، وهو ماسيتفاوت تقدير الناس له تبعاً للجزء الذى يعزونه إلى الخيال فى الأمور البشرية.

وبعد أن انتصر الإسكندر على الفرس فى معركة قصيرة، مضى فى طريقه لاستعادة المدن اليونانية الواقعة على الساحل الغربى لهضبة الأناضول. وأثناء توغله فى داخل البلاد، انحرف عن المسار العام للطريق الملكى الفارسى واتجه شرقاً لإخضاع الأمراء المحليين الذين ظلوا زمناً طويلاً يتمتعون بالحكم الذاتى فى ظل الفرس. وفى مدينة جورديوم عجز عن حل العقدة الجوردية[1] الشهيرة فدفعه نفاد صبره إلى قطعها بدلاً من حلها، إشارة منه إلى أنه سوف «يحكم كل آسيا» فى يوم من الأيام.

وبينما كان الإسكندر فى طريقه للقاء الجيش الفارسى الأساسى، اتخذ الطريق المتجه جنوباً من أنقرة إلى طرسوس على البحر المتوسط. وكان ذلك فى المسار الرئيسى للطريق الملكى الفارسى فى القرن الرابع. وهو أيضاً ما كان عليه قبل ذلك بقرن، عندما امتدح هيرودوت الطريق السريع العظيم. إلا أن ذلك كان خياراً تحفه المخاطر، بسبب عبور الإسكندر بجيشه من الممر الضيق الذى يسمى بوابات كليكيا فى أماكن تتسع فقط لأربعة جنود بجوار بعضهم. لذلك نجد المؤرخ العسكرى زينوفون، الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى، يصف هذا الممر بأنه «لايمكن عبوره إذا سده العدو» الذى كان يلقى فى العادة كتلاً صخرية ضخمة من أعلى الجبل عند محاولة الغزاة اقتحام البوابات. ولكن الإسكندر اقتحمها فى هجوم ليلى جرىء ليخرج إلى سهول طرسوس الرطبة غير الصحية.

وحتى الآن لم يلق الإسكندر معارضة كبيرة. فالجيش الفارسى الأساسى مازال بعيداً.

---

(١) تقول الأساطير اليونانية إن هذه العقدة عقدها جورديوس ملك فريجيا. وتمضى الأسطورة قائلة إن من يحلها [illegible] آسيا. إلا أنه يُروى أن الإسكندر الأكبر قطعها بسيفه، وهو مايعنى أنه حل هذه المعضلة بقوة السلاح. (المترجم).

إلا أن الجيشين التقيا فى آخر الأمر فى ربيع سنة ٣٣٣ قبل الميلاد فى السهول الواقعة شرقى خليج إيسوس[١]، ذلك الخليج الذى يشكل الزاوية التى بين الأناضول وسوريا. وتحول الاشتباك إلى هزيمة نكراء واضطُر دارا إلى الفرار على حصانه إلى المرتفعات الفارسية. ولم يتعقبه الإسكندر وإنما بدأ فى تنفيذ خطط خاصة به.

وكانت لليونان مدن على طول سواحل الأناضول منذ زمن طويل. وكان وجود تلك المدن تحت الحكم الفارسى من أسباب الفتوحات التى قام بها الإسكندر. وجنوب خليج إيسوس أيضاً كان اليونان يتاجرون زمناً طويلاً من خلال مدن مثل المينا وأوجاريت. ولكن ما إن يتعدى اليونان تلك المدن من سوريا حتى يكونوا داخل أراضٍ ظلت آلاف السنين فى أيدى شعوب المنطقة السامية.

وعلى طول الطريق البرى كانت هناك سلسلة من مدن القوافل، منها حلب ودمشق وعمان، فى أرض الأردن، والبتراء، وهى موقع صحراوى تحميه الصخور المرتفعة يقع جنوب خليج العقبة.

وكانت هذه المدن الخاضعة للعديد من القبائل العربية والطريق الذى يربط بينها تشكل الامتداد الشمالى لطريق البخور الأسطورى، الذى كان يبدأ من مدينة عدن فى الجنوب الغربى من الجزيرة العربية وكانت ملتقى طرق. وكان الإسكندر يعرف جيداً أن كل ثروات الشرق كانت تتدفق على مدينة عدن وتسير فى طريق البخور. وكان ينضم إلى توابل الجزيرة العربية، كاللبان والمر، الآتية من هذا الطريق الجواهر والتوابل القادمة من الهند والشرق الأقصى، بعد أن ظلت زمناً طويلاً تُجلب بالبحر عبر طريق التوابل. وقبل الإسكندر بقرون عديدة، وفى القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً، زارت ملكة جنوب الجزيرة العربية[٢] ملك إسرائيل اليهودى. وقد سجلت عظمة قافلتها فى سفر «الملوك» ١ : ١٠:

وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان... فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة... وأعطت الملكة مئة وعشرين وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة...

---

(١) بالقرب من الإسكندرونة الحالية. (المترجم).

(٢) بلقيس ملكة سبأ التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم فى سورة «النمل» حيث أرسل لها سليمان عليه السلام رسالة مع الهدهد يدعوها وقومها للدخول فى الإسلام. وبدلاً من أن تقاتله آثرت السلامة وأرسلت له هدية تليق به وتنتظر الرد منه. ولما عاد رسلها بهديتها سارت إليه بجنودها ذليلة عازمة على الدخول فى الإسلام. وعندما وصلت إليه كان قد أُتىَ له بعرشها الذى غلقت عليه الأبواب. (المترجم).

وكانت التجارة على طريق البخور هذا قد استمرت وتوسعت فى القرون التى بين هذين التاريخين. وحتى عندما استطاع التجار الذين يركبون البحر الدوران حول الجزيرة العربية بالإبحار فى البحر الأحمر إلى ميناء إيلة (العقبة)، ظلت القوافل البرية تحمل البضائع الثمينة شمالاً إلى البتراء ودمشق وحلب.

***

كانت مدن البحر المتوسط التى يسيطر عليها الفينيقيون تحظى بنفس القدر من اهتمام الإسكندر، إن لم يكن أكثر. إذ ظل الفينيقيون قروناً طويلة منافسين لليونان فى التجارة البحرية فى البحر المتوسط والمحيط الأطلسى. وبيبلوس (الجبيل) وصيدا وصور هى أهم مدن بلاد الفينيقيين (وهى تقريباً المكان الذى يشغله لبنان الآن). وكانت بيبلوس المركز القديم لتجارة ورق البردى المصرى. وقد اشتُق منها اسم الكتاب المقدس بالإنجليزية Bible ومعناه الحرفى «الكتاب». وفى صيدا وصور كانت مصانع الأصباغ الفينيقية، حيث كانوا ينتجون الصبغة «الأرجوانية الملكية» الشهيرة التى كانت تلقى تقدير الطبقة الأرستقراطية فى البحر المتوسط. وكان ذلك يتم بنفس الدرجة تقريباً من السرية التى كان الصينيون يحيطون بها صناعة الحرير.

وكان للصبغة نفسها دور هام فى موضوعنا. فأحد مفاتن طريق الحرير هو تلقيه للأصباغ، وخاصة الصبغة الأرجوانية. وطوال عدة قرون، وحتى خروج سر صناعة هذه الصبغة الأرجوانية ذات النوعية الجيدة الفريدة من بلاد الفينيقيين، كان مسار طريق الحرير يعرج على تلك المدن، حيث كان الحرير المستورد يُصبغ صباغة فاخرة.

وكانت الصبغة الفينيقية تُصنع من حيوانات رخوية توجد عند سواحل البحر المتوسط. وتشير أسطورة محلية إلى الطريقة التى اكتشف بها الإله ملجارت الصبغة عندما أخذ كلبه يأكل قوقعة وتلطخ فمه باللون الأحمر. وتشير الأسطورة إلى أن ملجارت هو أول من استخدم هذا اللون فى صبغ ثوب لعشيقته. ولم يكن اللون الأرجوانى الذى يُنتج هو نفس اللون الحديث الذى نعرفه بهذا الاسم، وإنما كان سلسلة من درجات اللون تتراوح بين الأرجوانى الداكن المائل للاحمرار «لون الدم المتجلط» والأزرق الداكن. والسائل الذى تفرزه غدد المريّف (murex)، وهو أفضل الرخويات المستخدمة فى إنتاج الصبغة، يكون أصفر اللون فى بادىء الأمر، ولكنه يتغير بتأثير الشمس إلى سلسلة الألوان كلها حسب رغبة الصبّاغ.

ولا تتم الصباغة إلا فى الخريف والشتاء حيث تتوافر الرخويات. وبما أنه ينبغى جمع الصبغة واستخدامها عقب قتل الرخويات مباشرة، فإن مصانع الصبغة كانت قاصرة على الساحل (وظل الحال كذلك قروناً عديدة إلى أن تعلم الناس كيف يحتفظون بالرخويات حية على اليابسة). وكان من الممكن استخراج السائل الغُدّى الثمين مباشرة من الرخويات الكبيرة. إلا أنه كان لابد من سحق الرخويات الصغيرة معاً ثم تنقع فى الملح وتغسل وتغلى لاستخراج الصبغة من الأصداف واللحم والفضلات. وكانت العملية بصورة عامة مجهدة ومكلفة. وفى الوقت الحاضر نجد أن المواقع التى كانت توجد بها المصانع القديمة بالقرب من صور تتميز بأكوامها القديمة من الأصداف المكسرة وتلك التى تخلصوا منها.

وكان لون الصبغة يتوقف على الرخويات المستخدمة وطول مدة التعريض لضوء الشمس وطريقة التحضير ودرجة التركيز التى تتحقق بالغلى. ومن أندر الدرجات وأغلاها كان الأحمر النارى. وكان يتحقق عن طريق الصباغة المزدوجة، حيث كان القماش يوضع فى المرة الثانية فى صبغة مأخوذة من نوع مختلف من الرخويات. وهذا الإنتاج المكلف جعل الصبغة الأرجوانية غالية الثمن بصورة حالت دون استخدامها فى كل أنواع القماش. وكان أغنى الناس وأكثرهم نفوذاً، مثل دارا وحبر العبريين الأعظم، هم فقط القادرون على شراء ثوب كامل من القماش الأرجوانى.

ومن المؤكد أن الصبغة الأرجوانية كانت مهمة فى تاريخ الفينيقيين. ويأتى اسمهم من الكلمة اليونانية التى تعنى أرجوانى poeni. (وفى العصور الرومانية تحولت الكلمة إلى pu-nic. أما الفينيقيون فكانوا يطلقون على أنفسهم اسم «الكنعانيون»، وذُكروا بهذا الاسم فى التوراة). إلا أن جعبة الفينيقيين كان فيها الكثير غير الصبغة الأرجوانية. فكانوا صناعاً بارعين، خاصة فيما يتعلق بصنع الزجاج الملون. وكتجار ركبوا البحر سنين طويلة، وكان لهم باع طويل فى التبادل التجارى بين آسيا والبحر المتوسط. وكانت المدن الفينيقية، وخاصة صور، مراكز تجارية عامرة. وهو ماجاء ذكره بإسهاب فى سفر حزقيال ٢٧ :

وقل لصور أيتها الساكنة عند مداخل البحر تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة... آرام تاجرتك بكثرة صنائعك تاجروا فى أسواقك بالبهرمان والأرجوان والمطرز والبوص والمرجان والياقوت. يهوذا وأرض إسرائيل هم تجارك. تاجروا فى سوقك بحنطة منيت وحلاوى وعسل وزيت وبلسان. دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك وكثرة كل غنى بخمر حلبون

والصوف الأبيض... تجار شبا... هم تجارك. بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك... هؤلاء تجارك بنفائس بأردية أسمانجونية ومطرزة وأصونة مبرم معكومة بالحبال مصنوعة من الأرز... عند خروج بضائعك من البحار أشبعت شعوباً كثيرين. بكثرة ثروتك وتجارتك أغنيت ملوك الأرض.

وكانت المدن الفينيقية جوائز تغرى بالفوز بها، إذ أنها تجمع بين الصناع المهرة وأسواق التقاء الطرق القائمة من زمن طويل والموانىء التى تنقل البضائع إلى الأنحاء المختلفة من عالم البحر المتوسط.

ومن بين سائر المدن البحرية والداخلية، كانت تلك المدن تستحق ما استأثرت به من اهتمام الإسكندر. فاليونان أولاً وأخيراً شعب تجارى على درجة كبيرة من المهارة. وكانت أنشطتهم التجارية فى الماضى تولى البحر اهتماماً كبيراً. وطوال قرون كثيرة كان الاستعماريون من بلاد اليونان الشحيحة المكتظة بالسكان يجوبون البحار من جبل طارق إلى القرم لإقامة مراكز تجارية ينقلون من خلالها موارد تلك البلاد الأكثر وفرة إلى وطنهم. وكان على الإسكندر وخلفائه أن يفعلوا الشيء نفسه مع بلدان غرب آسيا. وقد استولوا على المدن القائمة وأضافوا إليها مدناً من إنشائهم.

***

تجاهل الإسكندر مؤقتاً الجيش الفارسى الذى عمته الفوضى وأقسم أن ينتقم منه، بينما آثر أن يقضى العامين التاليين فى الاستيلاء على مراكز القوافل والموانىء الرئيسية فى غرب آسيا، من سوريا إلى فلسطين ومصر. والواقع أن دارا كانت هزيمته شديدة حتى أنه عرض تسليم الإسكندر كل الأراضى الواقعة غرب الفرات مقابل السلام. وربما كان من أسباب انكساره أن الإسكندر سبى نساء العائلة الملكية الفارسية بعد هزيمة الفرس عند إيسوس. ولكن الإسكندر رفض الصفقة إعلاناً منه عن عزمه الاستيلاء على كامل أرض دارا.

ولم يستول الإسكندر على تلك المدن الحصينة دون قتال. ولم تكن مفاجأة أن تكون أشرس مقاومة من صور التى كانت يوماً معقل الفينيقيين. ورغم أن أهل صور كانوا يخضعون منذ زمن طويل للنفوذ الفارسى، فقد كانوا يرفضون الخضوع لنير منافسيهم الأقدمين اليونان. وطوال سبعة أشهر صمدوا خلف أسوار حصنهم. ولم تسقط المدينة إلا عندما أقام الإسكندر جسراً عرضه نصف ميل (مازالت بقاياه قائمة إلى الآن) يصل إلى

الجزيرة ثم شن هجوماً بحرياً وبرياً عليها. وكذلك صمدت غزة معقل الفلسطينيين، الواقعة جنوباً على الساحل، شهرين أمام الحصار. وفى النهاية نُهبت المدينتان وإن لم تدمرا. وتفرق أهلهما الذين أصبحوا عبيداً. وسرعان ماعمَّر المدينتين المستعمرون اليونان وغيرهم من المستوطنين القادمين من المدن القريبة.

بعد ذلك كان طريق الإكندر أيسر. فقد عبر قطاع غزة إلى دلتا مصر وأراضيها الصحراوية. وربما يكون أشهر ماقام به هناك هو تأسيس ميناء يونانى عند مصب الفرع الغربى للنيل، وهو الإسكندرية. وأصبحت الإسكندرية، التى قُدِّر لها أن تكون واحدة من مدن العالم العظيمة، المنفذ الرئيسى للتجار البحريين على طريق التوابل. وبصفتها مركزاً كبيراً للتنقية والتوزيع فى عالم البحر المتوسط، كانت فى بعض الأوقات بمثابة نهاية لطريق الحرير، منافسة بذلك النهاية المنطقية الواقعة شمال غربى سوريا.

وعند عودة الإسكندر من مصر سار فى طريق القوافل البرى ماراً بدمشق ليتجه شرقاً فى ربيع سنة ٣٣١ قبل الميلاد. وأدت أمطار الشتاء إلى امتلاء أنهار بلاد مابين النهرين. ولكن الجيش اليونانى عبر أعالى نهر الفرات على جسر عائم أُنشىء خصيصاً. وكان نهر الفرات من الضحالة بالقرب من موقع مدينة نينوى الآشورية القديمة بحيث أتاح للإسكندر وضع صفين من الخيالة بعرض النهر كى يتمكن المشاة من عبوره على الأقدام. ومرة أخرى كان ينبغى أن تكون الغلبة لتفوق دارا العددى، خاصة فى السهول المنبسطة. ولكن استراتيجية الإسكندر هى التى انتصرت وهُزم الفرس ولجأ دارا إلى الهضبة الإيرانية.

وفى هذه المرة أيضاً لم يشأ الإسكندر تعقبه على الفور، حيث آثر أن يستعيض عن ذلك بالتقدم جنوباً نحو بابل أغنى مدن بلاد مابين النهرين. وعلى طول الطريق فتحت المدن أبوابها لحاكمها الجديد، بعد أن فر الحاكم القديم إلى المرتفعات. وفى بابل، التى اتخذها الإسكندر عاصمة له فى غرب آسيا، أمر بزراعة النباتات اليونانية فى حدائق بابل المعلقة الشهيرة. وبينما لايزال مستمراً فى تقدمه جنوباً، أضاف إلى ثروات بابل ثروات صوصا عاصمة الفرس الربيعية. وفى حملة شتوية مباغتة شق الإسكندر طريقه فى جبال زاجروس وعبر الهضبة الإيرانية إلى عاصمة الفرس الصيفية القديمة بيربيوليس. وفى الليل أحرق قصر بيربيوليس الرائع الذى أقامه الفنانون والصناع المهرة من أماكن تمتد إلى الهند والأناضول. وقد لايسعنا معرفة إن كان ذلك قد حدث أثناء حفل عربدة صاخب أو نتيجة لقرار واع يهدف إلى تدمير مكان محتمل لتجمع الفرس. وبعد أن حدث ذلك تحرك

الإسكندر عبر الهضبة الإيرانية قاصداً الموقع الذى تقع فيه إيكبتانا (همذان) عاصمة الميديين القديمة الواقعة على طريق الحرير، التى كان دارا قد فر إليها. ولم يعد الإسكندر يواجه أبواب المدن السهلية المفتوحة. ففى تلك المنطقة التقى الإسكندر بالقبائل الجبلية الخشنة. ولكنه أعطى أكثر مما أخذ، كما تقول مارجريت بريانت:

تعلمت القبائل الجبلية الواقعة على الطريق، التى اعتادت الابتزاز الفاحش حتى من حاشية الملك، درساً مريراً مفاده أن يداً قوية قد أتت للهيمنة على الإمبراطورية.

وأثناء فرار دارا من الإسكندر تقهقر على طريق الحرير من إيكبتانا عبر الرى إلى ماوراء البوابات القزوينية، حيث تفرقت أعداد كبيرة من جيشه وذابت فى المرتفعات. وفى النهاية رأت فلول الجيش الفارسى المهلهلة رجال الإسكندر الأشداء على مرمى البصر ذات صباح. فما كان منها إلا أن قتلت دارا قبل أن يأسره اليونان. وفى صيف سنة ٣٣٠ قبل الميلاد، أى بعد مايزيد قليلاً على أربع سنوات من وصوله إلى آسيا، كان الإسكندر قد ثأر لهزيمة اليونان القديمة[١]. وهاهو يحكم النصف الغربى من آسيا. إلا أن هزيمة دارا لم تتح له السيطرة التلقائية على شعوب الجبال فى الشرق. وكان ذلك هو مايجب أن يظفر به. غير أن اليونان كانوا فى حاجة إلى عون لتحقيق ذلك.

***

على طول الطريق من مقدونيا حتى البوابات القزوينية، كان الإسكندر يعمل على ضم شعوب البلاد التى فتحها حديثاً إلى حظيرة اليونان. ولم يكن جيش الإسكندر مجرد قوة مقدونية قليلة العدد كثيرة العدة. بل إنه فى ذلك الوقت كان يضم بين صفوفه التراقيين والإليريين[٢] والإيرانيين والأناضوليين والساميين والهنود وكثيراً غيرهم. وكان البعض قد وجد فى النصر اليونانى تحرراً من النفوذ الفارسى. فى حين جذبت البعض الآخر وعود المغامرة وتحقيق الربح. ومع أن كل فرقة عسكرية كانت بها نواة مقدونية، فإن غير اليونانيين كانوا يشكلون نصف الجيش على الأقل. وكان يدعم هذا الجيش متعدد الأعراق ويربط بين أجزائه مجموعة متكاملة من المتخصصين، تشمل المهندسين العسكريين والميكانيكيين

---

(١) عندما قمع الإمبراطور الفارسى دارا ثورة اليونان سنة ٤٩٤ قبل الميلاد وفرض سلطته على تراقيا ومقدونيا. وعندما احتل الفرس أثينا بعد الحملة التى قادها أحشويرش سنة ٤٨٠ قبل الميلاد. (المترجم).

(٢) أهل بلد قديم على الساحل الشرقى للبحر الأدرياتيكى. (المترجم).

والمترجمين والمرشدين والأطباء الذين يعالجون الجرحى والبيطريين الذين يعالجون الخيول ذات الأهمية الكبرى. وخلف هؤلاء كان هناك من يتبعون الجيش من زوجات وعشيقات وأطفال وخدم وعبيد وعاهرات، بالإضافة إلى التجار والمرابين الذين كانوا يتعاملون فى المبالغ الكبيرة من المال التى كان يكسبها الجنود الذين أثْروا وكانوا يدخرونها أو يتداولونها. وكانت نتيجة ذلك، كما يقول المؤرخ ميخائيل روستوفتزوف، أن «الجيش الهلينستى فى تلك الفترة كان مدينة ضخمة متحركة أشبه بالمدن المتحركة الخاصة بقبائل البدو الشرقية فى مشرق أوروبا وفى آسيا»، أو بدقة أكثر، «عاصمة متحركة تضم أناساً يزيد عددهم على تعداد كثير من العواصم اليونانية»، وفوق ذلك هى أيضاً عاصمة ثرية.

ولكن تركيبة «عاصمة» الإسكندر «المتحركة» تغير أثناء توغلها فى آسيا. فعلى طول الطريق، كان كلما أُضيفت مدينة جديدة إلى مناطق نفوذ اليونان كان يُترك بها حكام وإداريون وجنود وصناع وتجار يونان ليربطوا تلك المدينة بالإمبراطورية الهلينستية. وفى الوقت نفسه كان كثير من سكان البلاد التى فُتحت ينضمون إلى تلك الحاشية الضخمة الجوالة، إما طواعية أو كعبيد. وبمرور الأيام كانوا يُصبغون بالصبغة الهلينستيه. وحتى الإسكندر نفسه تغير بمرور الأيام، حيث اتبع الأسلوب الآسيوى فى الملبس، وكان يتميز بالزركشة، متجاهلاً انتقادات أبناء بلده. إلا أن ذلك أكسبه المزيد من تأييد هؤلاء الذين انضموا إليه فى الطريق. والذى أغضب الكثير من أبناء بلده مقدونيا بصورة خاصة هو ارتداؤه ثوباً أرجوانياً على الطراز الفارسى. حيث كان ذلك يرمز بالنسبة لهم إلى انحرافه عن زمالة الجيش الأصيلة الأكثر تقشفاً وتتسم بقدر أكبر من المساواة. وهذا الانقسام الذى حدث بين الإسكندر وأهل بلده أدى فى وقت لاحق إلى مصاعب كبيرة. أما فى ذلك الوقت فكانت سياسة السعى إلى دمج أساليب الحياتين الهلينستية والآسيوية معاً تزيد من قوة الجيش أكثر مما تضعفه.

وهكذا استطاع اليونان أن يخلفوا وراءهم أراضى آمنة نسبياً وظلوا يتجهون شرقاً على طريق الحرير بقوة. وكانت تلك القوة ضرورية فى شرقى بلاد فارس. ففيها واجه اليونان شعباً إيرانياً معتزاً بنفسه يقاوم النفوذ الأجنبى. وإذا كان جيش الإسكندر قد استطاع اجتياز هذا الإقليم، فالأقاليم التى تلته شهدت حركات تمرد كثيرة. وكان التقدم بطيئاً، مما قاد اليونان إلى منحنى بطىء يتجه إلى الجنوب الشرقى نحو الهند ليصل إلى وادى نهر كابول. ولكن الإسكندر كان مستعداً فى نهاية الأمر لمواجهة القوة الكبرى فى المنطقة، وهى باكتريا

(بلخ). ولا تنبع أهميتها من موقعـها على طريق الحرير فحسب، ولكن لأن قتلة دارا ذهبوا بالتاج الفارسى إلى هناك وأعطوه لملك باكتريا.

وفى ربيع سنة ٣٢٨ قبل الميلاد نزل الإسكندر مـن المرتفعـات الأفغانـية إلى سـهول باكتريا، متعقباً فلول المعارضة الفارسية طوال الطريق عبر مرقندة (سمرقند) إلى بخارى ناقلاً حدوده إلى مـاوراء نهر سـيحون، وهى تقـريباً حـدود الأرض الزراعية. وفى الـنهاية أمَّن قبضته على الإقليم باستيلائه على ماتبقى من معاقل جبلية خاصة بالأمراء المحليين. وأطلق على المدينة التى أنشأها فى أقصى الشرق اسم الإسكندرية الـقصوى. وهى تقع على مقربة من خوجندة الحالية.

ورغم استمـرار انتقاد أتباع الإسكندر الأوروبيـين له لاتباعه أساليب الحيـاة الآسيوية، وتعامله بخشونة مع تلك الانتقادات، فقد استمر فى توحيد البلدان المتباينة التى سيطر عليها مع الإمبراطورية الهليـنستية.، ومن رموز ذلك اتخـاذه روكسانا الأميرة البلخـية زوجة له. ويشير أريان مـؤرخ الإسكندر إلى أن روكسانا كانت إحـدى أجمل نساء آسيـا قاطبة. وربما يتضح الأمر أكـثر حين يقول إن الإسكندر «لم يجـد فى زواجه منها مايحط من كـرامته». ومن الواضح أن الأميرة البلخية كانت تعد فتاة تستحق أن يقام من أجلها تحالف بالمصاهرة، بغض النظر عن أى مفاتن شخصية كانت تتمتع بهـا. وبعد تغيير اسم العاصمة من زارياسپا إلى باكترا، اتخـذها عاصمته الشرقيـة. وهو ما أثار دهشة آسيا. وكمـا كان مسلكه فى أى مكان آخـر، أنشأ مـدينة يونانية بجـوار المدينة الفارسـية القـديمة. ولم يسكـن فيهـا الجند وحدهم، وإنما أسكن معهم الصناع والعمال المهرة وكذلك التجار.

***

وهكذا وصل الإسكندر إلى منتصف طريق آسـيا. منتصف ماسـيكون بعد قليل طريق الحرير. فهل كان يعلم شيئاً عن الصين، التى تبعد عنه شرقاً مسافة تساوى تلك التى قطعها تقريباً عبر الجبال والصحارى؟ لا أحد يدرى. ويبدو أن اليونان كانوا على علم بسلعة الصين النفيسة، أى الحـرير. فبحلول القرن الخامس قبل الميـلاد كان شىء من الحرير قد وصل إلى شرق أوروبا عبر آسيا. إلا أننا لانجزم بوصـول أى قدر منه إلى عالم البحر المتوسط. ويبدو أن أرسطو معلم الإسكندر ذكر الحرير فى كتاباته العلمية وهو يتحدث عن:

... دودة عظيمـة لهـا قرون وشكلهـا مـختلف عن سواها. وفى طورها الأول تكون يسروعاً ثم تتحول إلى خادرة وتصبح فى النهـاية ـ شعة.

وكل هذه التغيرات تحدث خلال ستة أشهر. ومن هذا الحيوان تأخذ النساء الشرانق وتلف خيوطها وبعد ذلك تغزلها. ويقال إن أول من غزل هذا هى بامفيلى ابنة بلاطيس فى جزيرة كوس.

ويشعر كثيرون أن أرسطو كان يتحدث عن قماش من الحرير البرى الأقل جودة. وهو أقرب إلى القماش المعروف الآن باسم البومبازين المصنوع من شرنقة دودة موطنها جزيرة كوس اليونانية. وسواء كان يتحدث عن حرير كوس أم الحرير الصينى، فيلاحظ أن كثيراً من الكُتّاب الكلاسيكيين كانوا يعتقدون أن الخيوط من أصل نباتى.

والواقع أن كلمة "Silk" كانت الاسم الغربى للقماش الرقيق. أما الصينيون فعرفوه باسم أقرب إلى «سى» أو «زو». فى حين كانت قبائل البدو فى آسيا الوسطى تطلق عليها عادة «سير» أو «سيرغ» أو «سيركك». (ويفترض البعض أن هذه الكلمات مشتقة من الأصل الوسط آسيوى الذى يعنى «أصفر»، وهو اللون الذى يرتبط فى الغالب بالحضارة الصينية». وربما عرف اليهود هذا القماش باسم «شيريقوط». ويبدو أن العرب أطلقوا عليه اسم «سَرَقاى». فى حين عرفه اليونان باسم «سيريكا» حيث استبدل حرف r بحرف l وتحولت الكلمة فيما بعد إلى "silk". وحسب معلوماتنا، لم يعرف الناس فى عهد الإسكندر بلاد الصين بهذا الاسم. فطبقاً لعادة تسمية الأقوام حسب منتجاتهم، أطلقوا على منتجى الحرير اسم «سيريس». وظل الغرب يعرف الصينيين الشماليين بهذا الاسم قروناً طويلة.

وليس هناك أى تفسير للطريقة التى وصلت بها كميات صغيرة من الحرير الصينى إلى غرب آسيا. فربما وصل بعضها إلى الغرب عبر السهوب الأوراسية من خلال الطريق الذى وصفه هيرودوت، أو عبر تركستان الروسية ليلتقى مع طريق الحرير. ومن المحتمل أن يكون الحرير قد سار على طريق الحرير نفسه من خلال تجارة المقايضة القديمة. وهناك قوم من أشباه البدو يسمون يوويه تشى، كانوا يسكنون ممر كانسو فى تلك الفترة، يقومون بدور الوسيط فى توريد اليشب من جبال البامير إلى الصين. وربما يكون الحرير قد اتجه فى الطريق المعاكس، وخاصة أنه أصبح سلعة فريدة لها قيمتها فى التجارة مع الغرب. وتلك الطرق هى الأكثر احتمالاً فى ذلك الوقت. فاليونان ومن بعدهم الرومان عرفوا الـ «سيريس» على أنهم أهل الشمال الذين يمكن الوصول إليهم عن طريق البر ويشغلون أراضى تقع بين سيثيا والهند.

وربما وصل بعض الحرير إلى غرب آسيا عن طريق الهند فى ذلك الوقت. فبعد قرنين

نعرف أن بعض الأقـمشة الهندية (قـد تكون الحرير) وجدت فى بلخ، حـيث جيء بها من جنوب الصين عبر بورما عن طريق خليج البنغال (والاحـتمال الأضعف عن طريق البر عبر جنوب شرقى آسيا) إلى الهند ومنها إلى بلخ. وكان ذلك طريقاً قديماً يحتمل أنه كان يعمل فى ذلك الوقت. وإذا كان الأمر كـذلك، فربما يكون هذا هو مصدر الشـائعة التى تقول إن الهنود اكتـشفوا طريقة صنع الحـرير. وبالمثل ربما يكون بعض الحرير وصل الغرب، خـاصة مصـر، عبر طريق التـوابل الذى كان قد مـضى على إنشائه وقت طويل فى ذلك العـهد. ولكن الصينيين الجنوبيين، الذين اتصلوا بالغرب عبر تلك الطرق، كان يطلق عليهم «سينى» أو «تينى». ولم يدرك أهل الغرب عامةً أن الـ«سيريس» والـ «سينى» كانوا سكان نفس البلاد إلا بعد عـدة قرون. لذلك فإن الطرق الآسـيوية البرية قـد تكون هى التى حملت كمـيات الحرير الصغـيرة التى وصلت إلى الغرب، لأن الرأى الذى ساد العصـور الكلاسيكية هو أن الـ«سيريس» قوم شماليون.

والواقع أنه من المحتمل أن يكون اليونان اعتبروا وسطاء آسيا الوسطى هم منتجو الحرير السريون. (وبالمثل، كانت بعض شعوب بلاد مابين النهرين تطلق على الحرير اسم «ميدى»، حيث كـان الميديون الحـلقة الأخيـرة فى سلسلة توريده). والقليل الذى عـرفه اليـونان عن الـ«سيـريس» كان خيالاً أكـثر منه حقيـقة. فعلى سـبيل المثال ذكر طبـيب يونانى فى أحد القصور الفارسية فى حوالى سنة ٤٠٠ قبل الميلاد:

يقال إن الـ«سيريس» والهنود الشماليين شديدو الطول، حيث إن المرء يلتقى برجال يصل طول الواحد منهم إلى ١٣ ذراعاً. وهم يعمرون أكثر من ٢٠٠ سنة.

ومن المؤكد أن منتجى الحـرير كانوا فى مكان قصى وكان منتجهم والمعـلومات الخاصة بهم تمر خلال بلاد كثيرة. ولا يحتاج المرء إلا أن يلعب لعبة النمـيمة الشهيرة ليفهم الطريقة التى خـرجت بها تلك الحكايات الغـريبة من الشـعوب التى تعـيش بعيـداً عنهم وحكايات هيرودوت عن هذا الموضـوع. وكان شائعـاً بين التجـار الأوائل أيضاً أن ينشروا مـعلومات ملفقة ليحموا بذلك مصادر تمويلهم.

والحقيقة أنه ليس هناك إجماع على أن الحرير وصل الغرب فى تلك القرون. والبعض لايعطى أى أهمية لتلك الأدلة الضعيفـة جداً عن الحرير والمعارف الخاصة بذلك النسيج، إذ يعتـقدون أنها مـجرد سوء تفـسير أو مـغالاة فى الحقائـق حدثت فى وقت لاحق. (بل إن

البعض يقول إننا لايمكن أن نتأكد من وصول الحرير إلى غرب آسيا حتى سنة مائة قبل الميلاد تقريباً، عندما عبر جبال الباميـر أول مبعوثين صينيين معروفين). إلا أن هذه تبدو وجهة نظر تتسم بالمبالغة. وبغض النظر عن أى شيء آخر، فإن الترحيب غير العادى الذى لقيه هؤلاء المبعوثون الصينيون الأوائل عندما وصلوا الهضبة الإيرانية (كما سنرى) لن يكون ذا مغزى إلا إذا افترضنا وجود معرفة تسبق ذلك بعطايا الصين الفريدة ورغبة شديدة فى الحصول عليها.

وفيما عدا ذلك يصعب علينا تصديق أن السلاسل التجارية عبر القارة، التى كان قد مضى عليها آلاف السنين، لم تكن مستمرة فى عملها، رغم انقطاعها من وقت لآخر أو تعطلها بسبب القلاقل التى قامت بها قبائل البدو فى آسيا الوسطى. ويبدو أنه فى تلك القرون نُقلت زراعة القمح إلى الصين من الغرب. وهو مايعنى وجود اتصال مستمر بين الشرق والغرب، بغض النظر عن ضآلته. وفى كتابه «تجارة آسيا التقليدية» (The Traditional Trade of Asia) يشير سى. جى. إف. سيمكن إلى أنه اعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد شهدت الصين تقدماً اقتصادياً سريعاً:

حل الحديد محل البرونز حتى فى الأدوات العادية... تطور الرى بصورة كبيرة... أصبح الحرير من الوفرة بحيث حل هو والسبائك المعدنية محل الأصداف الصفراء كوسيط للمقايضة ونمت التجارة بسرعة وأصبحت المدن مراكز تجارية. ويعود بعض هذا النمو إلى الاتصال بالهند أو إيران. ومن الواضح جداً أنه حدث عقب توحيد دارا لغرب آسيا وجزء من شمال الهند.

ورغم عدم توافر الدليل المفصل على ذلك، فإن الشيء الذى يمكننا أن نستشفه بقوة هو أن تجارة المقايضة ظلت تربط الصين بالغرب.

وليس معلوماً إن كان الإسكندر قد علم قدراً من الحقيقة عن الصين أم لا. كما أننا لا ندرى إن كان قد فكر فى عبور جبال البامير وقطع الفيافى أو اختراق السهوب الواقعة بعد نهر سيحون ليصل إلى أرض الـ«سيريس» الذين تُروى عنهم الحكايات أم لا. إلا أنه إذا كان تمنى ذلك بالفعل، فإنه ما كان ليأخذ جيشه معه. لأن جنوده أصبحوا غير راضين عن أساليبه الآسيوية أكثر وأكثر.

وعلى أية حال، كانت الصين الأقرب والأكثر ثراء. وكما فعل دارا قبله، اندفع

الإسكندر إلى الجنوب الشرقى عبر وادى كابول ثم اتجه إلى شمال الهند. وفى ذلك الوقت كان هناك اعتقاد بأن أنهار الهند قد تكون منابع للنيل. لذلك كان الأسكندر يأمل فى أن يحقق حلمه الخاص بإحاطة «العالم المعروف». غير أن الجيش أبى أن يتقدم وأجبره على العودة، قبل أن يعبر أنهار البنجاب الخمسة. وبعد أن ترك الإسكندر حكاماً يونان فى شمال غربى الهند، وهو ما دأب عليه فى غيرها من بلدان، اتخذ الطريق الصحراوى بمحاذاة الخليج الفارسى إلى صوصا. وهناك تزوج مرة أخرى، وكانت زوجته هذه المرة ستاتيرا ابنة دارا. ودامت احتفالات العرس العظيمة خمسة أيام تزوج خلالها أيضاً عشرة آلاف من جنوده وعشرات من قادته زوجات آسيويات. ومن هناك دخل الإسكندر طريق الحرير مرة أخرى عند إيكبتانا التى مات فيها صديقه هيفايستيوس وكانت مراسم دفنه على قدر كبير من الفخامة. وعاد الإسكندر نفسه إلى بابل التى مات فيها نتيجة لإصابته بحمى شديدة مفاجئة فى ربيع سنة ٣٢٣، أى بعد إحدى عشرة سنة من وصوله آسيا.

ومع أن الإسكندر حكم البلاد مدة تقل عن عشر سنوات، ولم يستمر حكم اليونان فى بعض الأماكن بعد وفاته أكثر من خمسين سنة، فإن الحكايات التى تتحدث عن بطولاته وشجاعته ظلت تتردد فى آسيا قروناً طويلة. (بل إن هناك من يزعم أن إمبراطوريته أوحت بفكرة أول وحدة تجمع دول الصين المتفرقة). وليكن الأمر مايكون. فالتأثيرات الهلينستية التى جاء بها إلى المنطقة دامت قروناً عديدة ثم انتشرت بعد ذلك على طول طريق الحرير، ذلك الطريق العظيم الذى كان قد أوشك على أن يُفتح بكامله متجهاً إلى الشرق.

***

فى بادىء الأمر أدت الحروب الأهلية التى وقعت بين خلفاء الإسكندر إلى تمزيق الوحدة الهشة التى فرضها هو على المنطقة. فهؤلاء الخصوم فتتوا الأراضى التى اكتسبها الإسكندر. وبحلول سنة ٣٠٠ قبل الميلاد كان النصف الغربى من طريق الحرير فى يد رجل واحد، هو سلوقس نيكاتور الذى كان له النصيب الأكبر الذى شمل أفغانستان وبلخ وفارس وما بين النهرين وأرمينيا وسوريا وبعض أجزاء من الأناضول. وكان منافسه الرئيسى فى غرب آسيا هو بطليموس، الذى كانت الإسكندرية درته، وكان أيضاً يسيطر على المدن الفينيقية الساحلية ذات الأهمية الكبرى. يضاف إلى ذلك أن بطليموس كان يسيطر على الطرف الغربى من طريق التوابل القادم من الهند الذى زادت أهميته.

وكثيراً ما كان التنافس التجارى بين إمبراطوريتى السلوقيين والبطالمة يشتد. وكانت

الاحتكارات التى تحدث من حين لآخر وراء التعجيل بهذا التنافس. فقبل فتح طريق التوابل بصورة كاملة أمـام البحارة اليونان القادمين من مـصر، كان السلوقيون يتحكمـون فى كمية الحريـر المتناهية فى صـغرها التى تأتى من الـشرق. وفى الوقت نفـسه سـيطر البطالمة على مصانع صباغـة الأرجوان الشهيرة فى فينيقيـا. وسعى السلوقيون سعياً حثـيثاً للتخلص من اعتمادهم علـى المدن البطلمية. إلا أنه رغم جهودهم تلك كانت البـضائع الآتية من طريق الحرير كثيراً ماتجد طريقها إلى المدن الفينيقية للتكرير والتوزيع.

وسيطر خلفاء آخرون للإسـكندر على الطرف الغربى من الأناضول، بما فى ذلك المدن اليونانية التـجارية القديمة على بحـر إيجة إلى جانب شرق تراقيـا واليونان. ولكن لم يكن هناك مايشير إلى أن السلوقيين سوف يشاركونهم التجارة، إذ لم تكن بهم حاجة إلى ذلك. وكانت النتيجة أن الطـرق الرئيسية القديمة الواقعة فى الأناضول تقـلصت. ورغم احتفاظها بأهميتها المحلية، لم تعد المحطات الأخيرة لطرق القوافل العظيمة طويلة المدى. لذلك جعل السلوقيون من سوريا المركز الرئيسى الغربى لطريق الحرير.

ونتيجـة لذلك أنشأ السلوقيون تلك المدينة التى حددت الـطرف الغربى للطريق القارى طوال القرون التـالية، وهى أنطاكـية. تأسست أنطاكـية سنة ٣٠٠ قـبل الميلاد وهى تتمـيز بموقعها الممتاز بكل المعايير. فهى تبعد عن البـحر المتوسط بعشرين ميلاً ويخدمها العديد من الموانىء الواقعة على خليج ايسوس على مر القـرون. وتقع أنطاكية على نهر العاصى الذى يمثل واديه طريقاً طبيـعياً إلى البحر. وكان الطريق الأناضـولى من طرسوس يبدأ أيضاً عند السهـول القريبة من أنطاكيـة عبر ممر بيلان، وكـانت الطرق التى تتفرع من تقـاطعات طرق الفرات المختلفة، وخاصة زوغـما وسَمُسَطا وتاباسكوس، تتجمع بالفعل فى هذا المكان من خلال الأودية التى فى المنطقة. وقيل إن الإسكندر أقام مـعسكراً على موقع أنطاكية. بل إن الموقع يرتبط ببـعض أبطال اليـونان الأسطوريين من العـهود القـديمة، حـيث كان اليـونان يمارسون التجارة فى تلك البقعة.

وكانت أنطاكيـة ذات شوارع متقاطعـة وبها شارعان رئيسـيان، أُقيمت على جوانبـهما الأعمدة وكانا يتـقاطعان فى وسط المدينة. وكانت هذه المدينة وقلعتـها تطلان على شاطىء النهر. وسرعـان ما أُضيفت مـدينة أخرى ذات أسوار إلى هذه المدينة، ثم أُلحق بهمـا حيان آخران تحيط بهما الأسوار. وبحلول القرن الثانى قبل الميلاد أصبح الاسم الشائع للمدينة هو «تترابوليس» (الأربع مدن). وتحول مسـار طريق التوابل القديم، الذى ظل زمناً طويلاً ينقل

القوافل من جنوب الجزيرة العربية إلى حلب، لتصبح نهايته الشمالية هى أنطاكية، التى كانت عاصمة السلوقيين الغربية فترة طويلة من العصر الهلينستى.

وفى الفترة نفسها أنشأ سلوقس مدينة أخرى على نفس القدر من الأهمية، وهى سلوقية الواقعة على نهر دجلة. ورغم أنه أقام فى بابل فى بادىء الأمر، كما فعل الإسكندر، فسرعان ماقرر إقامة مدينة يونانية بحق على مقربة منها، كى تحل محل بابل المدينة القديمة التى فقدت رونقها. وكانت العاصمة الشرقية الجديدة سلوقية تقع عند مصب القناة الملكية، التى كانت فى ذلك الوقت تربط نهرى دجلة والفرات فى الجزء الذى يقتربان عنده من بعضهما. ومن موقعها الذى يبعد خمسين ميلاً شمالى بابل وخمسة عشر ميلاً جنوبى بغداد الحالية، أصبحت المدينة الجديدة أهم مدينة ملتقى طريق فى بلاد مابين النهرين، بل والوحيدة فى ذلك الوقت التى تقع فى الصحراء شمال غربى أنطاكية. ومن سلوقية كانت بعض القوافل صغيرة الحجم تتجه إلى دمشق عن طريق المدينة الواحة بالميرا (وتعرف أيضاً باسم تدمر)، أو عبر أراض أشد قحطاً وجفافاً إلى مدينة البتراء التى تحيط بها الجبال، لتصل ببضائعها إلى الإمبراطورية البطلمية. بينما كانت هناك قوافل أخرى تسير بمحاذاة الأنهار لتصل إلى الخليج الفارسى. وكان هناك طريق جنوبى من الهند يتقاطع مع سلوقية. إلا أن السلوقيين حاولوا قدر استطاعتهم الاحتفاظ بسيطرتهم على كامل الطريق، حيث حولوه إلى ميناء أنطاكية.

وكانت أنطاكية وسلوقية اثنتين من أهم مدن الشرق الأدنى، ولكنهما لم تكونا فريدتين فى اسميهما. فقد شيدت مدن كثيرة على نمطهما أو أُعيد بناؤها أو جرى توسيعها وأُعطيت أسماء جديدة فى أنحاء الأراضى السلوقية، بل فى أنحاء الإمبراطورية الهلينستية. فقد أُقيمت ست عشرة مدينة على الأقل تحمل اسم أنطاكية، كما أُطلق الاسم على مايزيد على عشر مدن أخرى. وربما يكون هناك الكثير من الإسكندريات، التى أسس الإسكندر نفسه بعضها وسُمى البعض الآخر باسمه. وكان هناك ما لايقل عن ثمانى مدن تحمل اسم سلوقية. وكان اليونان يعملون فى البحر منذ قرون طويلة. لذلك تدفقوا من منطقة بحر إيجة لاستعمار الأراضى التى فتحها الإسكندر. وكان خروجهم من وطنهم الفقير، جنوداً وفلاحين وصناعاً وإداريين وأطباء، وراءه أمل فى حياة جديدة أكثر ثراء. وكما حدث مع كثير من المستوطنين فى الغرب الأمريكى بعد الحرب الأهلية، أُعطيت للمستعمرين الأرض الزراعية والمسكن والبذور والماشية. وكانت هذه الإغراءات تهدف أساساً إلى تشجيع

المستعـمرين الجنود على الاستيطان فى أجـزاء الإمبراطورية النائية والأكـثر خطورة، بما فى ذلك الأجزاء الواقـعة على طريق الحرير من بلاد فـارس وبلخ. ولحق بالمستعمـرين اليونان أقوام غيـرهم من تراقيا والأناضول وسوريا وبلاد مـابين النهرين. وسلكوا جميـعاً طريقهم على امتداد طريق الحرير إلى بلخ ومابعدها.

وكانت القلعة بما فيها من حامية مَعْلَمـاً ثابتاً فى المدن التى اتسمت بالصبغة الهلينستية، سواء كانت مدناً أقيمت حديثاً أو شُيدت بجـوار المدن الآسيوية القديمة. وأعيد بناء إيكبتانا كمدينة يونانية. وإلى الشرق منها برزت مدينة يوروبوس بروزاً مؤقتاً بالقرب من الرى. وفى منطقـة أبعد إلى الـشرق منهـا أُقيـمت مـدينة ذات أسوار لهـا أبواب عـديدة أطلق عليهـا هيكاتومبـيلوس (أى المائة بوابة). وفى الطريق الأقل خطورة بين سلوقيـة وأنطاكية أُقـيمت مدن أخـرى ذات أسوار على حافـة الصحراء، أشـهرها دورا يوروبوس عند منتـصف نهر الفرات. وصارت لها أهمية فيما بعد لكونها غرفة مقاصة حدودية. وكل هذه المدن لم توفر الأمن على امتـداد طريق التجارة فـحسب، بل كانـت فى الوقت نفسه أمـاكن توفر المأوى والمؤن للقوافل المسافرة. وأصبح بعضها مدناً حرة لها دساتيرها الخاصة بها ولم تكن المواطنة فيهـا قاصرة على اليونان. فـعلى سبيل المثال كـانت مدينة سلوقية الحـرة تضم بين سكانها العديد من المواطنين السوريين واليهود.

وبالطبع لم تكن تلـك المدن يونانية خـالصـة، مع وجود هذا الخـليط من الشعـوب. وظلت اللغة الأرامية زمناً طويلاً لغة الحياة اليومية، خاصة فى السهول. بينما كانت الفارسية لغة الحـياة اليـومية فى المرتفـعات. إلا أن اللغـة اليونانيـة كانت لغة السـلطة، لغة الإدارة والقصور، لغة الطامحين، لغة الأدب والفلسفة والعلوم السائدة. وكانت نتيجة ذلك أنه فى المدن الواقعة على الـطرق الرئيسية، على الأقل، أصبـحت اليونانية شيـئاً فشيئـاً لغة العمل الشائعة، التى يتحدث بها المسافرون والتجار فى أنحاء البلاد الهلينستية. وبخلاف اللهجات التى يتحدثها اليـونان والمقدونيون القادمون من أنحاء مختلفـة من بلاد اليونان، ظهرت لغة موحدة جديدة على قدر من السـهولة، أُطلق عليها Koine dialektos (اللغة الدارجة) أو مجرد Koine. وكانت تلك اللغة غير خاضعة للحدود السياسية. فمن الممكن أن تجدها فى سوق بلخ أو فى بلاط فارسى أو فى مكتـبة بالإسكندرية أو فى معبد يهـودى (حيث كانت لغة التـوراة السبعونيـة، وهى الترجمة اليـونانية للعهد القـديم التى تمت فى سنة ٢٥٠ قبل الميلاد تقريباً). وشيئاً فـشيئاً حلت اللغة الدارجة Koine محل اللغة الأراميـة لتصبح اللغة المشتركة على طريق الحرير.

ومع اللغة اليونانية، جاء الفن اليونانى والثقـافة اليونانية. لم يكن هناك مايجبر سكان الإمبراطورية الهلينستية على التحدث باللغة الدارجة Koine. ولم يكونوا أكثر اضطراراً إلى اتباع الأنماط الفنيـة اليونانية. ولكن فى ظل سيادة اليونان، وكـون الثقافة اليـونانية الأمل الوحيد للتقدم، واختراقهـا الكامل للمنطقة، أتُبعت الأساليب الهلينستية على نطاق واسع. وتعد مدينتـا القوافل تدمر والبتراء مثـالين واضحين للأثر اليونانى فى العمـارة. ففى تدمر مازال بـإمكان أى مسـافر حـديث أن يرى آثار الشوارع العظيـمة التى تقف علـى جوانبـها الأعمدة والمبانى الحـجرية العظيمة، وكلها على النمط اليونانى. وكـذلك الحال فى البتراء، حيث حُفرت فى صخور المنطقة الرملية.

ونُقلت الأساليـب الفنية اليونانـية أيضاً من خـلال العمـلات الهلينستيـة. إذ استـبدل الإسكندر العملات المحليـة القديمة بعمـلات موحدة للإمبراطورية تزينهـا صورته. وكانت تلك العمـلات خاضعة لرقـابة شديدة، من حيث وزنها ونوعـية المعادن الثمـينة التى كانت تعجب بها شـعوب آسيا الوسطى. وعلى وجه الخصـوص، نجد أن الهنود، الذين كانوا فى تلك الفترة فى سبيلهم لأن يصبحوا قوة تجـارية لها وزنها بفضل ما أشاعه اليونان من سلام وجاءوا به من مهارة تجارية إلى المنطقة، على قدر كـبير من الإعجاب الذى جعلهم يتخذون النقود اليـونانية عـملة تجارية لهم. وكـانت العملة فى الغالب مـن الذهب فى أول الأمر. ولكن بعد أن تقلصت واردات الـذهب السيبيـرى، استخـدم السلاجقة الـعملات الفضـية والنحاسية بصورة أكبر. وكـان رأس الإسكندر الذى على تلك العملات من الشهرة بحيث ساعد على انتشار أسلوب الفن اليونانى فى أعماق الهند. وسرعان ما أثر الفن اليونانى على البوذيين، الذين حـملوا الأساليب الهندويونانية فى التـصوير والعمارة إلى أنحـاء آسيا، بل إلى داخل اليابان. وليس مستغرباً أن دور سك العملة نفسها أُقيمت على الطرق الرئيسية فى أماكن مثل سلوقية وإيكيتانا وبلخ.

***

لم يستمر الجزء الشرقى من فـتوحات الإسكندر طويلاً تحت الحكم السلوقى. فقبل أن ينتهى خلفاء الإسكندر من صراعهم على السلطة سنـة ٣٢١ قبل الميلاد، كان الهنود بزعامة تشاندراجوبتا قد استعادوا أراضيهم الشمـالية. ولم يبذل سلوقس جهداً فعالاً فى الاستيلاء على تلك الأراضى من جديد. فـمن المؤكد أنه كان مشـغولاً بالمنافسين اليـونان الآخرين. ولكن يبدو أنه بالإضـافة إلى ذلك كان يـفضل أن تكون له علاقـات تجارية مفـيدة مع هند

قوية لهـا أهميتـها. وكان ذلك هو حـال الهند لأول مرة منذ عدة قـرون. فالدويلات التى كـانت تمزق شمـال الهند، منذ قدوم الغـزاة الآريين قـبل ألف سنة، اتحدت مـعاً لتـشكل الإمبراطورية الموريانية القـوية التى كان يمر خلالها طريق رئيسى، ظهـر الآن كشريك كامل لطريق الحرير. ومن خليج البنغال شرقاً كـان الطريق الهندى الكبير ينطلق على امتداد وادى نهر الجانج عبر سـهول البنجاب، ومعناها الحرفى «الأنهار الخمسة» الـتى تتجمع معاً لتكون نهر السند، ليصل إلى بلخ خلال التلال الأفغانية وعبر ممر خيبر ووادى نهر كابول.

وحـقق الهنود مكاسب من اتـصالهـم بكل من الفـرس واليـونان. ويتـجلى ذلك فى إدارتهم للطريق العظيم الذى يصل طوله إلى ٢٦٠٠ ميل. وكُلف مسئول تابع للدولة بمهمة الإبقاء على الطريق فى حالة جيـدة، حيث يوفر المعابر والعبَّارات حيثـما تكون هناك حاجة إلى ذلك. كمـا وُضعت اللوحات الإرشـادية وعلامـات الطرق لإرشاد المسافـرين وحُفرت الآبار وغُرست الأشجار كى توفر لهم الماء والظل. وعملت أطقم الطرق على تطهير الطريق من العوائق كالأشجار والصخور. فى حين أُعدت أماكن لإيواء المسافرين وإرشادهم، سواء كانوا تجاراً أم حجاجاً أم مغامرين. وأُقيمت المحطات ونقاط الحراسة لخدمة الرسل الملكيين، على نمط البريد الملـكى فى بلاد فارس. وحتى الدبلومـاسيين اليـونان المقيمـين فى البلاط الهندى امتدحوا رعاية الموريانيين للطريق العظيم.

أما اليونان فـأدخلوا تحسينات كثـيرة فى الأراضى التابعة لهم، حـيث وفروا المزيد من الأماكن التى يأوى إليهـا المسافرون، مع وجود حامـيات من الجنود الفلاحين توفـر الحماية والمؤن على الطريق. وأُقيمت نقاط الإرشاد لوصف خط السير والمحطات على طول الطريق كى ينتفع بها التجار والمسئولون الحكوميون وغيرهـم من المسافرين. كما أدخل التجار اليونان الذين ساهمـوا فى استعـمار طريق الحرير بـعض التحسـينات الأخرى أيضاً. فـقد ثبت أن المحاسبـة والأساليب التجـارية اليونانية أكثـر فاعلية من مثـيلاتها الفـارسية. كمـا أن خبرة اليونان، التى تعود إلى سنوات طويلة من التجارة البحرية فى البحر المتوسط، جعلتهم أقدر على إقامة تجارة عالمية بعيدة المدى، ليس فقط مع سوريا، بل أيضاً مع أوروبا.

ومن بين كل البلاد الخاضعة لليونان، لم يستفـد بلد من تلك التحسينات بقدر استفادة بلخ، الواقعـة عند رأس الطريق العظيم الهندى. وعندما شعـر أهل بلخ بقوتهم سنة ٢٥٠ قبل الميلاد، إلى جانب شـعورهم بأن السلوقيين بعيدون عنهم، لوجـود عواصمهم فى بلاد مابين النهرين وسوريا، انفصلوا وأقاموا مملكتهم المستقلة. وفى تلك الفترة كانت بلخ لاتزال

تنعم بالقنوات والحدائق الغنَّاء التى أقامها الفرس، مما أكسبها أسماء مثل «أرض المائة مدينة» و«جنة على الأرض».

ولكن أثر انفصال بلخ لم يكن هو الأمر المنتظر على وجه الدقة. فعلى الهضبة الإيرانية استمرت القبائل الإيرانية فى معارضتها للحكم اليونانى. وبعد سنة ٢٥٠ قبل الميلاد مباشرة قاد أبناء إحدى هذه القبائل، وهم البارثيون، تمرداً ناجحاً وأقاموا مملكة مستقلة على طريق الحرير. وفى تلك الفترة انقطع مايصل السلوقيين من ذهب سيبريا. وفى العقود التالية وسَّع البارثيون أملاكهم على الجزء الواقع فى الهضبة من طريق الحرير، حيث جعلوا من المدينة اليونانية السابقة هيكاتومبيلوس عاصمة لهم. وحاول السلوقيون استعادة الجزء المهم من الطريق الواقع جنوب بحر قزوين، لكنهم لم يحققوا سوى نجاح مؤقت. كما كانوا يواجهون ضغوطاً فى أماكن أخرى من قبل البطالمة، الذين كانوا يسعون فى تلك الفترة للاستيلاء على الموانىء السورية.

ورغم هذا الصراع، فإن التجارة لم تستمر فحسب، وإنما ازداد حجمها. إذ أدرك كل من السلوقيين والبارثيين عظم الفوائد التى يمكن أن يجنوها. وكما يحدث دائماً، أمدت شعوب الهضبة السهول بالخيل والمعادن والجواهر. إلا أنه أُضيف إلى ذلك السجاد والمنسوجات الصوفية الجميلة والأدوات المعدنية والعقاقير والذرة، بل والكلاب الأصيلة. وعلاوة على ذلك، كانت هناك أيضاً الأقمشة الحريرية والقطنية والموسلين والتوابل والعقاقير والأصباغ التى سوف تميز من الآن فصاعداً حركة السفر بين سوريا والهند وآسيا الوسطى، والصين مباشرة فى وقت لاحق. وبدلاً من رفض التحسينات التى أدخلها اليونان، آثر البارثيون الاستفادة منها. بل إن زعماء البارثيين أطلقوا على أنفسهم Philhellenes (أحباء اليونان). كما أن جزءاً كبيراً من الكتابة الإدارية والتجارية والأدبية فى الإمبراطورية ظل باليونانية. ولقرون طويلة ظل غير اليونان لايحصلون على أى ألقاب يونانية شرفية إلى جانب أسمائهم العرقية.

***

كانت هناك تأثيرات أخرى واضحة فى تلك المنطقة. إذ اعتنق أسوكا، حفيد تشاندرا جوبتبا وآخر حكام الأسرة الموريانية فى الهند، البوذية بعد سنة ٢٦١ قبل الميلاد. وبتشجيع منه، سرعان ما انتشرت الديانة الجديدة فى أنحاء الهند وما تلاها إلى الشرق حتى البحر. والواقع أن البوذية نسخة معدلة من الهندوسية، كما كانت الزرادشتية نسخة معدلة من

الديانة الفارسية القـديمة. وكان أسوكا شديد الحماس فـى الدعوة إلى دينه الجديد مما جعله يرسل البعـثات التبشيـرية على طول الطريق الهندى العظيم وعبر الجـبال وعلى طول طريق الحرير لاجـتذاب أتباع جدد. ولم تصـل البعثات التـبشيـرية إلى قصور فى سوريا ومـصر فحـسب، بل إنها تعـدت ذلك إلى العالم الهلينسـتى، إلى مقـدونيا وكريـت وكذلك إلى إيبيروس على البحر الأدرياتيكى. وتسجل الحوليات الصينية وصول البعثات التبشيرية البوذية فى حوالى سنة ٢٢٠ قـبل الميلاد. وقد يكون ذلك عن طريق هضـبة التبت شـديدة البرودة والارتفاع، التى يقع عليـها طريق يهبط عنـد كوكو نور (البحـيرة الزرقاء) إلى ممر كـانسو. ويبدو أن أياً من تلك البعثات لم يكن له أثر دائم.

وتذكر إحـدى أساطير الـتبت أن أسوكـا نفسه زار مـدينة خوتان فى حـوض التاريم. وتقـول أخـرى إن المدينـة نفـسها أسسـها ابن أسوكـا. وتوصلت حفائر عـالم الآثار مارك أوريل ستـاين فى المـدن الواحات القـريبة من خـوتان إلى بعض الألواح المكتوبـة بحروف هندية قديمـة. وربما يدعم هذا فكرة إقامة البوذيين فـى التاريم فى عهد أسـوكا. ووُجدت وثائق بحـروف مـشـابهة شـرقى لولان مـع بعض الرسـومـات المحـفـورة على الخـشب بالأسلوب اليونانى البوذى، الذى أصـبح شائعاً بعد ذلك. ومن المؤكد أن خـوتان أصبحت مركزاً للثقافة البوذية الهندية لقرون عديدة. وفى حالات كثيرة كانت تلك البعثات التبشيرية البوذية تنبىء عن التأثير الحـقيقى والبالغ الذى سيكون للبعـثات التى تأتى بعدها فى القرون التالية.

وليس واضحـاً على وجه الدقة ما آلت إليـه المملكة البلخية فى تلك الفتـرة الوسيطة. فبـعد أن توصل أهل بلخ إلى حالة من التـعادل مع البارثيـيـن فى الهضبة الإيرانيـة، حولوا اهتمـامهم إلى الجنوب والشرق. وفى الجنوب انهـارت الإمبراطورية الموريانية بسـرعة بموت أسوكا سنة ٢٣٢ قبل الميلاد، وهو الحدث الذى اعتبره اليونان من أهل بلخ فى مصلحتهم. فبـعد قرنين من ذلك، وفى زمن المسـيح تقريباً، كتب الجـغرافى والمؤرخ اليونانى سـتاربو يقول:

... اليونان الذين قاموا بتمرد [بلخ] أصبحوا ذوى نفوذ بسبب خصوبتها ومزايا الريف حتى أنهم أصبحوا سادة أريانا [بالقرب من هيراة الحالية] والهند... وحدّوا إمبراطوريتهم حتى الـ «سيريس» والـ «فونى».

والإشارة الأخيرة مسألة تثير الاهتـمام. فقد أوحت لبعض المراقبين بأن أهل بلخ مدوا

منطقة نفوذهم عبر جبال البامير إلى حوض التاريم، حيث التقوا بالقوم الذين عرفوهم على أنهم موردو الحرير، اعتقاداً منهم بأنهم أيضاً منتجو الحرير، أو «سيريس». وربما يكون الـ «فونى» الصيغة الغربية لكلمة شيونج نو (القبائل المرعبة). وهو الاسم الذى عرف به الصينيون المقاتلين البدو الشرسين فى الشمال والغرب.

فى تلك الفترة كان الشيونج نو - وهم قوم يجمعون بين الأصول الهندوأوروبية والمغولية، وربما كانوا أسلاف الهون الذين أثاروا المتاعب لأوروبا فيما بعد - يتوسعون بسرعة محركين كل قبائل البدو فى سهوب آسيا، التى انطلقت فى كل اتجاه. وكثير من شعوب حوض التاريم وممر كانسو إما خضعت لهم أو اندفعت غرباً، حيث استولى الشيونج نو على معظم المراعى الجيدة. وفى ظل هذه الظروف انقطعت شبكة التجارة الواهية التى امتدت على طول طريق الحرير، أو على الأقل أصابها خراب شديد. وفى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد حاول ملك واحد من ملوك بلخ، وهو يوتيديموس، الوصول إلى «سيريس» مباشرة فى حملة سارت عبر السهوب لتدور حول جبال البامير وشمال جبال تيان شان. ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل. حيث أوقفتهم الشيونج نو.

وتعرَّض يونان بلخ أنفسهم لضغوط شديدة من جانب قبائل بدو السهوب. فقد كانوا بمثابة منطقة عازلة لكل من البارثيين والهنود، حيث صدوا عنهم الغزاة سنوات عديدة قبل أن تسلبهم استقلالهم فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد مجموعة من قبائل البدو الهندوأوروبية تسمى «ساكى» (التى سرعان ما دانت لقبائل بدو مهاجرة من آسيا الوسطى). واتجهت فلول يونان بلخ جنوباً إلى وادى نهر كابول، وبالأخص إلى مدينة تاكسيلا التجارية الواقعة عند رأس أحد الممرات التجارية الجبلية من حوض التاريم عبر كشمير، وبقيت هناك ليكون لها دور آخر فى تاريخ المنطقة. وتُرك الأمر للصينيين كى يفتحوا النصف الشرقى من طريق الحرير.

***

فى القرون التى كان فيها الفرس واليونان والهنود يشيدون إمبراطوريات مركزية وطرقاً فخمة، كان الصينيون شعباً إقطاعياً مقسماً إلى كثير من الإمارات الصغيرة. والواقع أن الحقبة التى تلت انهيار أسرة تشو فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد تسمى عصر الدول المتحاربة. وكأى من عصور التاريخ المضطربة، أفرزت هذه الفترة بعض الشخصيات ذات التأثير والطاقة غير العاديين. من هؤلاء الفيلسوف البارز كونج فو تزو (كونج المعلم) الذى

يعرفه الغرب بكونفوشيوس[1]. وأكدت تعـاليم كونفوشـيوس على تبـجيل الماضى وطرق الحكم القديمـة والأسلاف والنظام الكونى الذى يعد فـيه الإمبراطور «ابن السـماء». وعلى المستوى الشخصى، كـثيراً مايتم التعبير عن ذلك فى شكل من أشكال الاحـترام والفروسية التى قد ترتبط بالقيم الإقطاعية الأوروبية. وفى تلك الفترة وُضعت الأنماط الأساسية للثقافة الصينية، وكان أتباع كونفوشيوس هم أكثر من شارك فى ذلك. إلا أن مزاج تلك الفترة كان يختلف اختلافاً جذرياً مع المثل الأعلى الكونفوشى.

ويتميز عصر الدول المتحاربة بوحشيته غير العادية. ففى القرون التى تلت سقوط أسرة تشو مباشرة، انتشرت قواعد حروب الفروسية، رغم أن المعارك الضخمة التى كانت تشارك فيها العجلات والرماح كانت أموراً دموية. إلا أنه بمرور القرون أفسحت أشكال القتال التى كانت أقرب للطقوس الطريق لأعمال القتل الجماعية، حيث كانت تُقطع رؤوس الآلاف من الرجـال والنساء والأطفـال فى أى مـدينة يدخلها الغـزاة. وفى ذلك العـصر من الحـروب الشامـلة، ابتكر الصينيـون تقنيات الحـصار، فاخـترعـوا آلات الحصـار والأبراج المتحـركة والمنجنيق، مما أتاح لهم شن الهجمات على المدن المحصنة.

إلا أن الصينيين لم يقصروا قتالهم على بعضهم البعض. فقد كان الشيونج نو يهاجمون حدود الصـين الشمالية. كـما أن فرسانهم القـادرين على شن الغارات السريعة اسـتطاعوا مباغتة القوات الراكـبة الصينية الثقيلة ومحاصرتها وقـتما يشاءون، على مايبدو. وفى إطار الدفاع عن النفس، بدأ الصينيون تكوين قوات الرماة الراكـبة على وجه السرعة، خاصة فى تلك الدويلات الواقعة فى الشمال والغرب. وفى الوقت نفـسه أخذوا من شعوب السهوب السراويل والسترات القصيرة الملائمة لركوب الخيل، وإن استمروا فى ارتداء الأثواب الطويلة الفضفاضة فى الأغراض التى تتعلق بالمراسم.

وللغرض نفسه بدأت العديد من الدويلات الصـينية فى إقامة الأسوار منذ القرن الرابع قـبل الميـلاد، لصـد الغـزاة البـدو الذين لم تكن لديـهم أدوات الحصـار التـى تمكنهم من اختـراقها. كمـا أن الصينيين اسـتمروا فى مـحاولاتهم لشراء السـلام مع البدو الذين على حدودهم بالهدايا السخية والتحالفات العسكرية، وهى ممارسات استمرت زمناً طويلاً. ويبدو

(١) عاش فى الفترة من ٥٥١ إلى ٤٧٩ وأسس الكونفوشية كمذهب أخلاقى فـى أساسه ولكنها تأثرت بعناصر دينية مستمدة من العقائد التى سبقتها. وكانت رؤيته كمنظر سيـاسى تتسم بالمحافظة. كما كان يقول إنه ينقل ما تعلمه دون أن يخترع شيئاً من عنده. (المترجم).

أن مسئولاً صينياً، كان مرافقاً لإحـدى الأميرات الصينيات إلى خطيبها من الشيونج نو سنة ١٧٠ قبل الميلاد، عنَّ له سؤال عن تلك السياسة وحاول لفت إنتباه الشيونج نو إلى ضرورة الحفاظ على حريتهم. وكانت هذه نصيحته لهم:

إن عددكم أجمعين لايكاد يبلغ مقدار اثنتين من المقاطعات الصينية. إلا أن سر قوتكم يكمن فى استقلالكم عن الصين فى كل ماتحتاجون إليه. وأنا ألاحظ أن هناك إعجاباً متزايداً بوسائل الترف الصينية. تذكروا جيداً أن خُمس ثروة الصين يكفى لشراء شعبكم بالكامل. إن الحرير والساتان لا يصل إلى نصف مدى صلاحية اللباد لحياتكم الخشنة، كما أن أطايب الصين ليست على نفس القدر من الفائدة التى لحليب الفرس المخمر والجبن.

تلك هى الحقيقة المرة. ولكن الشيونج نو لم يصبهم اللين لاتصالهم بالصين. والواقع أن كثيراً من الحرير، على مايبدو، اتخذ طريقه إلى الغرب من خلال نظام التجارة القديم من قبيلة إلى أخرى على طريق السهوب الأوراسية، وربما على طريق الحرير أيضاً.

وفى تلك الأثناء وداخل أسوار الصين، وبينما ذابت بعض الدويلات المتحاربة فى عدد قليل من الممالك الرئيسية، ظهرت إحدى الممالك كـأكثرها قوة، وهى دولة تشين الشمالية. كانت أكثر الممالك قوة وربما أكثرها دموية. فبعد أن كانوا يحتفظون بالأسرى للحصول على الفدية، صاروا يعدمونهم فى الحال. بل قيل إن بعضهم أُلقى به فى قدور الماء المغلى ليصنع منهم حساء يشربه القادة «لزيادة مكانتهم الرفيعة». وكان جنود تشين يتقاضون رواتبهم مقابل مايسلمونه من رؤوس المهزومين التى يُطاح بها بشكل جماعى. إلا أنه من هذا الرعب خرجت قوة توحيد الصين لأول مرة. وكان الأمر لايخرج عن كونه مسألة جغرافية، كما قال المؤرخ الصينى سيما تشيان[1] بعد ذلك:

كان لأرض تشين موقع يضمن لها النصر. وكان الوصول إليها صعباً بسبب المانع الذى يحيط بها ويتمثل فى النهر الأصفر والجبال التى كانت ترتفع عن سائر الإمبراطورية. وقد استطاعت بألف رجل أن ترد مليوناً من الرماة. [كان موقعها متميزاً جداً، كما يقول رينيه جروسيه،

(١) توفى سنة ١٤٨ قبل الميلاد وهو صاحب كتاب «المدونات التاريخية» الذى كان شكلاً جديداً من أشكال السيرة الذاتية. (المترجم).

حتى أنها إذا أطلقت جنودها!... كانت كمن يصب إبريق ماء من أعلى منزل مرتفع.

وفى سنة ٢٤٦ قبل الميلاد، وفى الفترة التى أعلنت فيها بلخ وبارثيا فى الغرب استقلالهما، صارت مملكة تشين فى قبضة حاكم جديد، هو الملك تشنج. وفى السنوات الخمس والعشرين التالية ضم كل الممالك الصينية الأخرى التى قامت على نهرى وى وهوانج. وفى سنة ٢٢١ قبل الميلاد اتخذ لنفسه الاسم الذى عرف به فى التاريخ، وهو تشين شى هوانج دى (أول إمبراطور فى أسرة تشين). وفيما استمر ذلك كأسلوب صينى، تخلى الأباطرة عن أسمائهم الشخصية حيث مُنحوا أسماء عامة للأسرة. وغالباً ماكان يحدث ذلك بعد وفاتهم. وكان النطق بأسمائهم الشخصية يُعد جريمة.

كان تشين شى هوانج دى حاكماً ذا قدرات غير عادية. فهو الذى وحد نظام الأسوار الدفاعية المتناثرة فى سور الصين العظيم، الذى مده ليحمى الصين من الشمال والغرب، من المحيط الهادى حتى جبال نان شان. وأرسل الإمبراطور كل المنشقين عليه والمجرمين والمشاغبين من أى نوع إلى مواقع بناء السور العظيم، إلى جانب الجنود الذين يتولون حراستهم وحمايتهم من الغزاة البدو أثناء إقامة السور. وفى الغالب كانت أبراج الحامية تُبنى أولاً، كى يأوى إليها الجنود والعمال إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وبعدها يبدأون فى بناء السور بين نقطتى حدود. وهو أيضاً الذى نقل العاصمة الصينية إلى الغرب لتصبح تشانج آن الواقعة فى مكان استراتيجى يتسع عنده وادى نهر وى ليلتقى بالسهول الصينية الشمالية الواسعة.

أمر تشين شى هوانج دى بتحسين الطرق فى الصين وأقام الجسور لحماية الطرق من السيول وغرس الأشجار لتوفير الظل (وربما من أجل تماسك التربة أيضاً) ووحد طول محاور العربات ذات العجلات (وهى ليست مسألة هينة ونحن نتحدث عن طرق ترابية يمكن أن تنوء تحت العجلات) كما وحّد الموازين والمقاييس والقوانين، ومن بينها تلك التى لها علاقة بالتجارة والسفر. والشيء المؤسف أن رغبته فى التوحيد شملت الأدب أيضاً، حيث أصدر أمراً يحرق كل الأعمال التى لايقرها هو. ورغم نجاة بعض الأعمال من هذا المصير بينها وثائق كونفوشية، فإن هذا الحاكم الجبار يتحمل وزر ضياع معظم سجلات الشعب الصينى القديمة.

ورغم ذلك فإن تشين شى هوانج دى هو مؤسس أول دولة موحدة فى الصين، وهو

الأمر الذى مازال يحظى بالتكريم من أجله فى بلده. كمـا أنه وضع الشروط الخاصة بتوسع الصين إلى مـاوراء حدودها القديمة، لتـمتد بعض الشىء إلى داخل أراضى آسـيا الوسطى الصحراوية. إلا أن أسرة تشـين لقيت بعض المتاعب فى توريث الحكم، وهى المشكلة التى يواجهها الحكام المطلقون. وفى سنة ٢٠٢ قبل الميلاد حلت محلها أسرة هان. وقُدر لهان أن تحكم لمدة أربعة قـرون، فى فترة من أعظم فـترات تاريخ الصين. وحـتى يومنا هذا يصف كثيرون من الصينيـين الشماليين أنفسهم بأنهم «أبناء هان». وفى عهـد هان تم الافتتاح التام والنهائى للنصف الشرقى من طريق الحرير.

بغض النظر عن قوة تحمل الجمال، كانت جمال كثيرة تنفق فى الرحلات شديدة الصعوبة.
(رسم سفن هيدن، من كتابه Through Asia ، ١٨٩٩).

خيول فرغانة السماوية

الخيول السماوية آتية،
آتية من أقصى الغرب
عبرت الرمال المتدفقة
فقد هُزم البرابرة.
آتية الخيول السماوية
التى خرجت من مياه إحدى البرك.
اثنان منها لهما ظهر نمر،
إنها قادرة على تغيير صورتها كالأشباح.
الخيول السماوية آتية
عبر القفار التى لا مرعى فيها
ألف فرسخ بلا توقف،
وهى تسير على الطريق الشرقى
الخيول السماوية آتية...

يعود مايقوم به حالياً لاعبو الأكروبات والحواة الصينيون على الأقل إلى وصول حواة الشرق الأدنى فى عهد أسرة هان وفى العصور الرومانية. (من كتاب Zeldzaame Reizen لإدوارد ملتون، أمستردام، ١٧٠٢، وأعيد طبعها فى طبعة يول من «ماركو بولو»).

الخيول السماوية التى جاء ذكـرها فى تلك الأنشودة الصينية، التى تعود إلى سنة ١٠١ قبل الميلاد، سلالة غـاية فى العظمة من الخيول، وُجدت فى آسيـا الوسطى بإقليم فرغانة، بالقــرب من أبعد نقطة بلغــها الإسكندر فى فـتوحـاته شرقـاً. ومن الهند إلى الصـين إلى منغوليـا ظهرت أساطير عن الخيول التنين، وهى خيول مقدسة يُفترض أنهـا وُلـدت فى الماء وحملت الحكام شـبه الأسطوريين إلى الخلود فى السمـاء. وقيل إن خـيول فـرغانـة، وهى شـهباء داكنة تتميز فى بعض الأحيان بخطين أو ثلاثة خطوط داكنة على ظهورها، «خرجت من ميـاه إحدى البرك». وهى لذلك تلى التنين المكتـمل من ناحية القـوة وتمنح أمل دخول الجنة للأباطرة الصينيين. وتستمر الأنشودة قائلة:

افتحوا الأبواب عندما يحين الوقت.
سوف تسحبنى [يُفترض أنه الإمبراطور وو] لأعلى وتحملنى
إلى جبل كون لون المقدس.
هاقد جاءت الخيول السماوية
وسيأتى التنين فى أعقابها.
سأبلغ أبواب الجنة.
سوف أرى قصر الرب.

ولكى يحصل الإمبراطور وو من أسرة هان[1]، الذى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد، على بعض من تلك الخيول الســماوية، أرسل جيشاً عظيماً يضم آلاف الجنود ليـقطع مسافة ٢٥٠٠ ميـل من الأراضى الصحـراوية ويقاتل حـاكم فرغـانة العدو، فى إطار فـتح آسـيا الوسطى لتخضع للنفوذ الصينى المبـاشر لأول مرة. وما يدعو للدهشة هو أن تلك الأراضى البعيـدة، التى هاجمها الإمـبراطور الصينى بهذا القدر الكبـير من الشجاعـة، كانت الصين لاتعلم عنها شيئـاً قبل ذلك بجيل واحد. أما كيف شق الصينيـون طريقهم إلى قلب آسيا، فهذه قصة تستحق أن تُروى.

فى العقود الأولى من عهد أسرة هان كانت «الصين» مازالت تمتد غرباً حتى منابع نهر وى تقريبـاً، ذلك الوادى الخصيب الذى كـان يحمى الإمبـراطورية القديمـة. وهناك كانت حـدودها الغربيـة التى يرسـمهـا السور العظـيم المبنى من الطين ويحـمى مزارعى الصـين الكادحين وسكان المدن من غارات الغزاة القادمين من سهوب آسيا الوسطى.

---

(١) حكمت أسرة هان الصين من سنة ٢٠٦ قبل الميلاد حتى سنة ٢٤ ميلادية. (المترجم).

فيما وراء السـور، وفى ممر كانسو الصالح للمعيشـة، ذلك الشريط الصينى الواقع بين جبال نان شان شديدة الانحـدار وصحراء جوبى المخيفة، عاش شـعب مسالم إلى حد ما، أُطلق عليـه الصـينيـون اسم يويه تشي (أكلة اللحـوم). واليـويه تشي ينتـمون إلى إحـدى المجموعات الهندوأوروبية البدوية الكثيرة فى آسيـا الوسطى. كما أن بعضهم له شعر أحمر نارى وعيون زرقاء. وظلوا زمناً بمثابة عازل يحـول دون الهجوم على حدود الصين الغربية. وكانوا أيضـاً وسطاء فى التجارة بين القبـائل، حيث وصلت من خلالهم النفائس كـاليشب إلى الصين، والمعادن المُصنَّعة والحرير إلى الغرب.

***

فى منتصف القـرن الثانى قبل الميلاد كان أقـوى شعوب سهوب آسـيا الوسطى، وهم الشيونج نو، يوسعون مناطق نفوذهم التقليدية ليدخلوا أراضى غيرهـم. وتصادف أثناء ذلك أنهم قطعوا السلسلة التجارية التى ظلت زمناً طويلاً تمتد عبر آسيا الوسطى. وشعر الصينيون أنفسهم بضـغط ذلك وأوقفوا الشيونج نو خارج السـور العظيم بشق الأنفس. إلا أن اليويه تشى كـانوا أقل حظاً. فقـد شعروا بـوطأة هجمـات الشيونج نو لـعدم وجود مـانع ترابى يحميهم. وكتـابات سيما تشيان الذى يُطلق عليه أحيـاناً هيرودوت الصين، وهو واحد فى سلسلة طويلة من المؤرخين الذين سجلوا تاريخ الصين واتصالاتها بالغرب، تروى لنا مصير اليويه تشى:

... استـفسر ابن السمـاء [وكـان فى ذلك الوقت الإمبـراطور وو] من الشيونج نو الذين استسلموا وصاروا أسرى، وقالوا جميعاً إن الشيونج نو انتصروا على ملك اليويه تشى واتخذوا من جمجمتـه إناءً للشرب [وهى ممارسة تكررت بين قبائل البدو فى آسيا الوسطى قروناً طويلة]. رحل اليـويه تشى واختـبأوا فى مكان ما وظلوا يخططون للانتقـام من الشـيـونج نو. إلا أنه لم يكن لهم حليف ينضم إليـهم عند توجـيـه ضربتهم.

وعندما علم ذلك الصينيون ، الذين كانوا يعتزمون إعلان الحرب على الشيونج نو ليطردوهم من أرضهم، أرادوا توطيد صلتهم باليويه تشى. إلا أن الطريق إليهم كان يمر بأرض الشيـونج نو. فدعـا الإمبـراطور المتطوعين.

لبى الدعوة أول الرحالـة الصينيين العظام فى العصور الـتاريخية تشانج تشـيان، وكان وقتها ضابطاً صغيراً فى القصر الإمـبراطورى. ومهما كانت الاتصالات المباشرة مع الأجزاء الداخلية من آسيا، التى قد تلمح إليها الرحلات الأسطورية القديمة للإمبراطور مو أو أخبار هيرودوت، فقد كـانت آسيا الوسطى بالنسبة لسكان الصين فى ذلك الوقت أرضـاً مجهولة تكثر فيها الأخطار. إلا أنه فى سنة ١٣٨ قبل الميـلاد اتجه تشانج تشيان غرباً مع قافلة تضم مايزيد على المائة رجل، كما يروى سيما تشيان:

كُلف تشانج تشيان بمهمة للبحث عن اليويه تشى، فاصطحب معه كان فو، وهو تترى كان عبداً فى يوم من الأيام... وخرج من ممر كانسو ليعبر أرض الشيونج نو. إلا أنه سرعان ما وقع فى الأسر حيث أُرسل للخان الأعظم الذى حبسه قائلاً: «اليويه تشى فى الشمال منا. فكيف ترسل الصين سفـراء لهم؟ إذا أردت أن أرسل سـفـراء إلى [الصين الشرقية]... هل تخضع لنا الصين؟»، واحتجز تشانج تشيان لمدة عشر سنوات وجعل له زوجة أنجبت له ولداً. وطوال ذلك الوقت احـتـفظ تشانج تشيان بإشارة السلطة الخاصة بالإمبراطور. وعندما سُمح له بقدر أكبر من الحرية بمرور الزمن، انتهز الفرصة وهرب مع رجاله.

كان يـنوى فى بادىء الأمر البـحث عن اليويه تشى فى وادى نهـر إيلى الواقع شـمال جبال تيان شان. إلا أنه وجد أنهم رحلوا من هناك. وبعد مسيرة «عشرات الأيام غرباً» على أطراف حوض التـاريم وفى جبال البامـيـر شديدة الانحدار، وصل تشانج تـشيان إلى أرض فرغانة (الـتى كان الصينيون يطلقـون عليها تايوان). أدهشه كـثيراً ما رآه من أرض خـصبة حقـولها غنية بالزروع ومن نبيـذ مصنوع من العنب (ربما أدخله إلى المنطقـة، اليونان الذين كانوا مع الإسكندر وكان غـير معروف للصينيين حتى ذلك الـوقت). وكان تقديره أن مدن فرغـانة، التى يبلغ عددها السـبعـين أو نحو ذلك، تضم مئـات الآلاف من البشـر. وكان المحاربون مسلحين تسليحاً جيـداً حسبما كان متبعاً فى آسيا الوسطى. ويسـجل سيما تشيان ذلك فى قوله: «يتكون سـلاحهم من القوس والمطرد [بلطة قـتال مركـبة على رمح طويل] وكانوا يطلقون السهام وهم على ظهور الخيل».

وكان فى فرغانة الكثير مما أثار اهتمام تشانج تشيان وإمبراطوره، ولم يكن الأمر قاصراً على الخيل التى «جاءت من نسل فرس سماوية». وشعر أهل فرغانة بنفس القدر من السرور

نتيجة لهذا الاتصال. وكانوا قد «سمعوا عن ثروة الصين وخصوبة أراضيها» و«حاولوا مراراً الاتصال بها دون جدوى». (ربما يشير ذلك إلى المحاولات الفاشلة التى قام بها يوثيديموس ملك بلخ وغيره للوصول إلى الصين فى القرن السابق). وأوضح تشانج تشيان أنه مكلف بمهمة ولابد أن ينتهى منها:

ها أنا قد نجوت من الشيونج نو وسأطلب من ملككم من يرشدنى إلى أرض اليويه تشى. وإذا نجحت فى الوصول إلى ذلك البلد، فسوف يكافئكم ملكى بكنوز لا حد لها عند عودتى.

عرض أهل فرغانة «مساعدة تبعث على السرور»، حيث أمدوه بخط سير مأمون ومترجمين ومرشدين إلى مملكة الصُغد الصغيرة الواقعة إلى الغرب، التى اتجه منها نحو الجنوب الشرقى بعد الدوران حول أنف أحد الجبال، ليصل إلى اليويه تشى. وكان هؤلاء المهاجرون المتعبون قد جاءوا للراحة فى بلخ، حيث استولوا على بقايا الممالك الهلينستية التى أسسها الإسكندر وخلفاؤه. (كان بعض اليونان قد ذهبوا لتأسيس مملكة لم تدم طويلاً فى شمال غربى الهند)[1]. ومن مواقعهم المميزة عند تقاطع طرق آسيا، بدا أن اليويه تشى قد وجدوا المكان المناسب لإقامة تحالف مع الصينيين. فالطرفان يمكنهما الضغط على الشيونج نو من الشرق والغرب.

ولكن نتيجة زيارة تشانج تشيان لبلخ لم تكن كل مايصبو إليه. ويقول سيما تشيان:

بعد مقتل ملك اليويه تشى على أيدى الشيونج نو، نَصَّب الشعب وريثه ملكاً (رغم وجود مايشير إلى أن الملكة هى التى اختارت الخليفة). ومنذ ذلك الوقت فتحوا بلخ [تاشيا باللغة الصينية] واحتلوا أرضها. كانت أرضاً غنية وخصبة، نادراً مايطأها اللصوص، قرر أهلها أن يستمتعوا بحياة السلام هذه. بل إنه لم تعد لهم رغبة فى الانتقام من الشيونج نو، طالما أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم بعيدين عن الصين. وبعد أن مر تشانج تشيان بين العديد من القبائل ليصل بلخ، عجز عن

(١) استولى سلوقوس نيكاتور على أجزاء من حوض السند. إلا أن السلوقيين سرعان مافقدوها مع غيرها من أراضى إمبراطوريتهم الشرقية وحاول أنطيوخوس الثالث (٢٢٣ ـ ١٨٧ قبل الميلاد) استعادة مجد السلوقيين ووصل بعد معارك إلى وادى السند. (المترجم).

إقناع اليويه تشى بشن هجوم على عدوهم السابق. ويبقى هناك لمدة سنة ثم بدأ رحلة العودة إلى بلاده.

بعد ذلك قام اليويه تشى بدور مهم على طريق الحرير، حيث عرفهم الغرب باسم الكوشان. إلا أن الصينيين وجهوا اهتمامهم إلى مكان آخر.

ولأن تشانج تشيان كان يأمل تحاشى الشيونج نو وهو فى طريق العودة، فقد عاد من طريق جنوب التاريم حيث احتمى فى جبال نان شان الوعرة. إلا أن جهوده باءت بالفشل ووقع مرة أخرى فى الأسر لدى الشيونج نو لمدة عام. ولم يتمكن تشانج تشيان من الهرب إلا بعد وفاة الخان الأعظم العجوز ودخول قبائل البدو فى نزاع حول خلافته. وأخذ تشانج معه زوجته وكان فو، رفيقه القديم. ولحسن الحظ أن كان فو «كان رامياً ممتازاً وعندما نفدت المؤن كان يوفر لهم الطعام عن طريق الصيد». ولم تكن تلك مساهمة بسيطة، إذ كانوا يسيرون فى أرض موحشة جدباء. وفى النهاية، وبعد ١٣ سنة من خروجهم، عاد اثنان فقط من القافلة الأصلية إلى الصين.

***

إذا كان تشانج تشيان قد أخفق فى المهمة المكلف بها، فإن رحلته تعد ناجحة. فهو الذى فتح قنوات الاتصال مع أهل فرغانة[1] الطيبين وعرف الكثير عن شعوب وأماكن جديدة كثيرة. وباعتبار أن الصينيين يحبون الأحجار الكريمة، فإن ماقاله عن كون خوتان «بلد فيه الكثير من اليشب» أثار الاهتمام بكل تأكيد. كما أن حكايات خيول فرغانة السماوية صادفت هوى لدى الإمبراطور، ولدى الجيش الذى صار يعتمد على الفرسان، الذين تقل خيولهم منزلة عن خيول الشيونج نو.

وعاد تشانج تشيان كذلك بحكايات عن مناطق أكثر بوناً ولا يعلم عنها الصينيون شيئاً. فقد كانت تقع غرب بلخ الأرض التى يطلق عليها الصينيون آن شى. وتلك هى أرض بارثيا الواقعة على الهضبة الإيرانية الشاسعة والحيوية. ويقول سيما تشيان:

يعيش الناس فى مساكن دائمة ويمارسون الزراعة. وتنتج حقولهم الأرز والقمح ويصنعون النبيذ من العنب. وتتبعها عدة مئات من المدن الصغيرة والكبيرة.. إنها بلد كبير جداً قريب من نهر جيحون. يسافر

(١) شمال شرقى سمرقند. (المترجم).

تجارهم فى عربات وقوارب إلى البلاد المجاورة، لمسافات قد تصل إلى آلاف الليات [اللى يساوى ٢/١ كيلو متر تقريباً]. ويضربون عملات من الفضة. وتحمل عملاتهم صورة ملكهم. وعند موت الملك يتم تغيير العملات بعملات أخرى تحمل صورة الملك الجديد. وهم يرسمون صفوفاً من الرموز بالعرض على الجلد لتكون سجلاً لهم.

أُعجبت شعوب آسيا كثيراً بمسألة ضرب عملات تحمل صورة الحاكم، وهو ما أدخله الفرس واليونان قبل قرون. ولأن تلك النقود كانت موحدة، من حيث حجمها ووزنها ونوعيتها، صار الناس يستعملونها كعملة مشتركة للتداول فى كثير من تجارة آسيا، بما فى ذلك طريق الحرير والطريق الهندى العظيم. ويرى البعض أن الرق البارثى، وهو الجلد المعالج بطريقة خاصة، أوحى فيما بعد للصينيين بابتكار الورق ليُستخدم فى الكتابة بدلاً من الحرير والبامبو اللذين كانا يستخدمان لهذا الغرض من قبل.

كما أحضر تشانج تشيان معه أول معلومات عن بلاد الشرق الأدنى، قائلاً إن سوريا وبابل (وهى «حارة ورطبة») تقع على بعد آلاف الليات إلى الغرب من بارثيا على مقربة من «البحر الغربى»، وهو مايبدو إلى حد كبير أنه إشارة إلى الخليج الفارسى أو البحر الأحمر الواقعين على جانبى الجزيرة العربية. فالجغرافيا مشوشة بعض الشىء. وتظهر بقية التعليق أصلها فى الأوصاف التى تناقلها الناس:

يحرث السكان حقولهم التى يزرعونها أرزاً. وهناك طائر كبير بيضه فى حجم الجِرار [قد تكون هذه إشارة إلى النعام]. وعدد سكانها كبير جداً وزعماؤها الصغار موجودون فى أماكن كثيرة. إلا أن بارثيا، التى أضافتها إلى ملحقاتها، تعتبرها بلداً أجنبياً.

يعكس هذا حقيقة أن بارثيا وسَّعت أراضيها بإطراد ووصلت إلى ضفاف نهر دجلة. وأشار تشانج تشيان أيضاً إلى أن السوريين «لديهم حواة مهرة». وكان هؤلاء الحواة شديدى الجاذبية بالنسبة للصينيين. وكانوا يستقدمونهم بعد ذلك، مما أدى إلى ظهور تراث الأكروبات الذى مايزال شائعاً فى الصين الحديثة. وأكثر الإشارات التى تتناول هذه المنطقة غموضاً، هو ذلك التعليق الموجز: «رغم أن كبار السن فى بارثيا يتمسكون بأن..

شى وانج مو[١] فى بابل [فهى] لم تر ذلك المكان». ويوحى هذا بأن شعوب غرب آسيا كانت تعرف الأم الملكية الغربية والاتصالات الأسطورية بين الشرق والغرب التى تمت منذ ألف سنة تقريباً. ولكن مايؤسف له أنه لم يُذكر أى شىء آخر عنها.

والشىء الذى يستحق قدراً أكبر من الاهتمام هو ما رُوى عما رأته تلك المجموعة فى بلخ. ولم يكن تشانج تشيان قد أدرك بعد أنه اتصل بطريق تجارى قديم يقع بين جبال البامير والبحر المتوسط، وهو مانطلق عليه النصف الغربى لطريق الحرير. كما أنه أشار إلى أن الشعوب التى خضعت لبلخ كانت من التجار المهرة (كما كان اليونان)، وأن عدد السكان كان أكثر من مليون وأن عاصمتهم «بها أسواق لبيع كل أنواع السلع»، خاصة المنتجات الآتية من بلد آخر لم يكن معروفاً من قبل، للصينيين الشماليين على الأقل. وكانت تلك الأخبار مثار قدر كبير من الدهشة، مما جعل كلمات تشانج تشيان توضع فى الحوليات الصينية:

عندما كنت فى بلخ رأيت هناك عصا من البامبو.. وبعض الأقمشة [قد تكون من الحرير] من سيتشوان [إقليم جنوب غربى الصين].. وعندما سألت السكان عن كيفية حصولهم على تلك الأشياء أجابونى: «سكان بلدنا يشترونها من الهند». وربما تبعد الهند عدة آلاف من الليات إلى الجنوب الشرقى من بلخ.

وكان ذلك أول شىء يعرفه، ويعرفه إمبراطوره، عن بلاد الهند العظيمة. قد يبدو مدهشاً أن تشانج تشيان وإمبراطوره لم يعرفا أى شىء عن الهند، أو عن تلقيها لمنتجات من جنوب غربى الصين. ولكن المسافات كانت كبيرة والأرض وعرة، حتى داخل إمبراطورية الصين الشاسعة نفسها. كانت جبال تشن لنج تفصل شمال الصين عن جنوب غربى الصين، الذى كان حديث عهد فى انضمامه إلى الإمبراطورية ولم يكن قد انصهر فيها انصهاراً تاماً. وكان انفصال شمال الصين عن الهند أشد، لوجود الحاجز الضخم الذى يشمل هضبة التبت المرتفعة وكل سلسلة جبال الهيمالايا بينهما. أما جنوب غربى الصين، فكان يفصله عن الهند الغابات الحارة التى تكثر فيها الأمراض. وكانت التجارة بينهما، على أى الأحوال، تتم من خلال سلسلة وسطاء كان بعضهم ينقل البضائع من بورما إلى

(١) الأم الملكية الغربية. (المترجم).

البنغال، قاطعاً بها جزءاً من الطريق. وتشير الحوليات إلى أن بعض البعثات التبشيرية البوذية وصلت الأراضى الصينية فى عقود سابقة لذلك[١]. وطالما أن الصينيين لم يعرفوا شيئاً عن الهند، فمن الممكن ألا يكونوا قد أتوا من الهند نفسها وإنما من المراكز البوذية الناشئة المحيطة بخوتان.

وعلى أى الأحوال فإن أخبار الهند كانت أكثر الأخبار تشويقاً. وإذا وضعنا فى الحسبان صعوبة الطريق الذى قطعه تشانج تشيان غرباً، وكذلك جاذبية منتجات الغرب، فإنه قدم أكثر المقترحات قبولاً:

طبقاً لحساباتى، فإن بلخ قد تكون على بعد ١٢ ألف لى من الصين ناحية الجنوب الغربى. وبما أن بلاد الهند تقع على بعد آلاف الليات إلى الجنوب الشرقى من بلخ، ووجدت منتجات سيتشوان هناك، فإن هذه البلاد لايمكن أن تكون بعيدة عن سيتشوان. وإذا أرسلنا سفراء إلى بلخ عن طريق [جبال نان شان] فإن الناس هناك.. سوف يعارضون. وإذا أرسلناهم شمالاً أكثر، فإن الشيونج نو سوف يلقون القبض عليهم. ولكن الذهاب عن طريق سيتشوان قد يكون مباشراً ولا يتعرض لخطر اللصوص.

أدرك الإمبراطور وو مغزى اقتراح تشانج تشيان بشأن طريق بديل للوصول إلى فرغانة وبلخ وبارثيا، التى كان يُعتقد أنها جميعاً «بلاد واسعة عامرة بالأشياء النادرة» وإن كانت بها «جيوش ضعيفة» ولديها رغبة كبيرة فى الحصول على السلع الصينية. (هل يمكن أن يشير ذلك إلى تفضيل اليونان للتجارة على القتال فى الجزء البلخى من طريق الحرير؟) ولكن ما يؤسف له هو أن محاولة تشانج تشيان الوصول إلى الهند من ناحية الجنوب باءت بالفشل فى نهاية الأمر. إذ كانت الغابات الجبلية الواقعة جنوب غربى الصين تحكمها قبائل شرسة تفضل السرقة أو التجارة مع مهربى الحدود على الاتصال بالبعثات الصينية الرسمية.

لذلك اضطُر الصينيون مرة أخرى لتحويل أنظارهم إلى آسيا الوسطى، لفتح طرق تجارية محتملة ولتأمين حدودهم ضد الشيونج نو قُطّاع الطرق. وفى تلك المحاولات، كانت

(١) ذُكر أنه كانت هناك جماعة بوذية فى بلاط أحد أمراء أسرة هان سنة ٦٥ ميلادية. وفى سنة ١٤٨ ميلادية جاء إلى تلك الجماعة مبعوث من بارثيا اسمه شى كاو حيث شارك مع أعضاء بعثته من الصُغد والبارثيين والهنود وغيرهم فى ترجمة الكتب البوذية إلى الصينية. (المترجم).

خبرة تشـانج تشان ذات فائدة بالغة. وأشار سيـما تشيان إلى أنه عندما عمل تشـانج تشيان مستشاراً للقائد العـام فى إحدى الحملات الموجهة ضد الشيونج نو، فإن «مـعرفته بمراعيهم» حالت دون نقص مئونة الجيش. وبعد ذلك فقد تشـانج تشيان حظوته وفقد معها كل ألقابه التى أُنعم بها عليه. إلا أنه إكـراماً لما قام به من جهد مميز كـ«فاتح لـلطرق»، لم يفقد رأسه أيضاً. (كان محظوظاً بالفعل. فمؤرخه سيما تشيان خُصى عندما فقد حظوته). وعلى مدى العامين التاليين هاجمت الجيوش الصـينية الشيونج نو فى الشمال والغرب إلى أن تمكنت فى سنة ١٢١ قبل الميلاد من طرد الشيونج نو من ممر كانسو. وهنا يقول سيما تشيان:

... فى الغرب وعلى امتداد جبال نـان شان حتى لوب نور [البحيرة المالحة]، لم يبق أحد من الشيونج نو. وإذا كان الشيونج نو يغيرون على القوافل، فإن هذا التحرش كان نادراً. وبعد عامين أجبر الصينيون خان الشيونج نو على الانسحاب إلى شمال الصحراء.

أصبح الباب مفـتوحاً أمام المحاولة الكاملة لإقامـة اتصالات بالغرب. وليس هناك من هو أفضل من تشانج تـشيان ليتولى ذلك. ورغم تجـريده من ألقابه، فإنه استـمر فى تقديم المشورة للإمبـراطور. وكان من بين اقتراحـاته محاولة الصين بث الفرقـة بين من تبقى من الشيونج نو وإضعافهم عن طريق التحالف مع أحد الشعوب الواقعة شمالى جبال تيان شان، وهم الوو صن (قد يكونون الإيسيدون الذين ذكـرهم هيرودوت) الذين عاشوا فى وادى نهر إيلى بالقرب من إيسيك قول (البـحيرة الدافئة) كما رأى أنه «طالما أن البـرابرة كانوا يرغبون فى الحصـول على منتجات الصـين»، فينبغى رشوة هؤلاء الـقوم بـ«هدايا سخيـة ودعوتهم للإقامـة شرقاً» فى الأراضى التى كان الشـيونج نو يقيمـون فيها. وعـلاوة على ذلك ينبغى أيضاً إرسال أميـرة صينية لتقوية التحـالف. وظل الصينيون يستخدمـون هذا التكتيك قروناً عديدة، ساعين إلى تفريق أعدائهم من خلال إقامة التحالفات بحكمة، مع إرسال الأميرات كرهائن لتحقيق تلك الأهداف السياسية.

استعاد تشانج تشيان حظوته:

أقـر ابن السمـاء[1] اقـتـراح تشـانج تشيـان وعينـه قـائداً فـى الحـرس الإمبراطورى وقـائداً لحملة قوامها ٣٠٠ رجل، مع كل منهم حصانان، وآلاف الثـيـران والخـراف. كـمـا زوده بهـدايا من الذهب والأقـمـشـة

(١) لقب الإمبراطور الصينى. (المترجم).

الحريرية تساوى الملايين وبمبعوثين مساعدين يحملون أوراق اعتماد يمكن لتشانج تشيان أن يرسلهم إلى البلاد القريبة الأخرى أو يتركهم فيها.

تلك الثيران والخراف كانت فى المقام الأول مئونة لهم فى الطريق. أما السلع الأخرى فكانت هدايا بالاسم فقط. ففى العصور القديمة، وخلال فترة طويلة من تاريخ الصين، كانوا يمارسون التجارة باسم تبادل الهدايا. والواقع أنهم كانوا ينتظرون حصولهم على «هدايا» مثيلة فى المقابل، من السلع التى يرغبون هم فيها. وكانوا يغضبون من أى صورة من صور عدم احترام «هدايا ابن السماء».

هذا فى الواقع هو ما وجده تشانج تشيان عندما التقى بالوو صن. إذ «أغضبته كثيراً تلك الإهانة التى لقيها، وهو سفير الصين»، من «البرابرة» وهدد بسحب الهدايا إن هم لم يعاملوه بالاحترام الواجب. فما كان من حاكم الوو صن إلا أن «انحنى أمام الهدايا»، وهو مايعد إصلاحاً للخطأ. ولكن الوو صن كانوا شعباً منقسماً، ولا يرغب فى التحالف الشديد مع الصين. وكانت مساهمتهم الرئيسية هى توفير المرشدين والمترجمين للسفراء المساعدين الذين أرسلهم تشانج تشيان إلى بلاد فرغانة والصُغد وبلخ وبارثيا والهند وخوتان وغيرها من البلدان القريبة.

***

عاد تشانج تشيان إلى الوطن تصحبه عشرات السفارات من الوو صن مع خيول كثيرة «رداً على هدايا الإمبراطور». لم تكن تلك خيول فرغانة السماوية. ولكن بما أن المحاربين والتجار فى تلك الفترة كانوا يعتمدون اعتماداً كبيراً على الخيول، فإن جياداً من سلالة أكثر شيوعاً كانت دائماً «هدية» مقبولة. واستطاعت سفارات الوو صن الزائرة «رؤية الصين رأى العين مما أتاح لها إدراك حجمها وعظمتها». وعادوا إلى بلادهم بأخبار مثيرة عن ثروة الصين وقوتها. وفى السنة التالية عاد المبعوثون المساعدون العديدون إلى الصين أيضاً، مصطحبين معهم ممثلين أجانب. ويشير سيما تشيان إلى أنه بعد ذلك «بدأت بلدان الشمال الغربى التخاطب مع الصين». وبعد ذلك أُنعم على تشانج تشيان بلقب «الرحال الأكبر» ورُقى إلى وزير دولة للشئون الخارجية، وهو أحد المناصب الرفيعة فى الإمبراطورية. وكانت شهرته كبيرة، حتى أن «المبعوثين الذين اتجهوا غرباً بعده كانوا يشيرون إلى [تشانج تشيان]. . . كتعريف فى البلدان الأجنبية، حيث كان ذكر اسمه بمثابة ضمان للصدق».

وعاد مبعوثو الصين أيضاً من بلدان الغرب البعيدة وهم يحملون معهم عينات من النباتات والمعادن الجديدة وغير المعروفة. وكما تشير «تشيان هان شو» (حوليات أسرة هان السابقة)، ففى تلك الفترة «بدأت عينات من الأشياء الغربية فى الوصول من كل صوب». ويعتقد أن تشانج تشيان نفسه جلب للصين شجرة العنب (وإن كان الصينيون لم يصنعوا النبيذ من فاكهتها إلا بعد ذلك بزمن طويل) والبرسيم الحجازى، وهو العلف الرئيسى للخيول والجمال. ووصلت الصين نباتات جديدة وغريبة أخرى: فواكه، كالخيار والتين والرمان والجوز، وأعشاب وتوابل، كالسمسم والكرات والكزبرة والقرطم.

وجرى العرف على أن تشانج تشيان هو صاحب الفضل فى جلبها جميعاً من بلاد فارس أو آسيا الوسطى. ورغم وجود اعتقاد فى الوقت الحالى بأنها زُرعت فى قرون لاحقة، فإن العينات قد تكون نُقلت شرقاً فى تلك الفترة المبكرة من الاتصال. ومع وجود حاجز التاريم، انتقلت بعض فواكه الصين المحلية غرباً، حتى قبل عصر تشانج تشيان. فمن حدود الصين الغربية جاء البرتقال والخوخ والكمثرى. وكانت تلك المناطق الحدودية نفسها الموطن الأصلى لبعض الزهور التى أصبحت أساسية فى الحدائق الحديثة، ومنها الورود والكاميليا والكريزانتيم والفاوانيا.

وعاد مبعوثو الصين أيضاً بكثير من الأخبار العسكرية والتجارية القيمة. إذ وجدوا وداً وحسن استقبال من الممالك الغربية أثناء تلك الاتصالات المبكرة. ورغم كون بلدان آسيا الوسطى غير معروفة للصين، فالعكس لم يكن صحيحاً. فالغربيون كانوا على معرفة جيدة بالـ«سيريس» وماينتجونه من «سيريكا». كما وجد الصينيون أن تربية دودة القز لم تكن معروفة فى الغرب. حيث حققت الصين نجاحاً تاماً فى الاحتفاظ بسر تقنيات تصنيع الحرير. لذلك كانت أمام الصينيين سوق تتشوق إلى قماشهم الرقيق، وكذلك إلى مصنوعاتهم المعدنية الراقية وخاصة أسلحتهم. وكانوا يأملون فى أن تأتى لهم تلك السلع الأساسية ـ فى المقابل ـ بالأشياء التى يرغبون بشدة فى الحصول عليها من الغرب، وخاصة الخيول السماوية.

***

ولكن الطريق كان صعباً. فربما يكون الشيونج نو قد طُردوا إلى الشمال، ولكن العصابات الجوالة من قُطّاع الطرق كانت ماتزال موجودة. كما أن مشكلة نقص الطعام والماء اللازمين للمجموعات الكبيرة التى تعبر الأقاليم الصحراوية لم تحل. إلا أن الصينيين تصدوا

لتلك المصاعب بقوة. فما إن هزموا الشيونج نو فى سنة ١٢١ قبل الميلاد حتى أقاموا المنطقة الغربية تـشيو تشان (نبع النبيذ) كرأس جسر للانطلاق عبر ممر كانسو. وعـملاً بالأسلوب القديم للإمبراطورية، عَمَّر الإمبراطور المنطقة الحدودية الموحشة بالمجرمين المبعدين والمنشقين المنفيين والعمال العاطلين تحت أعين القادة العسكريين اليقظة. وشيئاً فشيئاً جعل هؤلاء، ومن على شاكلتهم، شريط كانسو بكامله تحت الحماية الصينية. وامتدت الحماية لتشمل أيضاً وادى إيتسين جول الخصيب الواقع شمالى الممر. وأُقيمت أبراج المراقبة على طول الطريق الممتد غرباً ومُدت جدران السور العظيم الطينية لتربط بين أبراج المراقبة والحصون القليلة التى تحرس الطريق.

يأتى فى مقدمة تلك الحصون يانج كوان ويومن كوان (بوابة اليشب) اللذان أقيما لحراسة بوابات الخروج الخاصة بمسالك طريق الحرير شمالى التاريم وجنوبه. وأصبحت تونهوانج، حيث يبدأ فرعا طريق الحرير الناشىء الرئيسيان، المحطة الصينية الغربية الرئيسية. وفى الفترة نفسها شن الصينيون بعض الغارات الناجحة جداً فى الشمال داخل موطن الشيونج نو، فيما يُعرف الآن بمنغوليا الخارجية. وفى بعض الأحيان كان يساعدهم عامل المفاجأة وهبوب العواصف الرملية فى وجه خصومهم. ومن أجل المزيد من الإنجازات، ركزوا على الاستيلاء على بعض واحات التاريم الرئيسية، وكانت فى تلك الفترة دويلات مستقلة صغيرة أهمها تلك الواقعة بالقرب من لوب نور وحوض تورفان. وهى نقاط انطلاق إلى مزيد من الفتوحات. وعندما تذكر الشاعر لى شى من (الذى أصبح الإمبراطور تاى تسونج) النصر أعلن:

خلف الحدود يقع الشتاء القارس والريح العاتية...

دخلنا أرض الهون (الشيونج نو) وتغلبنا عليهم فى معاقلهم الصحراوية...

وذكر المؤرخ سيما تشيان أن الإمبراطور تجشم كل تلك المشاق «كى يتصل بالبلدان الواقعة فى الشمال الغربى». ولم يكن أقل أهدافه أهمية الحصول على بعض خيول فرغانة الثمينة، وخاصة خيول كوقند، التى يقال إنها أفضلها جميعاً. ويروى سيما تشيان أن:

... ابن السماء كان يهيم حباً بخيول كوقند. فانطلقت السفارات الواحدة تلو الأخرى على طريق ذلك البلد. كانت أكبرها تضم مئات الرجال وكانت أصغرها تقل عن المائة. وفى بعض السنوات أرسل

البلاط الصينى عشر سفارات أو يزيد. وفى سنوات أخرى كان عددها خمساً أو ستاً. وعاد السفراء من مهامهم فى تلك البلدان البعيدة بعد ٨ أو ٩ سنوات. ولم يستغرق الأمر سوى عامين أو ثلاثة أعوام للعودة من البلاد القريبة.

كان طول الوقت اللازم لتلك المهام أحد جوانب المشكلة. فالسفارات التى كانت تقضى سنوات فى الطريق كان عليها أن تلتمس الطعام والماء من المدن الواحات الواقعة على الطريق. إلا أن السكان المحليين لم يكونوا مستعدين دائماً لتلبية تلك الحاجات. لذلك كان الأمر يقتضى فى بعض الأحيان القيام بعمل شبه عسكرى أو تقديم «الهدايا» لإقناعهم بذلك. ولكن كلا الأمرين كان السبب فى زيادة عدد المرافقين لأى سفارة لازمة لقطع مسافة ٥ آلاف ميل أو يزيد ذهاباً وعودة. وحاول الصينيون توسيع نطاق نفوذهم على بعض أجزاء الطرق المتجهة غرباً. إلا أنهم أحرزوا نجاحاً محدوداً فى ذلك الزمان البعيد. وتشير «حوليات أسرة هان السابقة»، على سبيل المثال، إلى أن أهل شان شان الواقعة على طريق التاريم الجنوبى كان من المفترض أن «يوفروا المرشدين ويحملوا الماء ويقدموا المؤن للمبعوثين الصينيين». ولكن القول أسهل من الفعل. إذ ظلت أعمال السرقة والقتل شائعة على مسالك التاريم. وما كان من أهل شان شان الطيبين «الذين يتعرضون كثيراً لغارات غاشمة من الجنود، إلا أن قرروا فى نهاية الأمر أنه من غير المفيد الإبقاء على اتصالهم بالصين».

وبسبب ما واجهه أهل الخبرة من صعوبات، أصبحوا لايتقدمون بطلبات للقيام بتلك الرحلات المتجهة غرباً. وسرعان ما استفاد من السمعة الطيبة التى اكتسبها تشانج تشيان وأقرانه للصين مجموعة من السفراء الذين يفتقرون إلى الأدب ويتميزون بقدر كبير من عدم الأمانة ومايصل فى بعض الأحيان إلى حد الخيانة الواضحة. وعندما كان هؤلاء السفراء، الذين يعتمدون على أفضال غيرهم، بعيدين عن الوطن، كانت قدرتهم على تنفيذ مهامهم ضعيفة. ووجد الحكام الغربيون أنفسهم بحق فى «سوق المشتري». فلم يكونوا مضطرين للإذعان لرغبات الصين وإرسال البضائع التى تريدها. وحصلت الدول الثرية الواقعة فى أقصى الغرب على كميات من السلع الصينية وأهمها الحرير. إلا أن البلدان الجبلية الصغيرة فى البامير، التى لم تكن قد رأت بعد الإمكانيات غير العادية للتجارة عبر آسيا، لم تستوعب إلا كمية محدودة من المصنوعات الصينية، بغض النظر عن مدى جودة الصناعة. وتفسر الحوليات هذه المشكلة:

... وما إن زاد عدد السفارات حتى صار الحكام الأجانب لا يأبهون بالهدايا وأصبحت الصنعة الصينية لا تلقى تقديراً كبيراً.

***

ولكن ابن السماء ظل يهفو إلى خيول كوقند[1]. إذ سمع أن أهل كوقند كانوا يخفون «عددا كبيـراً من الخيول الرائعة» التى رفضوا إعطاءها للسفـير الصينى. وعندما وصل ذلك إلى مسامع الإمبراطور الصينى أرسل بعثة خاصة إلى كوقند:

أعطاها كمية كبيرة من الفضة وحصاناً من الذهب الخالص لتقديمها لحاكم كوقند مقابل الخيول التى لديه.

وشـاء حـظ الإمبراطـور العـاثر أن يكون بلاط كوقند «قد حصل من قـبل على الكثير من الأشـياء الصـينية». إلا أن مسـتشارى الـبلاط قرروا الاحتفـاظ بخيولهم، مهـما كانت عظمـة الهدايا المقـدمـة. وربمـا كانت لتلك الخيول بالذات أهمـية دينية خاصة، كـما يقول عالـم الصـينيات المعاصـر أرثـر ويلـى. وهـو مـاجعل حاكم كوقند يرفض التـخلى عنها. فربما كان كـالإمبراطور الصيـنى يعتقد أنهـا سوف تحمله إلى السمـاء لينضم إلى الخالدين. وعمومـاً، أدرك مستشـارو كوقند أنه ليس هناك مايخـافونه إن هم رفضوا طلب الصـينيين قائلين:

الصين بعيـدة جداً والطريق طويل. المسافرون يفـتـقـرون إلى العلف والماء. فى الشمال يتعرضون لخطر هجمات الشيونج نو، وفى الجنوب لا ماء ولا عشب. بل إن الأراضى الواقعة على الطريق كانت تسكنها أعـداد قليلة من النـاس، وهو مـاجـعل المسـافـرين أنفـسـهم لايجـدون مايكفيهم من الطعام فى أغلب الأحيـان. ويأتى السفراء الصينيون معهم بحاشية تضم مئات الرجال. وهم دائماً يعانون من نقص الطعام، حتى أن نصـفـهم تقـريباً يموتون جـوعـاً. فكيف لأى جيش أن يصل إلينا؟ لايسع الصين أن تصيبنا بأذى. ستظل الخيول التى لايقدّر عددها خيول كوقند.

---

(١) وتُسمى أيضاً خواقند وخـوقند. وجاءت فى «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» للإدريسى خجندة، حـيث قال إنها مدينة متاخمة لفرغانة على غربى نهر الشاش والأشجار بها قليلة لكثرة البرد. (المترجم).

وعندما غـضب أحد السفراء الصـينيين لعدم احـترام إمبراطورهم، أهان البـلاط بدقه الحصان الذهبى ليتحـول إلى كتلة لا شكل لها. وكان غضبه هذا سبـباً فى قتله عند عبوره حدود كوقند.

فى أول الأمر بدا أن مـستـشارى كوقند كـانوا على صواب. إذ أرسل الإمـبراطور وو جيـشاً إلى الغرب لقـتال كوقند. إلا أنه بالغ فى الضـرائب التى فرضهـا على موارد المدن الواحات التـى مر عليهـا وأضعف نفـسه وهو يحـاول إخضاع الحكام المحليـين. ولم يكن بمقدور الفلول المتبقية اختراق أسوار كوقند. وعند عودة الجيش لبلاده وهو يجر أذيال الخزى واجه مصاعب أشد. فعندما أدركت مدن الصحـراء ما عليه الصين من ضعف، شعرت أنها غير مضطرة لتزويد جيشها بما يحتاجه.

إلا أن ابن السماء، الذى شعر بالفزع والعار، لم يتقبل الهزيمة:

ظن الإمبراطور أن إرسال حملة فاشلة لمحاربة... بلد صغير... سوف يجـعل بلـخ وغـيـرها من الدول المجـاورة تحـتـقر الصين. كمـا أن... الخيول... لن تأتى أبداً.

لذلك جمع الإمبراطور قوة مذهلة بحق لإرسالها لمحاربة كوقند:

... ستون ألف رجل، ناهيك عمن تبعوهم كحمالين للمؤن الإضافية؛ مـائة ألف ثور؛ أكـثر من ثلاثين ألف حصان وآلاف الحـمير والبـغال والجـمـال ومـيرة لديهـا مـخزون كـبير من المؤن إلى جـانب الأقـواس والسهـام وغيرها من الأسلحة. وكان على كل أنحاء الإمبـراطورية أن تسارع بتقديم مساهماتها.

وهكذا حُلت مشكلة الطعـام. إلا أن موارد المياه الشـحيحة المتناثرة على امـتداد طرق التاريم لم تكن تكفى تلك الأعداد الضخمة من البشر والدواب. لذلك حل الجنرال الصينى هذه المشكلة بتقسيم القوات إلى فرق اتخذت كل منها مسلكاً مختلفاً. وبعد أن تزود الجيش بكل ذلك لم يعد مضطراً إلى إهدار طاقته فى إخـضاع المدن الواقعة على الطريق، وإنما اتجه مباشرة إلى كوقند.

ورغم ذلك كان الـطريق صعبـاً. فلم يبق على قيـد الحيـاة سوى نصف عـدد الجيش ليشارك فى حصار كوقند سنة ١٠٢ قبل الميـلاد. كانت المدينة محصنة تحصيناً قوياً ولم يكن

الاستيلاء عليها سهلاً. ونتيجة للخبرة التى اكتسبها الصينيون من هزيمتهم السابقة، أحضروا معهم هذه المرة مهندسين للحصار. وكانت خطتهم، وهى جيدة بحق، هى تحويل النهر[1] الذى كان مصدر المياه الوحيد للمدينة. ومع ذلك لم يستطع الصينيون اختراق الدفاعات الخارجية للمدينة إلا بعد ٤٠ يوماً. وكان بلاط كوقند آمناً وراء أسوار المدينة الداخلية، إلا أنه كان محروماً من المؤن. ودعاه ذلك إلى طلب الهدنة قائلاً إنه إذا قُدمت لهم «شروط مشرفة» فسوف يقدمون الخيول المطلوبة. أما إذا لم يحدث ذلك فسوف يقتلون كل الخيول ويموتون هم فى القتال. وقبل الصينيون العرض. وربما يكونون قد تأثروا بفكرة أن جيش كوقند كان على وشك تلقى الدعم، الذى يشمل بعض مهندسى حفر الآبار، من بلاد تا تشين الغربية. (يبدو أن هذه أول مرة يأتى فيها ذكر الإمبراطورية الرومانية فى الحوليات الصينية).

كان الصينيون على استعداد تام للنجاح، حيث أحضروا معهم الخبراء لانتقاء أفخر الخيول للبلاط الصينى. وفى النهاية أخرجت الحملة فقط ٣٠ حصاناً «سامياً» أو «سماويا»، على أساس أنها تتميز بعلاماتها أو خطوطها المقدسة، إلى جانب ٣ آلاف من «النوعية الوسطى والدنيا». بقى نصف هذا العدد على قيد الحياة بعد رحلة العودة، إلا أنه كان كافياً ليصبح نواة لسلالة مميزة تحت بصر الإمبراطور. واستمر ملك كوقند زمناً يرسل اثنين من «الخيول السماوية» إلى الصين فى كل سنة.

وهكذا حصل الإمبراطور وو فى نهاية الأمر على خيوله السماوية. وليس بغريب أن نُظمت الأناشيد احتفالاً بمقدمها. مع الوضع فى الاعتبار تلك الموارد الضخمة التى حُشدت للحصول عليها. إلا أن الصين فازت بصفقة رابحة، علاوة على الخيول السماوية العزيزة على إمبراطورها. فبذلك النصر المدهش الذى حققته فى كوقند، دالت لها السيطرة الفعلية على كل منطقة حوض التاريم الذى أصبح من يومها يسمى سنكيانج (الأملاك الجديدة). وعند عودة الجيش من كوقند، قبل استسلام المدن الرئيسية الواقعة على طرق التاريم، حيث كانت تبدى ذلك دون تردد. وعقب ذلك مباشرة «أرسلت الصين مايزيد على العشر سفارات إلى بلدان غربى فرغانة لجمع الأشياء الغريبة والنادرة، إلى جانب جعل تلك البلدان تشعر بأهمية النصر».

ويخبرنا كتاب «تونج باو» أنه بعد حملات فرغانة الناجحة مباشرة. .

---

(١) هو نهر الشاش كما أسلفنا. (المترجم).

... أُقيمت النقاط العسكرية من مكان إلى آخر، من تونهوانج حتى المستنقع الملحى [لوب نور] غرباً. وإلى جانب ذلك كان فى المنطقة... عدة مئات من المستعمرين العسكريين. ووضع مفوض إمبراطورى [هناك] للإشراف على [هؤلاء الناس والأرض التى يفلحونها] وحمايتهم، لتلبية احتياجات المبعوثين المرسلين إلى البلاد الأجنبية.

وهكذا تولى الصينيون تموين المسافرين المتجهين غرباً بأعداد متزايدة منذ ذلك الوقت. وكان استمرار الحذر ضرورياً، فالصين كانت حديثة عهد بالتاريم. وكان سكان الصحراء قد اعتادوا الاستجابة لسوط الشيونج نو. وذكر سيما تشيان فى الـ «شى تشى» أنه حتى الوقت الذى تحققت فيه الزعامة للصين، كان السفراء إلى المناطق الغربية يتعرضون للسرقة فى أغلب الأحيان على يد أهل مدن مثل لولان. إذ «كانوا فى مناسبات كثيرة بمثابة أعين الشيونج نو وآذانهم وكانوا يجعلون قواتهم تعترض المبعوثين الصينيين».

***

بعد أن توطدت أقدام الصين فى التاريم، أُفتُتح النصف الشرقى من طريق الحرير بصورة كاملة. لم يعد هذا الطريق العظيم مقسماً إلى شرقى وغربى وأصبح لأول مرة طريقاً متصلاً يمتد لمسافة ٥ آلاف ميل، بين إمبراطورية الصين، التى دخلت واحداً من أعظم عصورها فى ظل حكم أسرة هان، وبلدان البحر المتوسط فى آسيا، التى كانت بها إمبراطورية عظمى أخرى، وهى الإمبراطورية الرومانية التى بدأت لتوها فى وضع اللبنة الأولى لمجدها.

وحتى قبل أن ينهى الصينيون حصارهم لكوقند، كانت التجارة قد بدأت تتجه غرباً على طريق الحرير. وكانت أولى الرحلات من خلال قافلة متجهة من الصين إلى بارثيا سنة ١٠٦ قبل الميلاد، كما تشير الحوليات. وتتحدث «حوليات أسرة هان السابقة» عن بعثة فى حدود ذلك التاريخ إلى البلد الذى أطلق عليه الصينيون آن شى (بارثيا)، على الهضبة الإيرانية. ولقى السفير الصينى الذى أرسله الإمبراطور وو ترحيباً يفوق الوصف:

أمر الملك [البارثى] قادته العسكريين أن يستقبلوا السفير الصينى عند الحدود الشرقية بصحبة ٢٠ ألف فارس. وكانت المسافة بين الحدود والعاصمة [وهى هيكاتومبيلوس فى ذلك الوقت] تقدر بعدة آلاف من الليات. وكان الطريق يخترق عشرات المدن. والناس يغطون الأرض دون انقطاع.

وهكذا كـانت المنطقـة الواقعـة على طريق الحـرير، التى شـيدتهـا القـبائل الإيرانيـة والآشوريون واليونان وكل أسـلافهم، عبارة عن عقـد لا ينقطع من المدن ذات الأسوار فى ذلك الوقت. وسرعان ما أصـبح طريق الحرير أكثر استيطاناً. حـيث أصبح كل من الشرق والغرب يقدر مـا يقدمه الآخر. وكـان الغرب بالطبع مولعاً بالحـرير، تلك السلعة التى ربما كانت وراء ذلك الترحيب الرائع الذى لقيه المبعوث الصينى. أمـا الصينيون القدماء فأعجبوا بالنَّعَّام، الذى أطلقوا عليـه فى بعض الأحيان «الطيور الجِمـال» بسبب السرعة الكبـيرة التى تنطلق بها سـيقانه، وإن كانت سـرعة خرقاء، وكـانوا لم يروه من قبل. ولم تكن الهضـبة الإيرانية موطن النَّعَّام. ولكنه جُلب من السهول الصحراوية الدافئة فى جنوب غربى آسيا.

أُعجب الصينيون أيضاً بلاعـبى الأكروبات والحواة الذين رأوهم فى الأراضى البارثية. ولم يكن هؤلاء كـذلك من أهل الهـضبـة الأصليـين وإنما سافـروا على طريق الحـرير من موطنهم الأصلى فى السهول. ونتيجة لذلك مضت الحوليات قائلة:

عندما غادرت البعثة الصينية، أرسل ملك آن شى معهم رسولاً له لعله يعلم شيئاً عن الصين. وقدم للبلاط الصينى بيضة نعامة وبعض الحواة من لى تشيان [لى كان]. ووجد ابن السماء سعادة كبيرة فى ذلك.

اعتـباراً من ذلك التـاريخ، أى حوالى سنة ١٠٥ قـبل الميلاد وربما ١١٥ قـبل الميلاد، بدأت العلاقات المباشرة بين الصين والأراضى الإيرانيـة على المستويين التجارى والسياسى. وظل الصينيون والإيرانيون حلفاء لما يزيد عن ثمانية قرون، رغم تغير الحكم فى أراضى كل منهما وتداخل قوى أخرى بينهما على طريق الحرير.

وبذلك عرفت الصـين الكثير من البلدان الواقعـة بعد بارثيا. وعندما سـأل الإمبراطور عن المكان الذى يأتى منه الحواة، وهو اسم جامع للسحـرة والراقصين ولاعبى الأكروبات، قيل له من «لى كان». وأصل اسم «لى كان» كان مثار خلاف كـبير بين الباحثين. فالبعض يرى أن لى كان هـو الاسم الصينى للإسكندرية، التى كـانت بالفعل مـشهورة بلاعـبيـها، وكانت كثـيراً ماترسلهم كصـادرات بشرية إلى البلدان الأجنبية. بينمـا يصر آخرون أن «لى كان» هى الترجمة الصينية لـ«رى كم»، وهو الاسم المحلى للمدينة التى سماها اليونان «بترا» (وكلاهما يعنى «صـخر»). وبغض النظر عن أصل اسمهـا، فإن لى كان بالنسبة لـلصينيين كانت تعنى الأرض الواقعـة بعد بارثيا، وهى التى عرفوها فـيما بعد كإمبـراطورية عظيمة. وكون الصيـن لم تعرفها باسم «الإمـبراطورية الرومانية» أمـر مفهوم. فهى قـد بدأت لتوها

تثبيت وجودها فى غـرب آسيا. هذا إلى جـانب أن الرومان أنفسهم أطلقـوا على أرضهم orbis terrarum (العالم). لذلك فـلا ينبغى أن نتوقع أن يكون الاسم الصيـنى أحد صور كلمة «روما». وتعـود محاولات الصين الوصول إلى ماوراء بارثيـا حتى أرض لى كان إلى ذلك الوقت.

وخلال القـرن الأول قبل الميلاد، اسـتمر الصـينيون فى تقوية قـبضتـهم على حوض التاريم، حـيث المدينة الواحة قـره شهـر، الواقعة على الطـريق الشمالى، ويرقنـد، البوابة الجنوبية لجبال البامير. وربما يكون الأهم هو بثهم الفرقة بين الشيونج نو. وبحلول سنة ٥١ قبل الميلاد، أُخضع زعيم الشيونج نو الشرقيين خضوعاً تاماً، حتى أنه جاء بنفسه إلى تشانج آن ليسجد أمام إمبراطور هان. كما أن الصـينيين أسروا زعيم الشيونج نو الغربيين وأطاحوا برأسه. وهكذا لم تقم للشيونج نو قومة طـوال الأربعة قرون التالية (وفى ذلك الوقت كانوا يعرفون باسم الهون ويتزعمهم أتيلا وتحولت أنظارهم إلى أوروبا).

وبهذه الأعمال نشر صينيو هان السـلام فى أنحاء حوض التاريم. وأصبح بإمكان تجارة آسيا الوسطى، من الحـرير واليشب والخيول والفراء والجمـال، أن تصل إلى أماكن أبعد من ذى قبل بعد أن كانت توسعات الشيـونج نو تحول دون ذلك. ومارس الصينيون التجارة مع كل الوافدين، ومن بينهم الشيـونج نو، جاعلين التجارة أداة من أدوات السياسـة الخارجية. وفى سنة ٨١ قبل الميلاد عرض كبير أمناء مجلس هان هذا كما يلى:

يمكن مقايضة قطعة من الحرير الصينى البسيط مع الشيونج نو بأشياء تبلغ قيمتها عدة قطع من الذهب، وهو مايقلل موارد عدونا. وتعبر الحدود صفوف لا تنقطع من البغال والحمير والجمال. وتصلنا الخيول، مطايا رقطاء وشهباء وكستنائية تختال فى سيرها. أما فراء السمُّور والمرموط والثعلب والغرير والبساط الملون والسجاد المنقوش فتملأ الخزائن الإمبراطورية. بينما أصبح اليشب والأحجار الميمونة والمرجان والبلور كنوزاً قومية.

***

كان طريق الحرير، كطريق للتـجارة، مجلبة للسمـعة السيئة للصـينيين. إذ أنهم أكدوا بشدة ما يُقال عن تلقيهم خراجاً من الدول الأقل شأناً وعن توزيعهم للهدايا. ولكن الحقيقة واضحة، كما فى الرأى الذى يقـول إن الإمبراطور وو من أسرة هان كان يوزع على الزوار

الأجانب «كنوزاً وحريراً على سبيل المكافأة والهدية وكان يرد على ما أحضروه إليه بوفرة بما هو أغلى منه». وكما فى حكايات رحلات الإمبراطور وو الأولى، سواء كان بعضها أم جميعها أسطورياً، فإن الحوليات تسجل بدقة كثيراً من تلك المعاملات. ففى سنة ٥١ قبل الميلاد، على سبيل المثال، أهدى ٧٧ طاقم مفارش سرير لواحد من «دافعى الخراج» الغربيين. وبعد عامين تلقى نفس الكمية، بالإضافة إلى ١١٠ بدلات. وما إن استتب الأمن حتى زادت الأرقام بسرعة. فعلى سبيل المثال، تلقت إحدى عشائر الشيونج نو ٨ آلاف قطعة حرير مطرزة و ٦ آلاف رطل من الخيوط الحريرية سنة ٥١ قبل الميلاد.. وبعد ٥٠ سنة تضاعف هذان الرقمان إلى ٨٤ ألفاً و٧٨ ألفاً بالترتيب. وغالباً ما كانت السلع التى تأتى من قبائل البدو، كالفراء، تُصبغ أو تُصنع منها الملابس ثم تُرسل إلى الغرب.

وفى القرن الأول قبل الميلاد كان الصينيون يجدُّون فى استكشاف سبل الاتصال بممالك آسيا الوسطى. ولم تكن كل تلك الممالك مستعدة لممارسة التجارة بعيدة المدى، وهو مايبدو من المحاولات الصينية لشراء خيول فرغانة السماوية.. وحتى بعد ذلك النصر المدهش الذى حققه الصينيون على كوقند، ظلت بعض الدول المدن الواقعة وراء جبال البامير غير مقتنعة بالرغبة فى إقامة علاقات تجارية كبيرة مع الصينيين. وأحد جوانب المشكلة هو أن سهول تركمانستان الروسية كانت فى ذلك الوقت محل نزاع العديد من الجماعات السيثية. وعندما دخل اليويه تشى بلخ طردوا منها الساكى الذين استولوا على بقايا المملكة الهندويونانية فى شمال غربى الهند. إلا أن اليويه تشى أنفسهم كانوا يتعرضون لهجمات قبائل البدو الأخرى القادمة من السهوب.

وربما يكون هذا هو السبب الذى جعل الصينيين يتخذون تلك الخطوة غير العادية الخاصة بمحاولة فتح طرق تجارية، عبر جبال قره قورم وهندوكوش الوعرة، للوصول إلى الهند التى تجتذب الشرق والغرب. وفى ظل رغبة توسعية نادرة الحدوث فى تاريخها، كثيراً ما كانت الصين هى التى تخطب ود البلدان الأخرى فى ذلك العهد البعيد، ولم يكن النجاح حليفها فى كل الأحيان. ويحدثنا «تونج تشيان كانج مو» (مرآة تاريخ العالم)، وهو خلاصة للروايات القديمة التى كُتبت القرن الثانى عشر الميلادى، عن إحدى البعثات الاستكشافية الصينية التى أُرسلت سنة ٣٠ قبل الميلاد عبر الجبال شديدة الانحدار إلى الهند. وكان مقصد البعثة هو دولة تشى پن، التى لايُعرف موقعها على وجه الدقة. إلا أنها قد تكون فى كشمير أو أفغانستان:

عندما بدأ الاتصال بالغرب فى عهد الإمبراطور وو، رفضت مملكة تشى

بن وحدها الإذعان، ظناً منها أن جنود هان لن يصلوها أبداً. بل إن ملكها قتل العديد من المبعوثين الصينيين. وفى عهد الإمبراطور يوان [٤٨ ـ ٣٣ قبل الميلاد] أرسل ملك تشى بن سفارة لتقديم الاعتذار. إلا أن الإمبراطور لم يكن مهتماً بإقامة علاقات خارجية ورفض استقبالها. وبعد أن اعتلى الإمبراطور [تشنج، ٣٢ ـ ٧ قبل الميلاد] العرش، أرسلت سفارة أخرى تحمل القرابين والاعتذارات وتقرر [قبولها و] إرسال بعثة لتوصيل السفراء إلى بلادهم بكل تكريم.

ويرى البعض أن تشى بن ما هى فى الواقع إلا مملكة كوفين الهندويونانية، التى قامت فى إقليم كابول. وكانت الشعوب التى تحكم هناك هى الساكى، وهى قبائل البدو التى هزمت بلخ اليونانية ثم حل محلها اليويه تشى. فهل يحتمل أن يكون تغير المواقف الذى ذكرناه آنفاً راجعاً إلى أن من فى المنطقة من اليونان علّموا الساكى فوائد التجارة؟ هذا افتراض يستحق النظر.

وكان هناك تغير فى مواقف الصين أيضاً، مع تغير الإمبراطور. إذ كان هناك جرح لكبرياء الصين إن هى بدت وكأنها هى التى تسعى للاتصال، وخاصة أن لهذا الاتصال صفة تجارية صرفة. ويتضح ذلك فى حجج المستشارين الصينيين الخاصة بقبول طلبات مبعوثين تشى بن أو رفضها. ويقترح مسئول رفيع المستوى بالبلاط عدم إقامة علاقات تجارية كاملة فيما يلى:

الاتصال الودى بالأمم البربرية لايعد صائباً، إلا إذا كانت وسائل المواصلات على قدر معقول من السهولة. إن ممرات شينتو [هندوكوش] ستكون على الدوام عقبة فى سبيل إقامة علاقات مع تشى بن. وصداقة ذلك البلد قد لاتفيد المدن الغربية [تلك التى فى حوض التاريم] وحتى إذا صار عدواً فلن يضيرها فى شىء. وكنا نتعامل مع تشى بن بمودة فى بادىء الأمر، إلا أنهم آذونا. وهنا قطعنا علاقاتنا بهم. بل إن من يسمون بالسفراء الذين وصلوا إلينا ليسوا بالأشراف أو الرجال الذين يصلحون لذلك. فليسوا سوى تجار يريدون القيام بأعمال تجارية. وما هداياهم واعتذاراتهم إلا حجة. وإرسال سفارة رداً على ذلك لن يكون له معنى. إذ لن يكون ذلك إلا دليلاً على أننا خُدعنا.

ومن پى شان [قد تكون جبالاً تلى خوتان] يكون على مبعوثينا أن يعبروا أربعة أو خمسة بلاد، كل واحد منها به الكثير من اللصوص. ثم على المرء بعد ذلك أن يعبر جبال الصداع الكبرى والصغرى، وهى سلسلة من الصخور الجرداء الحارقة وسميت كذلك لأنها تسبب الصداع والدوخة والقىء. ثم يأتى بعد ذلك وادى سان تشى بان الضيق [ربما يكون ممر قره قورم] الذى يبلغ طوله ثلاثين لى، وحيث يكون عرض الممر ١٦ أو ١٧ بوصة فقط، على حافة جبل شديد الانحدار، لابد فيه من ربط المسافرين ببعض بالجبال. ومن هذا المكان وعبر شينتو تقع مسافة ٣ آلاف لى أو يزيد من الطريق حافلة بالمخاطر.

إن الملوك الأقدمين الحكماء كرسوا جهدهم للأقاليم التسعة والمناطق الخمس المركزية ولم يعطوا أى انتباه لما هو خارجها. ومع ذلك فهناك من يقترح الآن إصدار أمر بمرافقة هؤلاء التجار البرابرة إلى بلادهم، وهو ما سوف الذى يعرّض الجنود والمبعوثين الإمبراطوريين لمشاق ومخاطر لا حدود لها. وهذه الأعمال التى لا طائل من ورائها لا ينبغى أن تكون سياسة أسرة تتسم بالجلد والمثابرة. وإذا كان الضباط والمرافقون قد عينوا بالفعل، فلا ينبغى أن تتعدى مرافقتهم لأهل تشى پن جبال پى شان.

اتفق رئيس الوزراء مع وجهة النظر هذه. وتمضى الوثيقة قائلة: «وهكذا سُمح لهم [مبعوثو تشى پن] بالتجارة وعادوا محملين بالهدايا. وبعد ذلك كان مبعوثون من تشى پن يصلون الصين كل بضع سنوات». ولا سبيل إلى التكهن بأن مبعوثى تشى پن كانوا تجاراً يونان اضطُروا إلى عبور جبال قره قورم الشاهقة وتحملوا مشقة الارتفاعات الشديدة، لأنهم مُنعوا من استخدام طريقهم القديم السهل عبر بلخ.

وهكذا عرفت حراير الصين طريقها عبر مسالك آسيا الوسطى الملتوية، ليتلقاها التجار على الطرق القديمة المتجهة إلى إيران وبلاد مابين النهرين. وكان البارثيون، الذين استمرت اتصالاتهم بالصينيين عبر سهول تركستان المضطربة ما أمكنهم ذلك، يهفون إلى حراير الصين الفريدة، لأنفسهم ثم للمشترين الغربيين الذين آثروا بارثيا. ويأتى الرومان فى مقدمة هؤلاء المشترين.

الفصل السادس

السلسلة العظيمة

الـ«سيريس» مشهورون بالمنتج الوبرى الذى يخرج من غاباتهم. ذلك الخيط الأصفر الذى يجدونه نامياً على أوراق الشجر فيبللونه بالماء ثم يمشطونه. وهم بذلك يقومون بعمل مزدوج من أجل نسائنا، حيث يُعدون الخيوط فى أول الأمر ثم ينسجونها لتصبح أقمشة حريرية. وتتضاعف المشقة حين يكون من الضرورى نقله بين طرفى الأرض: كل ذلك كى تعرض سيدة رومانية سحرها فى قماش غزى شفاف.

بلينى الأكبر

«التاريخ الطبيعى»
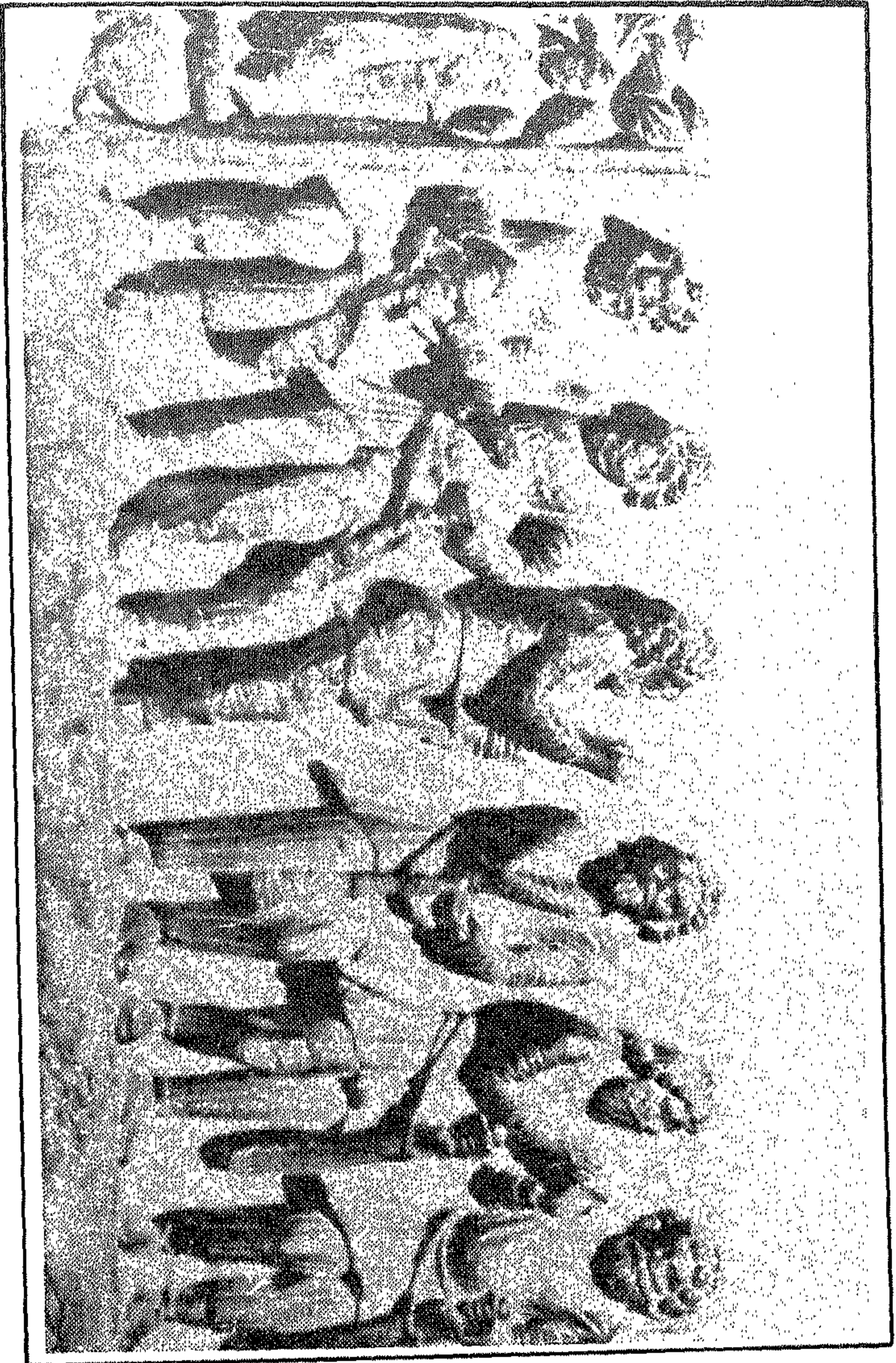
كان هؤلاء الميديون، مثلهم مثل أقاربهم الذين لم يغادروا موطنهم فى السهوب، يرتدون السراويل والمعاطف القصيرة التى تناسب الفرسان. (قندهار، من متحف أونتاريو الملكى).

كان الحرير فى بادىء الأمر بمثابة صدمة للرومان القدماء الذين كانوا قوماً من الفلاحين والمقاتلين ذوى طباع خشنة. وفى معركة كبرى مع البارثيين فى حران سنة ٥٣ قبل الميلاد ارتبك الرومان تماماً عندما نشر البارثيون، الذين يتفوقون عليهم برماتهم الأقوياء، راياتهم الحريرية المصبوغة ذات الألوان الزاهية، إذ يبدو أنها المرة الأولى التى ترى فيها القوات الرومانية الحرير. وكان التأثير مدمراً. فسرعان ما انهارت محاولة الرومان تقليد انتصارات الإسكندر فى آسيا. وحُملت النسور الرومانية، وهى شعارات الفيالق الرومانية المهزومة، إلى الهضبة الإيرانية لتزيين القصور البارثية على طريق الحرير.

وكان الحرير بالنسبة للرومان رمزاً لانحطاط الشرق الخلقى. وربما تدين كليوباترا، آخر حكام سلالة البطالمة فى مصر، بشىء من شهرتها كامرأة جذابة إلى ميلها الشديد لارتداء الحراير الفاخرة. وربما يكون ذلك ملبساً أشد جرأة وإغراء مما قد يبدو فى بادىء الأمر. فكثير من حراير تلك الأزمنة القديمة كانت شديدة الشفافية، حتى أن الهنود أطلقوا عليها «الريح المنسوجة». ولم تكن كالأشكال اللاحقة الأثقل وزناً، كالساتان[١] والدمقس[٢] والديباج[٣]، أو حتى أقمشة العصر الحديث الخفيفة التى تقل عنها شفافية.

ويبدو أن الحرير الشفاف، أو شبه الشفاف، كان يُلبس فى الصين منذ قرون بعيدة. وروى تاجر عربى ذهب إلى الصين أنه لاحظ وجود علامة على صدر ضابط فى قصر الإمبراطور يرتدى ملابسه الكاملة. وكانت العلامة تُرى بوضوح من خلال ثنيات ما لايقل عن خمسة أثواب. وذكر هذا التاجر أن تلك كانت «حراير من الدرجة الأولى التى لم ترد قط إلى بلاد العرب». أما الأقمشة التى كانت تُلبس فى غرب آسيا فتبدو على درجة كافية من الخفة والشفافية. ويشكو بلينى فى كتابه «التاريخ الطبيعى» من شفافية قماش من الحرير الرى الأقل جودة يُنتج فى غرب آسيا، وإن كان يلفت النظر إلى المرأة التى يرجع إليها الفضل فى اختراع عملية تجهيز ونسج هذه الخيوط: «دعونا لا نحرمها المجد الذى حققته باختراعها طريقة تجعل النساء كاسيات عاريات».

وفى منتصف القرن الأول قبل الميلاد كان الحرير مايزال شديد الندرة فى الغرب. وربما

---

(١) يسمى أيضاً «أطلس». وهو قماش ذو تركيب نسجى محكم الضم، له سطح لامع وظهره باهت اللون. وكان قديماً يصنع من الحرير. (المترجم).

(٢) اشتهرت بنسجه مدينة دمشق وهو منسوب إليها. والدمقس من المنسوجات الزخرفية وله سداة واحدة ولُحمة واحدة، كلاهما من لون واحد أو لونين بحسب درجة الوضوح اللازمة للزخرفة. (المترجم).

(٣) من المنسوجات المزركشة والموشاة بخيوط الذهب والفضة ويستعمل فى نسجه سداة واحدة وأكثر من لون فى اللُحمة للزخرفة غالباً مايكون ضمنها خيوط الذهب والفضة. (المترجم).

قطع الصينيون نصف الطريق عبر آسيا كى يفتحوا النصف الشرقى من طريق الحرير. إلا أن الطريق الذى يبلغ طوله ٥ آلاف ميل ظل طويلاً وشاقاً. وفى ظل قتال الشعوب الواقعة على الطريق من أجل السيطرة على جزء من هذا الشريان العظيم الذى يقطع آسيا، كانت كميات ضئيلة من هذا القماش الرقيق تصل غرب آسيا. وبخلاف عدد قليل من الشخصيات البارزة مثل كليوباترا، كان أغنى أغنياء الرومان وأكثرهم نفوذاً يلبسون قطعاً صغيرة من الحرير على هيئة أشرطة أو دوائر أو مربعات يخيطونها فى عباءاتهم البيضاء المصنوعة من الصوف أو القطن أو الكتان. وإذا صُبغت تلك القطع الحريرية الصغيرة باللون الأرجوانى أو طُرزت بخيوط الذهب والفضة كانت تكلفتها تزيد أربعين ضعفاً. وليس غريباً أن الحرير المصبوغ كان يُستخدم كدليل على رفعة المكانة، بسبب تكلفته وندرته. لذلك كان اللون الأرجوانى على أطراف إحدى العباءات دليلاً على أن من يرتديها ينتمى إلى طبقة النبلاء. كما أن الأشرطة القرمزية والأرجوانية كانت تميز عرَّاف البلاط ذا المكانة الرفيعة.

وكانت قطع الحرير تلك تمثل استثماراً غير عادى، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا تكلفة جلب البضائع عبر آسيا وما يحيط بذلك من مصاعب. والواقع أن الرومان أنفسهم كانوا مسئولين عن بعض الاضطرابات السياسية التى شهدها طريق الحرير فى تلك الفترة. فقد وضعوا أقدامهم فى آسيا منذ سنة ١٩٠ قبل الميلاد، عندما هزموا اليونان السلوقيين فى معركة ماغنزيا على ساحل الأناضول الغربى. إلا أنه خلال جزء كبير من القرن الثانى قبل الميلاد كان الرومان مشغولين بحروبهم الفينيقية غربى البحر المتوسط، حيث تركز اهتمام إمبراطوريتهم عليها فى تلك الفترة. ولم يبدأ الرومان فى التحرك شرقاً من البحر المتوسط حتى أواخر القرن، حيث كانت بارثيا تنطلق من الهضبة الإيرانية فى اتجاه الغرب.

كان الموقف كالتالى: بينما كانت الصين تؤمِّن نصف طريق الحرير الشرقى نسبياً، أخذ نصفه الغربى يتحول إلى ساحة قتال. وظلت روما وبارثيا تتعاقبان الضغط على بقايا الإمبراطورية السلوقية المترهلة حتى حُصر الأمراء السلوقيون بحلول سنة ٧٤ تقريباً فى عدة مدن قريبة من الطرف الغربى لطريق الحرير. وبعد ذلك قُضى عليهم تماماً. وبين القوتين الأعظم كانت تقوم دول صغيرة كثيرة وتسقط. وفى بعض الأحيان كانت تابعة لإحداهما، كما فى أرمينيا والصحراء السورية.

وكانت أول مواجهة كبرى بين الرومان والبارثيين سنة ٥٣ قبل الميلاد عند حران. وكان الرومان مازالوا يعيشون نشوة انتصاراتهم الكبيرة فى أماكن أخرى حول البحر المتوسط، مما

جعلهم يبدون قدراً أقل من الاحترام لمن اعتبروهم برابرة، كما فعل اليونان من قبلهم. لقد كانوا يشعرون بذلك الاحتقار التقليدى الذى يكنه الفلاح أو ابن المدينة لهؤلاء القوم أشباه البدو ذوى الشعور الطويلة الذين يرتدون السراويل الفضفاضة والسترات ذات الأكمام الطويلة ويعتمدون فى حياتهم على خيولهم. ولم يحدث قبل اللقاء الأول أن أبدى الرومان قدراً كبيراً من الاحترام لبسالة البارثيين فى القتال. فهم لم يتخيلوا أن الجنود المشاة الذين يسيرون فى صفوف متقاربة، وسبق أن أقاموا لهم إمبراطورية فى أوروبا وهزموا السلوقيين، قد يصبحون فى الموقف الأضعف أمام هؤلاء الخيالة الأجلاف.

ولكن ذلك قبل أن يلتقى الرومان بالفرسان البارثيين، الذين كان بعضهم فرساناً يلبسون الدروع كالفرسان الأوروبيين فى العصور اللاحقة والبعض الآخر أقل تسليحاً ولكنهم رماة فى غاية الروعة. هؤلاء الرماة البارثيون كانوا على قدر كبير من القوة فى استخدام القوس، حتى أنهم كانوا فى بعض الأحيان يصيبون جنديين بسهم واحد وكانوا بالفعل يثبتون الجنود فى دروعهم. بل إنهم أتقنوا أسلوباً يُسمى الرمية البارثية (والحقيقة أنها كانت منتشرة بين فرسان آسيا الوسطى) وهو أن يبتعد الرماة وكأنهم ينسحبون، وفجأة يستديرون ليطلقوا سهاماً قاتلة من فوق أكتافهم. ولم يكن لدى الرومان أى أمل فى نفاد ذخيرة البارثيين، فقوافل الجمال المحملة بالسهام كانت موجودة فى المؤخرة. وخلاف ذلك كان هناك ذلك الصوت الذى يصم الآذان والصادر عن الطبول الجلدية الضخمة ذات الأجراس المستخدمة فى تشجيع الجيش البارثى. هذا طبعاً إلى جانب الرايات الحريرية ذات الألوان الزاهية.

كانت هذه التركيبة بمثابة الكارثة للرومان. أما القائد الرومانى كراسوس، الذى رأى فى منامه أنه يسير على خطى الإسكندر، فقد وقع فى كمين وقتل وأُرسل رأسه إلى الملك البارثى. وقُتل فى المعركة أيضاً مايربو على ٢٠ ألف جندى رومانى وأُسر ١٠ آلاف آخرون يُعتقد أنهم نقلوا شرقاً إلى مرو.

ويعد المصير المحتمل لهؤلاء الأسرى واحداً من أغرب قصص طريق الحرير. وجمع عالم الصينيات هومر دبس أدلة تؤدى إلى افتراض ذكى ومعقول بشأن مصير بعضهم. ففى سنة ٣٦ قبل الميلاد، أى بعد ١٧ سنة من معركة حران، فرضت القوات الصينية حصاراً على معسكر ذى أسوار للشيونج نو فى بلاد الصُغد قد يكون على نهر تالاس. ومن بين كل الحصارات الأخرى التى سجلها التاريخ الصينى، لوحظ أن هذا المعسكر والخندق الدفاعى

المحيط به كان يحميهما سياج مزدوج من الحراب الخشبية، وهو أسلوب غير معروف فى الشرق. يضاف إلى ذلك أن «حوليات أسرة هان السابقة» تروى لنا أن «أكثر من مائة جندى مشاة كانوا يصطفون على جانبى البوابة فى تشكيل قشر السمك». وهذا أيضاً بعيد جداً عن أسلوب آسيا الوسطى فى القتال، إذ كان أقرب للاندفاع الجماعى منه للمناورة المنظمة. ولم تذكر الحوليات الصينية فى أى موضع آخر شيئاً عن «تشكيل قشر السمك» هذا. غير أن التشكيل الرومانى الذى يسمى testudo (الساتر الترسى)، حيث يقف الجنود بجانب بعضهم فى صفوف متقاربة ويضعون تروسهم فوق رؤوسهم لتشكل جداراً دفاعياً، قد يبدو أيضاً لمن يقف بعيداً عنه أشبه بقشر السمك.

وعندما انتهت المعركة لمصلحة الصينيين قُتل قائد الشيونج نو. وذكر الصينيون أنهم أسروا المستسلمين، وكانوا يزيدون على ألف رجل، حيث وُزعوا على عدة أماكن كعبيد. إلا أنهم عادوا إلى الشرق بـ ١٤٥ أسيراً حياً. ويفترض دبس أن هؤلاء الجنود الـ ١٤٥ كانوا من الرومان الذين فروا من البارثيين ولم يتمكنوا من العودة إلى الأراضى الرومانية فعملوا كمرتزقة لدى الشيونج نو. وعندما قُتل من استأجرهم، توقفوا عن القتال (لم يستسلموا) وآثروا اتباع الصينيين على الهلاك فى السهوب التى لم يألفوا العيش فيها.

ويبدو أنه سُمح لهؤلاء الجنود الذين «ضاقوا بصخب المدينة» بأن يقيموا مدينة حدودية فى قلب ممر كانسو (وكان يسعد الصين دائماً أن يكون لديها قوات إضافية تحمى حدودها). والشىء المثير فى هذه المدينة أنها كانت تسمى لى كان. وكان هذا من أقدم الأسماء التى أطلقتها الصين على الأراضى الواقعة وراء بارثيا. فهذا هو الاسم الصينى لموطن الحواة الذين جُلبوا كهدايا من البارثيين قبل ستة عقود خلت، أى حوالى سنة ١٠٠ قبل الميلاد. وإطلاق اسم الرومان على المدينة يتناسب مع التقليد الكونفوشى الخاص بجعل الاسم متناسباً مع الشىء. ولم يطلق الصينيون أسماء أجنبية على المدن، إلا إذا كان من يقيمون بها من الأجانب.

لذلك يبدو أن الجنود الرومان، الذين وُلد بعضهم فى إيطاليا أو بلاد الغال، وربما سبق أن شاهدوا قيصر أو بومبى يسير مزهواً بنصره فى شوارع روما، أمضوا بقية حياتهم فى مدينة على حدود الصين وتزوجوا نساء محليات وذابوا شيئاً فشيئاً فى سكان البلاد. وجاء ذكر مدينة لى كان لآخر مرة فى القرن السابع الميلادى. وربما ظلت قائمة حتى سنة ٧٤٦ ميلادية، عندما اجتاحها أهل التبت الذين دمروا معظم المستوطنات التى فى المنطقة.

وبغض النظر عن مصير الأسرى الرومان من معركة حران، لم يستوعب القادة الرومان الدرس الذى لُقنوه هناك. فبعد عقد واحد كان يوليوس قيصر يجهز حملته الشرقية لاستعادة شعارات الفيالق الرومانية المهزومة (ومعها شرف روما). إلا أن اغتياله[١] قضى على خطته وألقى بروما فى أتون حرب أهلية. وفى سنة ٣٦ قبل الميلاد خرج مارك أنطونيو، وهو أحد قادة معركة السيطرة، فى حملة شرقية. إلا أنه أحرز نجاحاً لم يزد كثيراً عما حققه كراسوس. فعندما قصد إيكبتانا لم تكن هزيمته على يد البارثيين وحسب، وإنما بسبب نقص المؤن فى فصل شتاء قارس فى المرتفعات. وفى نهاية الأمر عاد إلى مصر، ليجد السلوى بين ذراعى كليوباترا اللتين يكسوهما الحرير.

ويتساءل البعض عما إذا كان بمقدور أنطونيو السيطرة بجيشه القوى على الإمبراطورية، إن هو لم يخسر فى آسيا، أم لا. إلا أن الحرب الأهلية انتهت بتحويل الجمهورية الرومانية إلى إمبراطورية موحدة بزعامة أوكتافيان أغسطس[٢]، بعد هزيمة أنطونيو وكليوباترا فى أكتيوم سنة ٣١ قبل الميلاد. وهكذا بدأ السلام الرومانى Pax Romana، وهى الحقبة العظيمة فى الإمبراطورية الرومانية.

وكان أغسطس هو من استعاد الشعارات الرومانية الغالية، أو «النسور المفقودة»، من بارثيا. ولم يتم ذلك بالقتال وإنما بالمفاوضات. فبعد أن أسر الرومان ابن الملك البارثى بادلوه بالشعارات سنة ٢٠ قبل الميلاد. وفيما عدا ذلك، نصت معاهدة السلام بين القوتين على أن يقيم أربعة من الأمراء البارثيين فى روما كرهائن دبلوماسيين. وهناك كانوا من نجوم المجتمع المعروفين. وكانوا كثيراً ما يظهرون فى المسرح أو وهم يقودون عرباتهم فى المدينة مع أصدقائهم الرومان، ومنهم الشاب كاليجولا.

وظلت روما فى سلام مع بارثيا فترة من الزمن. إلا أن الحرب الباردة ظلت قائمة بينهما. ويتجلى ذلك فى تنافسهما المستمر على احتواء الدول الصغيرة فى المنطقة، وبالأخص أرمينيا والدويلات العربية فى سوريا. إلا أنه فى عهد أغسطس المديد[٣]، وعهد

---

(١) أُغتيل يوليوس قيصر يوم ١٥ مارس سنة ٤٤ قبل الميلاد حيث قال قولته الشهيرة: «حتى أنت يابروتس؟»، وكان طموح يوليوس قيصر الزائد هو الذى دفع الجمهوريين إلى قتله. وتميز يوليوس قيصر بفطنته وذكائه وديناميكيته. كما كان خطيباً مفوهاً وكاتباً، وله كتابان وصلا إلينا هما «عن الحرب الغاليّة» و«عن الحرب الأهلية». (المترجم).

(٢) خلف يوليوس قيصر واصبح أول إمبراطور رومانى سنة ٢٩ قبل الميلاد، واسمه الأصلى هو جايوس أوكتافيوس وتضمنت وصية يوليوس قيصر تبنيه له فأصبح اسمه الرسمى هو جايوس يوليوس قيصر. أما أوكتافيان فهو الاسم الذى أطلقه عليه المؤرخون المحدثون. وكان فى سنة ٣١ قبل الميلاد قد هزم أوكتافيان مارك أنطونيو فى موقعة أكتيوم ودخلت جيوشه المنتصرة الإسكندرية وبذلك دخلت مصر رسمياً تحت حكم الرومان سنة ٣٠ قبل الميلاد. (المترجم).

(٣) من ٢٧ قبل الميلاد إلى ١٤ بعد الميلاد. (المترجم).

الإمـبراطـورين اللذين خلفـوه، ساد السـلام الطرف الغـربى الأقـصى من طريق الحـرير. ويتحدث مراقب معاصر، وهو فيليوس پاتركولوس، عن أمراء رومان وبارثيين يتنزهون معاً على ضفاف نهر الفرات، وهو الحد الفاصل بين الإمبراطوريتين:

على إحدى الجزر فى نهر الفرات التقى جايوس [حفيد أغسطس] مع ملك البارثيين، وهو شاب ذو مظهر متميز. وكانت تصحبهما حاشيتان متماثلتان. وكان منظر الجيش الرومانى المرابط على جانب والجيش البارثى على الجانب الآخر، فى الوقت الذى يلتقى فيه هذان القائدان البارزان اللذان لا ينتميان إلى الإمبراطوريتين اللتين يمثلانها فحسب وإنما إلى البشرية جمعاء، من أسعد المناظر التى رأيتها فى مطلع حياتى كجندى... تناول البارثى الغداء أولاً مع جايوس على الضفة الرومانية، ثم تناول جايوس العشاء مع الملك على أرض العدو.

وضع هذا السـلام حـداً للحـروب التى اسـتنزفت روما وأدى إلـى زيادة الطلب على نفائس الشـرق الجديدة، وبعـد أقل من عشـر سنوات من معركـة حران، حـيث شوهدت الرايات الحريرية ذات الألوان الزاهية لأول مرة، كانت هناك رايات مـثلها ترفرف فوق روما نفسها لتكريم يوليوس قيصر العائد مـن أحد انتصاراته الكثيرة. ومع عودة السلام من جديد كانت لدى قادة الإمبراطورية التى اتسعت أطرافها رغبة فى الحصول على نصيبهم من حراير الشرق وتوابله وجواهره. فالرومان الذين كانوا يتمـيزون من قبل بالبساطة باتوا يسعون إلى أن ينعموا بأسلوب الحياة الشرقى الذى يتميز بالثراء.

وفى الشرق استمر الصينيون فى التجارة عبرالقارة مع بارثيا. وليس هناك ما يوضح إن كان التجار أو المبعوثون الصينيـون قد تعدوا بارثيا إلى الأراضى الرومانية أم لا. ومن المؤكد أن موارد بارثيا كانت تعـتمد على تحكمها فى طريق الحرير. وظل البـارثيون قروناً عديدة، ربما تبدأ من ذلك الوقت، يمنعون الآخرين من عبور أراضيهم كى يحتفظوا بأرباح الوسطاء لأنفسهم. ويبدو أن الحوليات الصينية تشير إلى أنه حتى أواخر القرن الأول الميلادى لم يتعد مبعوث رسـمى لأسرة هان حدود بارثيا. ولكن ربما نجح بعض المبعوثين غيـر الرسميين من الصين وآسيـا الوسطى فى العبور إلى الأراضى الرومانيـة فى سنوات الإمبراطورية الأولى، فى محاولـة منهم لتوسيع تجارتهم. وبعـد قرنين كتب المؤرخ الرومانى فلوروس مـا يحمل الكثير من الدلالات من خلال ثنائه على السلام الرومانى فى عهد أغسطس:

بل إن سائر شعوب العالم التى لم تكن خاضعة للإمبراطورية كانت تدرك عظمتها وكانت تنظر باحترام إلى الشعب الرومانى، قاهر الأمم الكبرى. وحتى السيث وأهل سارماتيا أرسلوا مبعوثين طلباً لصداقة روما. كما أن الصينيين جاءوا للغرض نفسه. وكذلك فعل الهنود الذين يعيشون تحت الشمس الرأسية، حيث جاءوا بهدايا من الأحجار الكريمة واللؤلؤ والأفيال غير آبهين بطول الرحلة التى قطعوها وقالوا إنها استغرقت أربع سنوات. والواقع أن الأمر لايحتاج سوى النظر إلى بشرتهم لترى أنهم أناس ينتمون إلى عالم غير عالمنا. وأعاد البارثيون على الفور الشعارات التى كانوا قد استولوا عليها فى كارثة كراسوس، وكأنهم يكفّرون عن تجرؤهم على هزيمة الرومان. وهكذا أحاطت بالمعمورة دائرة متصلة من السلام، أو على الأقل المهادنة.

وخلال هذه الحقبة القصيرة من السلام، كان البارثيون يجدون سعادة بالغة فى تزويد الرومان بالنفائس التى يطلبونها. وظل اليونان والسوريون والأرمن، وغيرهم ممن كانوا يعملون كتجار على طريق الحرير فى عهد السلوقيين، مواطنين مكرمين فى ظل حكم البارثيين. وكان البارثيون يدركون قيمة سيطرتهم على طريق الحرير إلى حد كبير. ولأنه لم يكن هناك طريق بديل يعادله فى المنطقة، بينما يحتكرون هم هذا الطريق، كانوا يفرضون رسوماً كبيرة على البضائع التى تمر فى أراضيهم. وكانت تلك الرسوم تشكل جزءاً كبيراً من موارد دولتهم.

***

يبدو أن التجار الذين كانوا يترددون على طريق الحرير فى عهد البارثيين واصلوا التقليد الخاص بتوزيع أدلة للمسافرين توضح لهم المحطات الرئيسية أو مراكز تجمع القوافل، التى يمكنهم أن يجدوا فيها مأوى أثناء السفر، بالإضافة إلى المسافات التى تفصل بين كل منها وكذلك أى معالم بارزة يمكن رؤيتها على الطريق. ولم تكن هذه الأدلة مفصلة وإنما ملاحظات مختصرة للتجار والمسئولين. وأبقت الصدفة على أحد هذه الأدلة ويحمل اسم «المحطات البارثية» وهو من وضع شخص يدعى ايزيدور من ميناء كاراكس. وهو الذى أتاح لنا تحديد القطاع الغربى من طريق الحرير فى عهد يوليوس قيصر. وفى تلك الفترة كانت أنطاكية عاصمة السلوقيين القديمة هى العاصمة الرومانية للأقاليم الآسيوية الغربية. وكانت تحتفظ بكل ما كان لها من عظمة وبهاء فى الماضى.

يبدأ الطريق عنـد ايزيدور من زوغما، مـعبر الفـرات القديم، ويمضى من هناك عـبر القرى الصغيـرة العديدة، فإن كانت إحداها محـصنة وبها بئر ماء صالح للشـرب استحقت الذكر، ليصل إلى مـدينة سلوقية التى تتقاطع عندها الطرق. (هذه المدينة سـرعان ما غطت عليها طيـسفون مدينة البارثيين التى أقيمت بالقرب منها). وبعد ذلك كـان الطريق يصعد بالمسافرين عبر أراضى الميديين ماراً بإيكبتانا، «حاضرة الميديين»، ذات المعبد المميز والخزانة. وبعـد ذلك كـانت تقع الرى، «أعظم مـدن الميـديين»، والوادى الضـيق الذى يُطلق عليـه البوابـات القزوينيـة ويقع أسفل جـبل مرتفع. وعلى طول الطريق، عـبر سـهول جـرجان وماوراءها، لاحظ ايزيـدور وجود قرى ومـدن كثيـرة، تتفق مع وصف الإقليم كـما أورده الزوار الصينيون الأوائل قبل قرن من ذلك. ويقل عدد القرى فى المنطقة الواقعة فى الشرق. وفى مرو على سبيل المثال، التى يفترض أن الأسرى الرومان أُقتيدوا إليها بعد حران، لاحظ ايزيدور أنه رغم توافر المـاء فى المحطة، لم تكن هناك قرى بالقرب مـنها. ومن هذا المكان يفتـرق الطريق الذى يصفه إيزيدور عن الطريق المـتجه شرقـاً والمألوف فى العصور السـابقة واللاحقـة. فبدلاً من الاتجـاه إما إلى بلخ أو أقاليم فـرغانة، كان الطريق يسـير فى أراضى بارثيا الشرقية الأشد جدباً على امتداد سلسلة جبال تصل إلى الهند.

والصورة التى لدينا عن الأراضى الـواقعة بالهضـبة الإيرانية وحـوض التاريم فى تلك الفتـرة ليست واضحـة بالقدر الكافى. فبـينما كان الرومـان يخوضون حـربهم الأهلية فى الغرب، كـانت جماعات عـديدة من بدو آسيا الوسطى تتصـارع على هذا الجزء الأوسط، وهو مايبدو أنه السـبب فى جعل الطريق المباشر إلى الشـرق صعباً وخطيراً. واعـتماداً على خط سير إيزيدور، يبـدو أن البارثيين اعتادوا السفـر إلى الجنوب الشرقى للإتجار مع الهند. ومن المعلومات الطـريفة فى هذا الخصـوص أنه فى عهد أغـسطس، الذى امتد إلى عـصر التقـويم المسيحى، كـان حاكم إحـدى الإمبراطوريات فى شـمال غربى الهند مـلكاً يسمى جوندوفارنيس، ويُعتبر فى الأساطير المسيحية واحداً من «حكماء الشرق الثلاثة» الذين جاءوا لزيارة المسيح فى بيت لحم[١].

وفى الشرق استمر الصينيون فى توسيع تجارتهم المتـجهة غرباً، حيث افتتحوا فى السنة الثانية الميلادية تقريباً طريقهم الجديد إلى الشرق، مما أدى إلى تقصير المسافة بين بوابة اليشب ومراكز القوافل فى منطقة تورفان والشمال.

---

(١) جاء فى إنجيل متى: «ولما وُلد يـسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودُس الملك إذا مجـوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود». (المترجم).

ومما يؤسف له أنه بينما كانت الصين توسع اتصالاتها عبر القارة، أصبحت أسرة هان على قدر كبير من الضعف فى الداخل مما أدى إلى إقصائها عن الحكم سنة ٩ ميلادية حين استولى وانج مانج على العرش. إلا أن المشاكل المتوالية، فى صورة الجفاف والمجاعة ثم الفيضانات الشديدة التى غيرت شدتها مجرى نهر هوانج، قضت على جهوده لحكم البلاد. وكانت نهاية حكم وانج مانج سنة ٢٥ ميلادية على يد جيش من الفلاحين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الحواجب الحمراء[1]، إشارة إلى لون الطلاء الذى استخدموه لتمييز أنفسهم. وقام هؤلاء بنهب مدينة تشانج آن المعرضة دائماً للهجوم. وأُعيدت أسرة هان للحكم، حيث أُطلق عليها هان اللاحقة (أو الشرقية) مقابل أسرة هان السابقة (أو الغربية) وبدأت تحكم من العاصمة الجديدة لويانج.

إلا أنه خلال فترة تزيد قليلاً على العشر سنوات انهارت كل الأعمال التى قامت بها الصين فى حوض التاريم. وعندما أحس الشيونج نو بضعف عدوهم القديم شنوا هجوماً شرساً على حدود الصين الشمالية. وثارت العديد من الدول الواحات فى التاريم وحصل بعضها على استقلال مزعزع. إلا أن معظمها اُضطر لدفع الخراج للشيونج نو فى الشمال، أو للغزاة التبت الذين أثاروا القلاقل فى جزء كبير من ممر كانسو. واستقرت بعض أقوام الشيونج نو داخل سور الصين العظيم فى الممر نفسه، مما تسبب فى معاناة الصينيين. ولكن الصين احتفظت ببعض الحلفاء، وخاصة يرقند، فى أقصى التاريم. وماعدا ذلك لم يكن إلا قفاراً. بل إن المُدافع العام عن الأراضى الغربية (وهو منصب استُحدث سنة ٥٩ قبل الميلاد) قُتل فى الثورات التالية. وكما تشير الحوليات الصينية، «تحطمت المناطق الغربية وتناثرت كالآجُر غير المتماسك». ولم تستعد الصين سيطرتها على حوض التاريم إلا بعد عشرات السنين.

***

ظلت بعض الحراير تصل إلى الغرب عبر القارة، خاصة فى أعقاب ظهور الرومان بعد فترة قصيرة جداً كأسواق متعطشة لهذه النفائس. إلا أن تكاليف التجارة كانت باهظة وكانت الواردات التى تصل عبر القارة محدودة. وخلال الفترة المضطربة من حكم وانج مانج، على سبيل المثال، لم يتلق أحد شركاء الصين فى تجارة «الخراج»، وهى قبيلة من الشيونج نو تُسمى شان يو، إلا ثُمن ماكان يتلقاه من الحراير المطرزة وخيوط الحرير التى كان يتلقاها قبل

(١) كانت هناك أيضاً جماعات شينشى وبينجلين والخيول البرونزية. (المترجم).

عشر سنوات أو نحو ذلك. وفى غياب الدرب الآمن، فُقد الكثير فى الطريق حيث استولى عليه المغيرون الذين لم تستهوهم عائدات التجارة طويلة المدى. وفى غياب السلطة المركزية التى يفضلها التجار، اضُطروا إلى دفع ضرائب ورسوم مرتفعة لكل دويلة يمرون فيها وهم متجهون شرقاً. وكانت النتيجة انخفاض معدل تدفق الحراير من الشرق، فى حين كانت رغبة روما فى الحصول عليها تزداد يوماً بعد يوم. واستغلت بارثيا «سوق المشترى» لتحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح.

وفى ظل هذه الظروف شرع أغسطس قيصر فى محاولة البحث عن طرق بديلة إلى الشرق، كى يحصل على المزيد من الحراير وغيرها من السلع المطلوبة، وبتكلفة أقل. وكان الطريق الواقع شمال بحر قزوين أو عبره يعانى من نفس المشاكل التى يعانى منها طريق الحرير. لذلك لجأ إلى البديل الطبيعى، وهو طريق التوابل. والمعروف أن الهنود ظلوا زمناً طويلاً يبحرون فى المياه الواقعة جنوبي آسيا لمقايضة منتجات البلاد البعيدة الواقعة فى الطريق. وبحلول أواخر القرن الثانى قبل الميلاد، كان اليونان أيضاً قد بدأوا الإبحار من مصر إلى الهند للمشاركة فى الثروة بصورة مباشرة. وكان الرومان يدركون جيداً أن النفائس والثروة ترد من طريق التوابل، تلك النفائس التى ظلت زمناً طويلاً ترد من طريق البخور فى الجزيرة العربية أو البحر الأحمر إلى البتراء وغيرها من مدن القوافل أو إلى الإسكندرية. وكانت القوافل التى تسير على هذا الطريق كبيرة الحجم، مما جعل الجغرافى اليونانى الرومانى سترابو يعتقد أنها أقرب إلى الجيش.

جعل أغسطس الإسكندرية مركز التجميع الرئيسى للنفائس الشرقية المنقولة بالبحر إلى روما. واستمر اليونان فى السفر على طريق التوابل الذى أصبح تحت إشراف الرومان. وقد أشاد بهم شعراء الموانىء الهندية الجنوبية. وتحدث أحدهم عن «سفن اليافانا [اليونان] الضخمة الجميلة التى تجلب الذهب وتحدث الزبد الأبيض على الماء... وتعود محملة بالفلفل». ويقول شاعر آخر:

... يؤتى بأكياس الفلفل من المنازل إلى السوق. أما الذهب الذى يحصلون عليه من السفن، مقابل السلع المباعة، فيأتون به إلى الشاطىء فى القوارب... حيث لا تتوقف موسيقى البحر الهائج وحيث يقدم [الملك] للزوار المنتجات النادرة من البحار والجبال.

ولم تكن لدى أغسطس قيصر الرغبة فى المشاركة فى هذه التجارة مع العرب أو دفع نصيب الوساطة لهم. وكان سترابو شديد الوضوح فيما يتعلق بهذه النقطة:

كان العرب... معروفين منذ أقدم العصور بأنهم أهل ثراء، حيث كانوا يبيعون توابلهم وأحجارهم الكريمة بالذهب والفضة دون أن يعطوا شيئاً مما حصلوا عليه للأجانب. ولهذا السبب كان [أغسطس] يتمنى استغلالهم كأصدقاء أثرياء أو يقهرهم كأعداء أغنياء.

والحقيقة أنه جرّب الطريقتين. ففى أول الأمر انتهج الأسلوب العسكرى، إلا أن العرب تمكنوا من اللعب بالرومان فى الصحراء إلى أن أقرت فيالقهم بالهزيمة. ولكن الرومان نهبوا الميناء الرئيسى فى طريق البخور، وهو عدن، ودمروه. مما أدى إلى انتقال طريق التوابل إلى نقطة أبعد شمالاً على البحر الأحمر عند الموانىء الخاضعة للرومان مثل إيلة عند رأس خليج العقبة. وشيئاً فشيئاً استولوا على مدن القوافل الواقعة إلى الشمال من إيلة وأقاموا الحصون وحفروا الآبار على طول طرق القوافل القديمة. وفى نهاية الأمر كان الطريق يمتد من إيلة ماراً بالبتراء ثم يتجه شمالاً إلى دمشق ومدينة تدمر العربية شبه المستقلة وبعدها يقطع هضبة الأناضول إلى طرابزون على البحر الأسود.

وعندما كان طريق الحرير شبه مغلق، كانت الحراير والتوابل الآتية من الصين تتجه فى كثير من الأحيان غرباً فى سفن هندية أو هندية ماليزية تبحر من ميناءى نان هاى (كانتون) وكاتيجارا (ربما يكون هانوى الحالية) اللذين ظهرا حديثاً فى ذلك الوقت. وبما أن البارثيين كانوا على حالهم فى السوق، فإن جزءاً من تلك البضائع، علاوة على التوابل والجواهر التى تقدمها للهند نفسها، كان يرسل بالبر من موانىء عديدة إلى بلخ ومنها إلى بارثيا. ولكن الجزء الأكبر كانت تنقله السفن. إذ كانت السفن اليونانية تخرج من الهند وتفرغ حمولتها فى موانىء البحر الأحمر. وكان المقصد قصير المدى فى الغالب هو الإسكندرية أو إحدى المدن الفينيقية. وكانت بمثابة مراكز تنقية وتوزيع إلى سائر عالم البحر المتوسط.

***

فى ظل ذلك القدر اليسير الذى كان يعبر طريق الحرير نفسه وذلك الفيض الذى يمر على طريق التوابل، أصبح للنفائس الآسيوية أثرها ليس على روما نفسها وحسب، بل أيضاً على سائر أنحاء الإمبراطورية الرومانية. فالحرير الذى كان يُغزل فى الصين ويباع فى جزر الملايو أو الهند وينسج ويصبغ فى فينيقيا قد يرتديه النبلاء فى أنحاء البحر المتوسط، من الأناضول حتى أسبانيا. والجواهر التى كانت تُستخرج من أفغانستان وتُقطّع فى الهند وتُنقل إلى الإسكندرية، قد تزين جسم امرأة من الرعايا الرومان فى أى مكان من النيل إلى

الراين. وكان أثر ذلك على الحياة الرومانية عظيماً. وكثيرون من حذروا من النتائج الوخيمة التى قد تنجم عن مثل هذا الانغماس فى الملذات.

والواقع أن هذا كله ذهب سدى. فما إن يتذوق الإنسان طعم النفائس الوافدة حتى يصبح من العسير عليه أن يتخلى عنها. وسرعان ما سلبت السلع المتدفقة من الشرق ألباب الرومان. ويرثى بلينى، وهو متشدد يخالف ما عليه الناس فى زمانه، حال الرومان قائلاً:

... أصبحنا نرى الآن جبالاً بكاملها تقطع لتصبح بلاطات من الرخام، ويُشد الرحال إلى الـ«سيريس» (الصينيين) للحصول على أقمشة للملابس، وتُستكشف أعماق البحر الأحمر بحثاً عن اللؤلؤ، وتُنقب أعماق الأرض لاستخراج الزمرد. لا، بل إنهم أيضاً يثقبون الآذان، وكأن وضع هذه الجواهر فيما يلبسون من قلادات وتيجان لا يكفى فجعلوا تلك الثقوب فى الجسم ليضعوها فيها.

ولأن أحداً لم يعر تلك التحذيرات اهتماماً، ازداد ما ينفقه الرومان مما ورثوه وما آل إليهم من ثمار إمبراطوريتهم على جواهر آسيا وتوابلها ونفائسها. وباختصار كانت نتائج ذلك مدمرة وساهمت بصورة أو بأخرى فى انهيار الإمبراطورية فى نهاية الأمر، كما أوضح بلينى:

... وعلى أقل تقدير، استنزفت الهند والصين وتلك الجزيرة [العربية] معاً من إمبراطوريتنا مائة مليون سسترس[1] كل سنة. وهذا هو الثمن الذى كلفتنا إياه حياتنا المترفة ونساؤنا!

كان المقصود بذلك فى المقام الأول هو الحرير. فالحرير هو الذى استنفد أموال الرومان واستولى على خيال كل من جاء بعدهم. وكان الحرير مرتبطاً بطريق الحرير، كما كان مرتبطاً كذلك بطريق التوابل فى تلك الفترة، لأن الصين ظلت تحتفظ بسر صنعتها داخل حدودها لمدة خمسمائة سنة أخرى. وحتى القرن الخامس الميلادى تقريباً، كان الغرب بصورة عامة يعتقد أن الحرير ينتجه أحد النباتات. وهو ما اعتقده بلينى أيضاً كما يتضح فى الفقرة الموجودة فى صدر هذا الفصل. وهذا الخطأ يعد طبيعياً، لأن الكتان والقطن كلاهما من

---

(١) عملة فضية رومانية تعادل ربع الدينار ظهرت فى القرن الثالث قبل الميلاد. (المترجم).

الألياف النباتية. ولاشك فى أن الصينيين شجعوا هذا الفهم الخاطىء كى يحولوا دون وصول الباحثين إلى الحقيقة. وكان نجاحهم فى ذلك عظيماً. وحتى عندما أصاب أحد أبناء الغرب بعضاً من الحقيقة كانت القصة التى رواها عن ذلك ضرباً من المعلومات المضللة. وهاهو ما قاله الرحالة اليونانى بوسانياس فى القرن الثانى الميلادى:

... الخيوط التى يصنع منها الصينيون أقمشتهم ليست من إنتاج النبات، ولكنها تُنتج بطريقة مختلفة تماماً، وهى كما يلى. ففى بلادهم حشرة معينة يطلق عليها اليونان «سير». ولكن الصينيين لايسمونها كذلك، بل تختلف تسميتهم كثيراً. وهى من ناحية الحجم ضعف أكبر خنفساء. ولكنها من ناحية أخرى أشبه بالعنكبوت الذى ينسج خيوطه تحت الأشجار. وهى أيضاً لها ثمانى أرجل مثلها مثل العنكبوت. ويربى الصينيون هذه المخلوقات ويصنعون بيوتاً تأوى إليها تصلح للصيف وللشتاء. والمادة التى تغزلها هذه الحشرات توجد على هيئة خيط رقيق ملفوف على أرجلها. وهم يطعمونها الدخن لمدة أربع سنوات وفى السنة الخامسة يقدمون لها البامبو الأخضر لتأكله (فهم يعرفون أن هذه المخلوقات لن تعيش أطول من ذلك). وهذا هو الطعام الذى تفضله الحشرة عما سواه. وهى تلتهم منه الكثير، حتى أنها تنفجر من التخمة. وبعد أن تموت بهذه الطريقة يجدون داخلها الكمية التى غزلتها.

والحقيقة مختلفة تماماً، وإن كان بوسانياس قد فهم على الأقل أن الحرير منتج حيوانى وليس نباتياً.

ولكن جهل الرومان لم يكن له تأثير كبير. ففى تلك الأيام كانوا مشترين وليسوا منتجين. وكانت لديهم واردات من الحرير وغيره من النفائس الشرقية التى ترد إليهم براً وبحراً. وأصبحت الحراير شائعة فى روما فقط فى تلك العقود القليلة. فبحلول سنة ١٤ ميلادية كان مجلس الشيوخ يسعى إلى حظر ارتداء الرجال للحرير، بزعم أنه «يُشينهم» ويجعلهم متشبهين بالنساء.

وكان هناك عيب خطير واحد فى طريق التوابل، هو القراصنة. وكثيرون من هؤلاء كان دافعهم إلى السرقة فقدانهم لمصدر رزقهم السابق. والكاتب السكندرى أجاتارخيديس

أوجز ذلك فيما كتبه بعد قرنين فى سياق حديثه عن العرب الذين لم يعد الرومان يمرون فى أراضيهم بعد اتخاذهم الطريق البحري الجديد:

فى الماضى كان رزقهم يكفيهم... ولكنه بعد أن جعل ملوك الإسكندرية الخليج ممراً ملاحياً للتجار، كانوا يهاجمون من ألقى بهم البحر على الشط. وبعد أن صنعوا سفن قرصنة أخذوا يسلبون متاع المسافرين بحراً.

وعلى طول الطريق من الصين إلى مصر كان القراصنة يترددون على الممرات الضيقة ومجموعات الجزر وغيرها من الأماكن التى يسهل عليهم الانقضاض منها على السفن التى تقطع طريق التوابل. وكما هو الحال على البر، قامت ممالك بحرية عديدة فى محاولة للسيطرة على قطاعات من الطريق، مطالبة برسوم كبيرة مقابل المرور الآمن فى المضايق الحيوية على طول الطريق. ورغم تلك العيوب استمر طريق التوابل يعمل قروناً طويلة إلى جانب طريق الحرير.

ولكن الرومان كانوا يستعجلون إعادة فتح الطريق البرى. قد تكون الرحلة طويلة وشاقة، إلا أن الطريق يمكن تأمينه إذا كانت هناك سلطة قوية وكانت المسافة تقل كثيراً عن الطريق البحرى. وجذبت عودة النفوذ الصينى إلى آسيا الوسطى شعوب الغرب، بنفس القدر الذى جذبت به شعوب الشرق فى ذلك الوقت.

***

قُدِّر لإعادة فتح حوض التاريم أن تكون عملية طويلة. فأسرة هان كان عليها قبل أى شىء أن تعيد النظام داخل البلاد. وسعت بعض دول التاريم مثل شان شان إلى التمتع بحماية الصين، حيث كانت تعانى من الخراج الضخم الذى يفرضه عليها الشيونج نو، فى حين قاوم بعضها نفوذ الشيونج نو. بل إن ملك يرقند، وهى الحليف الرئيسى للصين فى آسيا الوسطى، اقترح تعيينه مدافعاً عاماً عن المناطق الغربية. وعندما قوبل هذا الطلب بالرفض بدأ سلسلة فتوحاته. وكانت النتيجة أن ثماني عشرة من ممالك التاريم، بينها شان شان وتورفان، توسلت إلى إمبراطور هان كى يعيِّن مدافعاً عاماً يدافع عنها. ولكن حكام هان كانوا مايزالون يركزون على شئونهم الداخلية. وتُركت المدن الصحراوية تحت رحمة القوى المتصارعة فى المنطقة.

وحتى القرن السابع الميلادى لم يكن حكام هان قد بدأوا من جديد أى تحركات

عسكرية فيما وراء السور العظيم. بينما أُرسلت حملات عديدة إلى الشمال ضد الشيونج نو فأعادت إلى الحظيرة الصينية واحات هامى وجوتشين (وراء بيه شان الأسفل) وتورفان التى خرج حاكمها المحلى «إلى ظاهر المدينة وخلع غطاء رأسه وقبَّل سنابك فرس [الجنرال الصينى] وأعلن استسلامه». وفى تلك المدن أقام الصينيون حاميات عسكرية لتكون بمثابة حائط دفاعى فى مواجهة غزو الشيونج نو للمناطق الغربية.

كان الجنرال پان تشاو هو المسئول الأول عن استعادة مناطق الصين الغربية. وپان تشاو من أسرة معروفة. فأبوه هو الذى بدأ «تشيان هان شو» (حوليات أسرة هان السابقة) وأخوه هو الذى أنهاها. بينما كانت أخته كاتبة مرموقة. أما پان تشاو نفسه فكان يتمتع بقدر كبير من الدهاء، إلى جانب كونه مقاتلاً صلباً يمكن أن يكون فى غاية القسوة إذا استدعى الأمر. وربما لم تكن الصين تحظى إلا بقدر يسير من ثقة شعوب الصحراء، عندما اتجه غرباً لأول مرة سنة ٧٣ ميلادية تقريباً ليعبر بوابة اليشب إلى التاريم. ولكن پان تشاو كان يعتقد أن «من يخترق عرين النمر هو وحده من يمكنه أخذ أشباله».

وهكذا شق هو ومن معه طريقهم عبر الرمال شديدة الحرارة مخترقين أرض الجمال البرية. وفى تلك البلاد، التى كانت غريبة وجديدة عليهم، تذكروا كل الحكايات القديمة التى تتحدث عن الأرواح الشريرة التى تسكن الصحراء وعن مدينة التنين الأسطورية الواقعة تحت مياه لوب نور. كما أنهم واجهوا خطراً كان أقرب إليهم، وهو الغارات التى يحتمل أن يشنها عليهم الشيونج نو وسكان التبت، إلى جانب نقص المياه فى بلاد ليس لهم فيها فى ذلك الوقت إلا عدد محدود من الأصدقاء. وفى أولى محطاتهم، وهى مدينة شان شان التى تبعد مسيرة ثلاثة إلى أربعة أسابيع من بوابة اليشب، عقد الأمير المحلى العزم على تسليم ضيوفه الصينيين إلى الشيونج نو، وهو يدرك أنه إن لم يفعل ذلك سوف يصبون جام غضبهم عليه. وفى الحال استشف پان تشاو الأمر وبادر بما يسميه العسكريون المحدثون ضربة وقائية. ففى تلك الليلة أضرم النار فى المدينة. وأثناء الفوضى التى نجمت عن ذلك ذُبِّح عدداً كبيراً من السكان. وبعد ذلك أصبحت شان شان تحت إمرة قائد المناطق الغربية وأصبحت بها حامية صينية كانت بمثابة نقطة متقدمة لأى غزوات أخرى متجهة نحو الغرب. ومن المؤكد أن شان شان احتلت موقعاً استراتيجيا على الطريق إلى الغرب، إلا أن ماقام به پان تشاو يُعد عملاً رمزياً يهدف إلى إبلاغ الجميع عزم الصين على استرداد المناطق الغربية.

وطوال الثلاثين سنة التالية قاد پان تشاو القوات الصينية فى ربوع حوض التاريم، حيث استولى على كل المدن الرئيسية على طول الطريق إلى جبال البامير. وهكذا أصبحت خوتان ويرقند فى الجنوب وأكسو وكوتشا وكاشغر فى الشمال تابعة للصين. إلا أن كل نصر تحقق فى آسيا الوسطى كان مجرد فصل فى حرب طويلة. فالأمراء الذين أخضعهم الصينيون لسلطانهم كانوا يغيِّرون ولاءهم ويتجهون إلى الشيونج نو. يضاف إلى ذلك بُعد كثير من تلك المدن عن الصين. غير أن پان تشاو، بصفته ممثلاً للصين، استغل كل دهائه وقسوته فى معرفة من يحتمل ارتدادهم وأعدمهم هم وأتباعهم. بل إنه عندما كان الصينيون يُطردون ويُستدعون إلى بلادهم، كما حدث فى كاشغر سنة ٧٥ ميلادية، كان پان تشاو فى بعض الأحيان يتجاهل الأوامر ويعود للاستيلاء من جديد على إحدى الواحات المهمة.

وفى نهاية الأمر أُنعم عليه بلقب «المُدافع عن المناطق الغربية»، إذ أخضع بالفعل كامل حوض التاريم للصين. وكما تشير الحوليات الصينية: «استتب النظام حتى جبال البامير وممرات هانجنج»، وهى الممرات الجبلية المرتفعة التى كانت القوافل تعبرها للوصول إلى إيران والهند. ويعود بعض الفضل فى نجاحه إلى السياسة الاستعمارية القديمة التى تقوم على استخدام شعوب البلاد التى تُفتح فى زيادة رقعة الفتوحات. فقد أخذ پان تشاو من كل مدينة صحراوية فتحها بعض القوات التى أضافها إلى الجنود الصينيين، وكانوا فى أغلبهم من المغامرين أو المجرمين السابقين أو المنشقين الذين اضُطروا للعيش فى المنفى. ووطَّن پان تشاو هؤلاء الجنود فى سلسلة من الحاميات فى الأراضى التى فتحها إلى أن وصل إلى جبال البامير، وهى بمحاذاة الطرق المتجهة غرباً. وبذلك وفرت هذه الحاميات المؤن والحماية للقوافل التى كانت تسير فى مسالك طريق الحرير التى لم يستتب أمنها بعد. وعن طريق الاستعمال الحكيم لماء الرى استطاع هؤلاء الجنود توسعة الأراضى الزراعية المحيطة بالحاميات، مما ساعد على توفير المؤن للقوافل فى الصحراء وجعلهم يعيشون فى بحبوحة فى تلك الأماكن القصية. وكما أوضح پان تشاو لإمبراطوره، كانت الأراضى المحيطة بيرقند وكاشغر على وجه الخصوص شديدة الخصوبة «حتى أن الجنود المقيمين هناك لم يكلفوا الإمبراطورية شيئاً».

ولم تكن فتوحات پان تشاو مجرد اكتساب المزيد من الأراضى. إذ كان لها هدف وهو بدء الاتصال المباشر الذى لا يعطله شىء مع شعوب الغرب. وكان النجاح الذى أُحرز فى تحقيق ذلك عظيماً. وهذا ما توضحه «هو هان شو» (حوليات أسرة هان اللاحقة):

... منذ أن اضطُرت [شعوب المناطق الغربية] للاستسلام بقوة السلاح، أو استُخدمت الهدايا فى شرائهم، جاءت كل ممالك الأقاليم الغربية لتقديم المنتجات النادرة التى تصنع فى أراضيها ولتسليم الرهائن العزيزة عليها... وكان مجىء الرسل وحاملى البريد ورواحهم لا ينقطع فى كل فصل وكل شهر. وكان التجار والأجانب الذين يشتغلون بالتجارة يدقون أبواب الحاجز [السور العظيم] كل يوم.

وكما يتضح من هذه الفقرة، فإن كثيراً من التجارة، التى تقدر بما لا يقل عن اثنتى عشرة قافلة فى السنة، كانت تقوم بها شعوب المناطق الغربية أو ماوراءها. ومن المؤكد أن التجار الصينيين عملوا فى المناطق التى أُعيد فتحها. بل إن پان تشاو مارس شيئاً من التجارة الخاصة، حيث وصلنا خطاب من أخيه پان كو يقول فيه «أرسل لك ٣٠٠ قطعة من الحرير الأبيض التى أرغب فى مقايضتها بالخيول البلخية والاصطراك [مادة عطرية] والسجاد». إلا أنه بمرور الوقت تزايد عدد من يمارسون التجارة من الشعوب السيثية العديدة التى حاربت بعضها طويلاً من أجل السيطرة على تركستان الغربية.

وبينما كان پان تشاو يضم التاريم إلى الصين، كان أحد هذه الشعوب، وهى قبيلة تدعى كوشان، قد بدأ طريقه إلى الصدارة. وكان الكوشان والشعوب التابعة لهم يتاجرون مع الصينيين من خلال مراكز القوافل الكبرى مثل بلخ وبخارى. ولأن الصينيين كانوا يذكرون كيف احتل هؤلاء ممر كانسو قبل ذلك بقرنين، مثلهم مثل اليويه تشى، فقد ظل أهل الصين يطلقون عليهم يويه تشى الكبرى.

ويبدو أن الكوشان والصينيين كانت تربطهم علاقات ودية فى الغالب، حيث تحالفوا ضد الشيونج نو. وصحيح أن العلاقات توترت بعض الشىء سنة ٩٠ ميلادية تقريباً، عندما طلب ملك الكوشان القوى أن يتزوج أميرة صينية. إذ رفض پان تشاو تلك الفكرة الجريئة على الفور وألقى القبض على سفير الكوشان ثم أعادوه إلى بلاده. عندئذ أرسل الكوشان جيشاً قوامه ٧٠ ألف رجل لمحاربة الحاميات الصينية الغربية. إلا أن پان تشاو، بما عُرف عنه من دهاء وشجاعة وشدة، حال دون وقوع اشتباك ضخم واستعاد السلام. وتروى لنا الحوليات أنه بعد ذلك أرسل الكوشان خراجاً سنوياً إلى الصين، وهو ما قد يعنى طبقاً لأساليب التعبير الصينية القديمة أن الكوشان أتوا إلى الصين للتجارة. وفى تلك الفترة ذاتها، حاول أهل التبت، الذين طالبوا بحقهم فى المدن الواقعة على طول الجانب الشمالى

من التاريم، التـخلص من الحكم الصينى وظلوا مـعطلين الطريق بعض الوقت. إلا أن پان تشاو تغلب عليهم أيضاً.

وفى نهاية الأمر أدرك الكوشان فائدة إبقاء الاتصالات طويلة المدى بين الشرق والغرب مفتوحة. وهكذا ظل طريق الحرير مفتوحاً فى أراضى الصين والكوشان. وعندما أرسل پان تشاو مـبعوثه كـان ينج لاستكشاف النصف الغـربى من طريق الحرير، لايبـدو أن الكوشان اعترضوا على عبور المبعوث الصينى لأراضيهم.

وكان الصينيون لايزالون على اتصال بالبارثيين فى الهضبة الإيرانية. وقبل سنوات قليلة كان البارثيـون قد أرسلوا سفيـراً استعان «بالعـديد من المترجمين المتـتالين» فى الطريق إلى لويانج حامـلاً الهدايا إلى بلاط هان. وكـان الصينيون قـد كوّنوا صورة مـا عن الغرب من خلال مثل تلـك الاتصالات. كما عرفـوا البلاد الرومانية عند الطرف الغـربى الأقصى من طريق الحرير باسم لى كـان أو تا تشين (الصين الكبـرى). ولا يبدو أن الصينيين عـرفوا أن مركز الإمبراطورية الرومـانية كان فى واقع الأمر على مسافة تبعد كثـيراً إلى الغرب. وطبقاً لشذرات المعلومات التى وصلتهم عبر آلاف الأميال، كانت «روما» بالنسبة لهم هى الأراضى الرومانية فى غرب آسيـا وسوريا وفينيقية. وكانت تا تشين هى البـلاد التى أُرسل إليها كان ينج سنة ٩٧ ميلادية.

وتسجل «حوليات أسرة هان اللاحقة» شيئاً من التقرير الذى قدمه عند عودته:

تقع دولة آن شى [بارثيا] عند مدينة هو تو [هيكاتومبيلوس]. إنها تبعد ٢٥ ألف لى عن لويانج.. ومـسـاحـة الدولة عـدة آلاف من الليـات. وهناك عدة مئات من المدن التى بها عدد ضخم من السكان والجنود. وعلى حدودها الشرقية تقع مدينة مو لو [ربما يقصد مرو] التى تسمى آن شى الصغرى. وهى تبعد ٢٠ ألف لى عن لويانج.

والمدن التى وُصفت هـنا حُددت بصورة مبـدئية، ليس فقط لأن مـواقعـها على طريق الحرير تقريبية، بل أيضاً بسبـب المسافات التى حُددت. وإذا كان القياس الرومانى stadia قد استُبدل باللى، فإن الطريق كما حُدد هنا يكون دقيقاً جداً، مما يوحى بأن كان ينج حصل على جزء كبيـر من معلوماته من دليل التجار الذى كان مـتوافراً فى ذلك الوقت عن طريق الحرير.

ومن المرتفعات الإيرانية، هبط كان ينج، الذى يبدو أنه كان مايزال فى صحبة البارثيين، إلى أرض تياو تشى، وهو مايبدو إشارة إلى بلاد مابين النهرين. وتستمر الحوليات قائلة:

تقع حاضرة دولة تياو تشى على أحد التلال ويزيد محيطها على أربعين لى. وهى متاخمة للبحر الغربى [الخليج الفارسى] وتحيط بها مياه البحر فى خطوط غير مستقيمة. والطريق مقطوع فى الجنوب والشمال الشرقى. وفى الشمال الغربى فقط يمكن الوصول إليه من خلال طريق برى. وهذا البلد حار ومنخفض. وتعيش فيه الأسود والخراتيت... والطواويس وطيور ضخمة [قد تكون النعام] بيضها كالجرة. وإذا توجهت إلى الشمال ثم عدت إلى الشرق على ظهر الخيل لمدة ستين يوماً تقريباً، لوصلت إلى آن شى [بارثيا] التى خضعت لها بعد ذلك كدولة تابعة يحكمها حاكم عسكرى يسيطر على كل المدن الصغيرة.

ويبدو أن ما تصفه الحوليات بطريقة عكسية هو طريق يتجه غرباً من المرتفعات الإيرانية إلى سهول مابين النهرين ثم يتجه جنوباً إلى حيث تجمعت مدن التقاء الطرق التى تحميها الأنهار والقنوات والمستنقعات. وليس واضحاً بالمرة ماهى الـ«حاضرة» التى أشار إليها كان ينج. وفى موضع آخر من الحوليات يأتى وصف مختلف بعض الشىء للطريق نفسه:

من آن شى تتجه غرباً لمسافة ٣٤٠٠ لى إلى بلاد آ مان [إيكبتانا]. ومن آ مان تتجه غرباً لمسافة ٣٦٠٠ لى إلى بلاد سو پن [طيسفون][١]. ومن سو پن تتجه جنوباً وتعبر نهراً ثم تتجه مرة أخرى إلى الجنوب الغربى إلى بلاد يو لو التى تبعد ٩٦٠ لى إلى أقصى حدود آن شى الغربية.

ورغم أن تحديد المدن التى ذُكرت آنفاً متفق عليه غالباً، فإن هناك خلافاً بشأن هوية يو لو. ومن بين الأماكن المرشحة لأن تكون يو لو موقع الحيرة[٢] المهجورة حالياً، وهو فى

(١) على نهر دجلة فى الجزء الذى يقترب فيه من الفرات بالقرب من بغداد الحالية. (المترجم).

(٢) اتخذها المناذرة عاصمة لهم بعد سقوط تدمر. ويقول المقدسى فى «أحسن التقاسيم» إن الكوفة كانت قديماً الحيرة. بينما يقول الإدريسى فى «نزهة المشتاق» إنها على بُعد أقل من مرحلة من الكوفة التى انتقل إليها أهلها بعد خراب الحيرة التى يقول المسعودى فى «مروج الذهب» إنها أقفرت ولم يعد بها إلا الصدى والبوم. (المترجم).

الجنوب الغـربى من بابل وطيسـفون على الجـانب الآخر من النهـر، وكذلك كـاراكسى أو أبولوجوس (أسفل النهر)، وكانت كلٌ منهما ميناء للسفن المتجهة جنوباً إلى الخليج الفارسى لتأخذ طريق التوابل.

كانت يولو ميناء، كما يتضح من بقية مايرويه كان ينج. وتشير الحوليات إلى أنه:

... بلغ تياو تشى على ساحل البحر الكبير. وعندما كان على وشك أن يتخذ طريقه فى البحر قال بحارة حدود آن شى الغربية لكان ينج: «البحر واسع وكبير. وإذا كانت الريح مواتية يمكن عبوره فى ثلاثة أشهر. أما إذا قابلت ريحاً بطيئة، فقد تقطع المسافة فى عامين. ولهذا السبب يأخذ من يسافرون بالبحر معهم من الزاد مايكفى ثلاث سنوات. وفى البحر شيء يجعل الإنسان يحن إلى الوطن، وكان ذلك سبباً فى هلاك كثيرين». وعندما سمع كان ينج ذلك توقف.

هذه الفقرة كانت دائماً لغزاً لدارسى الصينيات. فهم يتساءلون كيف توجه كان ينج إلى سوريا الرومانية وأنهى مهمته عند شاطىء البحر؟ لماذا لم يأت ذكر لأى طريق قوافل برى إلى تاتشين، البلاد التى أُرسل إليها؟ ويبدو أن الإجابة لدى البارثيين. فكما أن الصينيين تعمدوا إخفاء أسرار تربية دودة القز ونشروا معلومات مضللة لجامعى الأخبار، فمن المحتمل أن البارثيين عمدوا إلى الاحتفاظ بأسرار طرقهم إلى الغرب، وهى التى كانت مصدر كثير من ثرواتهم. وهناك احتمال كبير أنه حرصاً من البارثيين على عدم مضايقة الصينيين، شركائهم التجاريين وحلفائهم الأعزاء، بمنعهم من العبور إلى سوريا، فقد آثروا إثناء المبعوث الصينى بطريقة خفية عن الاستمرار فى رحلاته. ولتقديرهم الصحيح بأن كان ينج شخص لم يعتد ركوب البحر، فقد بالغوا كثيراً فى زمن الرحلة البحرية وطول مسافتها. والواقع أن الرحلة على طريق التوابل إلى الصين لم تكن لتستغرق زمناً يصل إلى نصف الثلاث سنوات. كما أن الرحلة القصيرة من رأس الخليج الفارسى حول شبه الجزيرة العربية ثم السير فى البحر الأحمر كانت تستغرق وقتاً أقل من ذلك.

وربما كان هذا الطريق مستخدماً في ذلك الوقت، وخاصة أن هناك احتمالاً بأن الاضطرابات التي شهدتها الصحراء السورية أدت إلي إغلاق الطرق البرية المتجهة إلى البحر المتوسط بصورة مؤقتة طوال بضع سنوات من زيارة كان ينج. وربما ذهب جزء من السلع الشرقية، وهو جزء قد يكون كبيراً، بحراً من بلاد مابين النهرين ليدور حول الجزيرة العربية

وصولاً لموانيء البحر الأحمر. وربما اتجه بعد ذلك إلى البتراء التى كانت تمثل همزة الوصل، إذا افترضنا أن البتراء هى لى كان الصينية. ومن المؤكد أن ذلك الطريق كان يصل بالسلع إلى الموانئ التى لها اتصال سهل بمراكز التكرير والتوزيع الرئيسية، وهى الإسكندرية والمدن الفينيقية. وهذا قد يمثل أهمية خاصة بالنسبة للحرير، الذى كان غالباً ما يحتاج إلى الصباغة والنسيج قبل شحنه إلى روما والأجزاء الأخرى من الإمبراطورية. ويقول البعض إن مثل هذا الطريق البحرى قد يفضله التجار الذين كانوا يشترون تجارتهم من البارثيين ثم يشحنون بضاعتهم مباشرة فى سفنهم الخاصة إلى شركائهم على البحر الأحمر، حيث يهدفون من ذلك إلي التهرب من دفع الرسوم للوسطاء الآخرين، كالحكام العرب فى الصحراء السورية. قد يصدق ذلك كله. إلا أنه بغض النظر عن ذلك الجزء من بضائع طريق الحرير الذى يُنقل بحراً فى ذلك الطريق، فإن جوهر الأمر قد يكون مجرد خداع البارثيين لكان ينج المسكين.

ولكن الخدعة كانت على قدر مدهش من النجاح. إذ مضت قرون عديدة قبل أن يعرف الصينيون شيئاً عن الطريق البرى إلى سوريا. كما أن البارثيين حالوا دون حدوث ما كان يمكن أن يصبح خطراً قاتلاً عليهم، وهو احتمال قيام تحالف مستقل بين الصينيين والرومان. وكون المسالك البرية مازالت تحتفظ بأهميتها - بل ربما كانت أهم أجزاء طريق الحرير - يتضح جلياً إذا نظرنا إلى ثروات مدن القوافل فى الصحراء السورية، كما سنرى.

إلا أنه رغم عدم وصول السفير الصينى إلى تا تشين، فقد رسم (وربما فعل ذلك مبعوثون آخرون إلى بارثيا) صورة للبلاد الغربية سُجلت فى «هو هان شو»:

تسمى بلاد تا تشين أيضاً لى كان وتقع فى الجزء الغربى من البحر. وتصل مساحتها إلى عدة آلاف من الليات وبها مايزيد على أربعمائة مدينة وتضم عشرات من الدول المستقلة. ودفاعات المدن من الحجارة. وتُغطى محطات البريد وعلامات الطريق بالجص. وهناك أشجار صنوبر وسرو وكل أنواع الأشجار والنباتات الأخرى. وكثير من الناس يعملون بالزراعة ويقومون بغرس الأشجار ويربون دودة القز. [لأن بعض الحرير المنسوج بالطرز الغربية المميزة كان يُعاد تصديره إلى الشرق، اعتقد بعض الصينيين أن أهل الغرب كانوا يعرفون كيف

يصنعون الحرير] وهم يقصون شعر رؤوسهم ويلبسون ملابس مطرزة ويسيرون فى عربات صغيرة تغطيها مظلات. وعندما يدخلون أو يخرجون تُقرع الطبول وترفع الأعلام والرايات والبيارق. ويبلغ طول الأسوار المحيطة بالمدينة مايزيد على المائة لى. والمدينة بها خمسة قصور يبعد كل منها عن الآخر عشرة ليات. وهم يستخدمون البللور فى صنع أعمدة القصور. كما أن الأوانى المستخدمة فى تناول الطعام مصنوعة منه... وسكان تلك البلاد طوال القامة وعلى قدر طيب من التناسق، وهم أشبه بالصينيين، لذلك أُطلق عليهم تا تشين.

***

وتروى لنا «هو هان شو» أنه لم تصل سفارات صينية أخرى غرباً إلى تياو تشى، فضلاً عن عدم وصولها إلى تا تشين. وهى تسجل صورة عن السفر داخل الأراضى الرومانية، ربما جُمعت من مصادر تعيش فى الأراضى البارثية:

البلاد كثيرة السكان. كل عشرة ليات تحددها «تنج» [سقيفة؟] وكل ثلاثين لى يحددها «تشى» [برج إشارة؟]. والمرء لايحسب حساب اللصوص، إلا أن الطريق يصبح غير آمن بسبب النمور والأسود المفترسة التى تهاجم المسافرين. وإذا لم يكونوا ضمن قوافل قوامها مائة رجل أو يزيد، أو لم تكن تحميهم المعدات الحربية، فإن هذه الضوارى تفترسهم. ويقولون أيضاً إن هناك «جسر طائر» طوله عدة مئات من الليات يمكن عبوره إلى البلاد الواقعة شمالى البحر.

ليس واضحاً ماهو «الجسر الطائر»، وإن كان يحتمل أن تكون هذه إشارة إلى المعابر التى اشتهر بها الرومان فى أنحاء إمبراطوريتهم. وفيما عدا ذلك، فإن الصورة تتطابق فى كثير من جوانبها مع مانعرفه عن طبيعة الطرق والسفر فى المناطق الرومانية التى تتسم بالتنظيم، رغم مايتضح من أنها منقولة عن معلومات غير مباشرة.

مثل هذه الصورة ظلت موجودة فى الحوليات الصينية قروناً عدة. إلا أن الصين سمعت أيضاً عن الكثير من أشياء الغرب الجميلة. وكان بعضها محل رغبة من الصينيين، تماماً كما كان الحرير بالنسبة للرومان. وتصف الحوليات ثروات تاى تشين قائلة:

البلاد بها الكثير من الذهب والفضة ولكن الأحجار الكريمة نادرة، وبالأخص «الجوهر الذى يلمع فى الليل» و«لؤلؤ ضوء القمر» والمرجان والكهرمان والزجاج... واليشب الأخضر والسجاد الموشى بالذهب والأقمشة الحريرية الرقيقة من مختلف الألوان. إنهم يصنعون قماشاً فى لون الذهب وقماشاً من الحرير الصخرى. كما أن لديهم «قماش فاخر» يسمونه أيضاً «صوف خراف الماء» وهو مصنوع من شرانق دودة القز البرية. وهم يجمعون كل المواد العطرية... كل جواهر الدول الأجنبية النادرة تأتى من هناك.

كانت تلك قائمة بالأشياء العزيزة على قلب الصينيين وتردد ذكرها مراراً. وكانت لكثير من الباحثين محاولات لم تنجح قط فى تحديد ماهية الأشياء التى جاءت فيها. و«صوف خراف الماء» قد يكون إشارة إلى نوع من القماش الناعم (byssus) المصنوع من الكتان، ظن بعض الصينيين فى أرتباكهم أنه مصنوع من شرانق دودة القز البرية.

والماس هو المرشح الأول لأن يكون «الجوهر الذى يلمع فى الليل». والواقع أن ذلك لايحدث فى الظروف العادية. إلا أن أنواعاً معينة من الماس يمكن أن تضىء عند دلكها أو تسخينها أو تعريضها للضوء. ومثل هذه الأحجار قد تكون ذات جاذبية خاصة للصينيين، الذين لم يألفوا حتى ذلك الوقت الجواهر الشفافة (فاليشب ذو القيمة العالية كان شبه شفاف). إلا أن بعض الباحثين لديهم إحساس بأن معرفة الصينيين بالماس كجوهر كانت قليلة، أو لم تكن قائمة بالمرة. واقتصرت معرفتهم على كونه حجراً «صناعياً» يوضع فى السكاكين من أجل الحفر الدقيق أو شق أنسجة الجسم. وكانت تلك الأدوات تستورد من الغرب. وفى تلك الأيام كان الصينيون مفتونين ببعض الأحجار الخضراء الآتية من الغرب. ويبدو أن جهلهم كان وراء جمعهم معادن مختلفة دون تمييز، لمجرد لونها وشفافيتها، بما فى ذلك الزمرد الذى فى حجم الجواهر والأحجار الأخرى التى على هيئة قطع كبيرة تصلح لاستخدامها فى تزيين المبانى.

وكان عدم معرفة الصينيين بمثل هذه الأحجار سبباً فى جعلهم هدفاً سهلاً للصناع الغربيين، الذين باعوهم حبات الزجاج وغيرها من الأشياء سهلة الصنع على أنها جواهر. و«البللور» المستخدم فى الأعمدة، كما جاء آنفاً فى «هو هان شو»، قد يكون زجاجاً. وعلى أية حال، فحتى القرن الخامس الميلادى الذى تعلم فيه الصينيون أسرار صنع

الزجاج[1]، وخاصة الزجاج الملون الذى كانوا يقدرونه أيما تقدير، حقق التجار الغربيون أرباحاً ضخمة من السلع الزجاجية التى شحنوها إلى الصين. إلا أن هناك تعليقاً فى «هو هان شو» يوحى بأن الصينيين لم يخدعوا تماماً:

والأشياء المصنوعة من الأحجار الكريمة النادرة فى هذا البلد [تا تشين] هى فى الغالب تحف مقلدة غير أصيلة.

وبعد كان ينج لانسمع عن أى سفراء صينيين وصلوا إلى غرب الهضبة الإيرانية. وسواء فهم الصينيون أن كان ينج خُدع أم لم يفهموا، فمن المؤكد أنهم عرفوا أن البارثيين كانوا يحولون دون التقاء الرومان بالصينيين. وتشير «هو هان شو» إلى أن ملوك «تا تشين»:

... كانوا يرغبون دائماً فى إرسال السفارات إلى الصين. إلا أن آن شى [بارثيا] كانت ترغب فى المتاجرة بالحرير معهم. ولهذا السبب حالت دون اتصالهم.

وليس من المتوقع أن يقبل الرومان ذلك دون أى اعتراض. فمن الواضح أن الرومان حاولوا فتح طرق بديلة إلى الشرق، حول بحر قزوين أو عبره، كى يدوروا حول الأراضى البارثية. وقد أصابوا فى ذلك قدراً ضئيلاً من النجاح، أو لم يحققوا أى نجاح بالمرة.

والاتصال المباشر الوحيد المسجل بين الرومان والصينيين حدث بحراً. وأشارت «هو هان شو» إلى أن الرومان مُنعوا من الاتصال بالصينيين حتى سنة ١٦٦ ميلادية:

... عندما أرسل آن تون ملك تا تشين سفارة، قدمت عاجاً وقرون خرتيت ودروع سلاحف من جينان [الهند الصينية].

ومع أنه من الواضح أن هؤلاء الرومان قدَّموا أنفسهم كمبعوثين من إمبراطورهم (حتى سنة ١٦١ كان أنطونيوس بيوس وتبعه ماركوس أوريليوس أنطونيوس) وقبِلهم الصينيون بهذه الصفة، فغالباً ما كانوا تجاراً يعملون لحساب أنفسهم. وربما كانوا يقايضون الهدايا التى يأتون بها ببضائع أخرى فى الهند الصينية. ولكن مايدعو للأسى أن هذه السلع، التى كانت تبدو غريبة بالنسبة للرومان، كانت مألوفة تماماً للصينيين الذين ذكروا بوضوح أن «الخراج»،

---

(١) عرفه المصريون القدماء منذ سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد تقريباً وكانوا يستخدمونه كطبقة لامعة على حبات من الخزف والحجر. وحوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد تطورت صناعة الزجاج فى مصر والشرق الأدنى. ولكن الفينيقيين هم أول من عرفوا طريقة نفخ الزجاج سنة ٥٠ قبل الميلاد حيث انتشرت فى سائر الإمبراطورية الرومانية. (المترجم).

كما أطلقوا عليه، لم تكن به جواهر. إلا أن «هو هان شو» تقول: «يعود إلى ذلك الوقت الاتصال [المباشر] مع هذا البلد [تا تشين]». لكن مثل هذا الاتصال المباشر لم يتم قط على البر حسب علمنا.

ومن المؤكد أن الرومان، أو على الأقل التجار العاملين فى المناطق الرومانية، حاولوا الاتصال بالصينيين عبر طريق البر. ويسجل الجغرافيون جهودهم بكل وضوح. ففى منتصف القرن الميلادى الأول تقريباً حاول بومبونيوس ميلا فى كتابه De Situ Orbis أن يضع تصوراً لقارة آسيا قائلاً:

فى أقصى الشرق من آسيا نجد الهنود و«السيريس» والسيث. ويشغل الهنود والسيث الطرفين بينما نجد الصينيين فى القلب.

ومن الواضح أن الطريقة التى كان الرومان يرون بها آسيا فى ذلك الوقت غامضة جداً ومشوهة. فهو يمضى فى تقديم قدر مذهل من التفاصيل، وإن كان ذلك بقدر أقل من الدقة:

هذا الجزء [من شاطىء بحر قزوين] المجاور للسان القوقازى لايمكن عبوره بسبب الثلوج فى المقام الأول. ووراء ذلك جهة غير مزروعة يقطنها المتوحشون. وهذه القبائل هى السيث أكلة لحوم البشر والساجى [ساكى] ويفصل بينها إقليم لايمكن لإنسان أن يعيش فيه لكثرة الحيوانات المتوحشة. وتلى ذلك أرض قفر شاسعة تعيش فيها أيضاً الضوارى وتمتد إلى جبل يسمى تابيس يطل على البحر. وعلى مسافة بعيدة منه تقع سلسلة جبال طوروس. وبين الاثنين نجد الـ«سيريس»، وهم جنس يتميز بالأمانة والاستقامة. كما أنهم يشتهرون بالتجارة التى يسمحون بأن تتم من وراء ظهورهم، تاركين بضاعتهم فى بقعة صحراوية.

إلى هنا يتضح أن الرومان كانوا لايزالون يعتبرون أن الوسطاء هم الـ«سيريس». والتجارة التى جاء ذكرها هى المقايضة الصامتة التى كانت تمارس فى آسيا قروناً طويلة. ويصف بلينى العملية بتفصيل أكثر فيما كتبه فى وقت لاحق من القرن:

الواقع أن الـ«سيريس» يتسمون بسلوك غير ضار. ولكنهم مثل وحوش

الغابة، يتحاشون الاتصال بالبشر. ورغم استعدادهم للدخول فى التجارة، فإنهم ينتظرون وصولها إليهم بدلاً من السعى إليها... وبضائع [التجار الغربيين]... تُخزن على الجانب الآخر من نهر معين بجوار مايعرضه الـ«سيريس» للبيع. وإذا رضى هؤلاء بالصفقة حملوها ومضوا. وهم فى الواقع يتصرفون وكأنهم يزدرون ذلك الترف الذى يقومون عليه، وكما لو كانوا يرون بعقولهم هدف هذه التجارة ومقصدها ونتيجتها.

ولا يحتمل أن يكون القوم الذين يمارسون هذا النوع البدائى من التجارة هم الصينيون. ويؤكد هذه الفكرة وصف بلينى للقوم الذين يسمون «سيريس»، حيث يشير إلى أن المراقبين:

... وصفوا هؤلاء [السيريس] بأنهم يفوقون البشر العاديين شكلاً، حيث أن لهم شعراً أحمر وعيوناً زرقاء وصوتاً أجش وليس لهم لغة مشتركة يتفاهمون بها.

ومن الواضح أن هذا ليس وصف الصينيين وإنما ينطبق تماماً على الشعوب الهندو أوروبية التى تعيش فى الجبال والسهوب الواقعة بين بارثيا والصين. لذلك يبدو أنه حتى أواخر القرن الأول الميلادى، كانت لاتزال لدى الرومان فكرة بسيطة عمن هم الصينيون.

وسمع الصينيون أيضاً بالتجارة الصامتة التى كانت تمارس فى آسيا الوسطى. فالحوليات الصينية اللاحقة «تشاو چو كوا» تتحدث عن هذه الفترة مشيرة إلى أن:

بلاد تا تشين، وتسمى أيضاً لى كان، هى السوق العامة لسكان الجنة الغربية، وهى المكان الذى يجتمع فيه التجار الأجانب.

ولكن الكاتب يمضى قائلاً:

البحر الغربي به سوق يتم فيها الاتفاق [الصامت] بين البائع والمشتري علي أنه إذا جاء أحدهما ذهب الآخر. ففي أول الأمر يبسط البائع بضاعته. وبعد ذلك يبسط المشتري [المحتمل] مقابلها الذي يجب أن يظل بجوار السلع المعروضة للبيع إلي أن يأخذه البائع، حيث يحمل مشترياته ويمضي. وتسمي هذه «سوق الشياطين أو الجن».

واستناداً إلى هذه الرواية يتضح أن الصينيين أيضاً اعتبروا الوسطاء شركاءهم الحقيقيين في هذه التجارة طويلة المدى.

وفى نهاية الأمر اضُطر الرومان والصينيون أن يرضوا بالتعامل خلال وكلاء كهؤلاء. وقد نفترض أن التجارة الصامتة لم تستمر طويلاً، على الأقل فى الطريق الرئيسى. إذ سرعان ما أصبح للرومان والبارثيين والصينيين شريك كامل على طريق الحرير. ففى أوائل القرن الثانى الميلادى، وبعد فترة قصيرة من تقاعد پان تشاو ثم وفاته، أصبح الكوشان تحت حكم قائد بارز اسمه كانيشكا كان له أثر كبير على طبيعة طريق الحرير. وفى القرن السابق كان الكوشان، الذين يوصفون بأنهم رجال ضخام ذوو وجوه وردية يرتدون معاطف طويلة وأحذية ذات رقاب من الجلد اللين، قد اندفعوا عبر ممرات الجبال الضخمة فى سلسلتى قره قورم وهندوكوش إلى الهند. وشيئاً فشيئاً وسعوا إمبراطوريتهم من بلخ، لتشمل أفغانستان والبنجاب، حتى بينارس فى شمال الهند. وقد أخذوا الكثير عن الهنود، وخاصة مهاراتهم الإدارية وديانتهم. واعتنق كانيشكا، الذى تولى الحكم حوالى سنة ١٢٠ ميلادية، الديانة البوذية التى كانت قيد التغيير فى تلك الفترة. وبعد أن كان بوذا[1] معلماً مترفعاً بعض الشىء، وربما اتسم بالفتور، أصبح الناس ينظرون إليه على أنه مُخلِّص أو إله. وساهمت الأساليب الفنية الهلينستية التى سادت المنطقة منذ قرون بقدر كبير فى رسم صورة إنسانية لبوذا أكثر جاذبية لعامة الناس.

وما تمخض عن ذلك فى تلك الآونة كان إمبراطورية مسالمة إلى حد ما تتميز بحسن تنظيمها. وكانت تطمح إلى نشر رسالة بوذا. وفى بداية عهد كانيشكا، وربما قبل ذلك، انتشر الكوشان فى جبال البامير ودخلوا حوض التاريم، مستولين بذلك على واحات يرقند وكاشغر وخوتان. وكانت سلطة الصين على تلك المنطقة مزعزعة دائماً. ففى سنة ١٠٧ ميلادية شن أهل التبت فى كانسو والشيونغ نو هجمات مشتركة على طريق التاريم الشمالى تسببت فى قطع الاتصالات تماماً، مما أدى إلى إلغاء الصين منصب المدافع العام واستدعاء سفرائها من المناطق الغربية. وفى غياب قائد فى مقدرة پان تشاو، لم يكن لدى الصينيين أمل كبير فى السيطرة على الواحات الغربية. ويبدو أنهم سرعان ماقبلوا وجود الكوشان فى

(١) كلمة «بوذا» معناها الحرفى هو «المستنير» أو «المستيقظ». أما اسمه فهو سد هارتا جوتاما. وُلد سنة ٥٦٣ ومات سنة ٤٨٣ قبل الميلاد. وعندما كان فى التاسعة والعشرين قرر ترك حياة الترف والإمارة وتحول إلى ناسك، بعد أن رأى أن الإنسان يصيبه المرض والشيخوخة ثم يموت. وتقوم الديانة البوذية على التأمل للوصول إلى حالة إنكار الذات والتحكم فى العواطف. (المترجم).

المنطقة. وربما كان ضمان وجود قوة تطمح إلى التجارة أراح الصين بعض الشىء من العبء الثقيل، الخاص بالدفاع عن تلك النقاط شديدة البعد. وعلى أية حال، فقد سارع الكوشان بإثبات وجودهم كقوة مؤثرة على طريق الحرير. وطوال الخمسة قرون التالية على الأقل، ظل حوض التاريم تحت التأثير البوذى القوى الذى أدخلوه.

***

وهكذا دخل طريق الحرير الإيقاع الذى سيكون عليه طوال القرن التالى، ولمدة ألف سنة أو يزيد على أقل تقدير. فسوف تقوم الإمبراطوريات وتنهار، ولكن التجار والحجاج لن تنقطع رحلاتهم على الطريق وهم يحملون بضائعهم وأفكارهم عبر مسافة تصل إلى خمسة آلاف ميل من أرض آسيا. وكلما اشتدت هذه القوى الأربعة، الصينيون والكوشان والبارثيون والرومان، كانت تشكل سلسلة عظيمة تمتد عبر القارة.

كانت الحراير تتدفق على الغرب من الصين على هيئة شلات من الخيوط ولفائف من القماش المنسوج بعروض معينة فى الورش الإمبراطورية. وإلى جانب ذلك، كان الصينيون يرسلون إلى روما الأدوات الحديدية الفاخرة. وكانوا تعلموا صناعة الأدوات الحديدية فى فترة متأخرة من الغرب. إلا أنهم ابتكروا طريقة لصنع الحديد الزهر ظل الغرب يجهلها لقرون عديدة[1]. لذلك كانت سلعهم الحديدية تلقى تقديراً عظيماً من التجار الآسيويين. وكان فراء مرتفعات التبت والتلال المنغولية يُجمع من أجل التجارة الغربية، حيث كان الصينيون لايزالون يمارسون تجارة الخراج مع الشعوب الواقعة على حدودهم. وكان پان پياو والد پان تشاو قد علّق على التجارة مع الشيونج نو الموجودين فى الشمال قائلاً: «. . . ربما نقدم لها هدايا بلا مقابل، اعتماداً على قيمة مايقدمونه هم لنا». وظلت لويانج عاصمة هان، إلا أن تشانج آن كانت المحطة الرئيسية لطريق الحرير، حيث كانت تتجمع بها كل البضائع المتجهة غرباً. ومن تشانج آن كانت القوافل، وهى فى هذا الجزء من الطريق عبارة عن أرتال من العربات فى بعض الأحيان، تسير فى الطريق الإمبراطورى نحو الغرب عبر ممر كانسو إلى تونهوانج. وكان الصينيون يسيطرون على هذا الجزء من التجارة سيطرة تامة. إلا أنهم أخذوا يستأجرون الوكلاء ليقوموا بالتجارة الفعلية وظلوا هم فى بلادهم.

---

(١) بدأت صناعة الحديد عند الحثيين فى شرق الأناضول فيما بين ١٩٠٠ و ١٤٠٠ قبل الميلاد وعند انهيار إمبراطوريتهم سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد كانوا قد أتقنوا صهر الحديد. وبحلول سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد كانت الأدوات المصنوعة من الحديد والمعارف الخاصة بصناعة الحديد قد انتشرت فى الشرق الأدنى وعالم البحر المتوسط. وكانت بداية العصر الحديدى فى الصين حوالى سنة ٦٠٠ قبل الميلاد حيث ابتكر الصينيون أفراناً لإنتاج الحديد الزهر. (المترجم)

وتخصص الصُغد[1]، وهم رعايا كوشان من سمرقند، في تجارة القوافل في التاريم والبامير. وكانوا من الكثرة بحيث أصبحت لغتهم، الصغدية، هي اللغة المشتركة في النصف الشرقي من طريق الحرير في تلك الفترة. وغالباً ماكان هؤلاء المتخصصون الذين يسوقون الجمال يتولون مسئولية التجارة من تونهوانج ومابعدها غرباً، إن لم يكن في تشانج آن. وكانت القوافل الضخمة التي تضم مئات الجمال، وتزيد أحياناً على الألف، تجتاز الصحراء متجهة نحو الغرب. وعندما كانت الظروف السياسية تسمح، كانت تسلك الطريق المتجه إلى هامي وتسير بمحاذاة الطرف الشمالي من التاريم. أما إذا ظهرت بعض القلاقل، كأن يكون الشيونج نو في حالة انتقال، أو كان مقصد القوافل هو بلخ أو الهند، فإنها قد تفضل الطريق الجنوبي الأشد جفافاً لكونه الأكثر أماناً. وكان اتجاه لولان أقل الطرق قبولاً، حيث كان ماء تلك المناطق ينضب سريعاً. وكما فعل الصينيون، أنشأ الكوشان خطوطاً من النقاط المتقدمة التي تقيم فيها الحاميات لحماية القوافل من قُطَّاع الطرق لأقصى قدر ممكن.

وفي تلك الفترة، كما في كثير غيرها من عصور التاريخ، كان الجنود والتجار يمثلون جُل المسافرين على طريق الحرير. إذ كانت مصاعب الطريق سبباً في عدم قيام رحلات خاصة غير رسمية كتلك التي قد تقوم داخل الإمبراطوريات الكبرى عند أحد طرفي الطريق. إلا أنه كان هناك صنف مهم آخر من المسافرين قد بدأ في الظهور على طريق الحرير في تلك الفترة، وهم المسافرون على الطريق من المتدينين. ولم يكن هؤلاء قوماً عاطلين وإنما أصحاب هدف، سواء كان تنوير أنفسهم أو تنوير الآخرين. وكانت البعثات التبشيرية البوذية هي الأكثر نشاطاً في تلك الفترة.

ظلت الدعوة إلى هذا الدين الجديد تتسرب إلى الصين من الغرب لمدة قرن على الأقل. وفي سنة ١٢١ قبل الميلاد استُولي على تمثال ذهبي لبوذا من الشيونج نو ضمن غنائم الحرب. إلا أنه في سنة ٦٥ ميلادية، عندما رأى الإمبراطور الصيني في منامه «رجلاً ذهبياً» وقيل له إنه بوذا، طلب من البعثات التبشيرية الحضور من الهند إلى بلاط هان. وحضرت بعثتان ومعهما نصوص دينية ومخلفات مقدسة وجواد أبيض أصبح أسطورة. وكان ذلك أول اعتراف رسمي بالبوذية في الصين. أما البعثات التبشيرية البوذية فكانت تنشر دينها على امتداد النصف الشرقي من طريق الحرير، في التاريم وفي جبال البامير وماوراءها. إلا أن

(١) جاء في «مروج الذهب» أن «الهياطلة هم الصُغد، وهم بين بخارى وسمرقند». (المترجم).

نفوذها كان قاصراً عن الوصول إلى الهضبة الإيرانية، رغم ماتذكره الحوليات الصينية عن زيارة شخص بوذى من بارثيا.

وإذا كانت هذه بعثات رسمية، فالصُغد وغيرهم من التجار الكوشان كانوا مبعوثين غير رسميين. وربما كانوا هم الأكثر فاعلية فى نشر دينهم بهذا القدر من العمق والاتساع فى أنحاء التاريم وداخل الصين نفسها، حيث كانوا على علم بلغة شعوب آسيا الوسطى وأراضيها وعاداتها. كما أنهم كانوا قادرين على اجتذاب الآخرين إلى دينهم الجديد بنفس القدر الذى تعاملوا به تجارياً مع الصين والبامير.

وفى مراكز القوافل بجبال البامير، أو المدن الواقعة فى السهول التى وراءها، كان أفراد القوافل فى كثير من الأحيان يعهدون بنقل بضائعهم لغيرهم. واستمر الصُغد فى التوجه بتجارتهم شمالاً من خلال تركستان الغربية إلى السهوب الأوراسية. فى حين اتجه البلخيون أو الكوشان بتجارتهم فى الغالب إلى الجنوب على الطريق الرئيسى إلى الهند. بينما تولى الهنود التجارة على الطرق الفرعية عبر ممرات قره قورم وكشمير.

وعبثاً حاول الرومان، وكانوا لايزالون ممنوعين من عبور الأراضى البارثية، الحصول على صورة جلية للتجارة مع الشرق. وفى حوالى سنة ١٥٠ ميلادية يجمع الجغرافى اليونانى الرومانى بطليموس الشذرات التى كان الوكلاء التجاريون الذين أُرسلوا لتقصى أخبار الشرق قد حصلوا عليها. وليس من المحتمل أن يكون هؤلاء الوكلاء من الرومان. وليس بالضرورة أن يكونوا من رعايا الإمبرطورية الرومانية. فقد كانوا أناساً يمكنهم الاتجاه غرباً دون أية عوائق. وأحد مصادره رجل مقدونى اسمه مايس تيتيانوس وهو «تاجر مثل أبيه من قبله». ويشير بطليموس إلى أنه «. . . لم يقم بالرحلة بنفسه وإنما أرسل وكلاء من السيريس». وعلم بطليموس من وكلاء كهؤلاء بأمر اثنتين من مدن الشرق الكبرى: سيرامتربوليس (مدينة الحرير)، ويحتمل أن تكون تشانج آن، وسينى متروبوليس، وهى فى الغالب لويانج. كما سمع منهم عن «البرج الحجرى» الموجود فى مكان ما من جبال البامير ويلتقى فيه التجار من كل أنحاء آسيا للبيع والشراء. وهو يقول:

... من [باكتريا] إلى الشمال صعوداً لأراضي كُميدى المرتفعة ثم الانحراف بعض الشىء إلى الجنوب عبر الأراضى المرتفعة نفسها والسير حتى الممر الجبلى الذى تنتهي عنده السهول... ويقع هذا البرج الحجرى فى طريق الذين يصعدون الممر. وعنده تمتد الجبال شرقاً

لتلتحم بجبال ايماوس [البامير] التى تمتد شمالاً [حتى هذا المكان من الهند]...

والخلاف شديد حول موقع البرج الحجرى. ويرى كثيرون أن الوصف يشير إلى موقع فى جبال البامير الشمالية، بالقرب من بلخ، فى مكان ما عند منابع نهر يرقند. والأودية هناك سحيقة ويصعب الوصول إليها. لذلك يميل كثيرون غيرهم إلى الاتفاق مع تحديد أوريل ستاين لموقع البرج الحجرى بأنه وادى نهر ألاى بين كاشغر وفرغانة. وبغض النظر عن كون البرج الحجرى (وهو بالتركية تاشكُرجان) اسماً شائعاً جداً فى المنطقة، فإن تحديد موقعه مسألة معقدة، لأن معلومات بطليموس فى أفضل الأحوال منقولة عن السند الثالث حسب علمه هو. وفى تعليق له على جغرافى استعمل نفس المصادر اختلف معه على عدد من النقاط يقول:

لم يصدق مارينوس نفسه [فى مناسبات أخرى] إلا قدراً بسيطاً من روايات التجار... فهو يرى أن هؤلاء الناس لايبذلون جهداً فى تقصى حقيقة تلك الأمور، لكونهم مشغولين دائماً بأعمالهم. كما أنهم كثيراً ما يبالغون فى المسافات بدافع التباهى. وبما أن الأمر كذلك، وحيث لايبدو أن هناك شيئاً آخر يرون أنه يستحق أن يتذكروه أو يرووه عن رحلة السبعة أشهر تلك، فقد جعلوا من طول الوقت الذى استغرقته شيئاً عجيباً.

وهنا ينتقد بطليموس بشكل محدد قبول مايس تيتيانوس القول بأن الرحلة من البرج الحجرى إلى سيرا متروبوليس استغرقت سبعة أشهر. فبطليموس يعتبر ذلك ضرباً من المبالغة ويهبط بالرقم إلى أربعة أشهر وأربعة عشر يوماً، وإن كان يشير إلى أنه «لم يكن مفترضاً أن هناك ضرورة لاستمرار السفر دون توقف دائماً». وتخمينه يقترب بشدة من الواقع. فلو قلنا أن الطريق طوله ٢٥٠٠ ميل والقافلة تقطع فى اليوم الواحد ٢٠ ميلاً، فإن المسافرين سوف يقضون بالفعل أربعة أشهر ونصف فى الطريق. إلا أنه على المرء أن يصدق أن وكلاء مايس تيتيانوس لم يتعدوا جبال البامير، وأنهم كانوا يرددون مجرد أقاويل. فمن المؤكد أن الرحلة الشاقة عبر التاريم كانت تستحق أن يُروى عنها مايتعدى مجرد طول المسافة.

ومعلومات بطليموس فيما يتعلق بالرحلة من البحر المتوسط مروراً بالهضبة الإيرانية تتمتع بقدر أكبر من الصدق:

... [يبدأ الطريق من] معدية الفرات عند هيرابوليس عبر بلاد مابين النهرين وصولاً إلى دجلة، ومن ثم يمر بأرض آشور وميديا ليصل إلى إيكبتانا والبوابات القزوينية ليعبر بارثيا إلى هيكاتومبيلوس... والطريق من هيكاتومبيلوس إلى جرجان لابد أن يتجه شمالاً... وبعد ذلك يمر الطريق فى آريا ليصل إلى مرو، حيث يميل أولاً إلى الجنوب (إذ تقع آريا على نفس خط البوابات القزوينية) ثم إلى الشمال... ومن ثم يتجه الطريق شرقاً إلى باكترا...

كانت مدينة باكترا فى ذلك الوقت تتمتع بنفس القدر الذى كان لها دائماً من الأهمية، وإن لم تعد عاصمة الكوشان (التى انتقلت إلى بيشاور شمال غربى الهند). ولكن بما أن الطريق الهندى فى تلك الفترة كان به ما فى طريق الحرير من حركة ونشاط، فقد احتفظت بدورها كمركز قوافل رئيسى وزادت من قدره. وكانت المدينة فى سبيلها للحصول على اسم جديد. فقد سماها الهنود باليكا وتحرفت بمرور الوقت إلى بلخ، وهو الاسم الذى عُرفت به فى القرون التالية.

وكان اختفاء الاسم اليونانى القديم مؤشراً على الوضع فى النصف الغربى من طريق الحرير. فمع أن التجار اليونان أمثال مايس تيتيانوس كانوا لايزالون يمارسون تجارتهم، فاللغة والعادات والتقاليد اليونانية أخذت تتوارى على طول الطريق. ومن الهضبة الإيرانية نزولاً إلى بلاد مابين النهرين وعبوراً إلى سوريا، كان أفراد القوافل فى أغلبهم من اليونان أو السوريين أو اليهود. إلا أن اللغة التجارية أصبحت هى الأرامية، لغة بابل والمسيح، وهو ما كان قائماً قبل ظهور الاسكندر على الساحة.

وبذلك سارت الحرائر والفراء والأدوات الحديدية ومعها الجواهر والتوابل والأقطان الآتية من الهند لتعبر الحاجز البارثى. واستمرت المدن المحصنة، التى وفرت الحماية للتجار الجوالين طوال مايزيد على ألفى سنة، فى إيواء أفراد قوافل طريق الحرير. فمع وجود القبائل المحلية، وربما أيضاً فرق الهجانة الحكومية، المكلفة بحمايتها من محطة إلى أخرى، شقت القوافل البارثية طريقها عبر المرتفعات الإيرانية نزولاً منها إلى بلاد مابين النهرين.

وهناك كانت مدينة جديدة قد احتلت موقعاً متقدماً على طريق الحرير، وهى مدينة طيسفون البارثية التى أُنشئت سنة ١٢٩ قبل الميلاد لتكون عاصمة شتوية. وأصبحت التجارة التى كانت تمر عبر العاصمة اليونانية القديمة سلوقية تعبر القوس الكبير فى طيسفون، وهو

لايزال قائماً بين أطلال المدينة الواقعة على بعد ٢٠ ميلاً جنوب شرقى بغداد. وكما كان يحدث فى الماضى، كانت القوافل تسير فى طريق يتجه إلى الشمال الغربى على حافة الصحراء السورية.

وبعد مسافة قصيرة يقطعها المسافر إلى أعالى نهر الفرات كانت تقع مدينة دورا أوروبوس، التى أنشأها السلوقيون سنة ٢٨٠ قبل الميلاد على ضفاف النهر. ولكنها فى ذلك الوقت، أى القرن الأول الميلادى، كانت معقلاً بارثياً مزدهراً يحمى طرق التجارة الحيوية. وكان السكان هناك يزرعون أراضى صحراوية ترويها قنوات تخرج من النهر. أما غلتها فكانت الخضروات والأعناب، لصنع النبيذ، والزيتون، لاستخراج زيته، والقمح، لصنع الخبز. وكانت القوافل تشترى من هناك آخر ماتحتاجه من مؤن لرحلتها فى الصحراء، بما فى ذلك دواب الحمل وأهمها الجمال العربية. وكان الحكام المحليون يُحصِّلون آخر المكوس البارثية التى تُجبى على طريق الحرير. وبعد دورا كانت القوافل تدخل منطقة عازلة، لا هى رومانية ولا بارثية، وتتكون من أراضٍ تخلَّوا عنها لعدة دويلات عربية واقعة بين حدود الإمبراطوريتين[1].

ومن دورا كانت بعض القوافل تتبع الخط القديم لطريق الصحراء الكبرى المتجه إلى الشمال الغربى نحو أنطاكية. ووصف الجغرافى اليونانى الرومانى سترابو نمط الحياة على الطريق فى رحلة استمرت ٢٥ يوماً من سكينى، وهى «مدينة بارزة تقع على قناة متجهة إلى حدود بابل»، وهيرابوليس شرقى أنطاكية:

وعلى ذلك الطريق جمّالة لهم محطات تجدها فى بعض الأحيان مزودة بما يكفى من الخزانات، وهى فى الغالب صهاريج، وإن كان الجمّالة يستخدمون أحياناً أخرى ماء جلبوه من أماكن أخرى. وكان الجمّالة العرب (Scenitae) **مسالمين ومعتدلين فى سلوكهم مع المسافرين أثناء جباية الخراج. وعلى هذا الأساس كان التجار يتحاشون الأراضى**

(١) ظهرت ممالك عربية فى الصحراء الواقعة بين بلاد فارس والروم استخدمتها القوتان الأعظم لتأمين طرقها ودعم القوى العسكرية فى وقت الحروب. كان هناك الأنباط وعاصمتهم البتراء التى ازدهرت فى القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادى. كما ازدهرت تدمر فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين. وظهرت فى القرن الأول الميلادى دولة الحضر جنوب غربى الموصل على حدود فارس. وكان هناك أيضاً المناذرة فى القرن الثالث الميلادى وعاصمتهم الحيرة. وفى القرن الخامس الميلادى اتخذ الغساسنة الجابية الواقعة فى الجولان عاصمة لدولتهم واعتنقوا المسيحية وظهرت فى عمان دولة المعوليين وعاصمتهم الرستاق. (المترجم).

الواقعة على طول النهر وكانوا يغامرون بالسفر فى الصحراء، تاركين النهر على يمينهم مسيرة ثلاثة أيام. ذلك أن زعماء القبائل الذين يقيمون على جانبى النهر يبسطون نفوذهم على أراض أقل جدباً من أراضى غيرهم، وإن لم تكن غنية فى مواردها. وهم يستثمرون أملاكهم تلك ويحصلون على خراج لا اعتدال فيه. فمن الصعب أن يكون بين هذا العدد الكبير من الشعوب، وكذلك بين الشعوب التى تتسم بالعناد، معيار مشترك من الخراج فى مصلحة التاجر.

***

ينطبق كثير من هذا الوصف على ماكان يعد الطريق الرئيسى فى تلك الفترة، وهو الطريق الصحراوى الذى يتجه غرباً من دورا أوربوس إلى تدمر ودمشق. وطوال ألفى سنة على الأقل قبل العصور الرومانية، كان بدو الصحراء يقصدون عيون تدمر الكبريتية، التى كانت بمثابة مركز للقبائل فى وسط الصحراء. كما كانت محطة لرسل البريد السريع أو الجماعات الصغيرة العابرة للصحراء. ولم يكن ذلك طريقاً رئيسياً للقوافل، لأنه كى تحصل القوافل الكبيرة على كفايتها من الماء كان لابد من حفر الآبار على طول الطريق وصيانتها. والشيء الأهم هو أن عصابات البدو كانت تهاجم الطريق الذى يمر عبر الصحراء بعيداً عن الحصون التى تقيم بها الحاميات. ورغم ذلك استطاعت شيئاً فشيئاً أن تحقق قدراً بسيطاً من الرخاء، وإن ظل رخاءً غير مستقر مائة فى المائة. وبحلول سنة ٤١ قبل الميلاد كانت مدينة كبيرة بالقدر الذى أثار اهتمام مارك أنطونيو. ولكنها لم تكن كبيرة جداً. ذلك أن سكانها عندما علموا بقدوم الجيش استطاعوا أن يجمعوا حاجياتهم ويرحلوا، تاركين القائد الرومانى الذى جاء للاستيلاء عليها أمام مدينة خالية (يفترض أنهم لجأوا مؤقتاً إلى دورا أوروبوس).

ومع تطور طريق الحرير، أصبحت هناك رغبة أكبر فى وجود طريق أقصر إلى مدن التكرير على البحر المتوسط. وهكذا ازدهرت تدمر وسط الصحراء. وفى كتابه «مدن القوافل» وصفها ميخائيل روستوفتزيف بأنها «واحدة من أغنى مدن سوريا وأكثرها رفاهية وبهاءً». واختص بالذكر طرقها الفريدة الواسعة المؤدية إلى أنحاء المدينة المختلفة، حيث تقوم على جوانبها مئات الأعمدة على الطراز اليونانى الرومانى. ويمضى روستوفتزيف قائلاً: «وكثيراً مايتخيل المرء أنها انبثقت من رمال الصحراء بحركة من عصا سحرية. فسرعان ماتحولت قرية تدمر القديمة وربما الصغيرة والبسيطة، [إلى بالميرا]».

وكانت علاقة پالميرا (تدمر) بروما معقدة بعض الشيء. فعلى الورق كانت تعد جزءاً من الإمبراطورية الرومانية. إلا أنها فى الواقع كانت تحصّل المكوس الخاصة بها. ويبدو أنها كانت تتمتع بقدر كبير من الحكم الذاتى. وكانت لها قوة شرطة صحراوية نشطة من الرماة الراكبين الذين كانوا يطوفون بالمنطقة العازلة بين القوتين الأعظم، روما وبارثيا. إلا أنه اعتباراً من منتصف القرن الثانى الميلادى أقامت حامية رومانية هناك. وكان السبب الظاهرى لذلك هو مساندة شرطة الصحراء. وتولى الرومان حفر الآبار فى المنطقة التى خضعت مباشرة لسلطتهم وأقاموا أبراجاً للمراقبة للمساعدة فى حماية الطريق عبر الصحراء.

أما بلينى، الذى يقدر تعداد پالميرا بـ ٦٠٠ ألف نسمة فى القرن الأول الميلادى، فيشهد على موقع المدينة الفريد، بصفتها مدينة دولة شبه متمتعة بالحكم الذاتى:

> **پالميرا مدينة تشتهر بموقعها وبخصوبية تربتها وبعيونها التى تسر النظر. حقولها تحيط بها من كل جانب دائرة شاسعة من الرمال، كأن الطبيعة عزلتها عن العالم، بحيث يكون لها قدرها الخاص بين الإمبراطوريتين القويتين فى روما وبارثيا. وفى اللحظة الأولى من أى نزاع بينهما تجتذب اهتمام الجانبين.**

ومع تزايد القوافل التى سارت عبر الأراضى القاحلة التى تسمى پالميرينا، توثقت صلات سكان المدينة، ومعظمهم من الساميين إلى جانب بعض اليونان، بالإمبراطورية الرومانية. واتخذ كثير من سكان المدينة ذوى الثروة والنفوذ أسماء رومانية (كما حدث قبل قرون حين اتخذ الناس أسماء يونانية). بل أصبحوا مواطنين رومان. وبعض تجار پالميرا، الذين اتبعوا مسار البضائع الشرقية التى كانوا يتاجرون فيها، انتشروا فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية فوصلوا إلى مصر وإلى وادى الدانوب وإلى روما نفسها، حيث كانت لهم مراكزهم التجارية الخاصة والمعابد التى تُعبد فيها آلهتهم.

وكانت ثروة پالميرا بالكامل تقوم على التجارة. كما أن قوانينها التجارية حددت الرسوم التى يجب دفعها عن كل السلع التى يحملها التجار شرقاً أو غرباً. وكانت هناك ضرائب على العبيد والعاهرات والأقمشة من كل نوع والسلع الجافة والعطور والزيوت والملح (وهو حيوى بالنسبة للصحراء) وحتى الماء، وهو سبب وجود پالميرا. وكانت هذه الضرائب موسمية فى بعض الأحيان.

وفى سنة ١١٤ ميلادية تعكر الصفو عندما شن الإمبراطور الرومانى تراجان هجوماً

على بارثيا واستولى على كل من دورا أوروبوس وطيسفون العاصمة، وكان بذلك يسير على خطى مارك أنطونيو ويوليوس قيصر. إلا أن تلك الأراضى استُعيدت فى زمن خليفته أدريان وانتعشت التجارة من جديد. وزار أدريان نفسه پالميرا وأطلق عليها اسم أدريانا پالميرا وجعل منها مدينة حرة داخل الإمبراطورية. ولم تتحمل الخزانة الرومانية تكاليف الاستقبال الحافل الذى لقيه أدريان، بل دفعها أحد تجار پالميرا الموسرين. ومثل هؤلاء التجار وقادة القوافل، بل والجمّالة، وهم من تحقق على أيديهم جزء كبير من ثروة المدينة، كانوا يكرمون فى كثير من الأحيان بإقامة تماثيل لهم. وكان فى شوارع پالميرا الرئيسية مايزيد على مائتى تمثال. وقد تحطم كثير من هذه التماثيل أو شُوه ضمن حملة تحطيم الأصنام فى العصور الإسلامية اللاحقة. إلا أن وصفها ظل باقياً فى الغالب. على سبيل المثال كان أحد هذه التماثيل لتكريم قائد القافلة سوادوس بوليادو الذى تشير عبارات التكريم إلى أنه «فى كثير من المناسبات المهمة قدم مساعدات سخية إلى التجار والقوافل و. . . مواطنيه». وتدل التماثيل التى كُتب لها البقاء على أن أهل پالميرا كانت لهم علاقات قوية مع الشرق كما مع روما. وكانت كل ملابسهم، وهى سُترات طويلة وسراويل واسعة ومعاطف طويلة لركوب الخيل لها أزرار لامعة ذات طابع بارثى. كما كانت النقوش التى على الحراير وغيرها من الأقمشة ذات طابع شرقى. ويشير إيان بروانج فى كتابه «پالميرا» إلى أن «الزخارف المجدولة والمتكررة. . . المنسوجة بألوان زاهية، إلى جانب الأشرطة ذات النقوش الثابتة من الزهور والحيوانات المرعبة التى تشق طريقها عبر النباتات» كانت مختلفة تماماً عن النقوش التى سادت المنطقة الواقعة غرب پالميرا.

وبينما كان نجم پالميرا يبزغ، كان نجم البتراء فى طريقه إلى الأفول. إذ أدى الأمن المستتب على أرض آسيا فى ظل الزعامة الرومانية إلى انهيار البتراء. كما أن الطريق الصحراوى عبر پالميرا كان فى ذلك الوقت أقصر الطرق إلى دمشق والمدن الساحلية. ولم يعد من المجدى إرسال جزء كبير من السلع الشرقية حول الجزيرة إلى طريق القوافل البرى. وعلى أى الأحوال، فلم تعد القوافل تحتاج فى ظل الحماية الرومانية إلى المأوى الذى يوفره معقل البتراء الصخرى. وبحلول القرن الثانى الميلادى نقل أنباط البتراء عاصمتهم إلى بصرى على طريق البخور الرئيسى. وشيئاً فشيئاً هُجرت البتراء، بل وطواها النسيان لعدة قرون.

وهكذا تدفقت الحراير من الصين واليشب من آسيا الوسطى والعاج من الهند، إلى جانب التوابل واللؤلؤ والجواهر والمعادن النفيسة غرباً، عبر پالميرا فى أغلب الأحيان، إلى

مدن غرب آسيا وخاصة دمشق وصور وصيدا وبيروت (وكانت فى ذلك الوقت تسمى بيريتوس) وأنطاكية. وكان لدى كل منها مايميزها عن سواها وما تقدمه لتجارة الشرق والغرب.

وكانت دمشق على الطريق المباشر من پالميرا. وكان نساجو دمشق المشهورون يصنعون تيلاً فاخراً من الكتان الذى يزرع فى السهول القريبة. وابتكر هؤلاء الصناع الخبراء نقوشهم المميزة لنسج الحرير. وكان القماش الذى يصنعونه يحمل اسم مدينتهم: الدمقس (damask). وكانت هذه الأقمشة تلقى قبولاً شديداً، حتى أن بعض أثواب الحرير المنسوجة فى دمشق كانت تعود عبر آسيا إلى الصين. كما أن الفواكه المجففة كانت تصدر إلى كل الأنحاء، وهى من إنتاج بساتين دمشق اليانعة وحدائقها وكرومها. وربما تكون المدينة قد اكتسبت فى تلك الفترة المبكرة شيئاً من شهرتها الخاصة بالأشغال المعدنية الدقيقة (باستخدام الحديد والصلب من الهند والصين) التى تفوقت فى صناعتها فى العصور العربية اللاحقة.

وحظيت بيروت وصور وصيدا أيضاً بنساجيها الخبراء، وخاصة نساجى التيل والحرير. إلا أنها أضافت ميزة فريدة، وهى الصبغة الأرجوانية. وهنا أيضاً تقوم مراكز صناعة الزجاج (ويبدو أن طريقة نفخ الزجاج اكتُشفت فى صيدا فى حوالى القرن الأول قبل الميلاد). والواضح أن الزجاج لم يكن جميلاً فحسب، وإنما تميز كذلك بقوته. فقد ظلت أسطورة «الزجاج غير القابل للكسر» متداولة فى المنطقة عدة قرون. والواقع أن وصوله سليماً إلى الصين عبر طريق الحرير قد يكون دليلاً على قوته.

وبما أن تلك كانت الموانىء الرئيسية فى غرب آسيا، التى تخرج منها الصادرات إلى أنحاء عالم البحر المتوسط، فقد كان لها دور فعال فى كل الأنشطة الصناعية والتجارية. وكما يشير أحد المعاصرين: «تموج صور بكل أنواع الأعمال التجارية». وكانت لصيدا أهمية خاصة لكونها ميناء دمشق القريب منها. ووضع الرومان حاميات إضافية بينهما، لأن عصابات اللصوص كانت لها معاقلها فى الجبال التى بين المدينتين.

وبخلاف كل هذه المدن كانت هناك أنطاكية، التى أطلقوا عليها بحق «تاج الشرق الجميل». وكانت تمتد على ضفاف نهر العاصى وسفوح الجبال المحيطة به. وهى عاصمة الشرق الرومانى. وكان الصينيون يعتقدون أنها روما. وفى هذه العاصمة التجارية والسياسية اتخذ التجار الكبار بيوتاً لهم. وفيها كانوا يمولون ويستأجرون أفراد القوافل الذين كانوا يصلون إلى أنطاكية من الصين والبحارة الذين يقطعون البحر المتوسط من أنطاكية (عبر

مينائها سلوقية) إلى روما، وإلى أسبانيا كذلك. ولم يكن أقل ما تتميز به المدينة هو مناخها الصحى بنسيمه العليل القادم من البحر المتوسط ونهر العاصى جاعلاً منها منتجعاً صيفياً تهوى إليه أفئدة سكان المدن الأخرى.

وعندما كانت القوافل تدخل المدينة نفسها كانت تجد أنها تسير فى طريق عرضه ٣٠ قدماً مرصوف بالجرانيت يؤدى إلى مدخل ضخم عليه بوابات ثقيلة. وإذا مر أفرادها بحميرهم وجمالهم من البوابة ـ قال البعض «كما لو كانوا عرائس» ـ وجدوا أنفسهم على طريق عريض تحفه أعمدة ضخمة، تذكرنا بشوارع پالميرا ذات الأعمدة. وبين الأعمدة كان كثيرون من التجار يقيمون دكاكين صغيرة، رغم كون ذلك مرفوضاً من الناحية الرسمية. وأُقيمت صناعات كبيرة، كالنسيج والأشغال الجلدية والأشغال المعدنية وغيرها، فى أماكن أخرى، كل فى قطاع خاص بها من المدينة. وإن كانت هذه الصناعات لا تضاهى تلك التى فى المدن الرئيسية الأخرى بالمنطقة. أما كبار التجار، وهم هؤلاء الذين يتحكمون فى تجارة الاستيراد والتصدير التى تمر عبر سوريا، فلم يقيموا فى شوارع المدينة تلك، رغم ما قد تكون عليه من جمال وإضاءة ساطعة. فقد كانت منازلهم الفخمة فى الضواحى على السفوح الباردة الظليلة التى تحيط بقلب المدينة بيضاوى الشكل. وكما هو حال نظرائهم فى پالميرا، كان تجار أنطاكية (وغيرها من المدن القريبة) متواجدين فى سائر أنحاء الإمبراطورية الرومانية.

وفى ذلك الوقت كانت أنطاكية هى المدينة التى تتحكم فى التجارة عبر آسيا، حيث كانت بمثابة نهاية طريق الحرير والمحطة الأخيرة فى الطريق البرى. إلا أن رحلة الحرير لم تكن قد بلغت نهايتها عند وصولها إلى مدن آسيا الغربية، على الأقل عندما كانت الإمبراطورية الرومانية فى أوج مجدها. فمن موانىء الشرق الرومانى كانت الحراير المصبوغة والمنسوجة والمطرزة تُصدر إلى روما وإلى الأجزاء البعيدة من الإمبراطورية. وكانت فى بعض الأحيان تقطع الرحلة من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى. وفى المقابل، كان الرومان يرسلون الذهب والفضة، إلى جانب مصنوعات غرب آسيا، وهو ما أدى إلى نضوب ثروات إمبراطوريتهم شيئاً فشيئاً من أجل ارتداء الحرير الثمين. وليس بمستغرب أن ينوح بلينى على ذلك قائلاً: «هذا هو الثمن الذى دفعناه لقاء ترفنا».

الفصل السابع

الحُجَّاج والدُعَاة

... عندما تُلى [السوترا]، أصبح بالإمكان عبور الجبال والأنهار وأضحت الطرق سهولاً يمكن السير فيها. واختفت النمور والفهود. وانصرفت العفاريت والأشباح. وهكذا استطاع شيوان تسانج الوصول إلى أرض بوذا.

ـ من «تاى بنج كوانج تشى»

مجموعة صينية من أواخر القرن العاشر
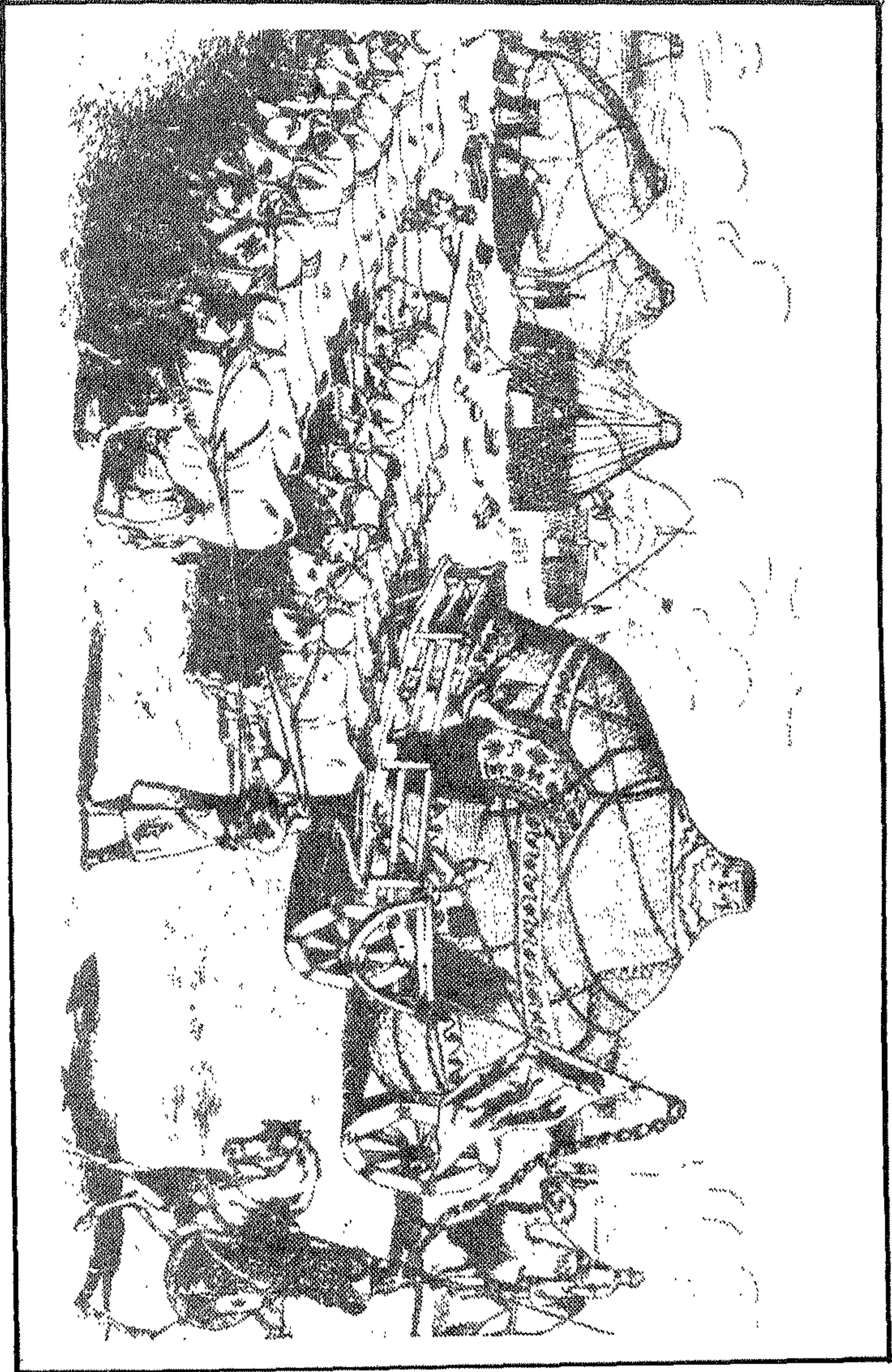
خركاهات مغطاه باللباد تنقل على عربات ضخمة أثناء الهجرة، كانت بيوت شعوب السهوب لقرون عديدة. (رسم كوينتو سيني؛ من نسخة يول من «ماركو بولو»).

رغم ماتقوله قصص الصين في العصور الوسطى، لم يكن مجرد تلاوة «سوترا»[١]، وهو نص من الكتابة البوذية المقدسة، كافياً لإبعاد الشرور والأخطار وتيسير سفر الحجاج المؤمنين عبر آسيا. فالواقع أن المخاوف والأخطار التى صاحبت رحلات الحجاج البوذيين الشجعان تتضح بشدة فيما كتبوه عن رحلاتهم. وكان بعضهم قد أمضى مايزيد على العشر سنوات فى رحلته إلى الهند والعودة منها. فالهند هى موطن محبوبهم بوذا. وبينما كان التجار وقوافلهم العلامات المميزة على طريق الحرير فى أوج مجده فى القرن الثانى الميلادى، فإن الحجاج الجوالين هم من ميزوا القرون المضطربة التى تلت ذلك. وقد واجه هؤلاء الرحالة المتدينون عالماً يختلف كثيراً عن عالم القوافل التى تحيط بها الحراسة الواجبة وكانت تشق طريقها بصعوبة عبر الصحراء فى الفترة الأولى من ازدهار طريق الحرير. فالمعروف أن عالم الأمم القوية، التى كانت تملك القوة والموارد التى تمكنها من زرع الحاميات فى أبراج المراقبة على بعد مئات الأميال من الوطن، انهار بعد عشرات معدودة من السنين.

وكما يحدث فى منظار الأشكال الملونة (الكاليدوسكوب)، تغير وضع طريق الحرير بالكامل فى حوالى سنة ٢٠٠ ميلادية. فالقوى التى اتسم حكمها بالعظمة والأبهة، وهم الرومان والبارثيون والكوشان والصينيون، سقطت سقوطاً مشيناً، كل بطريقتها ولأسباب تختلف عن أسباب الأخرى. وساهم الجفاف الذى تعرضت له صحارى آسيا وسهوبها فى حدوث ذلك التغير الكبير. كما أدى إلى انتقال تلك الأعداد الضخمة من البدو، الذين عاشوا دائماً حياة غير آمنة وعكروا صفو الحضارات العظيمة التى قامت عند أطراف آسيا. وأضحت الأنشطة التى شهدها الطريق العظيم الذى يمر عبر آسيا ذات مسحة دينية متزايدة، بعد أن ظلت زمناً طويلاً تتسم بطبيعة تجارية وعسكرية وسياسية. والواقع أن هناك قدراً كبيراً من الحقيقة فيما يقال عن كون عدم الأمان وتقطيع أوصال آسيا فى القرون التالية سبباً جعل الكثيرين يتحولون إلى الديانات الجديدة نسبياً التى غيرت وجه طريق الحرير.

وفى حالة الفراغ التى نجمت عن ذلك، ازدادت الدول المحلية قوة. ومن بين هذه الدول تدمر، التى امتد نفوذ آخر ملكاتها، وهى زنوبيا (الزباء)[٢]، إلى مصر. بل وقيل إنها

---

(١) كلمة سنسكريتية معناها «الخيط» وتطور المعنى لتصبح «الخيوط المرشدة». وهى فى البوذية والهندوسية مجموعة من النصوص المرشدة. (المترجم).

(٢) تولت عرش تدمر بعد مقتل زوجها أذينة سنة ٢٦٨ ميلادية وقررت الاستقلال عن روما وطردت جيشها حتى أنقرة ليمتد حكمها من مصر حتى الأناضول. وبينما كانت تنتظر هجوم الساسانيين من الشرق، جاءها الرومان من البحر وهزموها فى حمص واستولوا على تدمر. (المترجم).

شربت من كأس كليوباترا. وكان الدمار والخراب هما مادفعته تدمر سنة ٢٧٣ ثمناً لتكبرها، وإن بقيت هى على قيد الحياة لتقيم فى روما فى سعة من العيش. ولم تقم قائمة لتلك المدينة العظيمة التى ازدهرت فى الصحراء وكانت روما أحوج ماتكون إليها، حيث استولت على الثروات قصيرة الأجل التى كانت فى خزائن تدمر وفقدت ذلك السيل الدائم من النفائس الآتية من الشرق عبر الطريق الذى يمر بپالميرا.

وظلت التجارة على الطرف الغربى من طريق الحرير غير منتظمة ولا مضمونة فترة من الزمن. وكانت مدن صور وصيدا وبيروت وأنطاكية لاتزال مراكز رئيسية للصباغة والنسيج والصناعة. إلا أن الطرق المتجهة غرباً إليها كانت غير مستقرة. وكذلك كان حال أسواقها الرئيسية. إذ كان مركز الجذب فى الإمبراطورية الرومانية ينتقل شيئاً فشيئاً نحو الشرق. واتضح هذا الانتقال فى تأسيس الإمبراطور قنسطنطين لعاصمة رومانية شرقية فى القسطنطينية[1] سنة ٣٣٠ ميلادية فى نفس موقع المدينة اليونانية القديمة بيزنطة. وعلى مدى القرن التالى عانت الإمبراطورية الرومانية من الانهيار الحاد. وكمنت القوة التى بقيت للإمبراطورية فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وخاصة فى القسطنطينية.

وكان هناك تغير من نوع آخر يحدث فى المنطقة، وهو ظهور المسيحية. فقد أدى اعتناق قنسطنطين لهذا الدين إلى إعطائه الصفة الرسمية فى الإمبراطورية لأول مرة، بعد أن ظل ثلاثة قرون ينتشر فى ظل الاضطهاد. وكانت مدن كثيرة على الطرف الغربى من طريق الحرير، خاصة أنطاكية وطرسوس، ذات أهمية فى بدايات الدين الجديد وظلت مراكز مسيحية قوية. إلا أنه حتى ذلك الوقت لم تكن هناك كنيسة مركزية موحدة يعترف بها الجميع. لذلك قامت فى غرب آسيا مدارس فكرية عديدة حول المسائل اللاهوتية الرئيسية. وبعض هذه المدارس كان لها دور مهم فى تاريخ طريق الحرير.

ومع بداية القرن الثالث الميلادى كان البارثيون فى حالة من الضعف. فقد عمت الفوضى بين العديد ممن يُفترض أنهم موالون للملك البارثى. وليس غريباً أنه قبل انقضاء الربع الأول من القرن كان البارثيون قد أُقصوا عن الحكم. وكان ذلك على يد الفرس، الذين كانوا دائماً إحدى أقوى القبائل الخاضعة للبارثيين. ولأن ذكرى أمجاد الماضى كانت حية فى أذهان الفرس، فقد هبوا لإحياء إمبراطوريتهم القديمة. وخلال سنوات قليلة أصبح

---

(١) أصبح اسمها بعد ذلك استانبول وتحول فى عهد الدولة العثمانية إلى الآستانة ثم عاد مرة أخري استانبول أو اسطنبول. (المترجم).

الفرس من جديد يسـيطرون على الفرات وعلى اثنين من حصون بلاد مـابين النهرين، هما حران[١]، الذى شهد هزيمة روما للبارثيين قبل عدة قرون، ونصيبين[٢]، على الفرات، وقدر له أن يكون مدينة رئيســية على طريق الحرير فى القرون التاليـة. إلا أن ذلك تحقق لهم بعد معارك شرسة مع الرومان.

وبعد ذلك اتجـه الفرس الذين اسـتعادوا نفـوذهم شرقـاً، حيث كان الكـوشان يمثلون تهديداً للدولة الجديدة وثمرة حان قطافـهم لها، بعد أن زاد ثراؤهم من تجارة الحرير. وكأى قوة غاشمـة، اجتاح الفرس الطريق الهندى العظيم من بيشاور عاصـمة الكوشان حتى بلخ ومنها إلى سمرقند وطشقند. ودخلت جميعها الحظيرة الفارسية، فى الوقت الذى أصبح فيه الكوشان فى ذمة التاريخ. إلا أن تجار إمبراطورية الكوشان القديمة ظلوا يقطعون القارة جيئة وذهاباً بقوافلهم. وكان للصُغد بصـفة خاصة تأثير متميز علـى آسيا الوسطى خلال القرون التالية التى اتسمت بالفوضى.

وبعد أن امتـدت الأراضى الخاضعة للفرس إلى حدود البـامير «الطبيعيـة»، عادوا مرة أخرى إلى الغرب. واعتماداً على ضعف الرومان، استطاع القائد الفارسى سابور أن يستولى بسرعة على بلاد مابين النهرين وأرمينيا. وفى سنة ٢٦٠ ميلادية، وعند بلدة الرها المسيحية الكبرى، أُتيحت له فرصة مدهشة لأسر أسقف أنطاكية المسيحى إلى جانب ٧٠ ألف جندى والإمبراطور الرومانى نفسه. ومات الإمـبراطور التعيس فاليريان فى الأسر، إلا أن الأسقف والجنود الرومـان نقلوا إلى مدن جـديدة منتـشرة فى الأراضى الفـارسيـة أُقيـمت على نمط معـسكرات الجنود الرومانـية. ووُطِّن كثـير منهم فى الأراضى الواقـعة جنوبى بلاد مـابين النهرين، وخـاصة مدينـة جديدة كبـرى أطلق عليها اسم جنديـسابور (أى أنطاكيـة سابور الأفضل)[٣]. ووُطِّن آخرون فى مدن قـديمة وجديدة تحيط بالأراضى الفارسَيـة، منها مايقع

---

(١) يقول المقدسى فى «أحـسن التقاسيم»: إن «عليهـا حصن من حجارة على عمل إيليـا فى حسن البناء». وكانت تقع فى ديار مضر. (المترجم).

(٢) يقول الإدريسى فى «نزهة المشتاق» إنهـا «ذات سور عظيم.. وبالقرب منها قلعة بناها حمـدان بن الحسن وتسمى البازى الأشهب لايسـتطاع فتحـها البتـة لحصانتـها ومنعة مـوضعهـا». ويقول المقدسى إن «عليـها حصن من حـجر وكلس». (المترجم).

(٣) هذا هو سابور الملقب بـ«ذو الأكتـاف» وهو ابن هرمز بن نرسى ويقال إنه كانت له أكتاف عـريضة. إلا أن المسعودى فى «مروج الذهب» يقول إنه «خلع... أكتاف العرب فسمى بعد ذلك سابور ذا الأكتاف». أما مدينة جنديسابور فقد أنشأها من قبل سابور بن أردشيـر، الذى يقول المسعودى إن «العرب تلقبه سابور الجند» وهو جـد ذى الأكتاف. أما المدينة التى تنسب لذى الأكتاف فهى نيسابور بخراسان. (المترجم).

على طريق الحرير. وكان بين هؤلاء الأسرى الكثير من العمال المهرة والمعماريين والمهندسين والفنيين ومن على شاكلتهم. وبما أن الجنود الرومان كانوا فى الحرب والسلم يقيمون الجسور ويشقـون الطرق، عندما تدعو الحاجـة إلى ذلك، فقد جـعلهم الفرس يتولون مشـروعات الأشغـال العامة الضخـمة فى أنحاء الإمبـراطورية الفارسيـة. وتكوّن عدد من المجتمـعات المسيحية من هؤلاء المنفيين إجبارياً فى أنحاء متفرقة من بلاد فارس.

وكان سابور نفسه يميل إلى ديانة جديدة، تجمع بين الزرادشتية والبوذية والمسيحية، دعا إليها نبى اسمه مانى[1]. وكما هو متبع فى التقاليد الشرقية ابتعـد مانى عن موطنه القريب من طيسفون عـدة سنوات ليعيش كناسك متجول. ولأن الزرادشـتيين اعتبروه كـافراً، فقد جرّب البـوذية على الطريق العظيم فى الهند ثم عـاد إلى طيسـفون بعـد أن جعلهـا سابور عاصـمة الفرس الجـديدة. وهناك دعا إلى دينه «العالمى» الجـديد الذى عُرف بالمانوية وأعلن نفسه أحد حواريى المسيح عيسى[2]، رغم رفضه للعهد القـديم كله وبعض العهد الجديد. وتقوم المـانوية على ثنائية الخـير والشـر، والنور والظلام. وبعد وفـاة سابور تعـرض مانى وأتباعه للاضطهاد، حيث أصبحت الزرادشتيـة الدين الرسمى للإمبراطورية الفارسية المغرقة فى القومية. إلا أن أثـر مانى امتد عبر القرون إلى أوروبا وأدى إلى ظـهور طوائف أعتُبرت كافرة فى العصور الوسطى[3]. كما امتد إلى آسيـا حيث ظلت الجاليات المانوية موجودة فى الصين بعد مرور ألف سنة من وفاة مانى.

وطوال القرون القليلة التـالية كانت فارس تحـتل موقعاً فريداً على طريـق الحرير. ففى الوقت الذى كانت فيه القلاقل والاضطرابات تحـيط بهم من كل جانب، وكانت بين الحلفاء والأعداء على حد سواء، كان الفرس أقوى الأمم على ذلك الطريق العظيم الذى يربط بلاد

---

(١) هو مانى بن فاتك (٢١٦ ـ ٢٧٤ ميـلادية) وينتمى إلى عائلة مالكة بارثية. دعا إلى دينه الجـديد وهو فى العشرين حيث أقنع عدداً من القـادة المؤثرين بالدخول فيـه. ونال مانى حُظوة سابور ورافقـه فى حروبه فى الغرب. ومـات مانى وهو مكبل فى الأصفاد بعد أن تآمر عليه كهنة زرادشت المجوس. (المترجم).

(٢) مع أنه أطلق على نفسه اسم فارقليط الذى بشر به المسيح، كان إذا تحـدث إلى المسيحيين فهو يسوع المخلّص وإذا خاطب الزرادشتيين كان أهورامزدا الإنسان الأول. إلا أنه لم يكن يحب إله العهد القديم. (المترجم).

(٣) تُعرف هذه الطوائف التى ظهرت فى جنوب فـرنسا فى القرنين الثانى عشر والثـالث عشر بالمطهرين (Cathori) وكانت تؤمن بالثنائية التى فى المانوية وتعتبر أن العالم المادى شر ولابد من تحرير الروح من الجسد. وهى ترفض الزواج والجنس وتحرم تناول اللحوم والبيض والدواجن وتـرفض فكرة عذاب النار والمطهر والقربان المقدسة لوجود العنصـر المادى فيها. وكـانت هذه الجمـاعات هدفـاً لمحاكم الـتفـتيش فى القـرن الثالث عـشـر. أشهـرها «الألبيـجينيـز» (Albigeneses) و«البوجوميل» (Bogomiles) الذين كانت البوسنة مقرهم فى أواخر العصور الوسطى وقد دخل أغلبهم فى الإسلام بعد فتح الأتراك لها. (المترجم).

آسيا. وحيث إنهم كانوا يحتلون ذلك الممر الذى كـانت قوافل الحرير مضطرة لعبوره، فقد كانوا يحتكرون بشدة التجـارة على طريق الحرير. ومن خلال ذلك كان لهم أثر ضخم على مصير شعوب آسيا على الجانبين.

بل وصل الأمر بالفرس إلى التحكم فى طريق التوابل. وكان ذلك الطريق يربط البحر المتوسط والصـين عن طريق البحر، حيث يشكل مع طريق الحـرير النصف الآخر من ذلك الطريق البيـضاوى العظيم الذى يربط أجزاء آسـيا ببعضـها. وعبَّر عن أهميـة طريق التوابل وعلاقته بطريق الحـرير أحسن تعبير الكاتب الرومانى كوسمـاس انديكوبليوستيس فى أوائل القرن السادس عشر:

أرض الحرير فى أقصى بلاد الهند. وهى تقع على يسارك عندما تدخل البحر الهندى. إلا أنها تقع على مسافة تبعد كثيراً عن الخليج الفارسى وعن الجـزيرة التى يسـميـهـا اليونان تاپروبان [سيلان أو سـريلانكا]. وتزينستـا [الصين] هو اسم هذا البلاد... ويقع على مسـافة كبيرة إلى اليسار، حتى أن أعمال الحرير التى تمر عبر بلاد كثيرة مختلفة بالبر تصل بلاد فـارس فى وقت قـصير نـسبيـاً، إلا أن المسافـة بحـراً أطول بكثير. فـالمسافر إلى تزينستـا عليه أن ينحرف من تاپروبان والأقـاليم التى وراءها [إشارة إلى الملايو]. والمسافة التى يقطعها بحراً بعد ذلك ليست بقـصيـرة، وتشمل البحـر الهندى كله من الخليج الفـارسى حتى تاپروبان ومنها إلى المنـاطق التى وراءها. وبذلك يتضح أن أى إنسان يأتى عن طريق البر من تزينستا إلى بلاد فارس يقطع مسافة قصيرة جداً. وهذا يفسر وجود تلك الكميات الكبيرة من الحرير على الدوام فى بلاد فارس. وبعد تزينستا ليس هناك إبحار أو أرض مأهولة.

ومع أن حدود بلاد فارس الغـربية مع الإمبراطورية الرومـانية الغربية تغـيرت على مر القرون، حيث كانت قوة إحداهما تتعاظم أو تخبو مقارنة بالأخرى، فقد سيطر الفرس بقوة على الموانىء عظيمة الأهمية جنوبى بلاد مابين النهرين التى تقع على طريق التوابل. وعلى مر الزمن اتسع المدى الذى تبلغه السفن الفـارسية، لتصل أولاً إلى الهند وبعدها إلى الملايو وأخيراً إلى الصين نفسها، حيث كانت تشترى الحراير والتوابل من الصينيين مباشرة فى ميناء كانتون. وكانت التـجارة عن طريق البحر مع جنوب الصين، فى عصـور الاضطرابات فيما

بين القرنين الرابع والسـابع، أيسر ويُعَوَّل عليها أكثـر من التجارة البرية، رغم كـون المسافة بالبحر أطول كثيراً. فالصين أيضاً ضعفت وتقطعت فى أعقاب انهيار أسرة هان العظيمة.

ويسجل التـاريخ أن أسرة هان بقـيت حتى سنة ٢٢٠ ميـلادية. وهى السنة التى توفى فيها الإمبـراطور الأخير. ولكنه اعتباراً من سنة ١٨٥ ميلادية أُصـيبت الإمبراطورية بالشلل التام. فـقد أدت الفيضـانات والمجاعة إلى قـيام الثورات الشعـبية فى الداخل، وكـان يقود بعضها جماعة دينية عُرفت باسم العمامة الصفراء[1]. ومع أن التمرد أُحبط فى نهاية الأمر، إلا أن المذابح والدمار على كل الجـوانب كانت لها آثار بالغة السـوء. ويصف الشاعر وانج تسان الذى عاش فى تلك الفترة ما كان عليه الحال وقتها:

كانت العاصمة الغربية غارقة فى فوضى محزنة؛
يأتى الذئب والنمر ليزعجا أهلها...
وتناثرت العظام البيضاء على السهل...
ألتفت لأنظر إلى تشانج آن،
وفكرت فى عدد الذين باتوا تحت الأرض،
وتنهدت بعمق وتألم قلبى.

وعندما لم يتـمكن أى حاكم إمبراطورى من اسـتعادة النظام سادت فـوضى العسكر، حيث استـولى العديد من القواد على مناطق لأنفـسهم. وعندما قرر أحد الـقواد أن يجعل مركزه فى تشانج آن سنة ١٩٠، أطلق جنوده فى العاصمة القديمة لو يانج فأضرموا النار فى القصر الإمبـراطورى والمكتبة الرئيسية التى يُحـتفظ فيها بسجـلات أسرة هان والكنوز الفنية التى جُمعت على مر العصور ودمروا كل ذلك تقريباً. ولم يبق القائد نفسه كثيراً بعد عملية التدمير الفظيعة تلك. وبعد استعادة قدر بسيط من النظام، قُسمت الصين إلى ثلاث ممالك، واحدة مركزها سيتشوان فى الجنوب الغربى والثانية نانكنج فى الجنوب والثالثة فى لويانج فى الشمال. وفى سنة ٢٨٠ أُعـيد توحيد الإمبـراطورية لفترة قصـيرة. ولـم تدم الوحدة طويلاً لأن الصين، التى كان ضعفها واضحاً أمام الكل، كانت على وشك التعرض لأول غزو من الغزوات التى تعرضت لها على مدى القرون الثلاثة التاليـة من السهوب الشمالية والصحراء الغربية.

---

(١) بقيادة تشانج جيـاو. ورغم القضاء عليها فى أول الأمر، فقـد شاركت بقاياها قوات الانتفاضات الأخرى كـفاحها حتى سقطت هان الشرقية. (المترجم).

وكان من بين أول الغـزاة عشائر الشـيونج نو التى سُمح لها قـبل ذلك بكثير بالإقـامة داخل السور العظيم عند منعطف النهـر الأصفر (هوانج). فعندما لم تعـد لدى الشيونج نو الرغبة فى القـيام بدور الحليف والقوة العازلة التى تقف فى وجه الغـزوات التى علموا أنها آتية، انقضُّوا على الصين. فبدأوا بتدمير لويانج، وكان قد أُعيد إعمار أجزاء منها، وأحرقوا القصر وقـتلوا مايربو على الثلاثين ألفـاً من أهلها ونهبوا المـقابر الإمبراطورية. كـما دمروا تشانج آن. وتضمنت الحوليات الصينـية أنه: «فى خرائب تشانج آن. . . تناقص عدد الأسر إلى مادون المائة أسرة. ونمت الحشائش والشجيرات فى كل مكان».

فى تلك الفتـرة، لجأ كثـير من سكان شمـال الصين، وليس الموسـرين وحدهم، إلى الجنوب. وبينما انتقل مركز الإمبراطورية الرومانيـة الثقافى من روما إلى القسطنطينية، انتقل مركز الصين من تشانج آن ولو يانج إلى نانكنج. وتُرك الشـمال للحكام المتعاقبين الذين أتوا من السهـوب. كما تُركت الحقـول بلا فلاحة وأُخليت المدن. وأصبـحت الأرض على قدر كبير من الجدب، بحيث أضـحى من تبقى من سكان وادى نهر وى، الذى كان بمثابة القلب من الصين، فرائس للذئاب والـنمور. وكان اهتمام الحكام البـدو قليلاً بالمزارع والمزارعين، بطبيعة الحال. وعندما كان الناس يشكون من هجمات الحيوانات المتوحشة كان رد واحد من هؤلاء الحكام (كما تسـجله الحوليات) هو: «هذه الحيوانات جائعـة. وعندما تشبع لن تأكل إنساناً آخر».

ولم يكن الشيـونج نو، الذين عاشوا على امـتداد السور العظيم، أسـوأ هؤلاء الغزاة. فكثير منهم اكتسبوا صفات الصـينيين لطول اتصالهم بهم. وكان أشد منهم بأساً وقوة تلك القبـائل من الشيونج نو التى لم تـبرح السهوب والـشيان پى (أسلاف المـغول) الذين هبطوا شمال شرقى الصين من منشوريا. وتصارعت قبائل عديدة من الشيونج نو والشيان پى على شمال الصين وسيطرت عليه طوال القرون الثلاثة التالية. وبينما اكتسبت إحدى المجموعتين الصفات الصينية بصورة أو بأخرى، كانت القبيلة الأخرى الأشد قسوة، التى لم تكن الحياة المستقرة قـد ألانت طباعها، تتدفق بأعداد هائلة. وبنفس الطريقـة، كانت تتدفق الموجة تلو الموجة من الغزاة البدو، ومنهم الهون وهم نظراء الشيونج نو الغربيون، على أوروبا فى تلك الفترة. وربما كان من بين أسـباب انتقال كل منهما، حـروب على الأرض وقعت بعيداً فى السهوب الأوراسية ولم تُسجل.

وليس بمستغرب، فى ظل تلك الظروف، أن يقل مـانعرفه من تاريخ آسيا الوسطى فى

تلك القرون المضطربة عن أى فترة أخرى منذ الاستكشافات التى قام بها تشانج تشيان فى الغرب. ولايمكن وصف الموقف السياسى فيما بين ممر كانسو وجبال البامير إلا بأنه فوضوى، حيث تحاول كل دولة مدينة الحصول على قدر من الاستقلال وتقيم أى تحالف تقدر عليه، فى الوقت الذى تُضطر فيه إلى دفع الخراج إلى كل قوة جديدة تظهر فى المنطقة. وكان ذلك خراجاً بحق، وليس تجارة تسمى بغير اسمها.

***

بسبب الفوضى السياسية، توحدت كثير من الشعوب الموجودة على طول الطرف الشرقى من طريق الحرير فى تلك الفترة من خلال شىء واحد، هو الدين. وكان إيمانها المشترك بالبوذية هو الذى أتاح مرور الحجاج، بأعداد قليلة أو حتى فرادى، فى أمان نسبى عبر الأراضى التى سادتها الفوضى فى آسيا الوسطى.

وكانت البعثات التبشيرية الأولى فى الصين قد أقامت ديراً بالقرب من لويانج أسموه معبد الحصان الأبيض، وهو اسم الحيوان الصبور الذى حمل النصوص والمخلفات المقدسة من الهند فى رحلة طويلة وصعبة. وهناك بدأوا عملاً شاقاً لترجمة الكتابات البوذية إلى الصينية. وفى البداية، أى فى عهد أسرة هان، لم يكن لذلك الدين تأثير كبير فى الصين، وربما يعود ذلك إلى المعارضة القوية من جانب الكونفوشيين الذين كانت لهم السيطرة. إلا أنه خلال الفترة المضطربة التى تلت ذلك، دخل صينيون كثيرون فى الدين الجديد الذى وجدوا فيه راحتهم.

وأدى تداعى النظام السياسى إلى ندرة الاتصالات بين الصين والهند وعدم استقرارها، حتى أن كثيراً من البوذيين الصينيين المؤمنين أصبحوا يخشون خروج ممارساتهم الدينية عن الطريق القويم. ودفع هذا الخوف البعض إلى حج الهند قاطعين آلاف الأميال من الصحارى والجبال سعياً وراء تنوير أنفسهم وتنوير مواطنيهم البوذيين. وبدأت مثل هذه الرحلات فى منتصف القرن الثالث الميلادى. إلا أن أول تسجيل مهم لرحلة حج إلى الهند هو ذلك الذى يتحدث عن الرحلة التى قام بها فا شيان، الذى غادر تشانج آن مع عدة رفاق بوذيين سنة ٣٩٩. وكما يسجل فى موضع لاحق، يقول إنه «آسف لعدم اكتمال» الكتابات البوذية التى توافرت له باللغة الصينية، فذهب «إلى الهند للبحث عن قواعد وأحكام» البوذية الحقة.

وجد فا شيان وصحبه البلاد فى حالة اضطراب. وكانت البلاد الواقعة غربى تشانج آن داخل السور العظيم «على قدر كبير من الاضطراب ولم تكن الطرق مفتوحة». وكان الأمير المحلى نفسه قلقاً على مصلحتهم و«أبقاهم هناك واستضافهم بنفسه». وكان ذلك نموذجاً قابله الكثير من المسافرين البوذيين. وكان الحكام المحليون والرعايا المعزولون، وليس الرهبان البوذيون وحدهم، تسعدهم صحبة الحجاج الضيوف. وكثيراً ما كانوا يحولون دون سفرهم بسرعة إلى الهند. وذكر فا شيان أنهم فى هذه الحالة «أسعدهم تشابه أفكارهم، فظلوا معاً طوال موسم الأمطار». وبعد شهر اتجه فا شيان إلى تونهوانج حيث زوده الحاكم المحلى «بما يعين على عبور الصحراء [نهر الرمال]».

ولم تفقد الصحراء الواقعة غربى تونهوانج شيئاً من مظاهر الرعب التى تميزت بها، كما ذكر فا شيان:

فى هذه الصحراء الكثير من الأرواح الشريرة والرياح الحارة. وعند مواجهتها يموت الجميع بلا استثناء. ليست هناك طيور تحلق فى السماء ولا حيوانات تهيم فى الأرض. عند النظر على امتداد البصر بحثاً عن الطريق، يستحيل على المرء أن يعرف الطريق ولا يرى سوى عظام الرجال المتحللة التى تحدد الطريق.

وحتى فى تلك الأرض اليباب، كان المبشرون غير الرسميين من التجار يحققون نجاحاً مدهشاً فى تحويل شعوب حوض التاريم إلى البوذية. وفى الدولة الواحة شان شان على سبيل المثال، وجد فا شيان حوالى ٤ آلاف كاهن «جميعهم من أصحاب عقيدة العربة الصغيرة». (يشير إلى الانقسام الذى امتد طويلاً بين العربة الصغيرة أو الهنايانا[1]، وهى الفرع الأكثر تشدداً من البوذية، والمهايانا أو العربة الكبرى، وهى فرع أكثر تديناً يشمل عبادة آلهة عدة. والفرع الأول كان هو شكل البوذية الذى اعتنقه الناس عموماً فى الصين ومناطق كثيرة أخرى شمالى الهند). وعندما كان فا شيان مسافراً إلى الغرب على طريق التاريم الجنوبى، وجد ٤ آلاف كاهن بوذى فى مدينة أخرى. وبعد السفر فى طريق «لا منازل فيه ولا ناس»، حيث كانت معاناتهم «فيما يتعلق بمشاق الطريق» ونقص الماء «تفوق قدرة البشر على المقارنة»، وصل إلى خوتان.

---

(١) أطلق أتباع «العربة الكبرى» هذا الاسم على الطوائف المحافظة من البوذيين. (المترجم)

وتمشياً مع وضعها كمركز رئيسى فى التاريم تربطه علاقات وثيقة بالهند، تركت خوتان انطباعاً قوياً لدى فا شيان:

هذه البلاد مزدهرة وسعيدة. الناس على قدر كبير جداً من الثراء وجميعهم بلا استثناء يعظمون شريعة [بوذا]. وهم يستخدمون الموسيقى الدينية للترفيه المشترك. ويصل عدد الكهنة إلى عدة آلاف ينتمون فى أغلبهم إلى العربة الكبرى. وجميعهم لديهم طعام قُدِّم لهم... ويقيم [الناس] أمام منازلهم أبراجاً صغيرة يبلغ ارتفاعها عشرين قدماً تقريباً. وهناك بيوت الكهنة لاستضافة الكهنة الأجانب وتزويدهم بما يحتاجونه.

ومن الاعتراضات التاريخية التى أُثيرت ضد البوذية فى الصين وفى غيرها أن الكهنة، ولنقل الرهبان، كانوا مناهضين للأسرة بنبذهم الزواج، كما أنهم يستنزفون المجتمع لكونهم يعيشون على الصدقات. (أما كونهم ساهموا فى خفض عدد السكان ولم يضيعوا الأموال على الترف، فلم يكن موضع تقدير أعدائهم). إلا أن أهل خوتان وغيرهم من البوذيين المؤمنين عبَّروا عن مشاعرهم تجاه هذا الأمر من خلال تلك الترتيبات المتقنة التى أعدوها للحجاج الجوالين.

وعند مغادرة فا شيان لخوتان، فى صحبة قافلة تجار على الأرجح، اختار الطريق الذى يعبر جبال البامير الجنوبية الوعرة التى سماها جبال تسونج لنج (البصل). وهناك بلغ بلاد الـ كى شا (ربما يكونون شعباً جبلياً سماه بطليموس كوسايوى)، حيث صادف وصوله الاجتماع العظيم الذى يعقده البوذيون كل خمس سنوات. وتقدم روايته صورة مدهشة لرفاهية مراكز القوافل الجبلية تلك وعمق تأييدها للبوذية:

فى وقت الاجتماع يرسل [الملك] فى طلب السرامانات [الكهنة البوذيون] من أنحاء المعمورة فيأتون معاً كالسحاب. وبعد أن يجتمعوا يزين مكان اجتماع الكهنة. فيعلق الأعلام الحريرية وينشر السرادقات ويصنع زهور اللوتس من الذهب والفضة وينشر الحرير خلف العرش وينظم الأثاث الذى يجلس عليه الكهنة. ويقدم الملك والوزراء هداياهم الدينية لمدة شهر أو شهرين أو ثلاثة شهور. وغالباً مايكون ذلك فى فصل الربيع. وبعد انتهاء الاجتماع الذى يدعو إليه الملك، يحث وزراءه

على إعداد قرابينهم فيقدمونها لمدة يوم أو يومين أو ثلاثة أيام أو خمسة أيام. وبعد الانتهاء من القرابين... يمتطى الملك [فرسه] ثم [يأخذ] التفتاه الأبيض والجواهر من كل صنف وأشياء يطلبها السرامانات ويقسم هو ووزراؤه على إعطائها جميعاً للكهنة. وبعد تقديمها يحصلون على ثمنها من الكهنة.

ليس ذلك فحسب، بل إن الملك فى كل سنة «يستحث الكهنة على جعل القمح ينضج»، فهو محصول الحبوب الوحيد الذى ينمو فى تلك البلاد الجبلية الباردة و«بعد ذلك يتلقى [الكهنة] حصتهم السنوية». وكما حدث فى أجزاء كثيرة من رحلته، وجد فا شيان مخلفات ذاع أنها تخص بوذا، مثل صحن الصدقات أو إحدى أسنانه، وُضعت فى أضرحة أُقيمت لتكريمها. وهو ما كان الأوروبيون يفعلونه مع المخلفات المسيحية فى العصور الوسطى.

وبدلاً من أن يتبع فا شيان الطريق الرئيسى الأسهل ماراً ببلخ، يبدو أنه استعاض عنه بطريق جبلى يصل به إلى شمالى الهند. وكان ذلك خياراً شائعاً، حيث قيل إن بوذا نفسه تجول فى تلك الجبال الشاهقة. وكان كثيرون من الحجاج يرغبون فى السير على خطاه، بالمعنيين الحرفى والمجازى لذلك. ومن البامير سار إلى الجبال الثلجية، وهى فى الغالب جبال هندوكوش المرتفعة، التى ترك وصفاً لها يتميز بالحيوية وإن كان يشوبه شيء من الخيال:

... الثلج موجود صيفاً وشتاء. بل إن هناك أنواعاً سامة من التنين التى إذا رغبت فى الشر نفثت السموم والرياح والأمطار والثلوج والحصى والرمال التى تطمر كل شىء. ولا ينجو واحد من بين عشرة آلاف تواجههم تلك الكوارث والنكبات... والطريق صعب ومتقطع وبه صخور شديدة الانحدار ووهاد عميقة. والجبل عبارة عن جدار حجرى ارتفاعه ١٠ آلاف قدم. إذا نظرت من علٍ لم تر بوضوح، وإذا مضيت فى طريقك لا تطمئن لموطىء قدمك. فى الأسفل نهر... وفى الأيام الخوالى حفر الرجال فى الصخر ليشقوا طريقاً وينشروا سلّماً له سبعمائة [درجة؟] بالتمام والكمال للنزول عليه. وبعد النزول على السلّم، نسير على جسر معلق من الحبال ونعبر النهر...

وعلى امتداد الجبال، زار فا شيان ورفاقه الأضرحة والأديرة. وفى بعض الأحيان كانوا يقضون الشهور فى زيارة أحدها، قبل أن يستأنفوا السير فى قمم الجبال شديدة البرودة. وأثناء عبور فا شيان ورفاقه لأحد الجبال فى الشتاء قابلوا أكثر من خطر غير مؤكد:

الجبال الثلجية تكثر فيها الثلوج صيفاً وشتاء. وفى الجانب الشمالى من الجبال، فى الظل، فاجأنا برد قارس فأُصيب الرجال بالصمت رعباً. وعجز أحدهم، ويدعى هووى كنج عن الاستمرار فى السير. خرج الزَبَد الأبيض من فمه وهو يخاطب فا شيان وقال «لم تعد لدى القدرة على الحياة. ولكن بما أنه ماتزال هناك فرصة، أسرعوا بالسير قبل أن تهلكوا جميعاً». ومات بعد ذلك.

وهكذا مضى فا شيان ومن تبقى من رفاقه فى طرقهم بشق الأنفس عبر الجبال، ليصلوا إلى أفغانستان. ثم ساروا على ضفاف نهر السند، حيث أثار ظهورهم قدراً من الاستغراب لدى الهنود:

عندما رأوا حجاجاً قادمين من الصين تأثروا كثيراً وقالوا: «كيف حدث أن رجالاً من الحدود استطاعوا معرفة دين إنكار الأسرة وجاءوا من بعيد سعياً وراء شريعة بوذا؟» وقدموا الضيافة الواجبة بسخاء تبعاً لما يأمر به الدين.

وأثناء سيرهم فى الهند، فى الطريق الذى سار عليه بوذا، حيث زاروا الأضرحة والأديرة، كانوا كثيراً مايلقون ترحيباً كهذا. وفى أحد المعابد على نهر الجانج، تعجب الكهنة من قدوم الزوار من «بلاد هان» قائلين:

«عجيب أن يظن المرء أن رجالاً من أقصى الأرض يأتون من على هذا البعد رغبة فى معرفة الشريعة... إن كثيراً من سادتنا وإخواننا، الذين جاءوا فى إثر بعض إلى هذا المكان من قديم الأزل حتى الآن، لم ير أحد منهم رجال هان يأتون من على هذا البعد من قبل».

وهكذا استغرقت رحلة فا شيان ١٢ سنة تعلَّم خلالها أخلاق بوذا ومنهاجه. وكأى مسافر قطع المسافات الطويلة، بدأ فى نهاية الأمر يحن إلى وطنه:

مضت الآن سنوات طوال على غياب فا شيان عن بلاد هان. كان

سلوك الناس الذين تعامل معهم وعاداتهم غريبة تماماً عنه. وكانت المدن والناس والجبال والأودية والنباتات والأشجار التى تقع عليها عيناه غير تلك التى تعوّد عليها قديماً. كما أن رفاقه فى السفر انفصلوا عنه الآن، حيث تخلف البعض ومات البعض الآخر. لم يبق له سوى التفكير فى أطياف [الماضى]. وهكذا كان قلبه حزيناً على الدوام. وفجأة، وبينما كان يقف بجوار تمثال [بوذا] المصنوع من اليشب، لمح تاجراً يقدم له قرباناً من التفتاه الأبيض المصنوع فى الصين. وهنا لم يملك فا شيان شيئاً حيال مشاعره الحزينة فإنهمر الدمع الذى اغرورقت عيناه به.

عندها شد فا شيان الرحال إلى الوطن. لم يذهب بالبر وإنما ركب البحر. وكان اختياره للبحر اختياراً وجيهاً لجأ إليه كثيرون غيره فيما بعد. كان الطريق البرى خادعاً وصعباً، رغم ذلك الترحيب الحار الذى لقيه الحجاج فى رحلتهم التى استمرت ست سنوات إلى أواسط الهند. إلا أن طريق التوابل فى تلك الفترة كان لايعانى من تلك الفوضى التى عمت النصف الشرقى من طريق الحرير. والواقع أن الفرس ازدادوا قوة فجعلوا طريق التوابل طريقاً تجارياً ذا أهمية متعاظمة. وكان جنوب الصين أيضاً مقصداً منطقياً للمسافرين. فها هو يصبح القاعدة الأساسية للثقافة الصينية لأول مرة فى التاريخ.

وبذلك يكون فا شيان قد أكمل دورته العظيمة فى آسيا بعودته إلى العاصمة الصينية الجنوبية نانكنج ليكتب مذكراته وينقل للآخرين ما تعلمه عن البوذية. ورغم أن الدين ظل دين أقلية فى الصين، فكثيراً ما كان يحظى برعاية ملكية قوية، مما أوحى ببناء المعابد الكهوف التى اتسمت بضخامة حجمها وروعتها فى أنحاء الصين، كتلك التى أُقيمت بالقرب من لونجمن وتونهوانج. وفى شمال غربى الصين، وهو الإقليم الأكثر اتصالاً بآسيا الوسطى وطريق الحرير، كان ٩٠ فى المائة من الناس بوذيين بحلول أواخر القرن الرابع.

ولم يكن عدد الحجاج الذين ساروا على خطى فا شيان كبيراً جداً. فقد اتجه عدد قليل من المسافرين من كل نوع، فيما عدا التجار، إلى آسيا الوسطى. وبعد تعرض الصين لغزوات متكررة، أصبح نفوذها ضعيفاً فى حوض التاريم. وتخبرنا السجلات الإمبراطورية الشىء القليل عن «المناطق الغربية» فى تلك الفترة. وكانت قوافل الحرير تسير بصورة غير منتظمة على الطرق القديمة (فيما عدا طريق لولان، الذى اشتد جفافه وهُجر بحلول القرن

الثالث). فكثيراً ماكانت تعانى من الأخطار وأعباء رسوم العبور والضرائب و«أموال الحماية» التى تدفعها لدول كثيرة على طول الطريق. إلا أن التجارة كانت على قدر من الأهمية جعل فارس والصين تبقيان على تبادل السفارات بصورة مباشرة. على الأقل لفترة امتدت بين القرنين الرابع والسابع.

***

فى تلك القرون كان اهتمام بلاد فارس بالحرير عظيماً. والإمبراطورية الرومانية الشرقية باتت لديها رغبة لاتقاوم فى الحصول على الحرير. وكان الحكام وأفراد الطبقة الأرستقراطية ورجال الدين والتجار يرغبون جميعاً فى ارتداء ثياب من الحرير. وبعد أن ابتعدت الكنيسة المسيحية عن بساطتها الأولى، أخذت تستخدم الأستار الحريرية المزركشة، وكان الكثير منها مطرزاً بالذهب والفضة. كما أن الحرير صار يستخدم كأكفان فى الطريقة المسيحية الجديدة لدفن الموتى. وحتى فى السنوات الأولى بعد تأسيس القسطنطينية، كان فى المدينة خمس نقابات لاتتعامل إلا فى الحرير، كتجارة أو صناعة.

ولم تكن الإمبراطورية الرومانية الشرقية وحدها فى حاجة ماسة إلى الحرير. فعندما اكتسبت القوات الشرقية العادات الصينية عن طريق اتصالها بالصين، أصبح الغزاة الأوروبيون يتذوقون نفائس الشرق. وفى سنة ٤٠٨ ميلادية، عندما حاصر القوط الغربيون روما، طالب قائدهم ألاريك (ونال ما طلب) المدينة بدفع فدية قدرها ٤ آلاف سترة من الحرير، بالإضافة إلى ٥ آلاف رطل من الذهب و٣ آلاف رطل من الفضة و ٣ آلاف رطل من الفلفل الأسود و٣ آلاف قطعة جلد مصبوغة باللون الأحمر الزاهى. وكما هو حال الصينيين فى آسيا، وجد الرومان أن دفع الرشاوى من أجل السلم كان أمراً مفضلاً فى كثير من الأحوال مقابل الحماية العسكرية. وعندما استقر الغزاة، استمر طلب رجال الدين والقصور الملكية فى أوروبا على السلع الشرقية، بغض النظر عما قد تكون عليه حالة العامة من شظف.

وبينما احتكر الفرس تدفق الحرير براً عبر الهضبة الإيرانية، كان الرومان فى وضع يسمح لهم بأن يكونوا الموردين الوحيدين إلى أوروبا. ولكى يؤكدوا أنهم كذلك، عقدوا مع الفرس اتفاقيات فرضت قيوداً صارمة على تجارة الحرير. وهكذا اتفقت القوتان سنة ٢٩٧ على أن تكون سوق الحرير الرسمية الوحيدة فى غرب آسيا فى مدينة نصيبين الفارسية شمالى بلاد مابين النهرين على الطريق الذى يبدأ عند همذان. وفى سنة ٤٠٨ أكدت اتفاقية

أخرى القيود المفروضة على تجارة الحرير، إلا أنهـا أضافت مدينتين أخريين هما كالينيكوم، وهى مدينة رومانية علـى الضفة الغربية لنهر الفرات على طريق الـصحراء الكبرى بين بلاد مابين النهرين السفلى وأنطاكية، وكانت الثانيـة أرتكساتا (أرتشات)، التى حلت محلها فيما بعـد دوبيـوس (دوفين) فـى الطريق المار فى أرمـينيـا، وهو طريق ازداد أهمـية مع قـيـام الإمبراطورية الرومانية الشرقية. أما الطرق التى تقع فى الصحراء السورية فقد هجرها الكثير من قوافل الحرير. ومن أسبـاب ذلك أن الأرض أصبحت أكثر جفـافاً وخطورة من ناحية، كما أنه لا الرومان ولا الفرس كـانت لديهم الرغبة فى مشاركة العرب فى التـجارة الشرقية (وكان بعض العـرب قد نجحـوا فى الوصول إلى طريق التوابل). عـلاوة على أن الحكومة الرومانية اتبـعت سياسة فاشلة لم تلق أى استـحسان، تتعلق بتحديد الأسـعار، حين حدد الإمبراطور ديوقليسيان سعراً ثابتاً للحرير الخام سنة ٣٠١.

وعندما انهارت روما وأصـبحت القسطنطينية المقصد الرئيـسى للحرير الصينى، أخذت المدن السورية والفينيقـية، وهى موطن أجيال من النساجين والـصباغين، تخرج شيئاً فـشيئاً عن الطريق. وأُصيبت الصناعة السورية بضربة موجعة سنة ٣٦٠، عندما نقل الفرس الذين حكموا سوريا فترة من الزمن الكثير من النسـاجين والصباغين إلى الورش الإمبراطورية فى بلاد فارس حيث تولوا نسج وصباغة الكثيـر من الحرير الذى اتجه إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية. واعتباراً من القرن الخامس الميـلادى، أدار الرومان البيزنطيون ورشهم الإمبراطورية الضخمة التى أطـلقوا عليها gynaecea (ومـعناها أعضـاء التـأنيث فى الزهرة)، لأن من يعملون فيـها كانوا جميعـاً من النساء. وما إن تقبل هؤلاء النسَّاجـات العمل ويتدربن على مهنة نسج الثياب والأستار المزركشة لعملائهـن الأرستقراطيين، حتى يصبحن أسيرات بحق ولا يُسمح لهن بترك عملهن.

أما التجار والنساجون المستـقلون فى أنحاء الإمبراطورية فكانوا يعانون من ظلم شديد، حيث كان مـوظفو الحكومة (commerciarii) يشترون للـورش الإمبراطورية (gynaecea)، معظم الحرير المتوافر فى الأسواق المحددة تاركين الـقليل للقطاع الخاص. كما صار استخدام الصبغة الأرجوانية قاصراً على الصباغين الإمبراطوريين فى القسطنطينية، مما جعل الصباغين فى صور وغيرهم من الصبـاغين الفينيقيين عاجزين عن ممارسة حرفـتهم، خشية أن يُحكم عليهم بالموت. وفى سنة ٣٦٩ حُرم كثيرون من النساجـين السوريين من الاستفادة بمهاراتهم عندمـا قُصر نسج الـديباج ـ وهو من خـيـوط الذهب المنسوجـة مع الحـرير ـ على الورش الإمبراطورية سواء فى القسطنطينية نفسها أم فى بضعة مواقع اختُصت بذلك.

إلا أن المصانع الحكومية والمصانع الخاصة على حد سواء عانت من الحروب المتعاقبة بين الفرس والرومـان، حيث كانت واردات الحـرير تنقطع تماما. وكـان ذلك يحدث فى بعض الأحيان بسبب الاخـتلاف حول السعر الصحيح للحـرير. وبلغ الأمر بالفرس سنة ٥٤٠ أن غزوا سـوريا، حيث نهبوا مـدينة أنطاكية وأحـرقوها. وعندما استُعيد ما سـمى بـ«السلام الدائم»، رفع الفرس أسعار الحرير الخام، فى حيـن حاول الرومان إبقاء الأسعار على ماهى عليه. ويشرح لنا المؤرخ الرومانى پروكوپيوس ماحدث:

منع [الإمبراطور] جوستنيان[١] بيع [شـراء] الحـرير بما يزيد على ٩ كريزو للرطل. وهو إجراء غير منطقى أو عملى، لكون هذا السعر دون مـايجب على التـجار [الفـرس] أن يدفـعوه. وكـانت نتـيجـة ذلك أنهم أحجموا عن التعامل فى هذا الشكل من التجارة. كما أنهم سارعوا ببيع المخزون الذى تبقى لديهم سراً، لمن لمسوا لديهم رغبة قوية فى ارتداء هذا القماش وكانوا على استعداد لتلبية رغباتهم، رغم كل العقبات.

وفى محاولة من الإمبراطورة تيودورا[٢] (زوجة جوستنيان) لضرب السوق السوداء التى نشأت عن ذلك، جـعلت تجارة الحـرير تحت سيطرة أحد مـحاسبـيهـا الذى «حقق ثروات ضخمة للإمبراطور، ولكنه اختص نفسه فى الخفاء بمبالغ تزيد عما أعطاه للإمبراطور». كما أنه أوجد احتكاراً ملكياً لتجارة الحرير كان له أثر مدمر، كما أوضح پروكوبيوس:

كل من مارسوا هذه التجارة، سواء فى بيزنطة أم فى غيرها، وسواء أكـانوا يركـبـون البـحـر أم يسـافـرون بالبـر، أُضـيـروا بشـدة من تلك التطورات. فـفى المدن، بات كل من امـتـهنوا تجـارة الحـرير يسـألون الناس الطعام. أما الصنّاع والعمـال فكان مصيرهم الفقر. فما كان من الكثيرين إلا أن هاجروا والتجأوا إلى الفرس.

---

(١) يعرف بجوستنيان الأول أو جوستنيان الأكبر. حكم الإمبراطورية البيزنطية من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥. وهو أحد أعظم أباطرة هذه الإمبراطورية. كان اسمه قـبل توليه الحكم بتروس سباتيوس. وكان لزوجته تيودورا دور مهم فـيما قدمته له من دعم. وبعد حروب متكررة مع الفرس، قـرر البيزنطيون شراء السلام منهم. اشتهر جوستنيـان بتحسين القضاء وبناء كنيسة آيا صوفيا (Hagia Sophia) ومعناها باليونانية «الحكمة المقدسة» فى اسطنبول. (المترجم).

(٢) يروى لنا پروكوپيوس أن تيودورا كـانت فى الأصل مدربة دببة فى السيرك ثم عملت ممثلة ثم انحدر بـها الحال فصارت مومساً. وقد عاشت فترة فى الإسكندرية ثم عادت إلى القسطنطينية حيث تعرف عليها جوستنيان وتزوجها. وكان موت تيودورا سنة ٥٤٨ ضـربة للإمبراطور حطمت شـجاعتـه وأضاعت صفـاء ذهنه وهدت قواه فأهمل شـئون الدولة واهتم بشئون الدين. (المترجم).

وهكذا قُضى على صناعـتى الصـباغـة والنسـيج القديمـتـين فى الشرق الأدنى. أمـا البحـارة، الذين ظلوا طويلاً يأتون بواردات الحـرير من موانىء الشرق الأدنـى إلى الأنحاء المختلفة من البحر المتوسط، فقد انهاروا وجعلهم اليأس يحرقون سفنهم.

وانتعشت صناعة الـنسيج فى بلاد الفرس من جديد بوصول النساجـين والصباغين من السهول. وكان عمل النساجين السوريين من الدقـة بحيث جعل بعض المراقبين يقسمون أن الحيوانات التى فى نسيـجهم تبدو كأنها رسمت بالفرشاة. وكـان لمهاراتهم تقدير خاص فى بلاد فارس، التى تكثر فى نقـوش نسيجها (التى تعكس جذور أهلهـا الذين جاءوا من آسيا الوسطى) الحيوانات. وهى غالباً ماتكون أزواجاً وتحـيط بها الدوائر. فهناك الكباش والأفيال والأسود والعصـافير إلى جانب الخـيول (المجنحة أحياناً). وهذه الأشكال المتـشابكة، التى كثيراً ماتُصورً مع مذبح للنار أو شجرة ترمز للحياة، كان لها تأثير ضخم على نقوش النسيج فى أنحاء أوراسيا. حيث انتقلت عن طريق القسطنطينيـة إلى أنحاء أوروبا. كما عبرت آسيا الوسطى إلى الصين ومن بعدها إلى اليابان.

إلا أن مشكلة التوريد عبر قفار آسيا الوسطى ظلت قـائمة. فرغم قيام الفرس بتحسين الطرق فى المناطق الخاضعـة لنفوذهم وإنشائهم المزيد من محطات القـوافل وتوفير المزيد من مصادر الميـاه لقوافل التجار، إلى جانب زيادة عـدد نقاط التفتيش التى يتـولى فيها مفـتشو الجمارك وجبـاة الضرائب مراقبة التجارة المتجـهة شرقاً وغرباً، فقد اسـتفحلت الفوضى فى الشرق.

واضُطر الهـون البيض، وهم بقـايا الشيـونج نو الذين كانوا قـوماً عظامـاً فى يوم من الأيام، إلى الاتجاه غرباً تحت وطأة قوة جديدة فى آسيا الوسطى، وهى الترك الذين سنسمع عنهم الكثير بعد قليل. فعندما جاء الهون البـيض ليستريحوا على الجانب الغربى من جبال البامير، كما فعل اليويه تشى قبـل عدة قرون، هددوا خطوط التجارة الفارسية. ورغم كون الرومان والفـرس أعداء لدودين، فقـد عززوا تعاونهم التـجارى بالقدر الذى يتـيح للرومان تمويل إنشاء تحـصينات جـديدة أشد قوة عـلى طول طريق الحرير فى الشـرق، وكذلك عند ممرات جبال القوقاز فيما وراء أرمينيا. وكان هدفهم من ذلك التصدى للهون.

وبالطبع لم يكن اعـتماد الفـرس على طريق الحرير وحـده فى حصولهـم على الحرير وغيره من البضـائع الشرقية. إذ كانت تلك السلع تصل بلاد فارس عبـر طريق البخور، إما من الهند على الطريق الهندى العظيم، أو بالبحر مباشرة عن طريق الخليج الفارسى. ورغم

ميلنا إلى الاعتقاد بأن الفرس كانوا قوماً لم يعتادوا ركوب البحر، فإنهم فى تلك الفترة كانوا بحارة مهرة عرفهم الصينيون باسم «بو سه» وكانوا يتاجرون مباشرة مع الموانىء الصينية الجنوبية[١]. وعلى أقل تقدير يمكننا القول بأنهم استأجروا بحارة مهرة. وربما تذكر الفرس كيف نجح الرومان فى التحايل على سيطرة البارثيين على الطريق البرى باستخدام الطريق البحرى. وفى بعض الأحيان كان الفرس يتاجرون بالقرب من بلادهم، فى السوق الجزيرة تاپروبان (التى سُميت بعد ذلك سيلان أو سريلانكا) قبالة الطرف الجنوبى لشبه جزيرة الهند. وهذا هو ماقاله كوسموس إنديكوبليوستيس المراقب الرومانى المعاصر:

كانت سفن كثيرة تأتى إلى هذه الجزيرة من الهند وبلاد فارس وأثيوبيا، وكانت هى بدورها ترسل الكثير من سفنها، لكونها فى موقع متوسط. وكانت تاپوربان تستورد الحرير والعود والقرنفل والصندل وغيرها من أماكن أخرى، هى تزينستا [الصين] وغيرها من البلدان، كل حسب إنتاجها.

إلا أن الرومان كانوا يشعرون دائماً بضيق من الاحتكار الفارسى. وقد حاولوا مراراً التحايل على الفرس (بالأخص عندما كانت تتوتر العلاقات الفارسية الرومانية، وهو الأمر الذى كان يحدث كثيراً). وكان قد حدث مع انهيار القوة الرومانية الغربية أن ظهرت، فيما يعرف حالياً بأثيوبيا، أُمَّة تجارية مسيحية تسمى أكسوم[٢]. وأبحر أهل أكسوم (وهم من أصول عربية فى معظمهم) من مملكتهم الواقعة على البحر الأحمر إلى سيلان، حيث تخصصوا فى تجارة التوابل، بينما تركزت تجارة الفرس فى الحرير. وكان الإمبراطور الرومانى چوستنيان يأمل فى إقامة تحالف مع أكسوم ضد فارس، مستغلاً فى ذلك الدين المشترك الذى تدين به بلادهم. وبالفعل أبرم اتفاقاً يستطيع بمقتضاه تجار أكسوم شراء الحرير من سيلان وتسليمه إلى الرومان. إلا أن الأمر انتهى بعدم ورود أى كمية من الحرير. وربما يعود ذلك فى الغالب إلى أن أهل أكسوم والفرس اقتسموا التجارة الشرقية فيما بينهم بشكل

---

(١) تحدث المؤلف الصينى لي شنج عن السفن الفارسية التى أتت إلى كانتون سنة ٦٧١. كما رأى المعلم البوذى فاج رابادي ما لايقل عن خمس وثلاثين سفينة فارسية سنة ٧١٧ فى سيلان التى أبحرت منها إلى كانتون. كما يذكر الزائر البوذى هوي تشاي زيارة البحارة الفرس الصين للتجارة سنة ٧٢٧. (المترجم).

(٢) تأسست مملكة أكسوم فى القرن الأول الميلادى. وفى القرن الرابع دخل أهلها المسيحية. وحدث ذلك من خلال النفوذ الذى كان لليونان فى بلاط ملوك أكسوم. وفى القرن السادس الميلادى استولى حكام أكسوم على أجزاء من جنوب الجزيرة العربية ولكن الفرس طردوهم منها. وبعد الفتح الإسلامى قطعت تجارتها فى البحر الأحمر. وانهارت المملكة بعد ذلك باجتياح قبائل البدو لها. (المترجم).

ودى، ولـم يشأ أهل أكـسوم أن يفـسدوا الترتيـبات التجـارية من أجل حظوة الرومان غـير المؤكدة.

وفى تلك المرحلة بدأت جمـاعة دينية أخـرى تبرز فى قصة طريق الحـرير، وربما تقدم حلاً جزئياً لحاجة البيزنطيين الشديدة إلـى الحرير. فرغم اعتناق الإمبراطور الرومانى رسمياً للمسـيحيـة كدين للدولة فى القرن الرابع، لم يكن هـناك بعد اتفاق بين أتبـاع المسيح على النقاط الأسـاسية للعقـيدة. وفى الربع الثانى من القرن الخـامس كان زعيم مسـيحى يدعى نسطور، وهو أسقف القسطنطينية وموطنه الأصلى أنطاكـية، متحدثاً بارزاً باسم وجهة النظر التى تقول إن المسـيح كان شخـصين، إلها وإنسانا، لـكل منهما صفـاته المميزة، ولكنهـما متداخلان تداخـلاً لا انفصال له. كما قال إن مريم هـى أم الإنسان لا الإله. وفى مجالس الكنيسة[1] التى كانت تضـع القوانين فى القرن الخـامس، اعتُبرت وجـهة النظر هذه كـفراً. وهكذا نُفى نسطور ثم توفى سنة ٤٥١. إلا أن بعض أتباعه، وأغلبهم من مدن سورية مثل أنطاكية والرها، بدأوا رحلة طويلة نحو الشرق ليصلوا فى نهاية الأمر إلى الصين.

وجد اللاجئون المسيحيون النسطوريون ملجأ لهم فى ظل الحكم الفارسى، حيث أسسوا مدرسة لاهوتية فى نصيبين، مركز الحرير الفارسى، ومن ثم نشروا مذهبهم فى أنحاء فارس التى اعتنق مسيحيوها وجهة النظر النسطورية شيئاً فشيئاً. وكان كثيرون من هؤلاء المهاجرين أناساً على قدر كبير من العلم. فكان منهم، على سبيل المثال، الأطباء المهرة الذين ساهموا مساهمة كبيرة فى الثقافة الفارسيـة. إلا أن وجودهم فى الهضبة الإيرانية كان مزعزعاً. ففى عهـد بعض الحكام كان المسيحـيون واليهود والمانـويون وغيرهم يعاملون بتـسامح، رغم أن غالبية الفـرس كانوا يؤيدون الزرادشتية بقوة، بل ويشجعـون عودة إحدى الديانات الإيرانية القديمة، وهى المزدكـية. وكان أحد ملوك الفرس، وهو مـتزوج من يهودية، يتخذ مـوقفاً طيباً من أتباع المسيح، حـتى أنهم أطلقوا عليه «الملك المسيحى»[2]. إلا أنه فى عهود أخرى

---

(١) أوعز الإمبـراطور الرومانى تيودوسيوس إلـى الأساقفة أن يعقـدوا هذا المجمع المسكونى فى مدينة إفسـوس برئاسة الأنبا كيرلس من مصر ممثلاً لكل كنائس أفـريقيا. كان كيرلس معارضاً لمذهب نسطور، إذ كان يقول بطبـيعة واحدة للمسيح، هى الألوهية. ولم ينتظر كيرلس وصول أسـاقفة أنطاكية وعقد المجمع بدونهما وصـدر قرار بسحب بدعة نسطور وعزله وحرمـانه من الدين المسـيحى. ولم تفلح مـساعى خـصوم كيـرلس الذى سجنـه الإمبراطور ثم أفـرج عنه ليـعود إلى الإسكندرية. (المترجم).

(٢) يقول الدكتور عبدالوهاب عزام فى تحقيقة لكتاب «الشاهنامه» للفردوسى إن «يزجرد الأول (٣٩٩ ـ ٤٢٠)... كان ملكاً مسالماً يكره الحرب... وقد سـالم المسيحيين فى بلاد الفرس وأحسن إليهم... وقد جـاءه مروثا... أسقف العراق ثم داوى الملك من علة كـانت به فحظى عنده، وقوى سلطـانه عليه حتى أمـر سنة ٤٠٦م أن يمكن المسيـحيون من العـبادة جهاراً ومن إعادة كنائسهم، بل اضطهد المجوس فى هذا السبـيل. ولعل المجوس لقبوه الأثيم الخشن من أجل سيرته فى محاسنة النصارى ومخاشنة المجوس...». (المترجم).

استفحل فيها الخوف من الأجانب، لقيت الأقليات الدينية اضطهاداً شديداً. ولم يكن أحد يثق فى المسيحيين، لأن مركز الكنيسة كان فى الإمبراطورية الرومانية، رغم تحلل الكنيسة المسيحية فى إيران، وتسمى كذلك الكنيسة الفارسية، من أى شىء يربطها بالرومان فى منتصف القرن الخامس. وكان الشعور المتكرر بعدم الأمان لدى هؤلاء النسطوريين أو المسيحيين الفرس، إلى جانب الحماسة التبشيرية، سبباً دفعهم إلى الاتجاه شرقاً إلى آسيا الوسطى.

وهناك احتمال كبير أن يكون الغرب قد عرف سر تربية دود القز فى نهاية الأمر من بعض مسيحيى آسيا الوسطى هؤلاء. ويقول بروكوبيوس:

... وصل بعض الرهبان من [بلد] الهنود، وعندما علموا أن الإمبراطور جوستنيان عقد العزم على ألا يشترى الرومان الحرير من الفرس بعد ذلك، جاءوا إلى الملك ووعدوه بأن يحققوا أمراً بشأن الحرير بحيث لا يُضطر الرومان إلى شراء هذه السلعة من الفرس أو من أى أمة أخرى. فقد عاشوا زمناً طويلاً فى بلد كانت فيه أقوام كثيرة من الهنود ويسمى سيريندا. وأثناء وجودهم هناك أصبحوا على علم تام بالطريقة التى يمكن بها إنتاج الحرير فى الأراضى الرومانية.

ويروى مؤرخ رومانى آخر هو تيوفانيس الذى عاش فى القرن السادس قصة مشابهة، وإن كان بها اختلاف طفيف:

وفى عهد جوستنيان عرض فارسى فى بيزنطة الطريقة التى يفقس بها دود [الحرير]، وهو أمر لم يكن الرومان قد عرفوه من قبل. فعندما قدم هذا الفارسى من بلاد سيريس أتى معه ببيض هذا الدود [وقد أخفاه] فى عكاز، ونجح فى إحضاره سليماً إلى بيزنطة. وفى بداية الربيع وضع البيض على أوراق التوت، وهى غذاؤه. وبعد أن تغذى الدود على هذا الورق تحول إلى حشرات مجنحة قامت بعملياتها الأخرى. وبعد ذلك، عندما عرض الإمبراطور على الترك الطريقة التى يفقس بها البيض والحرير الذى أُنتج، كانت دهشتهم عظيمة.

وهناك احتمال كبير أن تكون سيريندا، التى تعلم فيها من قدَّموا المعروف لجوستنيان أسرار تربية دود القز، هى مدينة خوتان الواقعة على الحافة الجنوبية للتاريم. فقد تأثرت

زمناً طويلاً بكل من الصين والهند. ومن ثم يحتمل أن تكون هى المقصودة. (يرشح البعض مـواضع أخرى أقل إقناعـاً، مثل كـاشغـر، بل أيضـاً مواضع على الطريق البـحرى مـثل كمبوديا). ولكن إذا كـان افتراضنا صحيحاً، فكيف تعلم أهـل خوتان طريقة صنع الحرير، بينما ظل الصينيــون يحفظون السر لما يربو على الألفى سنة؟ ويبدو أن الإجـابة موجودة فى الحوليات الصينية. فطبقاً لما ترويه إحدى القصص، اختُرق أمن تربية دودة الحرير فى الغرب حوالى سنة ٤٠٠ ميــلادية على يد أميرة صينية أُرسلت للزواج من أحـد أمراء خوتان، فى إطار نمط التحالفات القـديم والمستمر عن طريق الزواج. (يبدو أن اليابانيين كـانوا قد عرفوا السر حوالى سنة ٢٠٠ ميلادية).

يروى لنا شيوان تسانج، وهو حاج صينى كان مسافراً فى التاريم بعد قرنين، كيف كان الناس فى خوتان يذكرون هذا الحدث:

قديماً لم يعرف هذا البلد شيئاً عن أشجار التوت ودودة القز، وعندما سمعوا أن البلد الشرقى [الصين] يمتلكها، أرسلوا سفارة للبحث عنها. وفى ذلك الوقت كان أمير المملكة الشرقية يحتفظ بالسر ولا يقبل البوح به لأحد. وكان يحمى أرضه ولا يسمح لمخلوق بأن يرحل ومعه بذور التوت أو بيض الدود.

وخرج ملك كوستانا [خوتان] سعياً للزواج من إحدى أميرات المملكة الشرقية، كتعبير عن ولائه وخضوعه. حقق الملك رغبته. بعد ذلك أرسل ملك كوستـانا رسولاً لمصاحبة الأميرة الملكية وأعطى التوجيه التالى: «تحدث هكذا إلى الأميرة الشرقية: بلدنا ليس فيه حرير أو أقمشة حريرية. ويفضل أن تأتى معك ببعض بذور التوت ودود القز، كى يمكنكِ صنع أثواب لنفسك».

وعندما سمعت الأميرة تلك الكلمات، جمعت بذور التوت وبيض دود القز وأخفتها فى غطاء رأسها... وعند الحدود بحث الحارس فى كل مكان، إلا أنه لم يجرؤ على رفع غطاء رأس الأميرة.

وهكذا وصلت أسرار تربية دودة القز إلى المناطق الغربية. إلا أن الأميرة الصينية حمت وطنها حتى ذلك الوقت: فيبدو أنها لم تُبلِّغ مواطنيها الجدد أنه لابد من قتل الفراشة قبل أن

تثقب الشرنقة وتقطع الخيوط. وطبقاً لما قاله الرواة من خوتان، فقد فعلت العكس وأكدت على عدم وجوب قتل الفراشة:

... كتبت الملكة المرسوم التالى على أحد الأحجار: «ليس مسموحاً بقتل دودة القز! بعد خروج الفراشة يمكن فتل الحرير [من الشرنقة]. ومن يخالف هذه القاعدة قد يُحرم من الحماية السماوية».

ورأى تيوفانيس أن دود القز الذى جيء به إلى بيزنطة تحول إلى حشرات مجنحة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الحرير الذى يؤخذ من الخيوط الممزقة سيكون من نوع أردأ كثيراً. وأنتج الرومان حريرهم، لكنهم ربما لم يستطيعوا معرفة تخليص الخيوط المتصلة اللازمة للحصول على حرير فاخر. وعلى أية حال، لم تكن لديهم المهارات التى اكتسبها الصينيون على مر القرون. لذلك فإنه حتى مع تطور صناعة الحرير لدى الرومان، فإنهم كانوا لايزالون فى حاجة شديدة إلى حراير الصين الرقيقة.

***

فى ذلك الوقت اتجه تفكير الرومان إلى إمكانية استخدام طرق برية أخرى. وبما أن الهضبة الإيرانية كانت مغلقة فى وجههم، اتجهت أنظارهم إلى سهوب أوراسيا التى يمكنهم بلوغها بسهولة من نقاطهم التجارية المتقدمة على البحر الأسود، حيث وجدوا آخرين لديهم فكرة مماثلة.

وهناك فى آسيا الوسطى، كان الترك الذين بدأ شأنهم يعلو قد اضطروا الهون البيض للتحرك نحو الهند. وفى أوائل القرن السادس كان هؤلاء الترك، ويشير اسمهم إلى الخوذات التى كانوا يلبسونها وترمز إلى القوة والمهارة فى صنع المعادن، مايزالون خاضعين للأفار(١) (ويعرفون فى الشرق باسم چوچان). وفى سنة ٥٥٢ طرد الترك الأفار إلى أوروبا ونَصَّبوا أنفسهم حكاماً لمنغوليا. وكان توسعهم سريعاً، وخاصة نحو الغرب. وبحلول سنة ٥٦٥ كانوا قد أقروا سلطانهم على نهر جيحون، حيث صارت مدن طشقند وبخارى وسمرقند وغيرها من مراكز القوافل الرئيسية فى تركستان، وهو الإقليم الذى استمد اسمه منهم، فى قبضتهم. وتشيد إحدى القصائد التركية، التى يعود تاريخها إلى سنة ٧٣٢، أى بعد قرنين تقريباً، بهذا النجاح المدهش:

---

(١) يرى بعض العلماء أنهم من الجنس السلافى ويرى آخرون أنهم ينحدرون من أصول أوغروفينية، بينما يتفق عدد كبير منهم على أنهم من الشعوب التركية. (المترجم).

عندما فُطرت السماء الزرقاء فى الأعالى والأرض المظلمة أسفلها، خُلق بين الاثنتين أبناء البشر. وفوق أبناء البشر برز الخاقان [الخان]... وبعد أن صاروا السادة، حكموا مؤسسات الشعب التركى وإمبراطوريته. وكان لهم أعداء كثيرون فى كل أنحاء الأرض. ولكن بعد إرسالهم الحملات ضد أعدائهم، استعبدوا شعوباً كثيرة فى أنحاء الأرض وجعلوها مسالمة. إذ أجبروها على أن تحنى الجباه وأن تركع. وبذلك أمكننا العيش بين جبال خنجان فى الشرق والبوابات الحديدية فى الغرب. وكان كل مابين هذين الموضعين خاضعاً لنفوذ الترك الزرق!

وكان ذلك الخليط، الذى كان يضم وقتها الشيونج نو القدماء وكثيراً من الشعوب الهندوأوروبية فى السهوب الأوراسية، هو الشعب الذى كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية ترغب فى التعامل معه.

وكان الترك قد أقاموا تحالفاً مؤقتاً مع الفرس أثناء قتالهم مع الهون البيض. ولكن يبدو أن الفرس صاروا يخشون نفوذ حليفهم السابق، وكان معهم الحق فى ذلك. وعلى الفور أغلق الفرس طريق الحرير البرى، ربما لأنهم كانوا يخشون احتمال أن يكون التجار الصُغد جواسيس لسادتهم الجدد، الترك. وحاول هؤلاء الصغد، الذين كانوا يتعيشون من تجارة الحرير، سدى أن يقنعوا الفرس بفتح الطريق من جديد. ويقول المؤرخ الرومانى ميناندر فى القرن السادس:

... توسل الصُغد إلى الملك [التركى] كى يرسل سفارة إلى الفرس، للحصول على إذن يسمح لهم بنقل حريرهم إلى بلاد فارس لبيعه هناك.

وافق الخان التركى ديزابلو على ذلك وأرسل زعيم الصُغد مبعوثاً منه. وكان هذا الرجل يدعى مانياه (أى شقيق مانى) ويدل اسمه على أنه كان من أتباع المانوية.

تأخر كسرى أنوشروان ملك الفرس فى الرد على السفارة. ولكن حدث أن مستشاراً من الهون البيض فى البلاط الفارسى:

... حث الملك الفارسى على السماح للحرير بالمرور بحرية، لا لشىء

إلا لتسعيره وشرائه بالكامل والأمر بحرقه فى وجود السفراء. وسوف يبدو، رغم عدم اقترافه شيئاً من الظلم، أنه لا حاجة له إلى حرير الترك. وهكذا أُلقى بالحرير فى النار وعاد السفراء إلى بلادهم وهم غير راضين عما أسفرت عنه رحلتهم.

ورغم ذلك كـان مايزال لدى التـرك بعض الأمل، فأرسلوا سـفارة أخرى إلـى البلاط الفارسى. ولكن ميناندر يقول:

... توصل الوزراء الفرس و [المستشار الهونى الأبيض] إلى أنه ليس فى مصلحة الفرس أن تربطهم بالترك علاقات ودية، إذ لا ينبغى لأحد أن يثق فى جنس السيث قاطبة. لذلك أمر بقتل بعض السفراء بالسم، منعاً لإرسال المزيد من هذه البعثات. وبناء على ذلك قُتل كل المبعوثين الترك، عدا ثلاثة أو أربعة، بسم زعاف دُس فى طعامهم. بينما أمر الملك [كسرى أنوشروان] بأن يُشاع بين الفرس أن السفراء الترك ماتوا بسبب المناخ الفارسى ذى الحرارة الجافة الخانقة، لأن بلادهم لا تعيش إلا فى المناخ البارد.

ولكن ميناندر يقول إن «ديـزابول [كان] إنساناً فطناً سريع البديهـة غير جاهل بحقـيقة الأمر».

وبينما كان الرومان أنفسهم يبحثون عن طريق برى شمـالى، كان الترك مضطرين لأن يفعلوا الشىء نفسه. وهنا اقترح مانيـاه الصُغدى، وهو زعيم شعب يعمـل بالتجارة، على ديزابول أنه:

... سيكون من مصلحة الترك أن يصادقوا الرومان وأن ينقلوا مبيعات الحرير إليهم، باعتبار أنهم يستهلكونه أكثر من أى قوم آخرين.

ومع أن سفارة مانياه كانت تحت أعين الجواسيس، فهى لم تصادف أى عقبات، حيث إن الترك باتوا يسيطرون على السهوب الأوراسية الشمالية غرباً حتى بحر آزوف إلى الشمال من البحر الأسود. كـما كان بإمكانهم الوصول إلى المراكز الرومانية فى شبه جزيرة القرم. وفى سنة ٥٦٨ وصلت بعـثة مانيـاه إلى البلاط الرومانى فـى القسطنطينية «حـاملة التحـية وهدية ثمينة من الحرير ورسائل إلى الإمبراطور الرومانى».

ولنا أن نتخيل الشغف الذى استمع به الإمبراطور الرومانى للوعود الخاصة بتجارة الحرير السلمية مع الترك. وبعد أن قامت «الصداقة والتحالف» بين الأمتين، أرسل الرومان بدورهم زيمارخوس إلى الخان مع البعثة التركية عند عودتها إلى بلادها. وتقدم لنا روايته كما أوردها ميناندر صورة نادرة لشعوب آسيا الوسطى فى تلك الفترة. وبعد «مسيرة أيام كثيرة» وصلت البعثة إلى بلاد الصُغد. وهناك التقوا ببعض الترك، الذين اشتهروا بمصنوعاتهم الحديدية، فعرضوا بعض الحديد للبيع. ويستمر ميناندر قائلاً:

بعض أفراد القبيلة الآخرين...، الذين قالوا إنهم يبعدون نذر الشؤم، جاءوا زيمارخوس وأخذوا كل أمتعة البعثة ووضعوها فى الوسط. بعد ذلك أخذوا يدقون ناقوساً ويقرعون نوعاً من الطبول فوق الأمتعة، فى حين جرى حولها بعضهم وهو يحمل أوراقاً من البخور المحترق الذى كان يتأجج ويطقطق وكانوا يأتون بحركات سريعة كالمجانين وهم يشيرون بأيديهم كأنهم يدفعون أرواحاً شريرة. وبعد أن انتهوا من عملية طرد الشر، كما يرونها هم، جعلوا زيمارخوس نفسه يمر فى النار، وفعلوا هم أيضاً الشىء نفسه فيما يبدو أنه عملية تطهير لأنفسهم.

وهذا النوع من طقوس التطهير ظل يقوم به المسافرون من الترك لقرون طويلة. وبعد ذلك مضت البعثة «مع هؤلاء الذين عُينوا لاستقبالها» إلى معسكر ديزابول الذى يبدو أنه كان فى مكان ما من السهوب شرقى نهر سيحون، ربما على مقربة من ممر جونغاريا.

وما وجده زيمارخوس هناك يُعد شهادة مؤكدة على الثراء الذى أحدثته تجارة الحرير بين شعوب الشرق والغرب، ولولاها لكانت تلك البقاع قفاراً:

ما إن وصلت بعثة زيمارخوس حتى استُدعيت لمقابلة ديزابول، الذى وجدته فى خيمته جالساً على كرسى ذهبى ذى عجلتين يمكن أن يجره حصان واحد عند الطلب... وكانت هذه الخيمة بها ستائر متعددة الألوان مطرزة بأسلوب فنى... [وكانت] خيمة أخرى مزينة بطريقة مشابهة بستائر ثمينة من الحرير مطرزة عليها أشكال مختلفة الأنواع. وكان ديزابول جالساً على أريكة من الذهب وفى وسط الخيمة كانت أوانى الشرب والأباريق والقوارير الضخمة، وكلها من الذهب...

[وكانت] خيمة [أخرى] بها أعمدة خشبية كُسيت بالذهب وعرش مذهب يقوم على أربعة طواويس ذهبية. وأمام مكان الاجتماع كان هناك طابور ضخم من العربات التى كانت بداخلها كمية هائلة من الأشياء الفضية عبارة عن صحون وصحاف إلى جانب العديد من تماثيل الحيوانات المصنوعة من الفضة التى لاتقل فى شىء عما لدينا. إلى هذا الحد بلغ ثراء الملك التركى!

وهكذا أكمل زيمارخوس، وهو أول أوروبى منذ أريستياس يسافر إلى قلب السهوب الأوراسية ويعود منها حسب علمنا، التبادل الدبلوماسى بين الرومان والترك. وقد ضاع جزء من تأريخ ميناندر، ولكن يبدو أن زيمارخوس لحق بالترك عندما حلوا خيامهم واتجهوا غرباً إلى مدينة تالاس الغربية. وعندما اتجه الترك إلى الجنوب الغربى عبر نهر سيحون لمهاجمة الفرس، اتجه زيمارخوس وصحبه إلى الشمال الغربى عائدين إلى بلادهم، حيث أرسل رسولاً سريعاً يدعى چورچ يصحبه اثنا عشر تركيا عبر أقصر الطرق «كى يُبلِّغ الإمبراطور [الرومانى] بعودة البعثة من بلاد الترك». ولم يعد زيمارخوس ومن بقى معه من هذا الطريق، لأنه «كان بلا ماء وفى صحراء جرداء». وبدلاً من ذلك «ساروا لمدة ١٢ يوماً على رمال شواطىء البحيرة [بحر آرال]»، وعبروها عند «بعض الأماكن شديدة الصعوبة»، ثم اتجهوا إلى شمالى بحر قزوين وعبروا نهرى أورال والفولجا (وأطلقوا على الثانى اسم آتيلا)[١]. وبعد أن دارت السفارة العائدة حول بحر قزوين سارت فى جبال القوقاز حيث حذرها الحلفاء من أن «٤ آلاف فارسى يكمنون [انتظاراً] لإلقاء القبض على البعثة عند مرورها». وللتحايل على هذا الخطر، اتجه زيمارخوس إلى الساحل الشرقى للبحر الأسود «ومنه إلى طرابزون التى توجه منها إلى بيزنطة».

وكانت التجارة بين الرومان والترك تسير عبر هذا الطريق تقريباً لمدة عشر سنوات تقريباً، لم تخل من المزيد من محاولات الفرس للتدخل، إلى أن انهار التحالف عند موت ديزابول وانتشرت موجة من الشعور العدائى.

إلا أنه خلال تلك الفترة الوجيزة بدأ الرومان يسمعون الحكايات عن تلك الأرض العظيمة الواقعة شرقى بلاد الترك، وهى أرض تسمى توجاس وكان يطلق على حاكمها لقب ابن الإله. وهناك بعض الشك فى أن توجاس هذه هى الصين. إذ يحتمل أن تكون

(١) ذُكر فى المصادر العربية «أتل» و «أثل». (المترجم).

كلمة تركية معناها «وى العظيم» (أسرة حاكمة صينية فى تلك الفترة) وأن «ابن الإله» هو الإمبراطور الصينى «ابن السماء». غير أن المعارف الجغرافية كانت قد انحدرت إلى حالة لم تسمح للرومان بالربط بين توجاس وأرض الـ«سيريس» والـ«سينى»، رغم أنه قيل أن توجاس بلد عظيم أثرى من التجارة ويتمتع بمهارة فائقة فى تربية دودة القز التى «تمر بتحولات كثيرة وتأخذ ألواناً عديدة».

وتعد كتابات تيوفيلاكتوس سيموكاتا من القرن السابع نموذجاً للخلط بين الرواية الواقعية والتلفيق الخيالى، الذى تميزت به كتابات العصور الوسطى على نحو كبير. فعلى سبيل المثال ذكر تيوفيلاكتوس:

... إنهم يقولون أن الإسكندر المقدونى أسس مدينة توجاس هذه بعد أن استعبد أهل بلخ والصغد وأحرق اثنى عشر ألفاً من البرابرة.

وظلت الحكايات المتعلقة بمآثر الإسكندر تجوب آسيا عدة قرون. وكان الرومان وحدهم من يسعدهم تصديقها، حيث إن تراثهم كان فى واقع الأمر يونانياً أكثر منه رومانياً. بل إنهم نسبوا إلى الإسكندر تأسيس المدينة التى يطلق عليها تيوفيلاكتوس اسم خوبدان، وهى مدينة «بها نهران عظيمان يجريان فى أرضها وتنمو على ضفافهما أشجار السرو المائلة»، وهو مايبدو أنه إشارة إلى تشانج آن. إلا أن أى أمل فى الاتصال المباشر بين الرومان والصينيين، وهو ماكان سيكشف عن حقيقة توجاس، قد تحطم بانهيار التحالف مع الترك.

واحتفظ الفرس باحتكارهم للتجارة على طريق الحرير وحققوا ثروات ضخمة من ذلك. وعن طريق مالديهم من صناعة وما اكتسبوه من الصناع الموهوبين الذى جاءوا من السهول، أصبح الفرس منتجين مهرة، خاصة فيما يتعلق بالمنسوجات. إلا أن ثروتهم كانت لاتزال كامنة فى التجارة بين الشرق والغرب التى جندوا لها النظام النقدى والمصرفى. ويعود الفضل إلى الفرس، بمساعدة اللاجئين اليهود الذين فر بعضهم (كما فعل النسطوريون) من اضطهاد المسيحيين، فى ابتكار استخدام الكمبيالة، وهى أصل الشيك الذى نستعمله حالياً (وهو أيضاً اصطلاح أصله فارسى). وعُرفت الكمبيالة على طريق الحرير طوال ألفى سنة تقريباً، إلا أنها صارت تستخدم على نطاق واسع وبشكل حديث. ونقل التجار السوريون هذه الكمبيالة، التى تعلموا استخدامها فى تجارة الحرير، إلى أوروبا حيث أصبحت بعد عدة قرون الأساس الذى قام عليه الهيكل المصرفى ذو الأهمية الكبرى فى عصر النهضة الإيطالى.

غير أن سيطرة الفرس على تجارة الحرير لم تدم طويلاً. ذلك أنه إذا كان الرومان عجزوا عن صنع حرير أشبه بأفخر البضائع الصينية، فإنهم سرعان ماتعلموا كيف يصنعون حريراً من نوعية مقبولة. وظل الطلب قائماً على الحرير الصينى لعشرات السنين، بل لقرون. إلا أن الصين لم تعد المصدر الوحيد لما يرد منه. ولم تكن تربية دودة القز الغربية قد قامت فى العاصمة القسطنطينية، كما قد نظن، وإنما فى مدن النسيج التقليدية فى سوريا. وازدهرت مدن صور وصيدا وبيروت من جديد وصارت مراكز كبرى لتربية دودة القز وغزل خيوط الحرير. كما انتعشت صناعة النسيج أيضاً، وخاصة فى دمشق. واستمرت هذه المدن فى ازدهار وكانت توفر احتياجات كل من الإمبراطورية البيزنطية وأوروبا طوال القرون التالية، حتى بعد أن تحولت فيما بعد من بلاد مسيحية إلى بلاد مسلمة.

***

ربما يكون تدفق الحرير المستمر من الصين أحد ملامح طريق الحرير المدهشة فى تلك الفترة. ورغم أن شمال الصين كان هدفاً لغزوات متعاقبة من السهوب، فإن صناعة الحرير ظلت قائمة وتسيطر عليها كل حكومة جديدة، لكونها مصدر كثير من عائدات الدولة.

وفى الوقت ذاته استمر انتشار البوذية فى الصين. وبينما سيطر الحكام الجدد على صناعة الحرير، اعتنق كثيرون البوذية. وفى أول الأمر اضطهدت أسرة وى، التى أسسها فى شمالى الصين الغزاة الترك فى أوائل القرن الخامس، البوذيين معلنة أن هذه الديانة «قضت على الأسرة». كما أنها، وهو الأخطر، أتاحت للرجال الهروب من الخدمة فى الجيش. إلا أن بحلول سنة ٤٧١ أصبح الحاكم من أسرة وى بوذياً مخلصاً، حتى أنه تخلى عن العرش رغم كون ابنه ووريثه فى الخامسة فقط من عمره. وتخبرنا الحوليات أنه «اعتكف فى معبد أُقيم بالحديقة الملكية بصحبة الرهبان المتأملين ورفض سماع أى أخبار خلاف أحداث الجاذبية الاستثنائية».

ورغم أن كثيراً ممن خلفوه من أسرة وى كانوا متعطشين للدم، شأنهم شأن أى بربرى عتيد، فقد ظلوا متمسكين بالعقيدة البوذية. وفى أوائل القرن السادس على سبيل المثال، اشتهرت الإمبراطورة الأرملة هو بقتلها لعشاقها السابقين، بل وابنها أيضاً. ومع ذلك فقد دعت إلى إنشاء الكهوف البوذية[1] الرائعة فى لونجمن بالقرب من لويانج. وهنا، كما هو

(١) فى البداية كان الرهبان البوذيون يقيمون فى الكهوف التى استُبدلت شيئاً فشيئاً بالأديرة المبنية وإن ظلت بعض الكهوف تُستخدم كصوامع للعبادة. (المترجم).

الحال فى كهوف الألـف بوذا بالقرب من تونهوانج، حفر الفنانون المتدينون مـئات الكهوف الصغيرة، التى قُصد بها أن تكون صوامع ومعابد للرهبان، فى الوجه الطفلى من الصخور. (لم يكن ذلك أمراً غـريباً، حيث أدت ندرة الأخـشاب أو الحجـارة المتاحة للبناء إلى قـيام الناس فى شمال الصين بحـفر بيوتهم فى سقوح التلال الطفليـة. بل إنه فى القرن العشرين عاش ماو تسى تونج وأتباعه قبل أن يتولوا السلطة فى بيوت من الكهوف فى تلك المنطقة). وفى كهوف كهذه وصل امتزاج الفن اليونانى والهندى إلى الصين فى صورته المكتملة، بعد أن تطور فى أفغانستان قبل ذلـك بقرون. وهكذا فإن تماثيل بوذا، ومنها الضخم الذى يصل ارتفاعه إلى ١٠٠ قدم، وأكثرها صغير الحجم، حُفظت فى صوامع الرهبان الصغيرة. وهى تحمل ملامح تذكرنا بأبولو اليونانى، حيث تبدو هيئة ملابسه للعالم أجمع مثل ثنيات العباءة اليونانية.

وأظهرت الإمبـراطورة الأرملة هو تدينها بإرسال حاج يدعى سونج يون فى مـهمة إلى الهند «لإحضار كتب بوذية»، واستمر تقليـد مثل هذه الرحلات فى عهد أسرة وى. وتظهر رواية لرحلة سونج يون، وإن كـانت تتخللها حـكايات عن المعجزات والهـدايا الدينية، فى «تاريخ معابد لويانج» حيث تقدم لنا لمحات سريعة عن طريق الحرير كما كان يبدو سنة ٥١٨ تقريباً. وكان اجتياز «الرمال المتحركة» فى الشتاء تجربة مريرة:

كان البرد على طول الطريق قارساً، بينما كانت الرياح العاتية والثلوج المنهمرة والرمال والحصى المندفعة بسرعة من الشدة بحيث بات من المستحيل أن يرفع المرء عينيه دون أن تملؤهما.

كان أول ماقصده سونج يون ورفاقه هو بلاد الترك الشرقيين. فقد اتسعت الإمبراطورية التركيـة فى آسيا الوسطى اتساعاً كـبيراً مما أدى إلى انقسامـها إلى قسمين. وكـانت حاضرة الترك الغربيين بالقرب من إيسيك قول (وكان هؤلاء هم الترك الذين أقاموا تحالفاً قصيراً مع الرومان البيزنطيين وحاربوا الفرس) وتركز وجود الترك الشرقيين على نهر أورخون، جنوبى بحيـرة بيكال، وهو الجزء الأسـاسى من منغوليـا. وفى المعسكر المتنقل الذى اتخـذه الترك عـاصمـة لهم، لاحظ سـونج يون بوضوح التـأثيـر الصينى الذى ظـل موجـوداً فى آسيـا الوسطى، رغم عدم استمرار النفوذ الصينى. و«رموز الكتابة فى هذا البلد تكاد تكون نفس رموز وى»، إلا أنه أشـار بحزن إلى أن «العادات واللوائح التى يتبـعها هؤلاء الناس تـتميز بكونها بربرية فى أغلبها (فهى تتبع قواعد البرابرة الخارجيين أو الأجانب)».

وكان من الطبيعى أن يسلك الحجاج الطريق الجنوبى عبر حوض التاريم، شأنهم شأن أى مسافرين متجهين إلى الهند. وعند شان شان وجد سونج يون أن الترك الشرقيين لهم حامية قوامها ٣ آلاف رجل تحت إمرة ضابط من الجيش مكلف بـ«تهدئة الأوضاع» فى الغرب. وبعد ذلك كانت هناك مدينة أُطلق عليها تسو موه تضم ١٠٠ أسرة تقريباً. وهو يشير إلى أن «هذا البلد لاينزل فيه المطر ولكنهم يروون محاصيلهم من جداول الماء»، وإن كانوا «لايعرفون استخدام الثيران أو المحاريث فى فلاحتهم». وفى المدينة التالية، وهى موه، وجد أن «الزهور والفواكه» تشبه تماماً تلك التى فى لويانج، وإن ذكر أن المبانى و«المسئولين الأجانب» مختلفون فى مظهرهم.

بعد ذلك، وفى مدينة هان مو، وجد معبداً كبيراً فيه ٣٠٠ كاهن تقريباً وتمثال لبوذا يصل ارتفاعه إلى ١٨ قدماً. وتعارف الناس هناك على أن التمثال «جاء فى الأصل من الجنوب طائراً بنفسه فى الهواء». وقد طمع فيه ملك خوتان نفسه وأراد أن يأخذه لمعبده. «ولكن فى منتصف الطريق، عندما توقفوا ليلاً، اختفى التمثال فجأة». وطبقاً لما يقوله أهل البلد، فإن التمثال «عاد إلى مكانه القديم». وإحياءً لهذه المعجزة:

بنى الناس فى العصور التالية أبراجاً حول هذا التمثال... وكانت جميعاً مزينة بعدة آلاف من الأعلام والبيارق المصنوعة من حرير مختلف ألوانه... ربما تبلغ ١٠ آلاف ويخص بلاد وى أكثر من نصفها.

وما لدى سونج يون عن خوتان قليل، حيث ينصب جل اهتمامه على حكايات اعتناق الملك القديم للدين الجديد. ولم يذكر لنا سوى أن المملكة كانت تمتد لمسافة ٣ آلاف لى من الشرق للغرب.

ومن هناك سار سونج يون وصحبه فى الجبال، حيث «العادات واللغة التى يتحدثها الناس تشبه تلك التى فى خوتان، إلا أن رموز الكتابة المستخدمة هى رموز البراهمة»[1]. وكونه يشير إلى الهنود بـ«البراهمة» يُعد اعترافاً بالتغيير الذى بدأ يحدث فى الهند. فموطن بوذا الذى كانت تهوى إليه أفئدة هؤلاء الحجاج المتدينون كان يبتعد عن البوذية ويعود إلى الديانة الهندوسية القديمة التى يعد البراهمة أعلى طوائفها. (كان بوذا يسعى إلى إصلاح الهندوسية بالابتعاد عن نظام الطوائف).

---

(١) نسبة إلى براهما وهو الإله الخالق فى الهندوسية. ويقال إنه خرج من بيضة من ذهب وخلق الأرض والأشياء جميعاً. بينما تقول طوائف أخرى إنه خرج من زهرة اللوتس التى خرجت من سرة الإله فشنو. (المترجم).

ولا يتضح لنا الطريق الذى سلكه سـونج يون فى جبال تسونج لنج (البامـيـر) و«الجبال التى لايوثق بها» من بعدها. إلا أن وصفه للمنطقة يتسم بالتشدد، وإن كان خيالياً فى بعض الأحيان:

هذه البقعة شديدة البرودة. والثلوج تتراكم صيفاً وشتاء. وفى وسط الجبل تقع بحيرة يعيش فيها تنين شرير... ومن هذا المكان الواقع غربى الطريق يبدأ طريق صاعد لاينقطع شديد الانحدار. ولمسافة ألف لى تجد الصخور الناتئة على ارتفاع ١٠ آلاف قامة وتفوق فى ارتفاعها السماء نفسها. ومقارنة بهذا الطريق، لاتعد وعورة الممر العظيم المعروف بمانجمن شيئاً. وتبدو روابى جبال هيان المشهورة [المكانان كلاهما شمالى الصين] كأنها الأرض المستوية. وبعد دخول جبال تسونج لنج خطوة خطوة، زحفنا لأعلى طيلة أربعة أيام. وبعد ذلك وصلنا أعلى جزء فى الجبال. ومن هذا المكان، باعتباره المركز، إذا نظرت لأسفل يبدو لك كأنك معلق فى الهواء... ويقول الناس إن هذا هو منتصف الطريق بين السماء والأرض.

كان ذلك فى الشهر الثامن من سنة ٥١٩، بينما كانت البعثة قد تحركت من الصين فى الشهر الحادى عـشر من العام السابق. ومع ذلك، وجد سـونج يون أن «الجو قارس البرودة وأن الريح الشمالية تحمل معها الثلج المندفع لمسافة ألف لى». والأراضى المرتفعة فى هذه الجبال «لا تُنبت أشجاراً أو شجيرات» ولكن الناس يفلحـون الأرض مستخدمين مياه الأنهار فى الرى. وعندما قيل لهم إن الناس فى «البلد الأوسط»[1] (الصين) يفلحون حقولهم التى ترويها الأمطار «ضحكوا وقالوا: كيف توفر السـماء مايكفى الكل؟» وحيث إنه من المحتمل أن هؤلاء الناس كانوا يعيشون على رافد نهر يسير نحو كاشغر، فمن المفترض أن سونج يون كان فى مكان ما بـجبال البامـيـر الجنوبية الوعرة. ويؤيد هذا قوله بأن أهل المملـكة التالية، حيث «الجبـال.. عظيمة الارتفاع والوهاد شديدة العمق»، يعـيشون شمال «الجبـال الثلجية العظيمة [هندوكوش]، التى تقف وسط أبخرة الصباح والمساء كأنها أبراج من الجواهر».

ويحلول الشهر العاشر كان سونج يون وصحبه قد بلغوا أرض الهون البيض، التى يبدو أنها أيضـاً فى جبال البـامير. وكان الـهون البيض متطـفلين غير بوذيين يبـدو أنهم مازالوا

(١) المملكة الوسطى. (المترجم).

يعيشون على أقل تقدير حياة شبه بدوية، ذلك أنه فى هذه المنطقة التى عرفت المدن المحصنة منذ عدة قرون، يشير سونج يون إلى أنه «ليست لهم مدن ذات أسوار ولكنهم يحافظون على النظام عن طريق جيش دائم يتحرك دوماً هنا وهناك». إلا أن هناك رأياً يقول إن الهون البيض أثْرَوا من مشاركتهم فى تجارة الحرير. وذكر سونج يون «أنهم يتلقون خراجاً من كل الأمم المحيطة... التى يزيد عددها على أربعين بلداً». ألا يمكن أن تكون هذه هى الصيغة الصينية المخففة التى استخدمها الصينيون قديماً فى حديثهم عن التجارة، وانطبقت على «السفراء» من بلاد وصلت إلى خوتان فى أقصى الشرق وفارس فى أقصى الغرب؟ يبدو أن هذا أمر محتمل. لكنه فضلاً عن وصف الثياب والسجاد والستائر الفخمة التى كانت العائلة الملكية تستخدمها (ومن الواضح أنهم حصلوا عليها من خلال التجارة مع الأمم النساجة شرقاً أو غرباً، لأن عامة الناس كانوا يرتدون ملابس من اللباد)، يساعدنا سونج يون بعض الشىء فيما يتعلق بهذه النقطة.

وفيما وراء بلاد الهون البيض كانت تقع أراض أخرى ذات طبيعة مختلفة. إذ كانت جدباء ولا تتمتع بأى جمال وتقع اسماً تحت النفوذ الفارسى. وفى هذا الإقليم «متناهى الصغر، الطريق الضيق الوعر خطير. فأى مسافر بحصانه يمر كل منهما وحده بالكاد». وفى المكان الذى ذكر فا شيان قبل قرن أن به جسوراً من الحبال تُستخدم فى هذه الجبال وسفوح التلال الوعرة التى تليها، ذكر سونج يون أنهم:

... يستخدمون سلاسل حديدية كجسور. وهذه السلاسل معلقة فى الهواء بغرض العبور [فوق هوى الجبال]. وعند النظر لأسفل لايدرك المرء قراراً. ولا يوجد على الجانب ما يتشبث به إن هو انزلق. وفى لحظة واحدة يهوى من ارتفاع عشرة آلاف قامة. لذا فإن المسافرين لا يعبرونها، تحسباً لهبوب الرياح العاتية.

ولكن ما وجده على الجانب الآخر من الجبال كان على العكس تماماً. إذ رأى مايطلق عليه فى الغالب بابل الشرق:

المناخ دافىء لطيف... الناس كُثْر والمنتجات وفيرة. وتعادل التربة فى خصوبتها تربة [شانتونج] فى الصين ولكن المناخ أكثر اعتدالاً... وفى الوقت المناسب يدعون الجداول تغرق الأرض، وبذلك تعود التربة خصبة وتكون رملية طينية. وكل المؤن الضرورية للإنسان موجودة

بوفرة. فكل أنواع الحبوب تنمو هناك والفواكه المختلفة تنضج بأعداد ضخمة. وفى المساء قد تسمع أصوات أجراس [المعبد] من كل جانب فتملأ الأرجاء. وتغطى الأرض زهور مختلف ألوانها تنبت من جديد فى كل شتاء وصيف ويجمعها رجال الدين والعوام على السواء ليقدموها قرباناً لبوذا.

من هذه الأرض الغنية كان الحجاج يسيرون إلى داخل الهند نفسها، حيث يتوقفون هنا وهناك لإقامة معبد بجزء من ميزانية الرحلة وليتركوا خداماً للقيام على نظافة وترتيب أحد الأضرحة «للأبد»، أو ليستأجروا فناناً يصور قرباناً صينياً. وكانت الإمبراطورة قد أعطت قافلة سونج يون «ألف بيرق بطول مائة قدم بالألوان الخمسة وخمسمائة [دواسة؟] حرير مرقشة من العشب المعطر». كل هذه الأشياء، إضافة إلى الألفى راية التى أعطاها له الأمراء والحكام والنبلاء، وهو مايعد إشارة واضحة إلى التأييد الملكى للبوذية، انتهى من توزيعها قبل بلوغه نهر السند. ومايؤسف له أن الكتب التى تؤرخ للرحلات لاتحمل لنا إلا مايزيد على ذلك قليلاً فيما يتعلق بهذه الرحلة، ولم تنقل لنا شيئاً عن عودتهم. إلا أن هناك ملاحظات مقلقة (للمتدينين) عن أناس كثيرين فى هذا الإقليم «لم يؤمنوا بشريعة بوذا وأحبوا عبادة الجن والعفاريت».

وعاد سونج يون إلى الصين سنة ٥٢١، ولكن الإمبراطورة الأرملة هو ظلت على قيد الحياة فترة تقل عن عشر سنوات بعد ذلك. فقد أُغرقت أثناء إحدى الثورات بعد محاولة فاشلة للجوء إلى أحد الأديرة البوذية. ولم تمض إلا بضع سنوات حتى انهارت أسرة وى نفسها. ولكن فى سنة ٥٨١ نجحت واحدة من الدول التى خلفتها فى توحيد كل الصين لأول مرة منذ ٢٥٠ سنة تحت حكم أسرة سوي[١] الجديدة.

***

وسرعان ما بدأ أباطرة سوي عملهم لتكريس الفُرقة بين فرعى الترك. وتحقق لهم قدر كبير من النجاح فى ذلك، حتى أن الحروب الأهلية صارت النمط الغالب على الحياة فى السهوب. وبحلول أوائل القرن السابع كان الترك مشغولين فى شئونهم الداخلية، مما أتاح للصين استعادة بعض من سمعتها المهلهلة فى آسيا الوسطى. وبحلول سنة ٦٠٨ كان

---

(١) أسسها يانج چيان (٥٤١ ـ ٦٠٤) كبير وزراء تشو الشمالية بعد استيلائه على السلطة حيث عُرف بالإمبراطور ون دى الذي انتصر على إحدى الإمبراطوريات الجنوبية سنة ٥٨٩ ووحد الصين. (المترجم).

إمبراطور سوي على قدر من الأمان سمح له بالتجول فى ممر كانسو، حيث استقبل سفارات من عدة واحات غربية أهمها تورفان التى كانت تتعرض دائماً لعمليات السلب والنهب التى يقوم بهـا أهل منغوليا. بل إنـه كان يقوم من حـين لآخر بالوساطة بين الفـصائل التركـية المختلفة.

وتمشياً مع رغبتهم الواضحة فى استعادة الأراضى الصينية الغربية التى ضاعت منذ زمن طويل، أعاد أباطرة سوي بناء تشانج آن جاعلين منهـا بداية طريق الحرير لتصبح مرة أخرى عاصمة الصـين الموحدة. أما لويانج، التى جعلوها العاصمة الثـانية، فكانت مرتبطة بطرق نهرية وقنوات. ويوضح وصف لويانج فى عهـد الإمبراطور يانج[1] (٦٠٥ ـ ٦١٦) مقـدار خروج شمال الصين من الدمار الذى لحق به فى القرون السابقة:

زيّن [الإمبراطور يانج] ظاهرها بمنتزه محيطه ١٢٠ كيلومتراً جعل فيه بحيرة طولها تسعة كيلومترات تبرز فيها ثلاث جزر للخالدين مزينة بخيام رائعة. وعلى ضفتى الممر المائى الذى شقه للوصول إلى البحيرة شيّد ست عـشـرة فـيللا لمحـاسـيـبـه. وكـانـوا يصلون إلى هذه الدور بالقوارب. وكانت كل أشكال الأبهة موجودة فى هذه المساكن والحدائق التى تحيط بهـا. وفى الخـريف، حين تسقط الأوراق من على شـجـر القيقب، كانت الأشجار والشجيرات تزين بالأوراق والزهور المصنوعة من قمـاش لامع. وإلى جانب زهور اللوتس الحقيقيـة، كانت البـحيرة تُزيّن بزهور اللوتس الاصطناعيـة التى كانت تجدد باستـمرار. وكـان الإمبراطور يستمتع بالإبحار فى البحيرة أو ركوب الخيل فى المنتزه فى الليالى التى يضيئها القمر تصحبه كوكبة من الفتيات الحسان اللائى تلقين الأشعار أو تصدحن بالغناء.

ولكن هذا لايعنى أن الصين عـادت إلى سابق عهدها من العـظمة التامة. فـقد كانت الحياة الرغدة التى وُصـفت هنا بوضوح سبباً فى انهيار أسرة سـوي وعودة الفوضى، حيث تقاتل قواد الجـيش من أجل السيطرة على الأقاليم. وبعد سنة ٦١٨ أصـبحت لويانج مأوى

(١) هو الإمبراطور يانج دى (٦٠٥ ـ ٦١٨) الذى حشد مليونى رجل لإعادة تعمـير لويانج ومليوناً آخر لترميم السور العظيم وتطويره. كما حفر القناة الكبـرى التى تربط بين هانجتشو فى الجنوب وتشوجيون (بكين الحاليـة) فى الشمال. وكان لها دور مرموق فى الازدهار الاقتصادى والثقافى. (المترجم).

المشاغبين واللصوص. وبعد أن كانت الزهور الحريرية تميز شوارعها، باتت تلك الشوارع مليئة بالجيف العفنة. وظل الأمر بعض الوقت وكأن الناس نسوا كونفوشيوس وبوذا وكأنه لم تعد هناك فنون سوى فنون الحرب.

وفى الشمال الغربى أعلن الشاب لى يوان نفسه إمبراطوراً وقبلته مدينة تشانج آن، التى أسس فيها إمبراطورية تانج. إلا أن طريقه لم يكن واضحاً بالمرة. فقد نازعه على اللقب قواد آخرون، أحدهم في لويانج. ولم يقتصر الأمر على ذلك. إذ كان هناك الترك الذين يتحينون اللحظة التى يضعف فيها جيرانهم. وبدأ هؤلاء بالهجوم ولم يردهم مهزومين سوى الهجوم المفاجىء الذى شنه فرسان تانج عقب سقوط أمطار غزيرة نادرة. تراجع الترك إلى السهوب المغولية، فى حين مضى إمبراطور تانج فى توسعاته وتدعيم حكمه فى الصين.

وفى تلك الفترة التى كثرت فيها القلاقل دخل أشهر الحجاج البوذيين الصينيين التاريخ، حيث قدم لنا صورة لطريق الحرير فى فترة التحول. وكان شيوان تسانج، وهو شاب شديد التدين، «رجلاً طويلاً وسيماً له عينان جميلتان. كما أن ملامحه كانت جادة، ولكنها رقيقة. وكان سلوكه هادئاً دون أن يكون متكلفاً». هذا مايرويه لنا كاتب سيرته. وقبل ذلك بسنوات كان قد جاء ليلحق بأخيه بدير الأرض الطاهرة فى لويانج. ولكن فى الفترة التى اتسمت بالفوضى فى أعقاب انهيار أسرة سوي، قال لأخيه «سمعت أن أمير تانج[1] قد نصَّب نفسه فى تشانج آن عاصمته الجديدة. وتعتمد الإمبراطورية عليه اعتماد الطفل على أمه وأبيه. ليذهب معى أخى إلى هناك». وهكذا ذهبا معاً.

ولكنه رغم أن بعض النظام كان يسود تشانج آن، فقد كانت دراسة البوذية لاتزال ضعيفة، مما أصاب شيوان تسانج باليأس من معرفة الحقيقة. ويفسر لنا تشانج يويه مؤلف «سجلات تانج عن العالم الغربى»، الذى وصف رحلة حج شيوان تسانج، هذه المشكلة:

> **... بعد انتشار الديانة [البوذية] شرقاً كانت أصوات الكلمات التى تُرجمت غير صحيحة فى كثير من الأحيان. وقد أُسيء فهم عبارات الأقاليم المختلفة بسبب الأصوات الخاطئة. وهكذا ضاع المعنى.**

وعندما أدرك شيوان تسانج ذلك «تألم قلبه. وعندما خشى العجز عن اكتشاف أخطاء

---

(١) فى غمرة الانتفاضة التى قام بها الفلاحون أسس لى يوان (٥٦٥ ـ ٦٣٥) إمبراطورية تانج سنة ٦١٨ بعد احتلاله تشانج آن. وقد عُرف فى التاريخ بالإمبراطور فاو تسو. (المترجم).

الترجمة جميعاً، اقترح فحص النصوص فحصاً دقيقاً. . .» ولهذه الغاية قرر الرحيل إلى الهند.

ولكن ما أسهل الأقوال وما أصعب الأفعال. ففى ظل الاضطرابات التى فى الداخل، منع حاكم تانج السفر للخارج. ولكن ذلك لم يحل دون سفر شيوان تسانج أولاً إلى لانج تشاو (وويه) فى أعالى نهر هوانج بالقرب من بداية ممر كانسو، حيث التقى بكثير من تجار آسيا الوسطى الذين كانوا يرتادون المدينة وتحدث معهم. ويلغ الحاكم المحلى إشادتهم بتدينه فأكد على الحظر الإمبراطورى المفروض على السفر. إلا أن شيوان تسانج استطاع بمساعدة الرهبان البوذيين المحليين أن يتسلل إلى الغرب. وكان يسافر فى جنح الظلام ويختفى بالنهار، إلى أن بلغ آن شى وهى المدينة التى يتزود فيها المسافر على الطريق الشمالى إلى هامى بما يحتاجه من مؤن.

وهنا واجهت شيوان تسانج بعض العقبات الكأداء. كان لابد من عبور نهر سولو ذى الجوانب شديدة الانحدار والتيار المندفع. إلا أن المكان الصالح للعبور كان تحت حراسة حصن صينى. وبعد هذا الحاجز كانت هناك خمسة أبراج مراقبة صينية أخرى على أهبة الاستعداد، حيث كانت حكومة لانج تشاو قد أرسلت مندوبين راكبين لإلقاء القبض عليه. ولكى تكتمل الصورة القاتمة، نفق حصان شيوان تسانج وتركه الراهبان المكلفان بإرشاده ليشق طريقه بنفسه.

وسواء كانت الصدفة وراء ذلك، أو بدا الأمر هكذا، فقد التقى شيوان تسانج بشاب «بربرى»، كان بوذياً مثله، وافق أن يكون مرشده للتغلب على تلك العقبات. وطبقاً للاتفاق، تقابل الرجلان فى اليوم التالى عند الغروب حيث قدمه الصديق الجديد باندا إلى رجل عجوز من الغرب أيضاً قائلاً إنه «ذهب إلى هامى وعاد منها أكثر من ثلاثين مرة». ارتاب الرجل العجوز كثيراً فى نوايا شيوان تسانج وحذره قائلاً:

الطرق الغربية سيئة وخطرة. ففى بعض الأحيان تحول أنهار الرمال المتراكمة دون سير المسافرين، وفى أحيان أخرى تكون العفاريت والرياح الحارقة هى السبب. وإذا لاقاها الناس لاينجو أحد من غضبها. وفى كثير من الأحيان تضيع القوافل الكبيرة وتهلك هلاكاً تاماً. ما أسوأ أن تسير وحدك ياسيدى! أرجوك أن تفكر فى الأمر ملياً وألا تخاطر بحياتك.

ولكن شيوان تسانج ما كــان ليثنيه أحد عما أراد. لقد قبل من الـرجل العجوز حصانه الأحـمر المسن، تـلك المطية المـدربة التى ذهبت إلى هامى وعـادت منهـا ١٥ مرة، حـيث استبدله بحصانه الذى اشتراه حديثاً. وكان ذلك قراراً سليماً كما سنرى.

وهكذا اتجه شيوان تســانج وباندا غرباً. صنع باندا جسراً خشبـياً على نهر سولو، عند نقطة يقل عرضـها عن اثنى عشـر قدماً. ولكن عندمـا ناما على الجانب الآخـر من النهر، استيقظ شيوانج تسانج ليجـد باندا يقترب منه بهدوء شاهراً سكيناً. وعلى بعد عدة خطوات تردد الشاب وعاد إلى فـراشه. وبحلول صباح اليـوم التالى كان باندا يتحـدث عن مخاطر الرحلة وعن عدم رغبته فى مخالفـة قوانين البلاد. لم يكن فقط يريد العودة بمفرده، بل ود أن يأخذ شيـوان تسانج معه، حيث كـان يخشى إن هم ألقوا القبض على شـيوان تسانج أن يبوح بدوره فى الهرب. ولـم يقبل باندا أن يدع الحـاج يمضى فى رحلته إلا عندما أقسم له شيوان تسانج قائلاً: «لو قطَّعوا جسدى قطعاً كذرات التراب لن أعود أدراجى».

وبذلك مضى شيوان تسانج فى طريقه غـرباً بمفرده، ولـم يكن له مرشد سوى علامات الطريق القديمة فـى الصحراء وأكوام العظام البيـضاء وبعر الجمال التى تسـير على الطريق. وبعد فترة قليلة جداً وقع فريسة للسـراب الذى يراه السائر فى الصحراء. إذ رأى على البعد جيشاً ضخـماً «يسير حيناً ويتوقف حيناً» ويرتدى جنوده ماترتديه شـعوب السهوب من لباد وفراء:

كـانت هناك جمال وخيـول ذات سروج فـخمـة وكـانت رمـاحـهم تبرق وأعـلامـهم تلمع. وبعـد قليل تحـول هؤلاء إلى أشكال جـديدة وصـور مـختلفة. كـان هذا المنظر المزدحم يتغير كل لحظة وفى كل مرة يتحـول إلى ألف صورة جديدة.

وسمع أيضـاً أصواتاً تصيح «لاتخف». ولكنه مـا إن وصل إلى جيش الصحـراء حتى اختفى.

فى هذه الحالة المشوشة وصل إلى أول برج مراقبة. وبينما كان يحاول ملء قارورة الماء الخاصة به تحت جنح الليل إذا بالرماة يلمحونه على الفور ويأخذونه إلى قائد الحامية. ولكن شيـوان تسانج كان مـحظوظاً، إذ كان هناك بوذى آخر. وبعـد أن فشلت محـاولات القائد لإثناء الحاج عـن إكمال رحلتـه، زوده بالماء والمؤن. والشىء الأهم أنه أعطاه رسـالة لأحد أقاربه فى البـرج التالى. ومضى شـيوان تسانج فى طريقـه، حيث سُمح له بالمرور من برج

لآخر. إلا أنهم حـذروه من الاقتراب من البـرج الأخير، لأن قـائده لم يكن متعـاطفاً مع البوذيين. ونصحـوه أن يستعيض عن ذلك باجتيـاز الصحراء مباشرة إلى نبع الخـيول البرية على بعد ۱۰۰ لى.

سار شيوان تسـانج بحصانه المسن فى «نهر الرمال» حيـث «لا طيور ولا حيوانات ذات أربع ولا ماء ولا مرعى». وهاجمه السراب ورؤى العـفاريت من جديد. وبعد مسيرة ۱۰۰ لى وجد أنه ضل الطريق. وبينمـا هو فى حالة فزع سقطت من يده قـربة الماء، حيث رأى آخر أمل فى الحياة يضيع فى الرمال. فى هذه المرة بالذات فكر شيوان تسانج فى العودة إلى الصين. إلا أنه تذكـر قسمه بألا يعود خطـوة واحدة نحو الصين، حتى إذا كـان موته على الطريق إلى الغرب.

وبناء عليه أسرج حصانه وردد بعض الأدعية الصادقة... وانطلق فى الاتجاه الشمـالى الغربى. وعندمـا نظر حوله فى كل اتجاه لم ير سوى سهل لا حدود له ليس به أثر لبشر أو خيل. وفى الليل أشعلت الأرواح الشريرة مشاعل كالنجوم فى عددها. وبالنهار كـانت الرياح الرهيبـة ترفع الرمـال وتبعثرها كأنهاوابل منهمر. ووسط هذا الهجوم الشرس لم يعـرف الخوف طريقاً إلى قلبه. إلا أن مـا عـاناه من نقص الماء كـان شديداً. وفى نهاية الأمـر كان عذاب العطش من الشـدة بحيث أعـجزه عن أن يخطو خطوة أخرى. لم تلمس شفتاه نقطة ماء طوال أربع ليال وخمسة أيام. كان هناك حريق مستعر فى أحشائه وأوشك على الهلاك. وعندمـا عـجز عن الاستـمرار، رقد فى مكانه على الرمـال... وأخذ يدعو.

وفى منتصف الليلة الخامسة أفاق هو وحصانه عندما هب نسيم بارد واستأنفا سيرهما. وبعد ذلك ظهرت قيمة مقايضة الرجل العجوز:

عندمـا سار حوالى أربعـة أميال غيّر حصانه اتجـاهه فجأة ولم يفلح شىء فى إعادته أو إبقائه على الطريق الأصلى.

وبعد عدة أميـال وجد حصانه شريطاً من المراعى الخضراء وكان وراءه بركـة صافية من الماء العذب. هاقد نجا كلاهما ووصلا سالمين إلى واحة هامى العامرة.

وهنا أصـبحا بعـيدين عن السلـطة الصينيـة المباشرة ولكـنهما ليـسا بمنأى عن الـنفوذ

الصينى. وبينما كان شيوان تسـانج ينعم بضيافة الملك البوذى المحلى، وصلت من تورفان، الواحة الأكبر والأغنى (التى كانت تحكمها أسرة من أصول صينية منذ أوائل القرن السادس) مجمـوعة من الحرس لمرافقـة الحاج إلى بلاط تورفان. إلا أنه كان هناك خط سـير آخر فى ذهن شيوان تسانج، حيث كان يعتزم زيارة أحد الأضرحة فى مدينة بيشباليك التركية. ولكن بما أن طاعة الملك واجبـة، كان لابد من الذهاب إلى تورفان. وهناك لقى ترحـيباً من الملك وتوسلات ملحة بأن يبقى ليرأس الجالية البوذية فى تورفان. وكانت التوسلات على قدر من الإلحاح جعله لايتمكن من استئناف رحلته إلا بعد أن بدأ إضراباً عن الطعام.

ولكنه بعد اقـتناع ملك تورفان بعزم شـيوان تسانج، أعد مـئونة سخيـة لرحلته وزوده بأقنعة للوجـه وأحذية وقفازات وكل مـايلزمه من ملابس ثقيلة يحـتاجها فى عـبوره المزمع لجبال تيـان شان والبامير. وكـان هناك ٣٠ حصاناً و ٢٤ خادماً، إضـافة إلى مسئول كـبير يحمل الحراير والفاكـهة، لمرافقة الحاج إلى الممالك المجـاورة. وكانت هناك ١٠٠ أوقية من الذهب و ٣٠ ألف قطعة فـضة و ٥٠٠ لفافـة حرير، جميـعها لاسـتخدام شيـوان تسانج الخاص. وفوق هذا كله رسائل توصية لملوك ٢٤ دولة فى الـطريق، كل منها مرفق بها لفافة كبيـرة من الساتان على سبيل الهـدية. وأرسل الملك، نيابة عن شيوان تسـانج، لخان الترك الأعظم وحده «عربـتين محملتين بـ ٥٠٠ قـطعة من الساتان». كان ذلك هو مـقياس حب ملك تورفان، ومـقياس الثـراء الذى كانت عليـه تلك الدول الواحات التى تبـدو منعزلة. وأدت صداقة ملك تورفان وسخاؤه ونفـوذه لدى الخان التركى (الذى كان تابعاً له فى واقع الأمر) إلى وصول شيوان تسانج بسلام، بل وفى راحة نسبية، إلى حدود الهند.

ولا يعنى هذا أن الرحلة كـانت بالضـرورة آمنة، كـما اتضح لهم عـلى الفور. فـفى الطريق إلى قره شهر. وهى الواحـة التالية، وجدت قافلة شيوان تسـانج، وقد أصبحت له حاشية، جثث التجار الذين لم ينتظروا وسبقـوهم فجعلهم حظهم العاثر يلتقون بعصابة من اللصوص.

وجد شـيوان تسانج قره شـهر واحة «تحـيط بها التلال من كل جـانب» وبها «طرق . . منحدرة يسهل الدفاع عنها». إنها مكان لطيف غنى بفـواكهه الكثيرة. وهى تتشابه مع الهند فى كتابتها وديانتها. وعلى بعد خمسين ميلاً كانت كوتشا التى يفصلها لسان جبلى من تيان شان. وكانت مشهورة بفاكهتهـا من الكمثرى والرمان والعنب والبرقوق، إلى جانب الكثير من المعادن النفيسة الموجودة فى أرضهـا. وكانت نساء كوتشا، اللائى زاد سحرهن بالعطور

ومستحضرات التجميل التى ترد من بلاد فارس، يجتذبن التجار المسافرين فى الصحراء. وكذلك الحال بالنسبة لعازفات الموسيقى اللائى قال عنهن شيوان تسانج إنهن «فى ذلك الوقت كن على قدر كبير من المهارة جعلتهن يستطعن، بعد تدريب بسيط، أن يعزفن لحناً سمعنه مرة واحدة فقط». وكان الكثير من سكان تلك المدن ينحدرون من أصول هندوأوروبية كانت فى وقت من الأوقات تسيطر على آسيا الوسطى. وقد ظلت لغتهم هندو أوروبية، رغم كتابتها بالحروف الهندية التى أخذوها مع البوذية.

وأثناء سير القافلة نحو الغرب فى المسار الشمالى لطريق الحرير، كانت ستمر على أكسو إن هى اتخذت الطريق المعتاد. إلا أن نفوذ الخان التركى، والحاجة لزيارته قبل المضى إلى الهند، أجبر شيوان تسانج على دخول جبال تيان شان قارسة البرودة. وفى الطريق واجه هو وقافلته خطرين. فبعد يومين من خروجهم من كوتشا لقيتهم جماعة تضم ٢٠٠ من اللصوص الترك، الذين سمحوا لقافلة الحاج بالمرور فقط لأنهم كانوا مشغولين فى شجار حول تقسيم الأسلاب التى حصلوا عليها من قافلة تجار نهبوها للتو. وبعد ذلك سار شيوان تسانج على الجانب الذى تغطيه الثلوج من جبال تيان شان:

جبل الثلج هذا... شديد الخطورة وتصل قمته إلى السماء. منذ بدء الخلق والجليد يتجمع هناك ويتحول إلى ثلوج لا تذوب فى الخريف ولا فى الصيف. وتمتد طبقات من هذه الثلوج الصلبة اللامعة على مدى البصر وتتداخل مع السحب. وإذا نظر المرء إليها أعماه بياضها الشديد. والطريق به صخور وصواعد الثلج التى يصل ارتفاع بعضها إلى مئات الأقدام وبعضها الآخر يبلغ عرضه عشرات الأقدام، بحيث لا يمكن للمرء أن يعبره إلا بشق الأنفس. يضاف إلى ذلك أن المسافر يواجهه دائماً هبوب الرياح والعواصف الثلجية. ورغم الأحذية والملابس المبطنة بالفراء فإنه لايمنع نفسه من الارتعاش فى هذا الجو البارد. وفيما يتعلق بالأكل أو النوم، لا يمكنه أن يجد مكاناً جافاً يرقد فيه. وليس أمامه خيار سوى تعليق قدر الطهى لإعداد طعامه وأن يبسط فراشه على الثلج.

كان هذا الممر قاسياً جداً حتى أن ١٤ رجلاً ماتوا من الجوع والتعرض للبرد، وربما من انهيار الجليد. بل إن عدداً كبيراً من الثيران والخيل نفق متجمداً. وعلى الجانب الأقصى،

وصل شيوان تســانج إلى إيسيك قول، البحـيرة الدافئة. وعلى مقـربة منها، وفى هذا البلد المعتدل نسـبياً، يقع معـسكر الترك الشتوى. وصل شيـوان تسانج إلى هناك سنة ٦٣٠. أى بعد ٥٠ سنة من الرحلة التـى قام بها زيمارخـوس إلى هذا الإقليم قادماً من الإمـبراطورية الرومانية الشرقية.

وطبقاً لوصف شيوان تسانج، لم يفقد بلاط الخـان شيئاً من عظمته. وهو يقول لنا إن الترك لديهم أعداد ضخمة من الخيل. وكان الجنود «يركبون الجمال أو الخيل ويرتدون الفراء وقماشاً فاخراً من الصـوف ويحملون حراباً طويلة وأعلاماً وأقواساً مستـقيمة». وكان الخان نفسه يلبس معطفاً من الساتان الأخضر ويربط شعره الطويل المرسل على جبهته بقطعة طويلة من الحرير تتـدلى على كتـفه. وكان يقـوم على خدمتـه ٢٠٠ ضابط يرتدون مـعاطف من الديباج. وكان الحشد مـجتمعاً فى سهوب القرغيز «التى كـانت تمتد إلى ما لا يمكن للعين أن تدرك مداه».

ورؤية شيوان تسانج لهذا التجمع البـدوى الكبير يحظى منا باهتمام خاص، بالنظر إلى ماوقع من أحداث فى الماضى. فعلى نمط إمبـراطوريات السهوب، كان الترك على وشك أن يفقـدوا وحدة شعـوب السهوب التى كـانت هشة على الدوام، وينقـسموا إلى عـدة فروع رئيسية تجعل لهم أسماء منفصلة فى أنحاء العالم.

ويقال إن الخان، شأنه شأن غيره من الحكام الذين على الطريق، سعد بسماع أن شيوان تسانج يؤمن بشـريعة بوذا (رغم أنه لم يكن بوذياً) وحاول إثنـاءه عن المضى فى رحلته إلى الهند، التى كان يظن أنهـا «شديدة الحرارة». إلا أنه عندما أصـر شيوان تسانج على الـسفر زوده الخان بمترجم ليكون فى خدمته حتى أفغانستان، إلى جانب هدايا من الحرير والستان. بل إنه صاحبه مسافة من الطريق إلى الهند. وكان الإقليم الذى سارا فيه يسمى أرض الألف نبع. وشمالى جبال تيان شان، كانت «الهضبة المـستوية» فى سهوب القرغيز لها من الجاذبية ما جعلها معسكر الخان المفضل فى الصيف، حيث:

> **تحصل الأرض على كفايتها من الرى وتوفر الأشجار ظلاً وارفاً وتتنوع الزهور فى شهور الربيع كأنها قماش مزركش. وهناك ألف نبع ماء وبحيرة اشتقت منها اسمها... وهناك أيضاً عدد من الغزلان، كثير منها مزين بالأجراس والحلقات...**

وبعد أن مضت قافلة شيوان تسانج فى طريقها، على الحافة الخارجية لجبال تيان شان،

وصلت إلى مدينة تالاس الواقعة على النهر الذى يحمل الاسم نفسه، حيث «يتجمع التجار من كل صوب ويعيشون مع أهل البلاد». ووراء تلك المدينة كانت تقع المدينة التى نعرفها باسم طشقند، وكانت مدينة بسيطة فى ذلك الوقت، وكذلك نهر سيحون. وكانت الأرض التى تحصل على كفايتها من الرى تنتهى فجأة عند قيزل قوم (صحراء الرمال الحمراء) الواقعة بين نهرى سيحون وجيحون. وكانت تلك عقبة مخيفة وواحداً من العيوب الرئيسية فى هذا الطريق الواقع شمالى جبال تيان شان، التى لولاها لكان طريقاً لطيفاً:

... إننا مقدمون على صحراء رملية كبيرة، حيث لا ماء ولا كلأ. الطريق يضيع فى تلك القفار التى لا تبدو لها نهاية. ولم يسعنا معرفة الطريق الذى يجب أن نسلكه إلا بالنظر صوب بعض الجبال الضخمة والاسترشاد بالعظام المتناثرة هنا وهناك.

ولم تخرج قافلة الحاج مرة أخرى إلى أرض ذات زرع إلا بعد قطع عدة عشرات من الأميال فى الصحراء، وذلك عند مدينة سمرقند بالقرب من طرف أنف الجبل الذى يشكل أحد جوانب وادى فرغانة الفسيح. انبهر شيوان تسانج بهذه المدينة الواقعة على الجانب الغربى من جبال البامير وتعد مركز الشبكة التجارية الصُغدية:

يبلغ محيط العاصمة ٢٠ لى أو نحو ذلك. وتحيط بها من كل جانب أرض وعرة. وهى مكتظة بالسكان. وتتجمع هنا البضائع الثمينة الواردة من بلاد أجنبية كثيرة. أما تربتها فخصبة وغزيرة الإنتاج وتغل محاصيل وفيرة. فى حين توفر أشجار الغابة خضرة كثيفة وتكثر فيها الأزهار والفواكه. وتربى هنا خيول شن [وهى النوع الذى يفضلونه دائماً]. وسكانها مهرة فى الفنون والحرف بقدر يفوق سكان البلاد الأخرى.

ويتفق مع ذلك ما جاء فى «تانج شو» (حوليات أسرة تانج):

يتفوق أهل هذا البلد فى التجارة ويعشقون الربح. وما أن يبلغ الرجل العشرين حتى يرحل إلى الممالك المجاورة... إنهم يذهبون إلى حيث يوجد الربح.

وأكد علم الآثار الحديث هذا التقدير، حيث حدد مواقع المستعمرات التجارية الصُغدية بأنها على حدود الصين نفسها بالقرب من لوب نور. ورغم خضوع الصُغد للترك، كانت

لهم روابط وثيقة، من اللغة والثقافة والتراث العرقى، مع الفرس. بل إنهم أخذوا أبجديتهم من آسيا الوسطى عبر بلاد فارس. وكان كثير منهم يدين بالزرادشتية. ولكن ربما كان إدراكهم لأهمية الصين الفريدة بالنسبة لتجارتهم سنة ٦٣١، أى بعد سنوات قليلة من زيارة شيوان تسانج هذه، هو ماكان وراء سفر وفد صُغدى إلى الصين للمطالبة بأن تضع أسرة تانج يدها على بلادهم ويكون حكامها سادة عليهم. غير أن إمبراطور تانج، تاى تسونج[1]، لم يقبل طلبهم مشيراً إلى بعد بلادهم الشديد:

«إنى أرفض أن أُزيّن نفسى بألقاب لا طائل من ورائها على حساب شعبى. إذا أخضعت بلاد الصُغد لحكمى لأصبح لزاماً علىّ أن أبعث بجنود للدفاع عنها. وهؤلاء الجنود عليهم أن يسيروا ١٠ آلاف لى كى يصلوا إليها».

كانت تلك بالفعل المشكلة القديمة التى واجهها حكام أسرة هان السابقة. إلا أنه رغم رفض تاى تسونج لهذا المطلب، فمن المحتمل أن يكون للعرض الصُغدى دور فى قراره اللاحق بمد نفوذه إلى آسيا الوسطى مرة أخرى.

ومن سمرقند حتى الهند، وجد شيوانج تسانج سلسلة من المناظر المحزنة التى وقع عليها بصره. فملك سمرقند ومعظم شعبه كانوا «عُبّاداً للنار»، أى من أتباع زرادشت. وهذا نتيجة لروابطهم الوثيقة جداً مع بلاد فارس. كما أن المعبدين البوذيين كانا خاويين وكان الزرادشتيون المحليون يطاردون الحجاج الزائرين بالمشاعل. ولابد أن نتذكر أن هؤلاء التجار الصُغد كانوا ضمن أنجح المبشرين البوذيين فى آسيا الوسطى. وتمكن شيوان تسانج من تغيير الاتجاه المضاد للبوذية. فقد أنقذه الملك من العامة بمشاعلهم المتقدة. كما أن حماسه التبشيرى أعاد الكثير من المواطنين إلى البوذية. بل إن الأديرة المهجورة جُددت وأقام بها رهبان تولى شيوان تسانج ترسيمهم. ولكن ارتداد الصُغد عن البوذية لم يكن سوى نذير لما سيجده فى الهند نفسها، حيث لا يسع الحاج، مهما أُوتى من حماس، أن يغير مسار التاريخ.

وعندما غادر شيوان تسانج سمرقند فى آخر المطاف، سلك طريقه فى اللسان الجبلى الواقع فى أقصى الغرب من جبال البامير، متوجهاً إلى بلخ:

... دخلنا الجبل. الطريق الجبلى شديد الانحدار ويطل على هاوية

---

(١) حكم بين ٦٢٧ و ٦٤٩ وكان حاكماً بارزاً أحرز نجاحاً كبيراً فى المجالين السياسى والعسكرى. (المترجم).

والمرور فى الشعب خطير وشاق. لا ناس ولا قرى. والماء والخضرة قليلان. وبعد السير فى الجبال مسافة ٣٠٠ لى أو نحوها إلى الجنوب الشرقى دخلنا البوابات الحديدية [ممر بوزجالا]. والممر الذى يحمل هذا الاسم تحده الجبال عن اليمين وعن الشمال. وهذه الجبال شاهقة الارتفاع. والطريق ضيق، مما يزيد الأمر مشقة وخطورة. وعلى الجانبين حائط صخرى فى لون الحديد. وهنا أُقيمت أبواب خشبية مزدوجة قُويت بالحديد وزُودت بأجراس كثيرة علّقت بها. ومن الحماية التى توفرت للممر بهذه الأبواب، عند إغلاقها، جاء اسم البوابات الحديدية.

وبغض النظر عن شكل الأمن والأمان اللذين وفرتهما البوابات الحديدية، فإن النفوذ التركى لم يحل دونه شيء وأصبح له وجود راسخ فى بلخ. وبعد أن خرج شيوان تسانج عن الطريق لزيارة الأمير التركى المحلى، اتجه صوب مركز بلخ الدينى والتجارى (وكان اسمها باكترا من قبل). وفى هذه المدينة الجميلة «التى تحول كثرة زهورها دون حصرها» وجد شيوان تسانج «حوالى ١٠٠ دير و ٣ آلاف راهب». إلا أن الهجمات المتلاحقة، التى شنها الهون والفرس الزرادشتيون والترك غير المؤمنين، كان لها أثرها الذى ألحق أضراراً شديدة بالممارسات البوذية المحلية. ولاحظ شيوان تسانج «أنهم غير منتظمين فى واجباتهم ضحى وعشية، حتى بات من الصعب على المرء أن يفرق بين القديسين والخطاة».

لقد اتجه الآن إلى الجنوب عبر الجبال الثلجية الرائعة (هندوكوش) فى طريقه إلى الهند:

هذه الجبال مرتفعة والأودية عميقة. والوهاد والفلوج خطرها عظيم. ولا ينقطع هبوب الريح وتساقط الثلج. ويظل الثلج قائماً على مدار الصيف. ويسقط ركام الثلج فى الأودية ويسد الطرق. وترسل أرواح الجبال وعفاريتها شتى صنوف البلوى عندما تغضب. ويعترض اللصوص سبيل المسافرين ويقتلونهم... والطريق فى صعوبته وخطورته ضعف ما عليه الأقاليم الصحراوية والمناطق الثلجية. والسماء تخفيها على الدوام السحب المجمدة والعواصف الثلجية الكاسحة. وإذا تصادف أن بلغ المرء مكاناً لطيفاً، فإنه لايتعدى بضع عشرات من الأقدام من الأرض المستوية.

وبعد أن سار شيوان تسانج فى تلك الأودية الجبلية المقفرة، خرج عند مدينة باميان التى اشتهرت كثيراً بما فيها من تماثيل بوذا العديدة المنحوتة فى الصخر ويزيد ارتفاع بعضها على ١٠٠ قدم، بما عليها من «زينة ثمينة يخطف بريقها الأبصار». وهنا كان يتتبع أحد طرق القوافل والحجاج القديمة عبر جبال هندوكوش المتجهة إلى وادى نهر كابول. ومع أنه وجد سكان هذه الهضبة الأفغانية، التى أطلق عليها «القمة السوداء»، قساة غلاظا، فقد أعجبه إيمانهم القوى بالبوذية، وإن لم تكن دائماً مايعتبره هو العقيدة الصحيحة. وكان تقديره عظيماً لحماسهم الدينى وذكرى تلك التماثيل العظيمة، التى تعد من أروع أمثلة الفن البوذى اليونانى الهندى، عندما وصل إلى الهند نفسها.

وعندما خرج عن الطريق الرئيسى لزيارة المدن الواقعة على الجانبين ولها ارتباط قوى بالبوذية، وجد قدراً كبيراً من الخراب. ففى قندهار، التى تعتبر عادة موطن الفن البوذى اليونانى الهندى الذى وصل إلى حدود الصين، وجد أن المدن والقرى ليس فيها سوى عدد قليل من السكان:

هناك حوالى ألف سنجاراما [دير] مهجورة وخربة. وهى مليئة بالشجيرات البرية وموحشة إلى أقصى درجة. فى حين بليت النصب التذكارية. والمعابد الخارجة عن العقيدة، ويصل عددها إلى ١٠٠، يشغلها الهراطقة [غير البوذيين] حيث يختلط الحابل بالنابل[١].

وفى بيشاور، التى كانت يوماً العاصمة الشتوية لملك الكوشان البوذى المؤمن، وجد:

ألف دير بوذى مهجورة وخربة. كما نمت فيها الحشائش ولم تعد سوى أماكن موحشة تثير الحزن.

تكررت القصة نفسها مرة بعد أخرى، عندما هبط شيوان تسانج من الجبال شديدة البرودة إلى سهول الهند شديدة الحرارة. وهناك وجد أنه رغم عدم ترك الناس لقراهم، فقد هجروا المعابد البوذية بعد أن صاروا يؤمنون بالهندوسية. وكمن سبقه من الحجاج، أمضى

(١) أدى الميل إلى العيش فى الأديرة دوراً فى تدهور الطقوس والإيمان البوذى. وقد صاحب زيادة عدد مراكز الأديرة الكبرى تناقص فى عدد الأديرة المحلية، التى ظلت تخدم البوذية كنقاط تجمع مركزية لأهل الريف والمدن الصغيرة. وبعد ذلك امتد الإهمال ليشمل الأماكن المقدسة الأربعة، وهى مسقط رأس بوذا (لومبني) والمكان الذى شهد الصحوة (بوذا جايا) ومكان إلقاء موعظته الأولى (سرانات) والمكان الذى توفى فيه (كوشنجافا). وكل هذا دليل على ما أصبحت عليه البوذية فى الهند. (المترجم).

شيوان تسانج الأعوام التالية سائحاً فى الهند، حيث زار الأضرحة البوذية. بل إنه فى بعض الأحيان اضطر للسفر بمفرده إلى الأدغال الكثيفة لهذا الغرض. وكثيراً ما كان يدخل فى مناظرات مع أبناء دينه من البوذيين (ذوى المشارب المتعددة) وأيضاً ممثلى الديانات الأخرى. وكان يحضرها عدد كبير من الناس.

إلا أنه بعد سنوات من الترحال عاد إلى وطنه، بعد أن جمع مئات من السجلات البوذية، وهو ما كان يسعى إليه من قيامه بهذه الرحلة الطويلة. وكما قال شيوان تسانج نفسه لهؤلاء الذين حثوه على البقاء فى الهند: «لماذا تعبر الشمس الأرض؟ كى تطرد الظلال. ولهذا السبب تحديداً أرغب فى العودة لبلدى».

وشاءت الظروف أن تكتمل الصورة التى لدينا عن تلك الفترة، حين كانت عودة شيوان تسانج براً من طريق مختلف سار خلال الجبال الواقعة وراء وادى نهر كابول. ومن هناك اتخذ الفرع الجنوبى من طريق الحرير إلى الصين. وكان شيوان تسانج قد وصل فى إحدى مراحل رحلته إلى أقصى الشرق من الهند، حتى أن أهل البلاد أخبروه بأن إقليم سيتشوان كان على مسيرة شهرين. ومن حسن حظه أنه لم يشأ تجربة الطريق الذى يمر بالأدغال الجبلية وتكثر فيه الملاريا والأفيال البرية.

وتكرر ماحدث عندما كان شيوان تسانج فى طريقه إلى الهند، حيث حظى بحماية الأمراء وهو فى طريق عودته لبلاده. فقد رعى الملك البوذى هارشا، وكانت عاصمته كانوج تقع على نهر الجانج شرقى الهند، واحداً من أكبر الاجتماعات الدينية التى حضرها شيوان تسانج. وفى أوائل سنة ٦٤٣ اجتمع آلاف من الزائرين المشاهير، ملوكاً ورهباناً، بوذيين وهندوس وجينيين، فى كانوج. جاء بعضهم على أفيال وبعضهم على عربات، وجاء البعض الآخر محمولاً على المحفات. وكان الجميع يحمل رايات ومظلات ذات ألوان زاهية. وإذا كان كاتب سيرة شيوان تسانج يخبرنا بأنه جعل أعداداً كبيرة تتحول إلى شكل البوذية التى يؤمن هو بها، فإننا نعلم من مصدر آخر أن النزاعات كانت شديدة السخونة، حتى أن بعض المنافسين البوذيين «دبروا مؤامرة تستهدف حياته». كما أن برجاً أُقيم ليوضع فيه تمثال لبوذا كان هدفاً للحرق. وتعرض هارشا نفسه لمحاولة اغتيال. وانطلاقاً من شعوره الدينى ورغبته فى حماية الزائر الصينى، رغم عدم كونه مسئولاً رسمياً، أعلن هارشا على الملأ حمايته لشيوان تسانج وجعل ذلك مقروناً بأشياء ملموسة:

أعطى أستاذ الشريعة ألف قطعة من الذهب و ٣٠ ألف قطعة من

الفضة ومائة ثوب من القطن الفاخر. وأمر أحد ضباطه بأن يزين له فيلاً ضخماً بأشياء ثمينة ودعا سيد الشريعة ليركبه. وفى النهاية أمر أصحاب أعلى المقامات فى البلاد بأن يصحبوه، حيث طاف على كل الخلق المجتمعين...

كان هارشا آخر الأمراء البوذيين العظام فى الهند. وبعد فشله فى محاولة الإبقاء على الحاج الصينى كمبشر بين الرعايا الهنود، ترك شيوان تسانج يمضى إلى حال سبيله فى أمان. وانطلق رسل هارشا على جناح السرعة قبل شيوان تسانج حاملين رسائل «كُتبت على قطع من القطن الأبيض خُتمت بالشمع الأحمر» لتأمين الترحيب به على الطريق. وكانت الكتب والتماثيل التى عاد بها شيوان تسانج قد عُهد بها إلى أمير (راجا) تولى إرسالها بالخيل والعربات. أما هارشا فكان حزيناً لرحيل شيوان تسانج، حتى أنه بعد ثلاثة أيام من مغادرة الحاج انطلق الملك وأمير بوذى، ومعهما عدة مئات من الجنود الراكبين، فى إثر القافلة التى تسير ببطء ولازموها عدة فراسخ أخرى. وكان ذلك فى أبريل من سنة ٦٤٣.

فى تلك الفترة كانت عصابات اللصوص تكثر فى شمال الهند. إلا أن شيوان تسانج أرسل قبله رهباناً ليقولوا: «نحن متدينون جئنا من بلاد بعيدة طلباً لتعاليم الشريعة. وما نحمله معنا كتب ومخلفات وتماثيل مقدسة. أيها الرجال ذوو القلوب الكريمة، نحن نطلب منكم العون والحماية». ويبدو أن رجاءه كان له بعض الأثر. فلم يتعرضوا لمضايقات اللصوص عبر البنجاب. ويا ليته بعث بهذا الرجاء إلى نهر السند، الذى كان بمثابة خطر حقيقى لحمولة الحجاج الثمينة:

وُضعت الكتب والتماثيل مع المسافرين فى قارب كبير وعبر سيد الشريعة النهر على ظهر فيل. وكان قد طلب من أحد رجاله أن ينتبه إلى الكتب وبذور الزهور الهندية النادرة التى فى القارب. ولكن ما إن وصلوا إلى منتصف النهر حتى اهتز القارب اهتزازاً شديداً بسبب الإعصار وكاد أن يغرق. ملأ الرعب قلب حارس الكتب فسقط فى الماء وأخرجه رفاقه، إلا أنه فقد خمسين مخطوطة ومعها بذور الزهور وتمكنوا من إنقاذ الباقى بشق الأنفس.

ولكنه اعترافاً بالشرف الذى يحظى به شيوان تسانج، جاء ملكا كپيسا وكشمير لتحيته عند نهر السند. وأرسل له الأول نسخاً من الكتب التى ابتلعها النهر. ولم تكن دوافعهما

دينية خالصة بالطبع. فجحافل البدو من آسيا الوسطى كانت تهدد دائماً باجتياح الحدود الهندية الشمالية الغربية. وكان بعض ملوك الهند يفكرون فى الصين كحليف لهم فى المستقبل.

وهكذا انطلق شيوان تسانج على الطريق الملتوى فى جبال هندوكوش إلى كاشغر، حيث مر بأسوأ ما مر به من بلاد بما فيها من عواصف ثلجية ورياح باردة، بينما كانوا يسيرون من قمة إلى أخرى:

... عندما أدى البرد القارس إلى تراكم الثلوج، صعدوا الهضبة يقودهم واحد من أهل البلاد راكباً جمله الجبلى. وسار الجميع بصعوبة وسط الثلوج المتراكمة وعبروا الفلوج على جسور من الثلج. وأى إنسان لم يتتبع خطوات الدليل كان مصيره السقوط والهلاك. وكانت القافلة كلها، وتشمل سبعة رهبان وعشرين حمالاً وفيلاً وعشرة حمير وأربعة خيول، تجد مشقة فى عبور الممر... لم يكن هناك أثر لنبات. لم يكن هناك سوى كتلة من الصخور التى تكومت على بعضها بطريقة عشوائية. وكانت الصواعد الصخرية الرفيعة فى كل مكان، حيث بدت كأنها غابة من أشجار سقطت أوراقها.

سمعت قافلة الحاج عن قافلة تعرضت لعاصفة ثلجية شديدة أدت إلى تجمد كل من فيها، وكانوا آلافاً من التجار والجمال، حيث هلكوا جميعاً. ومع ذلك كان هذا الإقليم القاسى، الذى تهب عليه العواصف الثلجية حتى فى منتصف الصيف، أرضاً يقدسها الحجاج. إذ يقال إن بوذا سار عليه. كما أن البوذية دخلت آسيا الوسطى عبر تلك الممرات.

وعندما سار الحجاج من جبال هندوكوش ومنها إلى جبال البامير فى طريقهم إلى كاشغر، واجههم خطر من نوع آخر، وهو عصابة لصوص. وعندما شن قُطَّاع الطرق هجومهم نفق الكثير من دواب الحمل حين سقطت من علٍ. بينما فر بعض التجار الذين انضموا إلى القافلة فى الجبال. إلا أن شيوان تسانج تمكن من النجاة من هذا الخطر وشق طريقه عبر جبال البامير إلى كاشغر، مع من تبقى من قافلته. والشىء المثير أنه فى إحدى الممالك الجبلية التى مر عليها فى طريقه كانت لدى أهل البلاد أسطورة عن ملك فارسى وعدته بلاد هان بزوجة. وعندما لقيت أميرة هان متاعب فى طريقها إلى بلاد فارس توقفت فى المملكة الجبلية. كان توقفها مؤقتاً فى بادىء الأمر، ولكنها بقيت هناك للأبد بعد ذلك.

ولا ندرى إن كان هذا من بقايا الروابط القديمة جداً بين بلاد فارس والصين، أم أن له علاقة بمصير واحدة من أميرات صينيات كثيرات أُرسلن كرهائن لطموح بلادهن السياسى.

وبعد مرور شيوان تسانج فى أرض اليشب وصل فى النهاية إلى كاشغر، وهى إقليم جميل. وهناك أسعده ازدهار البوذية. حيث كان فى كاشغر عدة مئات من الأديرة بها ١٠ آلاف تابع. وبعد أن هبط شيوان تسانج إلى حوض تاريم. وإن كان مازال يسير على حافة الجبال، اتجه جنوباً إلى يرقند، وهى المدينة التى قُدِّر محيطها بـ ١٠ لى:

تحيط بها الصخور شديدة الانحدار والحصون الجبلية. المساكن عديدة. وتلى الجبال والتلال بعضها فى خط لاينقطع. أما البرودة والرياح فلا تنقطع طوال السنة.

وفى المدينتين، بصرف النظر عما لهما من «إيمان صادق»، لم يكن حب شيوان تسانج للناس كبيراً. وهو يشير إلى أن: «أدبهم محدود ومعرفتهم بالفنون والآداب لاتزيد عنه». ورغم مرور القوافل التجارية فى الجبال فى ذلك الوقت، فإن تلك الممالك لم تكن على اتصال كافٍ بحضارات آسيا العظيمة.

وخرجت القافلة من سفوح جبال البامير لتسير فى الصحراء إلى خوتان. وكانت تلك الأرض فى أغلبها «رمال وحصباء». ومع ذلك كان الجزء الخصيب من تلك البلاد محل إعجاب شيوان تسانج، حيث استحسن ما فيه من فواكه وفيرة. وكان فى خوتان أيضاً صناعة نشيطة تشمل السجاد والتافتاه والجوخ والأقمشة الحريرية الفاخرة، إلى جانب استخراج أفخر أنواع اليشب الأبيض والأخضر. وهناك وجد شيوان تسانج قوماً أكثر تحضراً وثقافة ولديهم حب جم للموسيقى والرقص. ومع ذلك كان إيمانهم بالبوذية قوياً. كانوا يذكرون بقوة كيف جاءت لهم أميرة صينية بسر تربية دودة القز.

وفى هذا المكان وجد شيوان تسانج دليلاً جلياً عن كيفية جفاف حوض التاريم، حيث اختفت الجداول والأنهار. ووجد أن المدن التى كانت يوماً تعج بالحركة والنشاط باتت خرائب لايسكنها أحد، وكانت تقع فى أرض مضى عليها زمن طويل وهى «مهجورة وموحشة» ولم تعد قادرة على أن تحيا من جديد لنقص الماء. وفى بعض الأماكن كانت «أسوار المدن ماتزال تقف عالية، ولكن السكان تشتتوا وتبعثروا». وفى جهات أخرى كان لايدل على مواقع المدن القديمة سوى تلال ضخمة من الرمال. وعن أحد هذه التلال يقول:

فى مرات كثيرة، أراد ملوك البلاد المجاورة وأصحاب النفوذ من أماكن بعيدة حفر التل واستخراج الأشياء الثمينة المدفونة تحته. ولكن ما إن يصلوا إلى حدود المكان حتى تهب ريح عاتية وتتجمع فى السماء سحب سوداء تأتى من كل اتجاه فيضلوا الطريق.

وربما تناقل الناس مثل تلك الخرافات على مر القرون، مما أدى إلى بقاء كثير من المواقع القديمة على ماهى عليه حتى مجىء علماء الآثار المحدثين.

أمضى شيوان تسانج عدة شهور فى ذلك الإقليم، مترقباً وصول المخطوطات التى تحل محل تلك التى ضاعت عند عبور نهر السند. ولم يكن ترحيب أهل البلاد به فقط لكونه معلماً بوذياً، بل أيضاً لأنه من رعايا الصين. ففى فترة غياب شيوان تسانج عن بلاده، استجمعت إمبراطورية الصين قوتها من جديد. وكان شديد الإعجاب بالحماس الدينى عند الناس، وبوجود العديد من الكهوف والأديرة والتماثيل اللوحات المرتبطة بالبوذية. وكان ملك خوتان نفسه يعيش فى منزل فخم «يزدان باللوحات».

ورغم الراحة التى شعر بها شيوان تسانج وهو بين البوذيين المتحمسين فى خوتان وشان شان وتونهوانج، فلابد أنه كان قلقاً غاية القلق بشأن شكل الاستقبال الذى ينتظره. فقبل ست عشرة سنة غادر البلاد مخالفاً أوامر الإمبراطور المباشرة. وفى القرون السابقة (واللاحقة) كان المواطنون الصينيون يُخْصون أو تقطع رؤوسهم لارتكابهم جرماً يقل كثيراً عن ذلك. ودعاه هذا إلى التوقف عند إحدى النقاط الحدودية بالقرب من تونهوانج، انتظاراً لوصول رد من الإمبراطور على طلبه دخول الصين دون أن يناله أذى.

والشىء الذى لم يعلمه شيوان تسانج هو أن العالم تغير فى تلك السنوات الست عشرة، التى شهدت نهاية عهد وبداية عهد آخر. وكان الاجتماع الذى شهده فى سهوب القرغيز آخر اجتماعات الترك الكبرى. ولم يعش صديقه الملك هارشا سوى أربع سنوات بعد تركه له. كما أن تدهور البوذية فى الهند كان أشد حدة بعد وفاته. وفى آسيا الوسطى والصين كانت تبزغ شمس يوم جديد بقيام أسرة تانج. وذلك هو العالم الجديد الذى يدخله الآن.

الفصل الثامن

الازدهار الثانى

منذ اليوم الذى أخذ فيه فرسان الغرب يثيرون السخام
والغبار،
وشيآن [تشانج آن] ولو [لويانج] تعجان بالفراء والصوف
برائحتها الزنخة العفنة.
والنساء يجعلن من أنفسهن سيدات غربيات بتعلمهن
الزينة الغربية؛
والعازفون يقدمون ألحاناً غربية، إخلاصاً منهم لموسيقى
الغرب.

– يوان تشن
شاعر من عهد تانج
من القرن الثامن

«السوترا الماسية» الذى وجد فى كهوف الألف بوذا أقدم كتاب معروف فى العالم، وهو على هيئة لفافة وطُبع سنة ٨٦٨ ميلادية (المتحف البريطانى).

إذا كانت بلاد فارس أعظم قوة على طريق الحـرير فى القرنين الخامس والسادس، فإن صين تانج[١] كانت ولاشك الدولة المسيطرة فى القرون التالية. فـبعد سنة واحدة من مغادرة شيوان تسـانج للصين، وكانت وقتـها بلداً تعم فيه الفـوضى، واجه أول أباطرة تانج، وهو تاى تسونج، الترك الشرقيين بالحيلة والخـداع ثم طاردهم حتى بلادهم فى منغوليا الخارجية على نهـر أورخـون. وطوال نصف القـرن التـالى كانت بلادهـم جزءاً من الإمـبـراطورية الصينية. ويخبرنا سجل تركى يتضمن هذه النتيجة أن:

أبناء أشراف الترك أصبحوا عبيداً للصينيين وأصبحت بناتهم العذارى إمـاء. وهجر أشراف التـرك ألقابهم التركـيـة واتـخذوا بدلاً منها ألقـاباً صينية. لقد خضعوا للخاقان الصينى، الذى عملوا وكافحوا نيابة عنه طوال خمسين سنة. فقاموا بحملات من أجله ناحية الشمس المشرقة وفى الغـرب حـتى بلغوا البـوابات الحـديدية [فى تركسـتـان]. ولكنهم أسلموا إمبراطوريتهم ومؤسساتهم للخاقان الصينى.

وبعد أن أعلن إمبراطور تانج نفـسه حاكماً لكافة أراضى الصـين، أسرع بفرض سيطرة الصين على آسيا الوسطى، مستغلاً القوات التركية كجيوش تابعة.

وفهمت بعض واحات التاريم دلائل ظهور النفوذ الصينى فهماً صحيحاً، وعرضت دفع الخراج لإمـبراطور تانج. ومن بين هذه الواحـات كوتشا سنة ٦٣٠ وخـوتان وكاشـغر سنة ٦٣٢ ويرقند سنة ٦٣٥. أما ملك تورفان، وكـانت تجرى فى عروقه دماء صـينية لأنه ولبد أحد التحالفات العديدة التى تمت مع آسيا الوسطى بالمصاهرة، فقد سافر إلى الصين لإعلان تأييده لحاكم تانج الجديد. ولكن واحات التاريم لم تسقط فى حجر الصين كما يسقط التفاح الناضج. ففى سنة ٦٤٠ غيّر ملك تورفـان رأيه وتحالف مع بعض القبائل التركـية الغربية، التى تفـرقت عقب وفـاة خانهـا سنة ٦٣٠، أى بعد أشـهر قليلة من رؤيـة شيوان تـسانج لاجتماعهم الضخم. وربما فعل حاكم تورفان ما فعله كثيرون غيره من قبل، حين اعتقد أن الصحراء ستـحول دون وصول الجيش الصينى إليه. ويُروى أنه عندمـا خرج الجيش الصينى بغتة من صحراء جوبى، مات ملك تورفان من هول الصدمة.

ولا يلوم أحـد ملوك تلك الدويلات، إن هم استـمـروا على ماهـم عليه من تغـييـر

(١) امتد حكم أسرة تانج من سنة ٦١٨ إلى سنة ٩٠٧. (المترجم).

لولائهم، بعد قرون من الضعف والفوضى عاشتهـا الصين وآسيا الوسطى. فمن كان يسعه القول بأن تاى تسونج سيكون مختلفاً؟ ونجد أن ملك قره شهر، الذى ساعد الجيش الصينى فى تورفان، تحالف بعد ذلك مع ملك كوتشا وبعض الترك الغربيين. إلا أن الصينيين حققوا انتصـارات رائعة مسـتغلين عنصـر المفاجأة والاسـتراتيجـية الذكيـة. وعبّروا فيمـا بعد عن امتعـاضهم من خلال إعـدام الأعداد الضخمـة. وعن ذلك تقول الحوليات الصـينية: «عم الرعب المناطق الغربية». وبحلول سنة ٦٤٠ كان الجيش الصينى، بما فيه من جنود جاءوا من بلاد الترك الشرقيـين ودول التاريم، قد تغلب على الترك الغربيـين وأباد بعض القبائل التى قاومته. ولكى يحافظ الصينيون عـلى مكاسبهم فى التاريم، تركوا جنوداً على النمط القديم فيما أطلقـوا عليها الحاميات الأربع: قره شهـر وكوتشا (مقر قيادة المناطق الغربـية) وكاشغر وخوتان. أمـا الأراضى التركـية السابقـة شمالـى جبال تيـان شان فكانت تدار من القـيادة الصينية فى بيشباليق (المدن الخمس).

وفى الجنوب أيضاً فرض إمبراطور تانج إرادته. وكانت القبائل الجبلية، التى كانت تُغير على شمـال غربى الصين من القـفار القريبـة من كوكو نور، قـد توحدت تحت حكم ملك قوى[١] فى مـدينة لاسا التى أُنشـئت حديثـاً فى هضـبة التـبت. وعندما أدرك الملك مـزايا التحالف مع الإمبـراطورية الكبرى الواقعة فى الشرق، طلب الزواج من أمـيرة صينية ونال مطلبه[٢]. وأصبحت التبت مملـكة قوية فى بوذيتها. وفى ظل رعاية الأميـرة الصينية، ظهر بمرور الوقت طريق جديد للحجاج يخترق التـبت ويهبط إلى نيبال ومنها إلى الهند. وإذا لم يكن هذا الطريق مـقترناً منذ الـقدم برحلات بوذا نفـسه وبالأضـرحة التى أُقيـمت لتكريم مخلفات بوذية عديدة، فيكفيه أنه أقصر من غيره بكثير.

ونظر إمبراطور تانج إلى مـاهو أبعد من ذلك. ففى سنة ٦٤٣، أى قبل عـودة شيوان تسانج من رحلة الحج، أرسل تاى تسونج مبعوثاً إلى الملك هارشا البوذى فى الهند. وعندما هوجم سفـير صينى كـان فى طريقه للهند بعـد أربع سنوات فقط، اسـتطاع تاى تسونج أن يطلب من القـوات التبتـية والنيبـالية البحـث عن الجناة والقبض عليهـم، حيث جىء بهم

(١) حقق سونجتسان قامبو، زعيم شعب توبو، وحدة القبائل المشتتة فى هضبة التبت. وكانت هذه الفترة، أى النصف الأول من القرن السابع الميلادى، تتميز بازدهار التبت وقوتهم. (المترجم).

(٢) تزوج سونجتسان الأميـرة الهانية ون تنسنج التى أخذت معها إلى توبو الكثير من الفنيين إلى جـانب مصادر خاصة بفنون الإنتاج. كـما حـملت معـها بذور الخـضروات والمنتجـات اليدوية والأدوية. وسـاهم هذا الزواج فى توثيق العـلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين قوميتى الهان والتبت. (المترجم).

مكبلين إلى تشانج آن. وأرسل أمـراء من مناطق بعيدة، مثل سـمرقند وبخارى وكبـيسا فى وادى نهر كابول، الخراج إلى أسرة تانج الجديد. وكان تاى تسونج يزهو بحق بما حققه قائلاً (طبقاً لما أورده كاتب سيرته):

فى العصور القديمة لم يخضع البرابرةَ حاكمٌ سوى تشين شى هوانج دى وهان وو دى. ولكنى عندما حملت فى يدى سيفه الذى يبلغ طوله ثلاثة أقدام، أخضعت المائتى مملكة وأسكت كل من هو داخل البحار الأربعة. بينما جاء البرابرة من أقصى الأرض واحداً تلو الآخر يعلنون خضوعهم.

وحدث فى سنة ٦٤٥، التى عاد فيها شيوان تسانج من مهمته المحظورة، أن تمكن تاى تسونج من إظهـار كريم أخلاقـه وتجاوز عن التحدى المبـاشر لسلطته الذى دام ست عـشرة سنة. ومن موقع السلطة التى تحققت له حديثاً، أدرك تاى تسونج أن شيوان تسانج أصبح له أصدقاء عديدون فى أرجـاء آسيا، مما أكسبه وأكسب الصـين شرفاً عظيماً. كما أن مـعرفته المباشرة بالبلاد البعيدة لها قيمة كبيرة.

كان هناك اهتمام شـعبى ضخم بالرحلات التى قام بها ذلك الحـاج المهاب. وفى عيد الربيع عندما وصل شيوان تسانج إلى تشانج آن فى نهاية الأمر، وجد أن:

... خبر وصوله انتشر كالبرق وكانت الشوارع مكتظة بأعداد هائلة من البشر المتشوقين لرؤيته. وبعد أن ترجّل من على مطيته حاول عبثاً أن يشق طريقه فى ذلك الجمع وقرر أن يقضى الليل على القناة.

كان تاى تسونج نفـسه خارج المدينة لأمر طارىء. ولكنه كـان قد أمر بإعداد استـقبال حافل له. احتشد أتباع البوذية فى الشوارع ليـحملوا المخطوطات والتماثيل والأشياء المقدسة إلى الأماكن المشـرَّفة التى أُعدت لهـا فى دير السعادة العليـا. وبدأ الموكب من شارع الطائر الأحمر، حيث تجمَّع الرهبان والراهبات فى زيهم الدينى، ليطوف بأنحاء المدينة. «واصطف سكان العاصمة والـدارسون والقضاة على جانبى الشارع، حيث وقـفوا فى أوضاع تنم عن الحب والتعجب».

وبعد عدة أيام استقبل الإمبـراطور شيوان تسانج بنفسه فى لويانج. واتفق الاثنان على أن مخالفة الحاج للمرسوم الإمبراطورى كانت بدافع من الحماس الدينى. وسأله الإمبراطور

أسئلة دقيقة عن الأقوام والأماكن التى رآها فى رحلته. وربما يكون استخلاص المعلومات بهذه الطريقة الدقيقة هو أصل الوصف التفصيلى، الذى نجده فيما كتبه عن رحلته وفى الحوليات عن تلك الفترة. ووجد الإمبراطور أن معلومات الحاج عظيمة الفائدة، مما جعله يتمنى أن يتولى منصب مستشار الإمبراطور، وهو الشرف الذى رفضه بكل احترام. وبعد رفض إنعام الإمبراطور، أمضى شيوان تسانج بقية حياته فى أحد الأديرة مترجماً لمئات الأعمال البوذية التى جلبها من الهند، من السنسكريتية إلى الصينية. ولكن الدير كان قريباً من القصر الإمبراطورى فى تشانج آن، مما أتاح له الذهاب إلى البلاط لتقديم النصح عندما كان الإمبراطور يرسل فى طلبه فى كثير من الأحيان. وبالطبع لم تقدم زيارة شيوان تسانج إجابات عن كل التساؤلات الخاصة بالمعتقدات البوذية. إلا أن الكتابات والأعمال الفنية والمخلفات التى أتى بها من الهند حددت الشكل العام للبوذية فى الصين، إلى أن استعادت الديانة قوتها هناك. ولحسن الحظ، أنه حتى بعد أن فقدت البوذية موقعها فى الصين، ظل الكثير من ترجمات شيوان تسانج قابعاً فى الصحراء ليُعاد اكتشافه فى القرن العشرين[١].

وإذا كانت دول آسيا الوسطى أسرعت فى نهاية الأمر بدفع الخراج للإمبراطورية الصينية، فلم يكن وراء ذلك إجبار الصينيين لهم كى يفعلوا هذا. ولكن حيث إن الاستغلال كان نوعا من الترف الذى نادراً ما تناله الدول الصغيرة، فقد شعر كثير منها بالحاجة إلى مُدافع جديد وقوى، حيث كانت أمارات الضعف فى غرب آسيا كثيرة وتنذر بالسوء.

وكما هو حال بارثيا قبلها، ابتُليت بلاد فارس بالنزاعات العصبية. ووصل الأمر مع بداية القرن السابع إلى استيلاء أحد القادة على العرش الفارسى بانقلاب. مما اضطر الوريث الشرعى للعرش، وهو كسرى الثانى[٢]، إلى اللجوء للرومان من بين كل الخلق. وأمد الإمبراطور الرومانى الملك الفارسى بالجيش الذى احتاجه لاستعادة العرش، وإن كان الثمن هو التخلى عن أرمينيا[٣]. إلا أن الفرس استعادوا أرمينيا سنة ٦١٠ ونهبوا المدن السورية

(١) حصل عليها أوريل ستاين من «كهوف الألف بوذا» وسيأتى ذكرها بالتفصيل فيما بعد. (المترجم).

(٢) هو كسرى برويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان وهو آخر ملوك الفرس العظام. وبعد أن خلف أباه على العرش نازعه عليه القائد بهرام جوبين الذى حاربه بجيش قوامه ستة آلاف فارس، كما جاء فى «الشاهنامه»، ففر كسرى إلى القسطنطينية حيث استقبله الإمبراطور موريقس استقبالاً حسناً وانتهز هذه الفرصة ليفرض سلطانه على بلاد فارس. وبعد أن أمد كسرى بجيش بيزنطى كبير استعاد به عرشه، زوّجه ابنته واتخذه ولداً له.

(٣) جاء فى «مروج الذهب» للمسعودى: «. . . واشترط ملك الروم [موريقس] على أبرويز شروطاً كثيرة منها النزول عن الشام ومصر. . .». (المترجم).

الكبرى، أنطاكية ودمــشق وأورشليم (حيث أعدموا مايربو على ٥٠ ألف مــسيحى وحملوا «الصليب الحقيقى» إلى طيــسفون) وانطلقوا إلى مصر، التى لم يحكمهــا الفرس منذ ماقبل الإسكندر الأكــبر. كــما اســتولوا على أنــقرة، حــيث تلتقى طرق الأناضــول، وحاصــروا القسطنطينية نفسها[1].

وفى ذلك الوقت الذى كان الخطر فيه شديــداً، شاء حظ الرومان فى آسيا الوسطى أن يتلقوا مساعدة حليف جديد، هو مملكة الخزر. والخــزر قوم مثيرون للدهشة لا يُعرف عنهم الكثيــر. وربما يكون اسمــهم مشتــقاً من الكلمــة التركــية تعنى «البدو»، وهــذا هو حالهم بالفعل. وقــد تكون من أصل آخر مــعناه «على الجانب الشــمالى من الجــبل»، وهذا أيضاً محتمل. فغالباً ما كان يُطلق عليهم «أهل الشمال» أو «مملكة الشمال» الواقعة وراء القوقاز.

وأصل الخزر أمــر محير. فــالبعض يرى أنهم ينحدرون من أصل هونى (شــيونج نو). بينما يعتقد آخرون أنهم فى واقع الأمر قبيلة كوسا من الترك الأويغور[2] الذين رحل بعضهم إلى الغــرب. وتوصف جمــاعة من هؤلاء القــوم الغامــضين، وتســمى الخزر الســود، بأن «بشرتهم داكنة مثل الهنود». ويبدو أن منهم من هو أبيض البــشرة. ويشير وصف عربى من القرن التاسع إلى أن: «. . . بشــرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء وشعــرهم منسدل ويغلب عليه الاحمرار وأجــسامهم ضخمــة وطبائعهم باردة. واتجاههم العــام وحشى». إلا أن هناك من يُقال إن بشرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء ولكن شعرهم أسود. فى حين قد يكون بعضهم ذوى عيون منحرفة. خلاصة القول هى أن هؤلاء الخزر كانوا قوماً من أصول عرقية شديدة التنوع (مثل أغلب شعوب آسيا الوسطى) وقُدِّر لهم أن يزدادوا تنوعاً بسبب توسعهم وإدخال قبائل أخرى تحت حكمهم.

ولكنه فى الفترة التى نحن بصــددها، كان الخزر خاضعين للترك الغــربيين الذين كانوا لايزالون على وحدتهم. كما أنه كان أمامهم وقت طويل كى يأخذوا منهم لغتهم وكثيراً من

---

(١) خُلع الإمبــراطور موريقس وقُتل ســنة ٦٠٢ فصمم بــرويز على أن يثأر لحليــفه. وحقــق الفرس انتصــارات على الروم فاجتــازوا الفرات واستولوا على حلب وغــزوا أرمينيا وتوغلوا فى آسيــا الصغرى. وبعد أن ثار الناس عــلى الإمبراطور فوكاس الــذى خلف موريقس وتولى هرقل الملك، عاد برويز لحلف الروم واســتولى على أنطاكية ودخل الفــرس دمشق سنة ٦١٤. ودعا قواد الفــرس إلى القضاء على المسيحيين وعــاونهم اليهود فاستــولوا على بيت المقدس وأخذوا الصليب الذى صلب عليه المسيح. ثم استولوا على مصر سنة ٦١٦. (المترجم).

(٢) قبائل تركية هاجرت إلى الصين تحت ضغط القرغيز. وفى الــقرنين التاسع والعاشر ظهر الأويغور فى حوض بحر قزوين ومنطقة الأورال وأقــاموا مملكة فى حوض نــهر سيحــون دمرها القبــجاق. وهاجر جــزء منهم إلى الشرق الأدنى بقــيادة سلجوق ليؤسسوا الدولة السلجوقية. (المترجم).

نظمهم الاجتماعية والسياسية. ومن المحتمل أن هؤلاء الخزر، الذين كانوا يشغلون جيباً هاماً يمتد على بحر قزوين بين جبال القوقاز ونهر أتل (الفولجا)، كانوا أنفسهم الحلفاء المجهولين الذين حذروا، قبل عشرات من السنين، المبعوث الرومانى زيمارخوس من الكمين الفارسى الذى كان ينتظره عندما يعبر الجبال. وكان الخزر يسيطرون على ممر دربند، وهو المدخل الرئيسى إلى سلسلة جبال القوقاز، وإن لم يكن الوحيد.

وعلى أية حال، فإن الخزر أمدوا الإمبراطورية الرومانية الشرقية بالمساعدة التى كانت فى أمس الحاجة إليها. وعندما طرد هرقل إمبراطور الرومان القوات الفارسية من الأناضول وأرمينيا، تدفق الخزر عبر القوقاز ليشاركوا فى الهجوم على بلاد مابين النهرين. وخلال عدة سنوات كان كسرى[1] ملك الفرس محاصراً فى طيسفون. وعندما رفض الصلح قتله أتباعه، ومن بينهم ابنه (وكانت أمه أميرة رومانية). ومن خلال ما أصبح كأنه حرب مقدسة، أعاد الرومان «الصليب الحقيقى» إلى أورشليم. وهكذا عقدت القوتان الغربيتان صلحاً لم يكن سهلاً.

واستعادت الإمبراطورية الرومانية الشرقية أراضيها فى آسيا وكسبت معها موضع قدم لها على طريق الحرير عند بحر قزوين. ورغم ما يتضح من عدم نجاح الرومان فى أن يكون لهم اتصال مباشر مع الصينيين، يبدو أن بعضاً من تجارتهم عبرت القارة. وتشير الحوليات الصينية إلى أنه فى عشرينيات القرن السابع أهدى ملك تورفان لابن السماء كلباً صغيراً من فو لين فى مناسبتين مختلفتين. وفو لين هو الاسم الذى عرف به الصينيون الإمبراطورية الرومانية الشرقية منذ ذلك الوقت. وشيئاً فشيئاً أخذت الإشارة إلى لى كان أو تا تشين تختفى، اعترافاً بانتقال السلطة من روما، وبالنسبة للصينيين من أنطاكية، إلى القسطنطينية.

وفى تلك الفترة أُعيد تنظيم الإمبراطورية الرومانية الشرقية. ومع أن كثيرين كانوا لايزالون يعتقدون أنهم ورثة روما، وأطلقوا على لغتهم «روم»، فحقيقة الأمر هى أن الإمبراطورية كانت فى معظمها تتحدث اللغة اليونانية. وهى من ناحية تعد آخر دول خلفاء الإسكندر. ومايدل على ذلك أنه غالباً ما كان يُشار إلى الدولة بعد ذلك على أنها

---

(١) هو هرمز بن كسرى أنوشروان. وجاء فى «مروج الذهب» أن خالى ابنه برويز قتلاه خنقاً رغم طلب برويز منهما ألا يفعلا ذلك. ولكنهما بررا فعلتهما بخوفهما إن هم ذهبوا إلى بلاد الروم ليستنجدوا بملكها أن يدخل عليه بهرام ويضع التاج على رأسه ويجبره على الكتابة إلى قيصر فيحملهم إليه ويقتلهم بهرام. وجاءت القصة نفسها فى «الشاهنامه»، حيث ذُكر أن برويز اصفر وجهه عندما لحق به خالاه وأحس بالحال ولكنه سكت. (المترجم).

الإمبراطورية البيزنطية. وبيزنطة هو الاسم اليـونانى للمدينة القديمة التى حلَّت القسطنطينية محلها.

وفى حين ظلت الإمبراطورية البيزنطية السـوق الرئيسية للسلع الشرقية ومُورِّدها الأول لأوروبا، يبدو أنها كـانت تمارس التجارة فى المقام الأول شمالى البـحر الأسود، من خلال الخزر الذين صاروا قوماً أثرياء، إلى جانب شبكة تجار آسيا الوسطى الذين كانوا يعملون فى المدن التركيـة الواقعة شمالى جبال تـيان شان، خاصة آلماليك وبيش باليق اللتين كـانتا يوماً تحت سيطرة الصـين. وكما هو الحال دائمـاً، كان ذلك هو الطريق المفضل لدى المسـافرين عندما حل السلام. ورغم الوجود المتواضع لليونان البيزنطيين على طريق الحرير، يبدو أنهم لم يعتمدوا عليه كمصدر رئيسى لما يردهم من بضائع شرقية، حيث كانت بلاد فارس لاتزال فى حالة اضطراب.

***

ربما كان السلام مع الإمبراطورية البيزنطية وراء احـتفاظ الفرس بأراضيهم الشرقية، إلا أن تتويج اثنى عشر ملكاً فى الأربع عشرة سنة التـالية أظهر بجلاء الوضع السيىء الذى كان فيه الفرس. وبحلول سنة ٦٣٢، عندما تولى العرش يزجرد[1] آخر ملوك الفرس، كان آخر أمل فى الحفاظ على الإمبراطورية قد ضاع. ففى ذلك العام توفى النبى محمد (وكان تاجراً وقائد قافلة على طريق البخور بين جزيرة العرب وسوريا، قبل أن يُبعث رسولاً).

وخلال عـام واحد كانت جيـوش المسلمين على الطريق لنشر عـقيدة محـمد فى بلاد غرب آسيا. وخلال عـقدين فقط أتمت فتح سوريا وبلاد مابين النهرين ومصـر وجزءاً كبيراً من أرمينيا ومعظم بلاد فارس. أما الشريط الجـبلى، الذى يمر فيه طريق الحرير جنوبى بحر قزوين، فكانت القبائل الإيرانية فيه على قدر من القـوة جعلها تحافظ على استقلالها لبعض الوقت من خلال مملكة أُطلق عليها طبرستان. وكما فعل دارا فى مواجهة الاسكندر، هرب يزجرد من العرب شرقـاً حتى بلغ مرو، حيث قُتل أيضاً على أيدى أتبـاعه. وكانت رسائله اليائسة، التى بعث بها إلى سائر ملوك آسيا يرجوهم مساعدته، غير ذات أثر. وهكذا انتهت الإمبراطورية الفارسية سنة ٦٥١.

---

(١) هو يزجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان، واستمر ملكه حتى سنة ٦٥٢ وقُتل بمرو من بلاد خراسان فى خلافـة عثمان بن عفان. وكان قد ذهـب إليها بعد هزيمته من جيش سعـد بن أبى وقاص حيث اختلف هو وصحبه مع أهل خراسان وآوى إلى طاحونة لحقوه فيها وقتلوه. (المترجم).

أما فيروز بن يـزجرد فقد لجأ إلى بلخ (وكانت تسـمى تخارى فى ذلك الوقت) حيث سارع بطلب العـون من إمبراطور تانج. ولـم يكن ذلك أمراً مسـتغرباً، حـيث كانت هناك علاقـات بين فارس والصـين منذ قرون طويلة. وتتـحدث الحوليـات الصينيـة عن وصول السفراء الفـرس فى سنوات ٤٦١ و ٥١٨ و ٥٢٨ إلى جانب سفارة أخـرى فى الربع الثانى من القرن السادس وسـفارة فى العقد الثانى من القرن السـابع. وأغلب الظن أن هذه مجرد أمثلة للاتصالات بين الصين وبلاد فارس. وهذا ماتوحى به هدية صينية أُرسلت إلى كسرى أنوشروان ملك فارس قبل وفاته سنة ٥٧٩ وتوصف بأنها:

... ثوب حريرى صينى عسجدى فيه صورة الملك جالساً فى إيوانه، وعليه حليته وتاجه، وعلى رأسه الخدم، وبأيديهم المذابُّ، والصورة منسـوجـة بالذهب، وأرض الثـوب لازورد، فى سـفط من ذهب، تحـمله جارية تغيب فى شعرها، تتلألأ جمالاً...(١)

وتمكن فيـروز سنة ٦٦١ من دخول بلاد فـارس بمساعـدة الصينيين، حـيث وصل إلى طيسفون على نهر دجلة. إلا أن استعادته لعـرشه لم تدم طويلاً. فبعد سبع سنوات كان فى منفاه من جـديد، وكان تشانج آن هذه المرة. وفى سنة ٦٧٤ منحه الصـينيون منصباً شـرفياً بقصر مدينة الحرير، ولكنه غادر الصين بعد سنة واحـدة ليحاول مرة أخرى استعادة عرشه. وكان حظ هذه المحاولة من النجـاح أقل من سابقتها. فبـعد الهزيمة النهائية السـاحقة التى ألحقها به العرب فى بلخ سنة ٧٠٧، عاد هو وابنه نرسى إلى تشانج آن ليموتا هناك كمنفيين بلا أرض يحكمانها(٢).

ولـم يكونا فى الصـين وحـدهما بـلا أحد من أبناء بلدهـما. فـالكثـيرون من فـارس وتركستان فروا إليها من العرب. وأصبح طريق الحرير طريقاً للاجئين، إلى حد ما. والواقع أن ذلك بدأ فى زمن سـابق. فـأثناء حرب الفـرس الأخـيرة مع الإمـبـراطورية الرومانيـة اضطهدوا المسيحيين فى بلادهم اضطهاداً شديداً، إذ كانوا يتوقعون منهم الخيانة. وقبِل كثير منهم اللجـوء إلى القسطنطينـية وساعـدوا فى تحديد صـورة الإمبـراطورية البيـزنطية بـعد

(١) هذا هو وصف الهدية كما وجدته فى «مروج الذهب». (المترجم).

(٢) لم يأت ذكر لهذه القصـة فى «الشاهنامه» أو «مروج الذهب» حيث جاء فى «الشاهنامه» أنه «. . . كـانت فى انتهاء أمر يزجرد انتـهاء أمر مـلوك العجم. اصحـار أسود العرب من الأجـم. فملك ديارهم أميـر المؤمنين أبو حفص عـمر بن الخطاب. . .» كما ذكر المسعودى أن يزجرد كان «آخر ملوك الساسانية». (المترجم).

إصلاحهـا. إلا أن كثيرين من المسيـحيين الآسيـويين الغربيين، وكانوا نسطوريين تعـتبرهم كنيسة بيـزنطة الأرثوذكسية هراطقة، لم يـتجهوا غرباً، وإنما سـاروا على طريق الحرير حتى دخلوا الصـين. وكـانوا يدعون إلى دينهـم على طول الطريق إليـها. وسُجل وصـول أول مسيحى من بلاد فارس إلى الصين سنة ٦٣٥ بعد ذلك بـ ١٥٠ سنة على لوح فى تشانج آن (عُثر عليه فى القرن السابع عشر). ومكتوب على اللوح:

بينما كان الإمبراطور الباهر تاى تسونج يستهل عهده الميمون بجلال ومجد، ويحكم شعبه بحكمة ثاقبة، كان فى تا تشين رجل على قدر كبير من الصلاح يسمى ألوپن، جاء إلى هنا بالكتابات الحقّة، حسب نبوءة السحب الزرقاء. وبعد دراسة حركة الرياح، سارع بمواجهة الأخطار والمصاعب ووصل إلى تشانج آن...

ومع أن شهرة تاى تسونج تعتمد فى المقام الأول على تفوقه العسكرى، فقد كان حاكماً متسامحاً فى كثير من الجوانب. وبعد ثلاث سنوات (وقبل استقباله الرائع لشيوان تسانج عند عودته بسبع سنوات) أعلن:

الطريق له أكثر من اسم، والحكماء لهم أكثر من طريقة، والمعرفة من الكثـرة بحـيث تناسب كل البـلاد، لكى تنجـو كل المخلوقـات. والرجل الصالح ألوپن جاء من بلاد بعيدة حاملاً كتباً وصوراً إلى عاصمتنا... إنها خلاص المخلوقات الحية وثروة البشرية. وصحيح أن هذه التعاليم ينبغى أن تنتشـر بحـرية فى أنحـاء الأرض.. لذلك فليبنِ المسئـولون المحليـون ديراً لتـا تشين فى حى آى ننج بالعـاصـمـة يضم ٢١ راهباً منتظماً.

وهكذا وجد من ارتبطت عقيدتهم بأورشليم وطناً لهم فى تشانج آن.

وأمام تقدم الجيـوش العربية، اتجه كثيـرون غيرهم من الفرس شرقـاً، خاصة إلى مدن القوافل المزدهرة فى بلاد الصُغـد ووصل بعضهم إلى الصين فى أقـصى الشرق. وكان بين هؤلاء المانويون، الذين ظلوا يعيشون فى الإمبراطورية الإيرانية وكانوا ينتشرون أيضاً فى اتجاه الشرق. وعلى خلاف النسطوريين الذين لم يستقـروا فى أعداد كبيرة على طريق الحرير، مما أدى إلى قلة نسبية فـى عدد من اعتنقوا مذهبهم على طرق التاريـم، كان المبشرون المانويون

يعملون بتؤدة على طريق التـاريم الشمالى مؤكدين نفوذهم فى الواحـة تلو الأخرى. وكما كان للبـوذيين سلسلة من الواحات على امـتداد طريق التاريـم الجنوبى، سرعان مـا أصبح للمانويين نفـوذ على الطريق الشمالى، حيث تصـارعوا مع البوذيين على السيـادة الدينية. ويبدو أن الديانة المانوية وصلت الصين فى أواخـر القرن السادس، وإن كان من الواضح أن أول مبشر مانوى وصل مباشرة من الغرب سنة ٦٩٤.

هرب الصُغد أيضاً شرقـاً فراراً من العرب. وكان التجار الصُغد قـد أقاموا فى القرون السابقة مستعمرات فى أنحاء مخـتلفة من التاريم، ليس فقط عند أعتاب الصين، وإنما أيضاً فى لويانج العاصمة الشرقية. وهاجر فى أعقابهم غيرهم، فيما يبدو أنه سعى وراء مزيد من الأرض، ليؤسسـوا مدناً محصنة على مـجارى المياه وفى الواحات من سمـرقند حتى لوب نور. وكان انهيار الفـرس ووصول العرب مجرد باعث على عمليـة الإنتقال تلك. وساهم هؤلاء القادمون الجدد مساهمة مذهلة فى ثقافة شرق آسيا ووسطها.

وكان الصُغد أيضاً هم من أدخلوا القنوات (وتسمى «كـاريز») شرق آسيا، وهى أنفاق تحت الأرض تُستـخدم فى الرى أتاحت للـزُرَّاع جلب الماء الباعث للحـياة إلى حـقول فى الصحراء تبعد عشراتِ الأمـيال فى بعض الأحيان، دون أن يضيع الماء كله فى الجو الجاف. وهذه القنوات، التى كانت تسـتخدم على نطاق واسع فى الأجزاء الجـدباء من الإمبراطورية الفارسية (وإن تُركت بعد ذلك نهبـاً لعوامل الفناء والإهمال)، أتاحت للصُغد زراعة حدائق غنَّاء وحقول خـضراء فى أراض كانت قبل ذلك صحـراء جرداء. وأصبح الشمام والفـاكهة الغضة من كل صنف منتـجات شائعة فى الواحات الشماليـة. وكان بين ذلك خوخ الصُغد الأصفر الذى يتميز بحلاوة طعمه وكبر حجمه («فى حجم بيضة الأوزة»). وسُر الإمبراطور الصينى بهدايا من «خوخ سمرقند الذهبى» هذا، حتى أن بعض أشجار الفاكهة الممتازة جىء بها عبر طريق الحرير وزُرعت فى البساتين الإمبراطورية فى تشانج آن.

إلا أن معظم الصُغـد أحبوا العنب وأنواع النبـيذ التى تُصنع من هذه الفاكـهة. بل إن إحدى مدنهـم الواقعة فى لوب نور كانت مـعروفة لدى الصينيـين بـ«مدينة محبى النـبيذ». وكان الصينيون قـد عرفوا العنب وزرعوه منذ زيارة تشانج تشيان الأولى للغـرب قبل سبعة قرون، إلا أنهم لم يستخدموه فـى صنع النبيذ. وربما يرجع ذلك إلى أن أشجار العنب التى استوردوها كانت تطرح عنبـاً صغيراً لم يكن صالحاً تماماً لصـنع النبيذ. إلا أن عنب «حلمة الفرس» الصُغدى كان كبير الحجم وافر العصـير، مما جعل الصينيين يكتبون قصائد فى مدح

«عنب الأم الملكية [الغربية]» هذا. واعتباراً من عصـر تانج أخذ الصينيون يصنعون النبيذ من العنب، وإن كان ذلك لا يعنى إلغاء أنواع النبيذ الوطنية كتلك المصنوعة من الأرز[١].

وكان الصُغد فى الوقت نفسه صناعاً مهرة للمعادن. فخلال الفترة التى كانوا خاضعين فيهـا لحكم الترك تعلموا كل المهارات التى كـان يتمتع بها صنَّاع المعادن المهـرة هؤلاء. كما أضافوا إلى ماتعلموه لمساتهم الخاصة، إلى جـانب الأساليب الآسيوية الغربية التى وصلتهم عن طريق الفرس. وكانت المحـصلة النهائية شيئاً خاصـاً بهم. وكان الدرع الصُغدى، وهو ماتميـز به هؤلاء الحدادون، مـشهـورا فى أنحاء آسيـا. وأمد صـانعو الدروع فى سـمرقند المحاربين الآسيويين قروناً طويلة بالستـرات الواقية المرنة. وفى عهد تانج حل هذا النوع من الدروع محل الدرع المصفح المستخدم فى الصين منذ عهد هان.

وجاء الصُغد إلى الشرق أيضـاً بأساليب صنع الزجاج التى كانوا يستـخدمونها فى دور الزجاج القريبة من سمـرقند. وكان الصينيون يرغبون منذ زمن بعيد فى معرفـة كيفية صنع الزجاج عالى الجودة، خاصة الزجاج الملون الذى كـانوا يرغبون بشدة فى الحصول عليه من الغرب وظلوا يستوردونه منه. وفى نهاية الأمر تعلموا الأساليب السرية من الصُغد فى القرن الخامس. إلا أن الصـينيين لم يشـتهروا بصناعـتهم للزجاج. وربما يكـونون قد ابتكروا فى القرن السابع أساليب صنع البورسلين الحقيقى الذى اشتهروا به فى أنحاء العالم[٢].

وجاء الصُغد أيضاً بمهارات أخرى، كـحفر الخشب والنسيج. وليس هناك مايوضح إن كانوا قد جاءوا عبر طريق الحريـر بأسلوب جديد للنسيج، كما يرى البعض، أم لا. إلا أنه من المؤكد أن الرسومات والأساليب التى جاء بها الصُغد وغيرهم من المهاجرين الغربيين كان لهـا تأثير كـبيـر على الفنانين والصناع الصـينيين فى عـهد تانج، حـيث بدأت الموتيـفات الفارسية، كـأزواج الطاووس المتكررة والخيول المجنحة، تظهر فى الفن الصـينى ورسوماته. كما أنهم أثَّروا بعد ذلك على رسومات أوروبا فى العصور الوسطى.

***

كان تأثير الصين ككل أكبر بكثير من خلال اتصالها بأهل الغرب فى عهد تانج منه فى أى عصر سبقه. واستمـرت الكتابات والمخلفات البوذية فى التدفق عبر طرق الحج من الهند

---

(١) مايُسمى بالنبيـذ الصينى هو فى العادة شراب حلو مخمـر مصنوع من حبوب مختلفـة منها الأرز يُسمى «الديراسون» أو «التاراسون» أو «التراسينا». (المترجم).

(٢) يُعرف فى كل مكان بالصينى. (المترجم).

إلى الصين، عن طريق التبت وخوتان. وفى حين كان التأثير الهندى على أشده، عرفت كتابات سنسكريتية فى الطب والفلك والرياضيات والموسيقى طريقها أيضاً إلى الصين. وتعاظم أثرها عندما ابتكر صناع تانج فى أوائل القرن الثامن أساليب الطباعة بالقوالب الخشبية. وكانت صفحات كاملة من النصوص أو الأعمال الفنية تُحفر على قوالب خشبية يمكن استعمالها فى طباعة نسخ عديدة، إما على هيئة أوراق منفردة أو كتب مكتملة باستعمال قوالب متتالية. ولم تكن تلك الكتب عبارة عن صفحات كما هو حال الكتب التى نعرفها، بل على شكل لفافات تطوى. وكان الصينيون قد تعلموا قبل ذلك بقرون صنع الورق من الخِرَق البالية، وهو وسيلة للطباعة أرخص من الحرير أو الرق أو البردى، كما فى الغرب. وكانت توليفة الطباعة بالقوالب الخشبية والورق معناها سهولة نشر الأعمال الغربية، وكذلك الصينية، بين جمهور أكبر عدداً. وطبع الصينيون أيضاً أوراق اللعب (الكوتشينة) والنقود. وكلاهما كان مثار دهشة وتعجب أجيال من الزوار الغربيين.

ومع وجود كل هذه التأثيرات الغربية، كانت المدينتان العظيمتان تشانج آن ولويانج، الواقعتان عند طرف طريق الحرير، مدينتين عالميتين بحق. وكانت لويانج، التى يزيد سكانها على المليون، تقع عند التقاء طريق الحرير بطريق السفراء الذى يتجه جنوباً إلى ميناء كانتون (نان هاى). وكانت للفرس تجارة بحرية نشطة على طريق التوابل تصل إلى جنوبى الصين. وبعد فترة انقطاع قصيرة، ورث الفاتحون العرب، الذين أصبحوا بحارة مهرة، هذه التجارة ووسعوها. وسار مسئولون محليون وسفراء أجانب وتجار من كل صنف ولون من الجنوب حتى لويانج، حيث اكتشفوا هناك قصوراً بديعة وحدائق جميلة ومجمعاً كبيراً للأسواق يُسمى السوق الجنوبية ومعابد للديانات الغريبة عن المنطقة، سواء كانت زرادشتية أم بوذية أم كنائس مسيحية أم مساجد للمسلمين فى وقت لاحق.

وكانت تشانج آن، وهى المحطة الأخيرة فى طريق الحرير والمقصد الأساسى لمعظم تجار الغرب، فى ضعف حجم لويانج ويسكنها مليونا نسمة تقريباً. وتجمع الصُغد والترك والفرس والهنود والعرب وكل شعوب آسيا الوسطى فى السوق الغربية الكبيرة، حيث كان التجار الأجانب يبيعون بضاعتهم فى الغالب الأعم. (وكانت السوق الشرقية أقل حركة وأكثر هدوءاً وتتعامل فى المقام الأول مع الصينيين الموسرين المقيمين فى المساكن القريبة). وطبقاً للنمط الآسيوى، كانت الأسواق مقسمة إلى أسواق صغيرة لا حصر لها. وكان كل منها مخصصاً لسلعة مختلفة، كالحديد أو الحرير أو العقاقير أو الشاى، الذى كان قد أصبح منذ فترة وجيزة مشروباً شعبياً، أو السروج. وهنا أيضاً تجد المرابين، وأغلبهم من الترك

الأويغور الذين اكتسبـوا سمعة سيئة بسبب الضغائن التى تولدت فى نفـوس المقترضين تجاه المرابين. وهكذا نجد أن عدد التجار الأجانب الذين كـانوا يجتمعون فى تشانج آن من الكثرة بحيث عيَّن حكام تانج «مـسئولاً» خاصاً «عن السارتافـاك» (وهى كلمة هندية معناها رئيس القافلة) لمراقبة نشاطهم فى الصين.

وفرضت الحكومة الصينية قيوداً كثيرة على الأجانب. إذ كانوا مجبرين على الإقامة فى أحيـاء معـزولة داخل المدينة. ولم يكن هناك أى تشـجيع للتـآخى العابر مع أهل الـبلاد، وخاصة أن الحكومـة كانت تدرك أن التجار قـد يقيمون روابط ثم يغـادرون الصين. ولكى يحمى الإمبراطور ضحـايا مثل هذه الترتيبات المؤقتة، أصدر مـرسوماً سنة ٦٢٨ يقضى بأنه فى حالة اتخـاذ أى أجنبى زوجة أو عـشيقـة صينيـة لابد أن يبقى فى الصـين، ولا يجوز للزوجة أن تلحـق به فى الغرب. كمـا لا يحق له أن يعود بمفـرده. (يأتى هذا رغم إرسال الأميرات الـصينيات إلى أنحاء آسـيا على مر القرون، لدعم التـحالفات السـياسية قـصيرة المدى).

وفى الوقت نفسـه كانت هناك عراقيل تواجـه التجار الأجانب بسبب احـتكار الحكومة لكثير من السلع الأساسية. وفى سنة ٧١٤، على سـبيل المثال، حُظر على الأفراد الصينيين أن يبيعوا للأجانب أو يُصـدِّروا لهم ذيول بقر الياك أو اللؤلؤ أو الحديد أو الذهب أو الحراير الفاخرة، ومنهـا أقمشة المفروشـات والدمقس والغُزى والأقمشة ذات التطريز الدقـيق. كما فرضت الحكومة الصـينية مراقبة صـارمة على السلع التى تدخل البلاد. فالسلع التى يُعـتقد أنها تضر الناس، أخلاقياً أو مادياً، كانت تُصادر. أمـا تلك التى يُعتقد أنها زائفة أو فاسدة فكانت تلقى نفس المصيـر، وربما يُسجن مستوردها. بل إن الواردات المسـموح بها لم تكن لتباع إلا فى أسواق خاصة تحت إشراف حكومى دقيق، حيث كان المسئولون يأخذون حصة كبيرة منها على سبيل «رسوم الجمارك».

ورغم كل هذا، لم ينقطع وصـول التجار الأجانب إلى الصـين، حيث حقق بعـضهم أرباحاً ضخمة. لقـد جعلوا أحياءهم الأجنبية فى جاذبية أى حى مـشابه فى المدن الساحلية الحديـثة. وكان الـبوذيون القـادمون من الهند أو آسـيا الوسطى يجـدون فى المدن الصينـية الشمالية رقـصات وتسلية دينية. وكان الزوار القادمون من أماكن بعـيدة يجدون فى الحانات مغنيات غـربيات كن يسرين عنهم ويذكرنهم بمباهج الوطن. وكـان يعمل فى تلك الحانات الكثيرات من السـاقيات أو الغانيات الغـربيات لجذب التجار الأعزاب والمسـاعدة فى سحب أموالهم.

إلا أن الأحياء الأجنبية كانت تجتذب أيضاً المواطنين الذين يبحثون عن متعة ماهو غريب عنهم، كما يجرى فى كثير من المدن الحديثة. وهكذا انجذبت أعداد كبيرة من الصينيين إلى الحانات الغربية فى تشانج آن وغيرها من المدن. وكان بين هؤلاء شعراء خلدوا فى قصائدهم عن تلك الفترة أهل الفن من نساء جميلات وغلمان جاءوا من كوتشا وكاشغر وسمرقند وفارس. وكتب أحدهم عن «الحورية الغربية [التى] تلوِّح بيدها البيضاء دعوة للغريب كى يسكر بكأس ذهبية». ويبدو أن بعض هذه المخلوقات الفاتنة تعيش وتتنفس فى كلمات كُتبت قبل مايزيد على ١٢٠٠ سنة، كتلك المرأة الغربية التى وصفها الشاعر لى باى:

تلك الحورية الغربية محياها كأنه الزهرة.
هاهى تقف بجوار دن النبيذ ضاحكة بأنفاس الربيع
إنها تضحك بأنفاس الربيع
وترقص فى ثوب من الغِزى!

ولم يكن الوجهاء الذين يرتادون الحى الأجنبى هم وحدهم من تأثر بما هو غريب عن البلاد. فقد اجتذب البلاط الصينى نفسه أعداداً لاتحصى من الغربيين. وكان كثيرون من هؤلاء بالطبع مبعوثين وفدوا من دول أجنبية. إلا أن كثيرين منهم كانوا فى واقع الأمر «خراج بشرى» أرسله الحكام الغربيون أملاً فى كسب ود الإمبراطور الصينى وتقرباً إليه. وكان حكام الصين منذ زمن بعيد مفتونين بكل ماهو غريب وشاذ، فى البشر والجماد على السواء. ودعا هذا الملوك الغربيين إلى أن يرسلوا إلى تشانج آن أناساً يتسمون بالغرابة، كقزم من سمرقند أو امرأة قيل إن جلدها المرقط يشبه التماثيل والمعابد البوذية. وأرسل آخرون «خراجاً بشرياً» يتمتع بمهارات خاصة، كحكماء من الغرب وفرق موسيقية من البلاد المهزومة (وكان الصينيون يعتبرون موسيقاهم جزءاً من غنائمهم) وأهل فن موهوبين من كل صنف، مابين مغنين وراقصين وعازفين ولاعبين يسيرون على الحبل وحواة يلعبون بالنار ولاعبى أكروبات وبهلوانات أصحاب أجسام لينة وسحرة.

وكثيرون من هؤلاء ذهبوا إلى الشرق بمحض إرادتهم، حيث وجدت فنون الغرب من رقص وموسيقى وألعاب حواة، جمهوراً كبيراً ومتحمساً داخل الصين. ولم يقتصر تقدير تلك المتع الغربية على الأثرياء وأبناء الأصول العريقة، إذ أتت انتصارات أسرة تانج الأولى إلى الصين بآلاف من أسرى الحرب من آسيا الوسطى الذين تزوج بعضهم أرامل الصينيين

الذين قُتلوا فى الحرب. ومن أبرز الفنانين هؤلاء الموسيقيون والراقصون الذين أتوا من كوتشا وسمرقند، مثل «الفتيات الدوارات» الصُغديات اللائى يرتدين ثياباً من الديباج الأرجوانى وسراويل واسعة من الدمقس الأخضر الزاهى وكن يرقصن على عدد من الكرات المتدحرجة.

ولم يكن الصينيون قانعين بمجرد كونهم متفرجين. فمنذ العقود الأولى من حكم أسرة تانج وهم يتبعون الأساليب الغربية بصورة متزايدة. وتعلم المغنون والموسيقيون الصينيون كيف يعزفون الموسيقى على الطريقة الغربية مستخدمين آلات ليست مألوفة لديهم. وعبّر الشعراء وغيرهم من الكُتّاب عن حبهم للمغنيات والراقصات ذائعات الصيت فى صور بالكلمات كلها عشق وغرام. وتصف قصيدة «جيشا الشاش»[١] للشاعر باى چيوى يى[٢]، على سبيل المثال، راقصتين شابتين من الشاش (بالقرب من طشقند) ترتديان ثوبين عاريى الأكتاف من الغُزى وحزامين من الفضة وحذاءين من الديباج الأرجوانى وطرطورين عُلق فى قمة كل منهما جرس:

بُسطت اثنتان متشابهتان - فُردت سجادتان مطرزتان،
دقات متصلة لأصوات ثلاثية - الطبول الملونة تمضى فى العزف.
الشموع الحمراء تُبعَد، وتبرز زهور الخوخ.
يتحرك قميصان من الشبيكة القرمزية - [راقصتا] الشاش تأتيان!
حزامان يتدليان على أفخاذ مذهبة، والخصران المزينان بالزهور ممتلئان،
وقبعتان عليهما أجراس ذهبية تدوران، ووجهان فى بياض الثلج يلفان.

كما أن الفن[٣] الذى تميزت به تلك الفترة يعكس الحب الشديد لكل ماهو غربى. فغالباً

---

(١) ذكر الإدريسى فى «نزهة المشتاق» أن الشاش «ليس فيما وراء النهر [سيحون] إقليم على هيئتها أكثر منابر وقرى عامرة وسعة وبسطاً فى العمارة. وحدُّها من نهر الشاش وحدُّها الآخر يتصل بباب الحديد... والشاش فى أرض سهلة مستوية لا جبل فيها ولا أرض مرتفعة وبساتينها وخضرتها ومتنزهاتها كثيرة». (المترجم).

(٢) وُلد سنة ٧٧٢ وتوفى سنة ٨٤٦ وتمتاز قصائده بسلاسة اللغة والجرأة على رصد العيوب الاجتماعية. (المترجم).

(٣) ظهر فى عهد أسرة تانج عدد من النوابغ فى مجالى الرسم والنحت مثل وو داو تسي، المعرفو برسم البورتريهات، و وانج وي المشهور برسم المناظر الطبيعية. وتنتمى إلى هذا العصر جداريات كثيرة فى كهوف دونهوانج البوذية. وفى النحت اشتهر يانج هوى تشي بتماثيله النابضة بالحياة ومازال عدد ضخم من أعماله محفوظاً فى كهوف دونهوانج. (المترجم).

ما كان الرسـامون والنحاتون يصـورون فى أعمالهم أناساً من أصـول عرقية غربـية. أناساً يرتدون مـلابس من آسيـا الوسطى ومـلابس ذات طرز أجنبيـة، وبالتـحديد يونانيـة هندية وفارسية. وحـذا الأدباء فى تلك الفترة حذو الفنانين بكتابتهم قـصصاً عن رحلات فى بلاد غريبـة. وكان الكثيـر من تلك القصص يقـوم على رحلات الحجـاج مثل شيـوان تسانج. وغالباً ما كانت ممزوجة بإشارات إلى شخـصيات أسطورية من عصور أقدم مثل الأم الملكية الغربية.

ولم يتوقف التأثير الغـربى عند هذا الحد. ففى مدن الصين الشمالية الـغربية، وخاصة تشـانج آن ولويانج، اتبع كثـيـرون من المواطنين أساليب آسـيـا الوسطى الخاصـة بالأزياء. وارتدى الرجال والنسـاء من الميسورين أغطيـة الرأس التى تحجب جزءاً من الوجـه، وكانت تُستـخدم فى الأصل للوقـاية من غبار آسـيا الوسطى، وذلك أثناء تجـولهم فى المدينة على ظهور الخيل فى أوائل القـرن السابع. وبعد ذلك كانت النسـاء اللاتى جرى العرف على أن يركبن عربات تغطيها الستائر، يخرجن بمفردهن على ظهور الخيل وقد استبدلن الخمار الذى يغطى الوجه بأغطية للرأس تكشف عن الوجـه أو بقبعات تركية أو بلا أى قـبعات. وكانت أكثـرهن جرأة ترتدى زى الصحـراء، وهو سروال وحذاء ركوب الخـيل. وكانت القبـعات والقمصـان والسراويل والتنانير وتسريحـات الشعر تحمل جمـيعاً طابع الأساليب التـركية أو الفارسية فى عهد أسرة تانج.

ولم يكن الرجال بمنأى عن الأساليب الغربية فيما يتعلق بملابسهم أو بأسلوب حياتهم. وقد فُتن الشاعر باى چيوى يى، الذى خلّد راقصـات الشاش، بأساليب آسيا الوسطى حتى أنه ترك منزله الفخم الكائن فى المدينة ليعيش فى خيمتين من اللباد الأزرق السماوى أقامهما فى فناء بيته. (عالم الآثار مارك أوريل فعل الشىء نفسه فى الهند بعد أكثر من ألف سنة). بل إن ابن الإمبراطور الشهـير تاى تسونج كان مفتوناً بكل مـاهو غربى، لدرجة أنه لم يكن يتحدث سوى التركية ويعيش فى معسكر أشبه بمعسكرات الترك أقامه خارج القصر.

وفى بداية عهد أسرة تانج، عندما كان طريق الحرير المتجه غرباً مفتوحاً بالكامل، كانت الصين أشـد ماتكون تأثراً بثـقافة آسـيا الوسطى. أما الآداب والديانات الـتى جىء بها من الغرب ثم مُزجت بالروح الصينية، فقد نقلوها إلى أقوام آخرين إلى الشرق منهم. ففى عهد أسرة تانج لم يكن طريق الحرير قد امتد إلى كـوريا التى خضعت للحكم الصينى فحسب، وإنما وصل إلى اليابان. وهذان البلدان اللذان أقـبلا بحماس على البوذية، أرسلا كـثيراً من

الطلاب إلى الصـين لدراسة الديانة والآداب مـعاً. لذلك فـإنه بعد مـرور زمن طويل على موت البوذية فى الهند وتحـويرها فى الصين، وبعد خضوع راقصـات آسيا الوسطى للحظر الذى فرضه الإسلام، فإن الطقوس البوذية ورقـصات آسيا الوسطى كانت تؤدى فى اليابان، حيث نجد الآن فى شوشو إن واحداً من أجمل مابقى من مستودعات فن أسرة تانج، بما فى ذلك الصور البوذية المرسومة على الحرير الفاخر.

***

وطريق الحرير، الذى كـان المعبر الرئيـسى لهذه الغزوة الثـقافيـة الضخمـة من جانب الغرب، أدى أيضاً إلى اقتراب الصين من البحـر المتوسط أكثر من أى وقت قبل ذلك. فقد سبق أن عجز الصينيون عن إقامة اتصالات مـباشرة مع فو لن، الإمبراطورية البيزنطية. إلا أنه فى سنة ٦٤٣، مع تولى أسرة تانج لعـرش الصين، تسجل الحولـيات أن فو لن أرسلت للإمبراطور تاى تسونج سفارة تحمل هدية ثمينة. وليس واضحاً إن كان السفير قد سافر عبر الهضـبة الإيرانية، خـلال تلك العقـود القليلة التى سـمح فيـها ضعف الفـرس بأن يكون للرومان منفـذ على طريق الحرير عند بحر قزوين، أم سـار شمالاً حول بحـر قزوين خلال أرض الخزر فى طريقه إلى الشرق (وهو الأمر الأكـثر احتمالاً). ولكن يبدو أن هذا هو أول اتصال مـباشر بين الصين والإمـبراطورية الرومانية، الـتى كانت تسمى البيـزنطية فى ذلك الوقت.

وأعقبت هذه سـفارات أخرى فى سنوات ٦٦٧ و ٧١١ و ٧١٩ كما تقـول الحوليات. ولا تتيح لنا المصادر البيزنطية تأكـيد هذا. وعلى أى الأحوال، ربما يكون السفراء قد جاءوا من حكومات إقليمية. بل قد يكونون من المغامـرين التجار الذين يعملون لحسابهم الخاص، طبقاً للتقاليد الآسيوية القديمـة. إلا أن الحوليات الصينية كانت، على أقل تقدير، من الدقة بحيث سجلت حصار العـرب لعاصمة فو لن، القسطنطينية، فى سبـعينيات القرن السابع. ولايمكن أن يكون سفراء فو لن فى القرن الثامن قد جاءوا عبر الهضبة الإيرانية. ففى ذلك الوقت كان العرب قد استولوا عليـها فيما عدا حصون طبرستان الجبليـة. والاحتمال الأكبر هو وصولهم إلى الصين عبـر أراضى الخزر، حيث ساروا فى طريق يبعد كثـيراً إلى الشمال من غارات المسـلمين. وأرسل الخزر أنفـسهم سـفراء إلى الصـين. وليس هذا بمستـغرب، فبحلول القرن الثامن كانوا قد أقاموا إمبراطورية تجارية لها شأنها.

وفى منتصف القرن السـابع، أى فى ذلك الوقت الذى كان شيوان تسانج قـد عاد لتوه

إلى الصين وكـان تاى تسونج يثبت أركـان حكمه فى الشرق، أخـذ الخزر ينتشرون بسـرعة انطلاقاً من ذلك الركن الصغير الذى يقيمون فيه على بحر قزوين. ولكى يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم بصورة أفضل ضد العرب، أقاموا لأنفـسهم عاصمة جديدة شمالى بحر قزوين عند أتل، بالقـرب من مصب نهـر يحـمل الاسم نفسـه نعرفـه الآن باسم الفولجـا. ولأن التجـارة، وليست الزراعة أو أى مـوارد طبيعيـة أخرى، هى دائماً المصـدر الرئيسى لدخل إمبـراطورية الخزر، فليس من المصـادفة أن يحـدث نمو الإمبـراطورية السريع عندمـا كانت التجارة الآتية من الشرق تسير فى المقام الأول عبـر طريق شمالى: من مدن السهوب التركية ثم جنوباً إلى ماوراء النهر فشمالاً حول بحر قزوين وغرباً عبر السهوب إلى القرم وبعد ذلك تحملها السفن إلى القسطنطينية، وكانت لاتزال السوق الرئيسية للسلع الشرقية.

والواقع أن توسع الخزر سار عـلى هدى هذه التجارة التى تعبر أراضـى آسيا. وبحلول سنة ٦٥٠ كان الخزر قد مدوا نفوذهم إلى الشرق فـيما بين بحرى قزوين وآرال حيث المدن التجارية الصُغدية التى لم تكن فى ذلك الوقت خاضعة خضوعا مباشراً لنفوذ أى من العرب أو الصينيين، وإنما كان الطرفان يتربصان بها. وفى الشمال وصل الخزر إلى أنهار أتل ودنيبر والدون، حيث أخضعوا لنفوذهم شـعوباً بائسة مثل البلغار[1] والآلان[2] والهنغار[3]. ولكن الأهم هو اندفاعهم غرباً على الساحل الشمالى للبحر الأسود ليسيطروا فى نهاية الأمر على الأرض الواقعـة بين جبال القوقـاز ونهر الدانوب، فيـما عدا المراكز الـبيزنطية على الحـافة الجنوبية لشبه جزيرة القـرم. كما أصـبحوا سـادة الإقليم الخصيب الذى نعـرفه الآن باسم أوكرانيا. وكان بحر قزوين يعرف باسم بحر الخزر.

وطوال هذه الفتـرة والقرون التـالية أبقى الخزر على تحـالفهم الوثيق مع الإمـبراطورية البيزنطية، وإن لم يكن هذا الـتحالف خلواً دائماً مما يعكر صفوه. وكان اليـونان البيزنطيون أضعف كـثيـراً مما قد توحى به عـاصمتـهم التى تنعم بالتـرف. وكانت تلك الشـراكة فى مصلحتهم فى أى حال من الأحوال. وظلت القسطنطينية تحت حصار العرب من سنة ٦٧٤ إلى سنة ٦٧٨، ولم يخلصها منه سوى ابتكار استـعمال المادة الكيماوية القاتلة، التى أُطلق

(١) شعوب تركية عاشت على نهر أتل (الفولجا). (المترجم).

(٢) الآلان أو اللان شعوب تركـية كانت تعيش على الجانب الغربى من بحـر قزوين على المنحدر الشمالى بجـبال القوقاز. والبعض يختلط عليه الأمر الآن فيعتبرهم الأبخاز أو الشركس. (المترجم).

(٣) الهنغار أو الماجيار هم أهل مايعـرف الآن بالمجر وكان موطنـهم الأصلى حوض نهر الفولجـا ثم عبروا جـبال الكربات واستقروا فى وسط حوض الدانوب فى القرن التاسع الميلادى. (المترجم).

عليها النار اليونــانية وأمطروا بها رؤوس المحاصرين. (ظلت النار اليونانيــة سلاحاً سرياً من أسلحة القسطنطينيــة لعدة قرون، إلى أن سقطت المدينة سنة ١٤٥٣ حيث ضاعت التــركيبة ومعها طريقة صنع الصبغة الأرجوانية الفينيقية وغيرها من أسرار العالم القديم). واستُنفذت جهــود الإمبراطورية ككل بشدة بــسبب الحروب الدفاعــية المستــمرة فى مواجهــة المسلمين. وبسبب ذلــك لم تكن القيادة مــرغوباً فــيها. وفى ســنة ٦٩٥ أصبح الشعب ســاخطاً على الإمبــراطور چوستنيان الثانــى مما اضطره للعيش فى المنفى، حيث لجــأ فى بادىء الأمر إلى ميناء كيرسون جنوبى القرم وطلب حماية الخزر وتزوج أخت خاقان الخزر. إلا أنه عندما لم يتلق چوستنيان كل الدعم الذى أراد، اتجه إلى البلغار الغــربيين، وكانوا لايزالون مستقلين، فأعانوه على استعادة عرشه. وإن كان دخوله القسطنطينية مشيناً، لأنه دخلها زاحفاً فى أحد أنابيب المياه.

وفى نهاية المطاف ساهم الخزر فى إسقاط چوستنيان سقوطاً لم ينهض منه مرة أخرى. كما وضعوا خليفته على العرش البــيزنطى سنة ٧١١. وبعد عقدين تزوج أمير بيزنطى آخر أميرة خزرية أُطلق عليها اسم يونانى هو أيرين. وحكم ابنها بعد ذلك فى القسطنطينية باسم ليو الخزرى. وإذا وضعنا فى اعــتبارنا التقارب الشديد بين هاتين الإمبراطورتيــن ورغباتهما المتكاملة فــيمــا يتعلق بنفــائس الشرق، حــيث ترغب إحداهمــا فى تلقــيها والأخــرى فى توريدها، فلن يكون مستغرباً أن ترسلا السفراء إلى الصــين فى محاولة لتيسير التجارة على طريق الحرير. وعدم وجود سجلات غربية لتلك السفــارات هو أيضاً أمر غير مستغرب، إذ ظل غرب آسيا منطقة اضطرابات.

وعندما كــان الخزر فى أوج نجاحــهم اندفعوا عبــر جبال القــوقاز فى ثمانينيــات القرن السابع لينهبوا أرمــينيا، حيث استولوا على الغنائم والأسرى وعادوا عبــر القوقاز. وأعقبت تلك غارات أخرى. والتقى الخزر وجيش المسلمــين لقاءً مباشراً سنة ٧٢٣، حيث هزم ٣٠ ألفاً مــن الخزر المسلمــين. بل إن الخزر وصلوا إلى الموصل على الطرف الـشمالى مــن نهر دجلة. وشعر المسلمــون فى عاصمتهم دمــشق أنهم أمام تهديد خطير فــجمعوا احتــياطيهم وشنوا هجوماً مضــاداً أعاد الخزر إلى عاصمتهم عند نهــر أتل. وهناك خيّر القادة المسلمون الخزر بين الدخول فى الإسلام والموت، فاختار خاقان الخزر العيش وأُرسل له عالمان ليفقهاه فى الإسلام.

وما إن خرجت جيوش المسلمين إلى السهوب المفتوحة، وقد هُزم الخزر، حتى طوقت

الإمبـراطورية الرومانية وأصبـحت أوروبا كلها مفـتوحة أمـامها. وربما يكون عدم سـقوط القسطنطينية ودخـول أوروبا فى الإسلام (وإن كان ذلك لوقت محدود وباستـعمال القوة)[١] إحدى غرائب التاريخ الكبرى. فقد عاد القائد المسلم عبر القوقاز دون أن يترك قوة احتلال. ويحتـمل أن يكون ذلك خشـية انقطاع خط إمـداده. (وكان خوفـه فى محله، حـيث كان الخلفاء الأمويون الذين يحكمون العالم الإسلامى من دمشق تهددهم الثورة عليهم. وبالفعل سقطت دولتهم بعـد اثنتى عشرة سنة، فى سنة ٧٥٠)[٢]. وسرعان ماتخلص الخزر من أى مظهر يدل على أنهم أمة مسلمة. وبعد استـعادتهم لقوتهم ونفوذهم فى المنطقة تصدوا لكل محاولة قامت بها الجيوش المسلمة بعد ذلك لعبور القوقاز.

***

لم يكن أثر الصـراع الدينى فى المنطقة أمـراً متـوقعـاً. ففى حوالى سـنة ٧٢٠ أصدر الإمبراطور البيزنطى ليو السورى مرسوماً يقضى بدخول كل اليهود فى الإمبراطورية المسيحية بالقوة. كما أن التسامح الدينى الذى ساد العالم الإسلامى كان فى طريقه إلى الزوال. وكان النبى محمد نفسه تربطه علاقات وثيقة بالمسـيحية واليهودية، اللتين يرتبط بهما دينه ارتباطاً قوياً. بل إن طبـيبه الخاص كـان يهودياً. وفى خلافـة الأمويين الذين حكموا مـعظم القرن الذى أعقب وفـاته، كان اليهـود والمسيحيـون يلقون قدراً من التـسامح يفوق مـايلقونه من اضطهاد، رغم أنهم فى أفضل الحـالات كانوا مواطنين من الدرجة الثالثة يـدفعون ضرائب باهظة أُعفى منها المسلمون[٣].

وحتى الذين دخلوا فى الإسـلام لم يكونوا إلا مواطنين من الدرجة الثانـية، حيث لم يكن مسمـوحاً لغير المسلمين العـرب بدخول الطبقة الأرستـقراطية الحاكمـة. وكان السخط الذى أثارته هذه التفـرقة ضد المسلمـين غير العـرب أحد الأسبـاب التى ساهمت فى خلع الأمويين واستبدالهم بالخلفاء العباسيين. وكان هؤلاء (فى البداية) أصوليين مسلمين وإن لم

(١) إذا كانت الجيوش المسلمة فتحت البلاد فهـى لم تجبر العباد على الدخول بالقوة فى الإسلام، والدليل على ذلك أن أهل تلك البلاد خُيِّروا بين الدخول فى الإسلام ودفع الجزية. (المترجم).

(٢) دب الخلاف والشقاق داخل الدولة الأموية وانحاز شيعة على بن أبى طالب وآل بيته، الذين كانوا يطالبون بالخلافة، إلى بنى العباس الذين كـانوا يهيمنون على جيوش فى العراق وخـراسان وأسقطوا الخلافة الأموية. إلا أن العـباسيين تنكروا للعلويين وأقاموا خلافة جديدة وشيدوا عاصمتهم الجديدة بغداد سنة ٧٦٢. (المترجم).

(٣) المعروف أن من كان يدخل الإسلام من أهل البـلاد التى فتحها المسلمون كانت تسقط عنه الجزية، بـينما يستمر من ظلوا على دينهم فى دفعها. وكان ذلك هو الخيار الذى ارتضوه. (المترجم).

يعودوا عرباً خلَّص[١]، بل كانوا يطمحـون إلى إقامة حكم دينى وعالم لاينفـصل فيه الدين عن الحكم.

وأدى تزايد عدم التسامح الـدينى فى كل من الإمبراطوريتين البيزنطيـة والإسلامية إلى موجة جديدة من الهـجرات. إذ فر اليهود والمسيحـيون، بل والمسلمون، إلى بلاد تقع عند أطراف تلك الأراضى الصحراوية. وشق عدد كبير منهم طريقه عبر القوقاز إلى بلاد الخزر، حيث كان لوصولهم إليها أثر واضح. وحاول كل من المسيحيين البيزنطيين والمسلمين العرب كسب الخزر إلى دينهم، دون أن يحرزوا فى ذلك نجاحاً كـبيراً، رغم أن تلك البلاد كان بها مؤمنون بكلتا العقيدتين. ولكن يبدو أن الهجرة الجديدة أتت إلى بلاد الخزر بعدد ضخم من المؤمنين بديانة أخرى، هى اليهودية. وفى تلك الفترة، أى بعد ٢٠ سنة من مرسوم ليو ضد اليهود البيزنطيين ومايربو على ثلاث سنوات بعـد محاولة المسلمين التى أُجهضت لإدخالهم فى الإسلام، يبدو أن بلاد الخـزر اعتنقت اليهودية. وهى البلد الوحيـد المعروف فى التاريخ الذى أقدم على ذلك. وأشـار المؤرخ العربى الدمشـقى فيمـا كتبـه حوالى سنة ١٣٢٧ إلى ماحدث فى عهد العباسيين من أن الإمبراطور المسلم هارون الرشيد:[٢]

... أجلى من كان فى مملكته من اليهود فقصدوا بلد الخزر فوجدوا قوماً غفلا ساذجين فعرضوا عليهم دينهم فوجدوهم أصلح مما كانوا فانقادوا إليه.

ولكن لم تدخل كل بلاد الخزر فى اليهودية ولم يُجبر الناس على اعتناق اليهودية. بل يبدو أن كثـيراً من أفراد الطبقة الأرسـتقراطية الحاكـمة والتجار أصبـحوا «دعاة». (هذه هى الصفة التى وصفـتهم بها سجلات اليهود الأسـبان الذين أصبحوا أكثر اهتـماماً بهذه الدولة اليهودية وحاولوا فى القرون التالية أن يعرفـوا الكثير عنها، لتكون ملجأ يمكن أن يلجأ إليه اليهود من البلاد الأخرى المضطهدة).

والواقع أن بلاد الخزر أصـبحت دولة متعـددة الأديان. ويشرح ذلك الجغـرافى العربى المسعودى فى أربعينيات القرن العاشر قائلاً:

وفى هذه المدينة [أتل] خلق من المسلمين والنصـارى واليـهـود

---

(١) كان هناك تفوذ فارسى قوى فى مؤسسات الحكم والثقافة فى عهد الخلافة العباسية. (المترجم).

(٢) جاء فى «نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر» للمـقدسى ما حكاه ابن الأثير عن الخزر وهو «أن صاحب قسطنطينية أيام هارون الرشيد أجلى من كان فى مملكته من اليهود...» (المترجم).

والجاهلية؛ فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه، وكان تهوّد ملك الخزر فى خلافة هرون الرشيد وقد انضاف إليه خلق من اليهود ورَدَوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم، وذلك أن ملك الروم... نقل من كان فى ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم... فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرضه...

وظلت بلاد الخزر متعددة الأجناس والأديان. وفى سنة ٩٣٢ تقريباً أشار المؤرخ المسلم الإصطخرى إلى أن معظم سكان بلاد الخزر من المسلمين أو المسيحيين أو «أهل الأوثان»، وهو ماقد يعنى البوذيين أو الزرادشتيين أو المانويين أو حتى عبدة الطبيعة. إلا أن أصغر الجماعات، أى اليهود، تشمل الملك وبلاطه. والواقع أن جيش بلاد الخزر فى القرون التالية كان يتكون فى معظمه من المسلمين.

وتعكس العاصمة أتل حقيقة هذا المجتمع متعدد الوجوه. وطبقاً لما يقول الإصطخرى:

النصف الشرقى من [أتل] فيه معظم التجار والمسلمين والمتاجر، والغربى خالصة للملك وجنده والخزر الخُلّص.

ولم تكن هذه مدينة كلاسيكية تخلف آثاراً تذهل الرحالة وعلماء الآثار فى العصور الحديثة. بل إن أتل كانت مناسبة لأهلها ذوى الأصول شبه البدوية وأغلبهم من التجار الجوالين. وحتى فى سنة ٩٣٢، أى بعد قرنين من وصول الخزر إلى بلاد مابين النهرين، كانت مدينتهم لاتزال تعكس أصولها الوسط آسيوية كما يصفها الإصطخرى:

وأتل قطعتان قطعة على غربى هذا النهر المسمى أتل وهى أكبرهما وقطعة على شرقيه والملك يسكن فى الغربى منهما... وهذه القطعة مقدارها فى الطول نحو فرسخ ويحيط بها سور إلا أنه مفترش البناء وأبنيتهم خركاهات لبود إلا شيئاً يسيراً بُنى من طين ولهم أسواق وحمامات وفيها خلق من المسلمين يُقال إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم ولهم نحو ثلاثين مسجداً وقصر الملك بعيد من شط النهر وقصره من آجُر وليس لأحد بناء من آجُر غيره ولا يسوغ الملك لأحد أن يبنى بالآجر ولهذا السور أبواب أربعة منها مايلى النهر ومنها مايلى الصحراء على ظهر هذه المدينة.

وذكر آخرون أن قصر الملك كان على جـزيرة فى النهر وأنه كان هناك جسر من السفن يمتد منها إلى إحدى الضفتين.

وكانت قوافل الخزر تدور حول بحر قزوين وتتـجه جنوباً نحو نهر جيحون إلى الإقليم الذى أصـبح يعرف فـيمـا بعد باسم خـوارزم. ومن هناك كان رجـال القوافل من الـصُغد وغيـرهم من أهل آسيا الوسطى لايزالون ينقلون التـجارة شرقاً إلى الصـين. ويبدو أن هذه التجـارة بلغت أوجها فى القـرن الثامن، بينما كـان العرب لايزالون منشـغلين فى الحروب الأهلية وكـان الصينيون يسـيطرون على التاريم. وتغيـر ذلك ليجعل بلاد الخـزر حلقة أقل أهميـة فى التجارة التى تمر عبـر آسيا، إلا أن دولة الخزر الـتجارية ظلت على قوتهـا قرنين آخرين لتحمى أوروبا من الغارات المنطلقة من الشرق الأدنى وآسيا الوسطى.

***

عندما حدثت تغييرات كانت مفاجئـة وضخمة. ففى العقود الأولى من القرن الثامن، كانت الممالك الصغيرة فى جبال البامير وماوراءها تتطلع إلى حماية الصين لها. وعندما عبر المسلمون السهوب واتجهوا إلى جبال البامـيـر، وقد استمدوا ككثير من الغزاة القوة من البلاد التى فـتحـوها، أعلن أمـراء من مدن مـثل بخـارى وسمـرقند وطشـقند وبلخ عن ولائهم لإمبراطور الصين وطلبوا العون منه. وفى بعض الأحيان كانت الصين ترسل القبائل التركية الغربية الخاضعة لها لنجدتهم. وفى مناسبات نادرة كانت ترسل جيشاً من الجنود الصينيين. بل إن نفـوذ الصين ومسـاعداتهـا امتـد إلى مناطق أبعد من تلـك فى هذه العقـود، حيث أُرسلت القوات لمسـاعدة بلدان صغـيرة على طريق الحجـاج البوذيين الرئيـسى الذى كانت تقطعه عصابات متمردة من هضبة التبت. وحتى سنة ٧٥٠ كانت القوات الصينية تعمل نيابة عن الخلفاء فى كشمير وكابول، حيث كـانت تحاول أيضاً منع أهل التبت والعرب من تجميع قواتهم. وهو ما كانوا يهددون به. ويبدو أن ذلك كان أوج نفوذ الصين.

وفجأة انهارت إمبراطورية الصين. وبدافع من الأطمـاع الشخصية لقتل ملك طشقند، عجَّل قائد صـينى بارز بوقوع معركة مـخيفة. وطلب وريث عرش طـشقند من العرب فى بخارى وسمرقند أن يساعدوه فى الثأر لكرامة أسرته من الصـينيين. وكانت النتيجة مواجهة مبـاشرة بين الجـيش الصينى، الذى أنهكتـه الحروب وأصابه الوهن، وبين الـعرب الفتـيان الأقوياء الذين يركـبون موجة جديدة من النجـاح العباسى. وتحالف العـرب مع أهل التبت (والعرب هم من أطلقوا عليهم هذا الاسم) الذين عقـدوا العزم على الخروج من حيز أرض

هضبتهم القاحلة وتحطيم النفوذ الصينى فى آسيا الوسطى. وانضم إليهم بعض الترك الغربيين الذين ثاروا على الجيش الصينى فى أعقاب حادثة طشقند.

وفى صيف سنة ٧٥١ التقى الجانبان عند ضفاف نهر تالاس شمالى تركستان. وهناك انكسر الجيش الصينى فى واحدة من أكثر هزائمه تدميراً. ووقع آلاف الجنود والصناع من المستوطنين الصينيين أسرى حيث نقل الكثير منهم إلى سمرقند. وكان لأسر هؤلاء مغزى خاص فى تاريخ الحضارة الغربية. إذ كان بين الصناع المهرة كثيرون من صناع الورق الذين علموا الغرب أساليب صناعتهم. وشيئاً فشيئاً أخذ الورق يحل محل الرق والبردى اللذين يكلفان الكثير ويتطلب إعدادهما مجهوداً ضخماً وكانا يستخدمان فى الغرب حتى ذلك الوقت. وكان ذلك بمثابة الأساس العلمى للانفجار التعليمى وانتشار المعارف الذى تَوَّجَهُ عصر النهضة الأوروبى.

والأمر الذى قد يكون أقل أهمية للتاريخ الإنسانى، ولكنه أكثر أهمية لموضوعنا، هو أن كثيرين من صناع الحرير الصينيين أُسروا بعد معركة تالاس ونُقلوا إلى بلاد المسلمين. وكانت شعوب الشرق الأدنى مستمرة فى توريد بعض احتياجاتها واحتياجات أوروبا بما تنتجه محلياً من حرير. إلا أن نوعية الحرير لم تكن لترقى إلى مستوى حرير الصين، التى ظلت تورد الحراير الفاخرة التى يرغبها الغرب. ولسنا متأكدين من الوقت الذى تعلم فيه صناع الحرير الغربيون منع فراشة الحرير من تمزيق خيوط شرنقتها، أو إن كانوا تعلموا هذا الأمر أم لا. إلا أن هذه المسألة حُسمت الآن. فصناع الحرير المهرة الذين جاءوا من الصين نقلوا أساليب تربية دودة القز، التى تعلموها من آلاف السنين، إلى المسلمين الذين ضمت مناطق نفوذهم الكثير من النساجين السوريين والفرس المهرة.

وكان الحرير يُنتج على طول طريق الحرير حيثما كانت درجات حرارة الجو تسمح بذلك، كما فى طبرستان وبعض المدن الواحات فى بلاد ماوراء النهر. بل إن مرو تخصصت فى إنتاج بويضات دودة القز لتصديرها إلى المناطق المسلمة الأخرى. واعتباراً من ذلك الوقت، أنتج المسلمون معظم الحرير لبلادهم ولأوروبا الغربية. (أصاب الركود صناعة الحرير فى بيزنطة). ويرجع الفضل للمسلمين فى دخول تربية دودة القز ونسيج الحرير الفاخر أوروبا الغربية. وكانت البداية فى أسبانيا المسلمة وصقلية. أما حرير الصين فكان فى الغالب الأعم يلبى رغبات آسيا الوسطى. إلا أن كل المنتجين ظلوا زمناً فى حالة من التعايش. وما أبعد المدى الذى قطعه الحرير! فقد عثروا على مخطوطة دينية فرنسية من عهد

الملك شارلمان وُضـعت بين صفحاتها صـفحات من الحرير لحـماية الرق. وتوصل المحللون المحدثون إلى أن أربعاً من صفحات الحرير صينية وستاً مسلمة وثلاثاً على الأقل بيزنطية.

وبالنسبة للمسلمين كان الأثر الأكبر لمعركة نهر تالاس أثراً تقنياً، حيث مضوا إلى جبال الباميـر للاستيلاء على كـاشغر. إلا أنهم لم يكونوا جـادين فى محاولتهم اخـتراق حوض التاريم. فى حين كانت هزيمة الصينيين عند نهـر تالاس مدمرة. فهاهى إمبراطورية الشرق العظيمـة تصبح فجأة عـاجزة ولا حول لها ولا قـوة. وما إن حدث فراغ القـوة هذا حتى اجتاحت قبائل التبت حوض التاريم وممر كانسو. وظلت مدينة تونهوانج التى استولوا عليها سنة ٧٦٦ زمناً طويلاً خاضعة لهم، حتى أنها ظلت قروناً عديدة تعرف بـ«التبت الصغرى». وعندما عبـر أهل التبت التاريم إلى الواحات الواقـعة على الطريق الشمالى، جـاءوا معهم بالصورة اللامـية للبوذية الخـاصة بهم وهى التى أصبـحت منتشرة فى آسـيا الوسطى. وفى وقت من الأوقات وصل أهل التـبت حتى تشانج آن، حيث رُدوا إلى مـا وراء بوابة اليشب بشىء من الصعوبة. كما انقطعت طرق الحجاج إلى الهند. أما التجارة على الطريق الجنوبى بصورة خاصة فقد تضاءلت فى تلك الأوقات المضطربة.

ولم يقتصر الأمر على ذلك. ففى نفس السنة التى وقـعت فيها هزيمة تالاس، تعرض الجيش الصينى للهزيمة فى الشـمال على يد قوم يعرفون بالخيتان. وتنبؤاً بما سـيحدث فيما بعد، كانت تلك قـبيلة من المغول. وهى واحدة من أولى القبـائل التى انطلقت من الشمال وأقَضَّت مضاجع الصينيين. وربما يكونون معـروفين لنا الآن بصورة أفضل من خلال النطق التركى لاسـمهم، هو خطاى[1]. وبعـد زمن طويل من طرد غـزاة آخـرين لهم، ظل هذا الاسم مرتبطاً بتلك المنـطقة. وتحرف بعد ذلك بزمن طويل عـلى لسان ماركو بولو ليـصبح «كاتاى». وهو الاسم الذى ظلت الروايات تعرف به شمال الصين قروناً طويلة.

وصوَّر شاعـر البلاط لى باى الـدمار الذى كان قـائماً فى تلـك العصور عـلى حدود الصين، التى كانت مزدهرة فى يوم من الأيام:

السور العظيم، الذى يفصل الصين عن الصحراء،
يمضى متلوياً إلى ما لا نهاية.
على امتداد كل الحدود

(١) هذه هى الولايات الشمالية من الصين التى فـتحها جنكيز خان وابنه أوجداى، حيـث لم ينتزعوها من الصينيين وإنما من جنس آخر من الترك ظلت تلك المناطق خاضعة له طول ١٢٠ سنة. (المترجم).

لم تُترك مدينة قائمة.
وتتناثر عظام آدمية هنا وهناك
تنم فيما يبدو عن كراهيتهم الأبدية.

شعرت البلاد شعوراً قوياً بـالاستنزاف الناجم عن سنوات الحرب وضياع الثروات التى كانت تأتيـهم من مناطق آسيا الوسطى. وعندمـا انقلب القائد الصُغدى التـركى، الذى قاد الجيش الصينى إلى الهزيمة أمام الخطاى على الإمبـراطور، ووجد تأييداً كبيراً من الشعب. مما أدى إلى اشتعـال الحرب الأهلية[1] فى الصـين من سنة ٧٥٥ إلـى سنة ٧٦٣. واضُطر إمبراطور تانج إلى ترك تشانج آن ولويانج للمتمردين دون قتال وفر فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى معاقل سيتشوان الجبلية.

وفى نهاية الأمـر تمكن خلفه من استـعادة تشانج آن ولويانج بمسـاعدة قوات من آسـيا الوسطى، بينها الترك الأويغور. بل إنه فى إطار التغيرات السريعة فى التحالف التى اتسمت بها المنطقة، كانت هناك مـساعدات من بعض العرب بعد سبع سنوات فقط من مـعركة نهر تالاس. واستـقر بعض العرب فى الصـين ليكونوا نواة لجالية مـسلمة. أما التـرك الأويغور الذين جاءوا حديثاً من منغوليا الخارجية فقد هـجروا حياتهم البدوية بصورة جزئية واستقروا فى الإقليم الواقع شمال ممر كانسو.

وفى إطار تلك الحركات اعـتنق خاقان الأويغور العقيـدة المانوية. ومن خلال الأويغور استطاعت هذه الديانة ـ وهى خليط من عـدة ديانات غربية له صبـغة فارسية خـاصة انتقل ببطء على طريق الحرير على مر قرون عدة ـ أن تنتشـر لتصل إلى السهوب المغولية. وبينما اعتنق الصينيون الفن اليونانى الهندى مع البوذية، اعتنق الأويغور أساليب الفن الفارسى مع الديانة ذات الأصل الفـارسى. وهكذا نجد أن مـدناً مثل تورفـان، التى كانت يومـاً موطناً للبوذيين المتشددين، صارت تقتنى اللوحات المانوية المرسومة بالأسلوب الفارسى.

وكان للأويغور دور فى الصين منذ زمن بعيد كـمرابين أساسيين فى الأسواق الدولية. والآن وقد أعادوا أمراء تانج إلى عرشهم، فإن حظوتهم صارت أكبر وسُمح لهم ببناء المعابد المانوية فى عدة مدن كبـرى، مما ساعد على نشر دينهم الذى اعتنقوه حـديثاً بين الصينيين.

---

(١) تزعم ذلك التمـرد آن لو شان قائد القـوات الإمبراطورية المرابطة فى يوتشـو واحتل العاصـمة تشانج آن. وهذا التـمرد معروف فى التاريخ بتمرد آن شى. (المترجم).

وطبقاً للـتقاليد القديمـة، كانت الأميرات الصـينيات يتزوجن فى بعض الأحـيان من أمراء الأويغور. واكتسب الأويغـور سمات الصينيين بصورة كبيـرة. وحتى بعد مرور زمن طويل على قطع صلاتهم الرسمـية مع الصينيين، ظلت فنونهم وآدابهم وطريقـة معيشتـهم تحتفظ بآثار من تلك العلاقة الوثيـقة بحضارة الشرق العظيمة. ولأن من يعـرفون القراءة أو الكتابة من بين الشعوب البدوية قليلون جداً، أصبح الأويغور كذلك كتبة وتولوا مناصب إدارية فى آسيا الوسطى.

وربما تكون أسرة تانج قـد استعادت العـرش فى شمال الصـين سنة ٧٦٣، إلا أنها لم تستـعد نفـوذها، رغم بقائهـا فى الحكم بعد ذلك قـرناً ونصف القرن. وبعـد وصول أهل التبت، هجرت تجارة المسافات الطويلة طريق التاريم الجنوبى إلى حد كبير. وبعون من الترك الأويغور احتفظ الصينيون بالمناطق الشـمالية فترة أطول. إلا أنهم فى سنة ٧٩٠ فقدوا بيش باليق المركز الإدارى للأراضى الصينية الواقعة شمالى جبال تيان شان. كما انسحبت القوات الصينية فى اتجاه تورفان حيث قتل الأويغـور قائدها فى الطريق «ليوفروا على أنفسهم مزيداً من المضاعـفات»، كما تقـول الحوليات. وكـتب المؤرخ الصينى تسو تشى تونج تشـيان عن أحداث سنة ٧٩٠ قائلاً:

بعد ذلك عُزلت آن شى [كوتشا، مقر قيادة الحاميات الأربـع] عزلاً تاماً ولم يعد أحـد يعرف مـا صـار إليـه حـالهـا. إلا أن منطقـة شى تشـو [تورفان] ظلت تقاوم ببسالة كى تبقى مخلصة لأسرة تانـج.

وهكذا اضُطر الصينيـون إلى أن يحتشدوا خلف سـورهم العظيم، الذى لم يكن دائماً فعـالاً فى درء الغزو. وفى سنة ٨٤٠ تقـريباً أخرج التـرك الأويغور، الذين هزمـهم الترك القرغـيز وأبعدوهم إلى الجنوب، أهل التـبت من مستنقـعات كانسـو وظلوا يحكمون على حدود الصـين حتى القرن الحادى عـشر. وظلت التجـارة تشق طريقها بصعـوبة على الجزء الواقع شمـالى التاريم من طريق الحرير وعلى طريق السـهوب فى جبال تيـان شان. إلا أنه بعد فقـدان الصين للزعامة لم تعد كمـا كانت وتدهورت أحوالها مع تزايد حجم مـا يسافر على طريق التوابل من تجارة الشرق والغرب.

***

وبعد تعرض الصينيين كثيراً للهجوم، أخذوا يتحولون شـيئاً فشيئاً من أكثر المجتمعات تسامحاً وانفتاحاً إلى مجتمع يتميز بخوفه الشديد من الأغراب فى بعض الأحيان. ولا يعنى

هذا أن الصينيين فقدوا اهتمامهم بما هو غريب عنهم بهذه السرعة. فالواقع أن انقطاع الطريق إلى الغرب بهذا القدر الكبير جعلهم يدخلون أولاً فى فترة من الحنين إلى الأشياء التى لم يعد وجودها ممكناً. وفى كتابه «خوخ سمرقند الذهبى» يقول إدوارد شافر:

... لم يعد التعطش إلى الأشياء العجيبة من وراء البحر وعبر الجبال، سواء كانت مخطوطات بوذية وكتباً طبية أم ديباجا ثمينا أم كانت مجرد رؤية أحد الحواة الجوالين من تركستان، يجد مايرويه. [وهكذا] اكتسبت حكاية الأعاجيب القديمة حياة جديدة تتسم بالقوة ووفرت للخيال الحالم ما لايمكن أن توفره له الحواس.

وكانت النتيجة تدفقا غير عادى لقصص الرحلات الخيالية. ولم يكن الحجاج الذين ماتوا منذ زمن بعيد ولا الملوك الرحالة أنصاف الأسطوريين هم وحدهم من أوحى بتلك الحكايات. إذ أن أبسط التجار الذين اجتمعوا يوماً فى أسواق تشانج آن أصبحت لهم الآن هيبة. فواقع الأمر أنهم رأوا وفعلوا أشياء لم يكن بوسع صينيى القرن التاسع سوى أن يحلموا بها. وفى الأيام السوداء التى أعقبت سقوط أسرة هان قبل عدة قرون، ظلت سطوة الصين أمراً معترفاً به وكان العديد من دول آسيا الوسطى يسعى إلى الحصول على مساعداتها. أما الآن، فلأول مرة منذ فتح تشانج تشيان الطريق إلى الغرب تنقطع أسباب تعامل الصين مع المناطق الغربية انقطاعاً كبيراً.

كانت الهزيمة فى الحرب وضياع التجارة وبالاً على اقتصاد البلاد. وفى ثمانينيات القرن الثامن استقطع حكام أسرة تانج جزءاً من أموال كل تاجر للمساعدة فى إعمار الخزانة، وكانت النتيجة، كما يقول رينيه جروسيه، هى أن تشانج آن «دُمرت وكأنها تعرضت لهجوم من البرابرة».

ولم تشعر كل أجزاء الصين بفقدان التجارة البرية بنفس القدر. فالمناطق الجنوبية المحيطة بكانتون[1] كانت فى حالة ازدهار. حيث كان المسلمون ينقلون تجارة فارس على طريق التوابل. وفى كل سنة كان آلاف التجار يأتون من عالم البحر المتوسط إلى كانتون للتجارة. وكما هو حال تشانج آن إبان أوج نفوذ أسرة تانج، كان الأجانب من كل دين وجنسية يأتون إلى كانتون.

وربما كان التناقض الشديد بين الشمال المُدَمَّر والجنوب المزدهر هو ماحدا بالثوار سنة

---

(١) ميناء جنوب شرقى الصين على بحر الصين الجنوبى بالقرب من هونج كونج وماكاو. (المترجم).

٨٧٤ إلى توجيـه أنظارهم إلى الموانىء الجنوبيـة. وقد نجحـوا فى محاصـرة كانتـون وقتلوا أهلها، وبينهم (طبقاً للتقديرات الصينية) ١٢٠ ألف تاجر أجنبى. وهو عدد قد يكون مبالغاً فيـه، إلا أنه يشير إلـى أهمية جـالية التجـار الأجانب. كمـا نُهبت المسـتودعات. وتشـير الحوليات إلى أن المتمردين «قطعوا أشجار التوت فى الإقليم، مما أدى إلى عدم إرسال الحرير إلى الإمبراطورية العربيـة زمناً طويلاً». وعند عودة الثوار إلى الشمال أحدثوا دمـاراً مشابهاً بكل من تشانج آن ولويانج وأهلهـما. ومرة أخرى اسـتعاد إمبراطور تانج عـرشه ولم يقض على المتـمردين إلا بمساعـدة الحلفاء التـرك. ولكن الدمار والخـراب ظل قائمـاً كمـا يقول المؤرخون: «كانت الأعشاب والـشجيرات تنمو فى شوارع العاصمة المهـجورة التى أصبحت مأوى للثعالب والأرانب البرية».

وكان الخوف من الأجـانب الذى عانى منه المتمردون انعكاسـاً لشعور أكثـر انتشاراً فى البلاد. فـفى الأربعينيـات من القرن التـاسع، ومع استـعادة الأفكار الكونفـوشيـة والتاوية لقوتها، أصـبحت الصين معادية للأديان الأجنبيـة. وفى سنة ٨٤٥ فُرض حظر إمبراطورى على البوذية، التى كانت دائماً محل انتقاد من الكونفـوشيين. وأُغلق أكثر من ٤٦٠٠ معبد ودير وحُظرت الحيـاة الدينية على رهبانـها. وفُرض الحظر نفسـه على المسيحـية النسطورية والمانوية، وكان أغلب المؤمنين بهما من أصول فارسية أو تركية. ومع أن إمبراطوراً جديداً، وكان بوذياً، رفع الحظر بعد عـشرين سنة، فإن البوذية لم تعد إلى سابق عـهدها. وبسبب انقطاع البـوذية عن أصولهـا فى الهند (حـيث كانت البـوذية تلقى مـعاملة سـيئـة فى كل الأحوال) وعن آسـيا الوسطى، فـقد أصبح لهـا شكل صينى مميـز باندماجهـا مع الديانات الشائعة الأخرى فى البلاد.

وسرعان مـا أصبحت وحدة الصين أيضـاً شيئاً من الماضى. بل إن حلفـاء الإمبراطور الترك لم يمنعـوا انهيار النظام، حـيث انقسمت البـلاد شيئاً فـشيئـاً إلى مناطق ذات حدود متداخـلة يحكم كل منها حاكم ولَّى نفسـه حكمها. وكان أحـد هؤلاء الزعماء لصا سـابقا يدعى تشو ون، قتل من تبقى من أسرة تانج الملكية. وفى سنة ٩٠٧ أعلن نهاية حكم أسرة تانج وبداية حكمه[1]. إلا أنه لا هذا الزعيم المتعطش للدماء ولا أى من منافسيـه استطاع

(١) أسس إمبراطوريـة ليانج اللاحقة التى تلتـها إمبراطوريات أخرى هى علـى التوالى تانج اللاحقة وتشين اللاحـقة والهان اللاحقة وتشو اللاحـقة. وتعرف هذه فى التاريخ بالإمبراطوريات الخمس واسـتمرت جميعاً مـا يزيد قليلاً على الخمسين سنة (٩٠٧ ـ ٩٦٠). (المترجم).

توحيد الصين، التى اتجهت إلى نظام إقطاعى يشبه كثيراً ما شهدته أوروبا العصور الوسطى على الجانب الآخر من العالم.

وخلال عشرين سنة كان شمال الصين قد انتقل من حكم الصينيين إلى أيدى شعوب مغولية عديدة واستمر كذلك لمدة أربعة قرون. وكان واحد من الصينيين المتنافسين هو الذى جاء بالخطاى داخل السور العظيم[1]. ففى حين أقام هذا المنافس «أسرة» جديدة فى كايفنج، استوطن الخطاى فى الأراضى الشمالية الشرقية بالقرب من المنطقة التى تحتلها بكين الحالية. وعندما أرادت الأسرة الصينية الجديدة التخلص من الخطاى انقلب الأمر ضدها. فقد استولى الخطاى على كايفنج وأعلنوا أنفسهم حكاماً لها فترة من الزمن.

وفى سنة ٩٦٠ استولت أسرة صينية جديدة على عرش كايفنج. ولم تكن بذلك سوى واحدة من عدة دول صينية مستقلة. إلا أنه تحت ضغط من القبائل المغولية العديدة على امتداد القرون التالية، انتقلت أسرة سونج[2] إلى الجنوب. وفى النهاية احتوت دولاً أخرى لتشكل إمبراطورية صينية مركزها يبعد كثيراً عن الدولة القديمة المحيطة على نهرى وى وهوانج. ولم تستعد العاصمتان القديمتان، تشانج آن ولويانج، نفوذهما السابق داخل الإمبراطورية. وعندما فُتح طريق الحرير مرة أخرى إلى الغرب، فى عهد المغول، انتقلت المحطة الشرقية الأخيرة إلى إقليم بكين الذى صار مهماً.

وفى وقت ما من تلك القرون المضطربة، ربما سنة ١٠١٥، اتخذ بعض الرهبان أصحاب الفكر التقدمى قراراً شديد الأهمية. ففى كهوف الألف بوذا، بالقرب من تونهوانج، احتفظوا فى غرفة مغلقة بما يزيد على ١٠ آلاف مخطوطة ولوحة حريرية، الكثير منها عبارة عن ترجمات شيوان تسانج لنصوص بوذية. وقد نسخها الرهبان البوذيون بأناة وصبر وحفظوها. ويبدو أن ذكرى هذا المستودع الضخم ضاعت على مر القرون التالية. إلا أن تلك النفائس بقيت فى أمان حتى القرن العشرين، حيث اكتشفها عالم يقدرها. وكان بين المخطوطات ما يمكن أن نعتبره أقدم كتاب مطبوع موجود بين أيدينا، وهو فى الواقع على هيئة لفافة. ويعود تاريخ الكتاب، وهو «سوترا الماس» إلى سنة ٨٦٨. والشذرات

---

(١) قامت مملكة خطاى (٩١٦ ـ ١١٢٥) فى حوض نهر لياوخه فى الشمال الشرقى واستولت بعد ذلك على ١٦ ولاية فى شانشى وشمالى خبى ثم استعادت اسمها، وهو إمبراطورية لياو واتخذت يانچنج (بكين الحالية) عاصمة لها. (المترجم).

(٢) تمرد تشاو كوانج ين القائد العام لقوات تشو اللاحقة واستولى على السلطة وأسس إمبراطورية سونج الشمالية متخذاً من كايفنج عاصمة لها. واستمر حكم هذه الأسرة من سنة ٩٦٠ حتى سنة ١١٢٦. (المترجم).

الوحيدة البـاقية التى تعود إلى تلك الفتـرة فى أماكن أخرى، مثل رُقية مطبـوعة من كوريا تعود إلى سنة ٧٧٠، لدليل على أهمية قرار الرهبان بحماية خبيئتهم الثمينة.

***

ولكن إذا كان النصف الـشرقى من طريق الحرير قـد انهار، إلا فيـما يتعلق بالتـجارة المحلية بين القبائل، فإن الصورة كانت مخـتلفة تماماً فى نصفه الغربى. وكحال الدلوين فى مسرحية شكسـبير «ريتشارد الثانى»، فاض ماء العالـم الإسلامى فى الوقت الذى غاض فيه ماء الصين. ولم تكن إمبـراطورية المسلمين فى غرب آسيا عربية صرفـة، خاصة مع ظهور الحكام العباسـيين سنة ٧٥٠. فالواقع أنها كـانت أقرب إلى إمبراطورية فارسـية جديدة[١]، وإن كانت بدين رسمى جـديد يدين به الكل. وكان العرب الأوائل الذين جاءوا بعـقيدتهم إلى مدن مـابين النهرين وإيران وتركستـان غير مؤهليـن لحكم البلاد العظيمة القـديمة التى فتـحوها. إلا أنهم وجدوا هـناك شبكة إدارية تكونت منذ زمن بعـيد خلال إمـبراطوريات متعاقبة، من دارا مروراً بالإسكندر حـتى يزدجرد وفيروز التعيسين[٢]. وهذه البنية الأساسية فى بلاد فارس ومابين النهـرين توسعت فى ظل الحكم الإسلامى لتصل إلى مدن تركـستان الغربية أيضاً. ونتيجة لذلك أصبحت اللغة الفارسية لغة البلاط والأدب فى العالم الإسلامى الشرقى بصورة مطردة، وإن اضُطر كل المسلمين إلى تعلم بعض العربية على أقل تقدير (لم تكن ترجمة القرآن مسموحاً بها). وفى تركسـتان نفسها كان يُضاف إلى ذلك اللغة التركية، وهى لغة كثيرين من أهل البلاد.

وكان المسلـمون فى غرب آسـيا كـذلك ورثة التراث الفكرى والعلمى لـلفرس. وإلى جانب تراث الفرس الخاص بهم، كانوا أيضاً يحفظون أعـمالاً مكتوبة ذات قيمة لاتُقدر جاء بها إلى الهضبة الإيرانية اللاجئون المسيحيون النسطوريون. ومن خلال هذه الكتابات وصلت الأفكار والتقنيات من العصور الكلاسيكية عبر طريق الحرير إلى الصين، ووصلت بقوة أكبر إلى الهند من خلال الطريق العظيم. وتولى المسلمون مسئولية هذا التراث القيِّم، حيث أثْروا ما سوف يكون ملهماً لقيام عصر النهضة فى أوروبا وحفظوه[٣].

---

(١) بسبب تعاظم نفوذ الفرس فى مؤسسات الحكم العباسية كما ذكرنا من قبل. (المترجم).

(٢) ذكر من قبل أنهما آخر ملوك الفرس، وهو ما لم تذكره «الشاهنامه» ولا «مروج الذهب». (المترجم).

(٣) فى هذا العصر ظهـر البيرونى الجغرافى وابن سـينا الطبيب وابن الهيثم عـالم الطبيعة والغزالى المتكلم والفيلسوف وابن يونس الفلكى والحجة فى حـساب المثلثات. وهؤلاء جميعـاً كتبوا بالعربية. وفى الوقت نـفسه ظهر من كتبوا بـالفارسية كالفردوسى المؤرخ والشاعر وعمر الخيام الشاعر وعالم الرياضيات ونظام الملك رجل الحكم وعالم السياسة وناصر خسرو الرحالة. (المترجم).

ولم يكن مسلمو تلك الفترة مجرد حفظة. بل كانت لهم إسهاماتهم المهمة فى العلم والأدب. وكان كثيرون من المثقفين المسلمين يشبهون فى تنوع اهتماماتهم الصورة الأوروبية لـ«رجل عصر النهضة». وعلى سبيل المثال كان الشاعر المسلم عمر الخيام معروفاً كذلك فى عصره كعالم رياضيات وفلك ساهم فى إصلاح التقويم الإسلامى.

وكانت نتيجة ذلك عالماً إسلامياً تجمعه وحدة ثقافية لها شأنها. وفى القرن السابع تبع عشرات الآلاف من العرب جيوشهم الأولى المنتصرة ليستقروا فى بلاد فارس وتركستان الغربية، فى مدن مثل مرو وبلخ. واتخذ كثير من الفرس والترك والصُغد، وغيرهم من أهل تلك المناطق، أسماء عربية واعتنقوا الإسلام، بعد أن تصالحوا مع حكم المسلمين ولم يعودوا يسعون إلى طلب العون من الصين. وربما يكون ذلك مرجعه أن من يدخلون فى الإسلام يدفعون ضرائب أقل كثيراً من غيرهم. وأصبح للفرس الذين يقومون بأدوار رئيسية كإداريين وكتبة أهمية كبيرة فى البلاط. كما أنهم وضعوا الأساس لازدهار الإسلام ذى الصبغة الفارسية.

وفى عهد العباسيين، كانت بغداد (هبة الإله) هى مركز العالم الإسلامى. وقد أسسها الخليفة المنصور سنة ٧٦٢ على شاطىء نهر دجلة (وإن كانت هناك قرية تسمى بغدادو فى نفس الموقع منذ زمن البابليين، أى منذ سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد). وجرياً على عادة الفاتحين العظام الذين سبقوهم، أسس هؤلاء المسلمون عاصمتهم الجديدة عند وسط بلاد مابين النهرين، بالقرب من بابل وسلوقية وطيسفون على طريق الحرير. وبتخطيط سارت عليه كثير من المدن الإسلامية الأخرى الجديدة وتلك التى أُعيد إنشاؤها فى هذه الفترة، شُيِّدت المدينة على هيئة دوائر متمركزة. وكانت حدودها سورا به أربع بوابات تطل على الجهات الأصلية الأربع. فى حين كانت الطرق التى تمر بهذه البوابات تلتقى فى المركز. وفى هذا المركز كان الجامع والقصر والأسواق الرئيسية. وفى كثير من المدن كان تقاطع الطرق مغطى. ولكن ككثير من المدن الإسلامية الأخرى سريعة النمو، سرعان ماتعدت بغداد أسوارها الأصلية لتمتد إلى الضواحى على الضفة الشرقية للنهر (حيث تقوم المدينة الحديثة الآن). وفى أوج عظمة بغداد فى أوائل القرن التاسع، قيل إن سكانها بلغوا المليونين. وكانت بلاد مابين النهرين تفتقر إلى الأحجار المستخدمة فى البناء. لذلك كان الجزء الأكبر من مبانى المدينة من الآجر والقرميد، فى أشكال هندسية ذات ألوان زاهية كان يفضلها المسلمون (الذين يحظر دينهم تصوير المخلوقات الحية).

وكانت بغداد عــاصمة الإسلام بكل ما يتضــمنه ذلك من معنى. فقد كانت العــاصمة السياسية، فى تلك الأيام الأولى التى بسط فيها العباسيون نفوذهم على كل بلاد المسلمين. ويسبب تداخل السلطة الدينية والدنيوية، كانت أيضاً عــاصمة الإسلام الدينية، لتصبح عند المسلمين بمثابة روما عند المسيحيين. بــل إن اليهود الذين ظلوا يعيشون فترة من الزمن تحت حكم المسلمين فى الشــرق الأدنى جعلوا بغداد مركــزهم الإدارى. وكانت المدينة فى الوقت ذاته مركزاً تجارياً للعالم الإسلامى، تماماً كما كانت جاراتها بالنسبة للإمبراطوريات السابقة. ولم يكن اختيــار موقع المدينة وليد الصدفة. فــقد استولى المسلمون على شــبكات المسافات البعيدة القائمة وكانت تعمل فى الشــرق طوال قرون عدة. وكانت هذه الشبكات قد توقفت بسبب سنوات من الحروب. إلا أن المسلمــين سرعان ما أعادوها ســيرتها الأولى. وبحلول سنة ٧٢٠ كانوا قد نظَّموا خدمة بريد تصل إلى ما وراء النهر. كما جددوا محطات القوافل واستراحات الخيل على طول الطرق وأضافوا إليها محطات واستراحات جديدة.

والواقع أن تلك المنشآت خدمت كلاً من الأهداف التجارية والدينية. فقد كان على كل مسلم أن يحج إلى مدينة مكة المكــرمة، فى جنوب غربى الجزيرة العربية، مــرة فى العمر. وفى كل عام، وفى حدود شهر رمضان (الشهــر التاسع من التقويم الإسلامى القمرى) كان الحجــاج من كل أنحاء البلاد الإسلامــية يتجمــعون للقيــام برحلة الحج. وكما كان التــجار الجوالون يفعلون على مر القرون، كان الحجاج يتجــمعون فى قوافل كبيرة من أجل السلامة ثم يسيرون فى الطرق الرئيسية. وهكذا عاد طريق الحرير ليصبح مرة أخرى طريقاً للحجاج. وفى هذه المرة كان الحجاج من المســلمين. وكان الحجاج من آسيا الوسطى وفــارس يتجهون غرباً على الهضبة الإيرانية ويهبطون إلى بغداد. وكــما أن التجار الأوائل، خاصة فى عهود الرومان، فتــحوا طرقاً جديدة عــبر الصحراء الســورية، حفر المسلمون آباراً جــديدة وأقاموا محطات للمؤن فى الصحراء كانت تُنقل إليها كميات كافية من الماء والطعام فى موسم الحج لتقديمها للقوافل الدينية. وعلى الطرف الأقصى من الصحراء السورية كان الحجاج يسيرون على طريق البخور القديم، الذى صار يغلب عليه اسم طريق الحج، فى الجانب الغربى من شبه الجزيرة العربية ليصلوا إلى مكة.

وإذا كانت قــوافل الحج تقوم برحلة واحــدة ذهاباً وإياباً سنوياً فى موسم مــعلوم، فإن التجــار، كعهدهم دائمــاً، هم الذين جعلوا طريق الحرير حــافلاً بالحركــة على مدار السنة. وبحلول القــرن التــاسع اتجه بعض العــرب إلى الصــين براً. إلا أن تجارة التــاريم المتــوقفــة

والمضطربة كانت أبعد ماتكون عما كانت عليه فى عهد أسرة تانج، وإن كانت سبباً فى ثراء الترك الأويغور المقيمين فيه. ونتيجة لذلك كان النشاط الرئيسى على طريق الحرير فى تلك الفترة ينحصر فى حدود العالم الإسلامى نفسه، حيث كانت مدن تركستان الغربية ترسل بضائعها عبر الهضبة الإيرانية إلى بلاد مابين النهرين. وكان بعضها يذهب بحراً إلى الهند. وفى المقابل كانت تتلقى السلع الثمينة عن طريق التوابل من الهند والصين.

ومع أن الثقافة والتجارة وحدتا مدن غرب آسيا المسلمة. فإن وحدتها السياسية لم تدم طويلاً. فمع حلول القرن التاسع كانت الإمبراطورية العباسية قد بدأت فى الانقسام إلى إمارات صغيرة. وليس أمراً مستغرباً، إذا وضعنا فى اعتبارنا الاستقلال التقليدى لشعوب بلاد فارس الشرقية، أن يكون أحد أول الأقاليم التى استقلت هو ذلك الشريط الواقع شرقى الرى (راجى سابقاً بالقرب من طهران) وعاصمته نيسابور، وهى واحدة من المدن الفارسية «الجديدة» على طريق الحرير التى صارت قديمة. وهناك إمارة أخرى استقلت، وهى تلك التى أقامها السامانيون الذين جاءوا من حول بلخ، وتركزت حول بخارى وسمرقند.

هذه العواصم المحلية وغيرها تصارعت فيما بينها. حيث كان البلاط فى كل إقليم صغير أو دويلة يدّعى أحقيته فى العلم والأدب وفى العمارة والتقنية. ومن أمثلة لامركزية الثقافة فى آسيا المسلمة وتفككها فى تلك الفترة مدينة كاث فى دولة خوارزم الواقعة على نهر جيحون. لم تكن كاث مدينة عظيمة، وإن كانت أكبر من بخارى، وكانت تبعد تماماً عن طريق الحرير، ولكنها تقع على أنف الجبل الممتد شمالاً نحو بلاد الخزر. ووصف الجغرافى المسلم المقدسى لمدينة كاث يعطينا إحساساً بما قد تكون عليه تلك المدن فى ذلك الإقليم:

وهى شرقى النهر، لها جامع وسط الأسواق... ودار الإمارة وسط البلد، ولهم قهندز(١) قد خرّبه النهر [كان النحر قد أتى على كل أثر للمدينة القديمة بنهاية القرن العاشر]، ولهم أنهار فى البلد، وهو نفيس ذو علماء وأدباء ومياسير وخيرات وتجارات، بناءون حذاق وقراء ليس مثلهم بالعراق وحسن نغم وجودة قراءة ومنظر وخبر.

ومع ذلك لاينبغى أن نظن أن هذه المدينة أو غيرها على قدر كبير من الفخامة. فمعايير

---

(١) قلعة. (المترجم).

الصحة العامة، حتى فى المدينة الضخمة ذات الماء الجارى الوفير، كان بينها وبين الواقع شأو بعيد، حتى إذا قسناها بمقاييس العصور الوسطى، كما يشهد بذلك المقدسى:

أوسخ من أردبيل كثيرة الميازيب إلى الطريق عامة تغوطهم[١] فى الشوارع ويجمعون البلاذات[٢] فى الحفائر ثم ينقلونها إلى السواد[٣] فى المشافل[٤]. لايمكن للغريب أن يظهر إلا أن يضىء النهار وهم يدوسونها[٥] بأرجلهم إلى الجماعات.

***

كسائر الأديان الأخرى، ابتُلى الإسلام بالطائفية. السُنّة هم أغلب المسلمين. وهم الذين يقبلون الخلافة التاريخية التى أعقبت موت محمد. إلا أن أقلية كبيرة (١٥٪ فى الوقت الراهن) من المسلمين، هى الشيعة التى تعتقد أن صاحب الحق فى خلافة محمد هو ابن عمه على. وحول مسألة إن كان الحكم الدينى، والسياسى فى هذه المجتمعات الثيوقراطية، ينبغى أن يكون بالوراثة فى إطار أسرة واحدة تبدأ بمحمد، أم أنه ينبغى اختيار خلفاء من جماعة المسلمين، نشأت أجزاء كاملة من النظرية الدينية. وبعد انهيار الخلافة الأموية كان الشيعة يتركزون فى المناطق المسلمة الغربية، وخاصة فى مصر. إلا أن بعض أتباعهم وُجدوا أيضاً فى البلاد السنية الشرقية. وكان بعض هؤلاء الشيعة المغالين، الذين تتقاذفهم أمواج بحر من الخصوم المؤمنين، هم الذين ابتكروا أسلوباً قاتلاً للدعوة والتعامل مع أعدائهم. وهذه الطائفة المحددة، التى اندرجت تحت أسماء عديدة، أبرزها الإسماعيلية، يعرفها الغرب بالحشاشين.

وفى أواخر القرن الحادى عشر عاد رجل مسلم اسمه حسن صباح من زيارة للبلاط المصرى كمبعوث مفوض من البعثة التبشيرية الإسماعيلية إلى بلاد فارس. ويبدو أنه نجح فى وعظه بالعراق وبلاد فارس حيث اجتذب عدداً لا بأس به إلى مذهبه واقترف ماتبدو أنها أول عملية اغتيال تقوم بها جماعة، وهى قتل مؤذن رفض الانضمام إلى المذهب. وسرعان مابدأ حسن صباح وأتباعه فى الاستيلاء على سلسلة من الحصون فى الجبال الوعرة بطبرستان على طول الجزء القزوينى من طريق الحرير. وأشهر تلك الحصون هو ألموت الذى

---

(١) قضاؤهم للحاجة. (المترجم). (٢) الفضلات. (المترجم). (٣) الحقول. (المترجم).
(٤) الأكياس. (المترجم). (٥) أى الفضلات. (المترجم).

يقوم على صخرة وعرة شديدة الانحدار شمال غربى طهران الحالية، حيث كان زعيم الطائفة شيخ الجبل يفرض سطوته.

ومن بين الطبقات التى تندرج تحت نظام الطائفة مجموعة تسمى «الفدائيين». وكان أفراد هذه المجموعة ملتزمين بقتل كل من يحكم عليه شيخ الجبل بالموت. وبعد عدة قرون ذكر ماركو بولو أن هؤلاء الفدائيين كانوا يتعاطون الحشيش كجزء من طقوسهم الدينية. ومن هنا جاءت كلمة حشاشين التى تحولت فى اللغة الإنجليزية إلى assassins[1]. وبغض النظر عن الدور الذى كان للمخدرات فى حياة هؤلاء المتدينين، فهم لم يكونوا قتلة عاديين. كانوا يحصلون على تدريب موسع فى اللغة والطقوس والمراسم التى فى القصور والديانات الأخرى، حيث كانت مهمتهم كسب ود ضحاياهم وثقتهم. وربما يظل الحشاش على هيئته المصطنعة شهوراً، بل وسنين، قبل أن يضرب ضربته بعد أن يكون قد احتل مكانة خاصة لدى الضحية. وإذا ماقُبض على الحشاشين وأجبروا على الاعتراف كانوا فى كثير من الأحيان يذكرون أسماء ضحاياهم المستهدفين على أنهم زملاؤهم فى التآمر. وفى ذلك الجو من الشك الذى كانوا يثيرونه يتمكنون من تحقيق مهامهم.

ولم يقتصر وجود الحشاشين على فارس وحدها. إذ انتشرت الطائفة فيما بعد فى الهند وفى أجزاء كثيرة من سوريا، وخاصة فى حلب ودمشق، رغم عدم وجود مايشير إلى خضوع هؤلاء لسيطرة شيخ الجبل. ومن المفارقات أنه فى أواخر القرن الثانى عشر أرسل حشاش اسمه رشيد الدين إلى حصن ألموت. وهناك كانت له حظوة لدى شيخ الجبل الحاكم، الذى لم يدرك أنه أرسل ليحل محله إلا وهو على فراش الموت.

وفى فترة من الفترات كان الحشاشون يسيطرون على ما لايقل عن عشرة حصون على الهضبة الإيرانية، إلى جانب بعض أراضى سوريا. ومع أنهم لم يحكموا يوماً منطقة شاسعة من الأراضى، فإن وجودهم كان يثير الرعب فى قلوب هؤلاء الذين يحكمون ما حولهم من بلاد. وفى بعض الأحيان كان الرعب وحده هو كل ما يحتاجونه لتحقيق مآربهم. وعندما قام حاكم فارسى فى القرن الحادى عشر بحملة ضد الحشاشين، عاد إلى خيمته التى يُفترض أنها مؤمنة ليجد رسالة مثبتة فى الأرض بخنجر تقول: «هذا الخنجر الذى شق الأرض الصلبة قد يخترق كذلك صدرك اللين. فكن على حذر!» فعادت الحملة من حيث أتت. وكان الحكام المسلمون على طول طريق الحرير، من جبال البامير إلى البحر المتوسط،

(١) تستعمل هذه الكلمة فى اللغة الإنجليزية بمعنى القاتل الذى يقوم بعملية اغتيال سياسى. (المترجم).

يخشون بأس الحشاشـين. كما أن الرعب الذى كانوا يبثونه استمر بعد قـيام كثير من الدول فى المنطقة وسقوطها، بما فى ذلك موجة جديدة من الترك الذين تركوا بصمتهم على المنطقة منذ بداية القرن الحادى عشر، وهم السلاجقة.

وقبيل ظهور الترك السلاجقة[1] المباغت على طريق الحرير، كـان يبدو أنهم على علاقة وثيقـة بالخزر. وتشير إحـدى الحكايات أن سلجوقا، ومـعناها زعيم القوم، تيـتم ونشأ فى بلاط الخزر. إلا أن هناك مصدراً تاريخياً آخر، كتبه عميد الملك حوالى سنة ١٠٤٥، يسجل هذا الأمر كما رآه السلاجقة المتأخرون[2]:

وفيما يتعلق بنسب السلطان ـ نصره الله ـ فإنه يكفيه شرفاً أنه ليس كنسب غيره من المماليك أصحاب الأنساب المجهولة والغامضة. ومن بين أسلافه سرجوق [سلجوق] الذى ضرب ملك الخزر بسيفه وهزمه بالرمح الذى كان فى يده، حتى كبا فرسه وسقط على وجهه. وهذه الفعلة لا تفعلها سوى نفس حرة وروح تطمح إلى ماهو أسمى من نجم العيوق وأعلى. وبه بدأت الإمبراطورية...

وبغض النظر عن حقيقـة أصل الترك السلاجقة، فإنهم سرعان مـا اتجهوا غرباً. وعند ظهورهم فى أواخر القـرن العاشر عند الجزء الأسفـل من نهر سيحون اسـتولوا على غربى تركستـان بحلول سنة ١٠٤٠، ثم بدأوا زحفهم عبر الهـضبة الإيرانية. وخلال عـدة عقود كانوا قـد وصلوا إلى بلاد مابين النهـرين. وفى سنة ١٠٧١ سحقـوا الجيش البـيزنطى عند منزيكرت[3] بآسيـا الصغرى. وفى النهاية فـقدت الإمبـراطورية البيزنطية الأناضـول. وكان السبب الأول لبقاء هذه الإمبراطورية هو موقع العاصـمة الذى يصعب اقتحامه على الجانب الآخر من مضيق البسفور. ولم يمر وقت طويل حـتى استولى الترك السلاجقة على الشرق الأدنى والساحل الغربى من شبه جزيرة العرب من الخلفاء الفـاطميين الذين كانت مصر مقر حكمهم. وبذلك صـار السلاجقة يحكمون طريق الحـرير من كاشغر إلى البـحر المتوسط. وفى هذه الفترة، وفـيما يعد التصدى للاجـتياح السلجوقى بين أسبابه، شـهد طريق الحرير

(١) فرع من الترك الأويغور. بلـغت عظمة السلاجقة أوجها فى عـهدى السلطان ألب أرسلان (١٠٦٣ ـ ١٠٧٢) والسلطان مالك شاه (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢) اللذين تمكنا بمساعدة وزيرهما نظام الملك من إصـلاح المؤسسـات الإدارية والدينية كما كونا جيشاً من المماليك ليحل محل جيش البدو. وشجع السلاجقة التعليم وأنشأوا المدارس. (المترجم).

(٢) هذه ترجمة للنص الإنجليزى حيث لم أتمكن من الحصول على الأصل رغم البحث والتقصى (المترجم).

(٣) تُسمى أيضاً ملاز جرد. (المترجم).

وصول مجموعة ذات عقيدة مختلفة تمام الاختلاف. كانت صغيرة فى عددها قوية فى تأثيرها. إنهم الصليبيون.

ومنذ قيام الدولة العباسية فى منتصف القرن الثامن والمسلمون والمسيحيون البيزنطيون يربطهم اتفاق على مصالح كل منهما فى الشرق الأدنى. فرغم التوترات واندلاع الحروب من حين لآخر، ظل الجانبان يتعاملان تجارياً. وكان ذلك فى كثير من الأحيان من خلال طريق عبر تلال أرمينيا إلى طرابزون التى كانت البضائع تُنقل منها عبر البحر الأسود إلى القسطنطينية أو العكس. وكانت القسطنطينية لاتزال وقتها سوقاً رئيسية لبضائع الشرق والموردين القادمين من أنحاء كثيرة من غرب أوروبا. كما أن الحجاج المسيحيين كانوا قد بدأوا يشقون طريقهم إلى الأراضى المقدسة بأعداد كبيرة وكان الخلفاء الحاكمون يسمحون لهم بزيارة بيت المقدس والأماكن المقدسة القريبة منها. إلا أن وصول الترك السلاجقة إلى المنطقة أدى إلى وقف العمل بتلك الاتفاقيات. فقد صارت بيزنطة معرضة للخطر وانقطعت طرق الحجاج.

واستجابة لطلب بيزنطى للعون قام المسيحيون الأوروبيون بحملة مقدسة فى نهاية القرن الحادى عشر، استطاعوا من خلالها إقامة عدد من الإمارات والممالك المسيحية على ساحل البحر المتوسط. وتركزت تلك الإمارات حول أنطاكية (وكان قد مضى زمن طويل على أفولها عقب تفضيل العرب لحلب عليها) وطرابلس على ساحل لبنان والرها شمالى الفرات وبيت المقدس. وما إن استقر المقام بالصليبيين فى حصونهم التى أُنشئت حديثاً حتى لم تقتصر مواجهتهم على الترك السلاجقة وحدهم، وإنما شملت معهم الحشاشين. ويبدو أن كونت طرابلس وملك بيت المقدس، الذى أعطى نفسه هذا اللقب، قد قُتلا على أيدى الحشاشين (الذين يُحتمل أنهم تنكروا فى هيئة رهبان) فى القرن الثانى عشر، وإن لم يتضح إن كان ذلك تم بأوامر من شيخ الجبل أم لا. ورد الداوية فى طرابلس على ذلك بغزو أرض الحشاشين فى سوريا وأخذوا منها خراجاً. وظل الحشاشون يشكلون خطراً رغم ذلك. فالواقع أنه فى وقت لاحق كان الحكام الغربيون وكذلك الشرقيون، ومنهم أباطرة بيزنطيون، يستغلون الحشاشين فى تحقيق أغراض شريرة.

وكان لقدوم الصليبيين إلى الشرق الأدنى أثره البالغ بالطبع. فقد انكمشت الإمبراطورية البيزنطية إلى مايزيد قليلاً على نتوءين مستديرين، هما اليونان وآسيا الصغرى، يمتدان نحو بعضهما فيما يشبه اليدين على جانبى البحر. وهكذا عاد الأوروبيون إلى طريق

الحرير الذى غابوا عنه قروناً، وهو المكان الصحيح الذى يستطيعون منه الوصول مرة أخرى إلى ثروات الشـرق. ولم يكن أقل تلك الثـروات قـدراً هو ذلك التـراث الكـلاسـيكى الأوروبى، الذى حفظه الكتبة والعلماء والبـاحثون المسلمون، وبدأت فى ذلك الوقت رحلة العودة عـبر البحر المتـوسط، مروراً بإيطاليا، ليُثـرى أوروبا. ورغم شدة الخلافـات الدينية واحتـدام المشاعر فى بعض الأحيـان، استؤنفت التـجارة شيئـاً فشيـئاً عبر الحـدود المسلمة المسيحـية. وكما استـمر السوريون واليونانيون والأرمـن واليهود فى عملهم كتـجار ورجال قوافل على طريـق الحرير فى ظل حكم المسلمـين، هاهم يعملون (ومنهم كـثيرون اعـتنقوا الإسلام) كوسطاء فى التجارة مع المسيحـيين الذين وفدوا حديثاً. وكان الأوروبيون فى ذلك الوقت لهم سلطان على الطرف الغربى لطريق الحرير، وهو المكان المناسب للانفتاح المدهش على الشرق الذى سوف يحدث فى وجود المغول المرعبين دون سواهم من البشر.

أسطورة «الحمل النباتي»، وهو النبات الحيواني الذى أنتج القطن، في أنحاء أوراسيا أثناء السلام المغولي وبعده (من أرشيف المؤلف).

الفصل التاسع

عصر الخانات العظام

غابات اللوز فى سمرقند بخارى،

حيث تزهر الزنابق.

وجيحون، الذى يسير على رماله الصفراء التجار العظام

ذوو العمائم البيضاء.

ـ أوسكار وايلد

في سنة ١١٦٢ ، وهي السنة التي وُلد فيها الرجل الذي نعرفه باسم جنكيز خان[1]، لم يكن هناك الكثير من الشواهد التي تدل على أنه سيكون أعظم من عرفتهم آسيا من الفاتحين والغزاة. فالحق يقال أنه حسب مجريات الأمور كان الوقت قد حان تقريباً لظهور إمبراطوريات بدوية محكوم عليها بالزوال السريع. وفي الشرق، وبينما كانت أسرة سونج مزدهرة في جنوب الصين، شهد شمال الصين سلسلة من الحكام أصحاب السيادة معظمهم من أصل مغولي. وفي آسيا الوسطى كان أهل التبت قد تشتتوا جنوبي التاريم واستولى الترك الأويغور على طرق التاريم الشمالية، في حين دارت حروب بين قبائل من الترك والتبت على ماتبقى. وفي غرب آسيا، كانت بلاد المسلمين آخذة في الانفصال، حيث استقلت بعض الدول الإقليمية استقلالاً لم يدم طويلاً ولمعت لمعاناً سرعان ما خبا.

لم يكن هناك ما يشير إلى أن الصبي الصغير تيموتشين سيصير بطلاً (رغم اسمه الذي يعني الحداد ويرمز للقوة). وربما حكم أبوه وجده كخانين، ولكن من جاءوا بعدهما انكمشوا ليصبحوا مجرد قبائل مغولية صغيرة معدودة. وعندما تيتم وهو في التاسعة هرب إلى أطراف بلاد المغول مع أمه وإخوانه وعدد قليل من الأتباع والخدم وبعض الماشية الجرباء. وبعد عدة سنوات أسره الخان المحلي، الذي خشي أن يصبح منافساً له. إلا أنه بالدهاء واستقطاب الحلفاء بمهارة، إلى جانب قوة الإرادة، استطاع تيموتشين على مدى العشر سنوات التالية أن يجمع تحت رايته قبائل شتى، حتى أنه بُويع سنة ١١٩٦ ليكون جنكيزخان، أي حاكم شعوب منغوليا الأعلى القاهر للجميع.

وحتى ذلك الوقت كان حكم جنكيزخان قاصراً على المنطقة الواقعة حول نهر أورخون، وهو أحد روافد بحيرة بيكال. وكان معسكره الرئيسي في قره قورم، بالقرب من المنطقة التي اتخذها الشيونج نو والترك الشرقيون مقراً لقيادتهم. إلا أنه في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر كان المغول يسيطرون على شمالي الصين من المحيط الهادي إلى ممر كانسو. وبعد استيلاء المغول على المتخصصين التكنولوجيين الذين أسروهم في غاراتهم الأولى واستخدامهم ضد حكامهم الأول، اخترقوا السور العظيم وطردوا حكام تشين جنوباً إلى كايفنج ليستولوا في نهاية الأمر على العاصمة الشمالية بكين سنة ١٢١٥. واستعانة بالخبرة التي حصلت عليها جيوش جنكيزخان حديثاً، اتجهت غرباً لتستولي على معظم أراضي آسيا بما في ذلك جزء كبير من طريق الحرير وطريق السهوب الأوراسية.

---

(١) اسمه الأصلي تيموتشين (تيموچين) وحصل على لقب جنكيز خان، أي ملك البحار عقب توحيد القبائل المغولية تحت لوائه. (المترجم).

وربما يرجع بعض ما حققه المغول من نجاح فى البداية شرق آسيا الوسطى إلى تفتت القوى، حيث لم تكن هناك جبهة قوية موحدة راغبة فى التصدى لهم أو قادرة على ذلك. إلا أنه فى تركستان الواقعة خلف جبال البامير بدا أن المغول سيلقون حتماً خصوماً أشد بأساً.

كان بعض الخطاى، الذين كانوا يسيطرون يوماً على ممر الصين التجارى فى كانسو، قد طُردوا إلى الغرب. وربما كانت خبرتهم بتجارة طريق الحرير وراء إقامتهم فى تركستان الشرقية. وفى الأراضى الواقعة بين كاشغر وإيسيك قول أمام هؤلاء القره خطاى (الخطاى السود) مملكة على النمط الصينى. وفى منتصف القرن الثانى عشر أصبحوا على قدر من القوة مكنهم من صد المسلمين والاستيلاء على مدينتى القوافل الرئيسيتين بخارى وسمرقند وإقامة أول مملكة غير مسلمة فيما وراء النهر دامت أربعة قرون. وبما أن حاكم القره خطاى بوذى متأثر بعض الشىء بأساليب الحياة الصينية، فقد حوّل المساجد إلى معابد بوذية فى حين أتاح للمسيحيين النسطوريين حرية العبادة.

وكانت تلك هزيمة مباغتة للترك السلاجقة المسلمين. وأسعدت الصليبيين الأوروبيين الذين كانوا يقاتلون من أجل وجودهم فى قلعة الرها التى يسيطرون عليها بالقرب من الطرف الغربى من طريق الحرير. وبما أن الشائعات كثيراً ماتقلب الحقيقة إلى خيال، فمن الواضح أن أمل الصليبيين جعل عقلهم يصور لهم زعيم القره خطاى جورخان وقد تحول إلى أمير مسيحى عظيم من آسيا الوسطى اسمه بريستر (وتعنى كلمة Presbyter الشيخ أو الكاهن) يوحنا (وهى تحريف لجورخان).

واعتماداً على ذكر «يوحنا الشيخ» فى العهد الجديد وذكريات المسيحيين النسطوريين الذين أُبعدوا شرقاً فيما وراء فارس وأرمينيا، انتشرت أساطير بريستر يوحنا بين الأوروبيين طوال عدة قرون حيث كانت وراء انجذاب المستكشفين. بل إنه عندما حاول بارثلميو دياز سنة ١٤٨٧ الوصول إلى آسيا بالدوران حول رأس الرجاء الصالح أطلق «عملاء» (هم فى الواقع عبيد أفارقة سبق أسرهم) على طول الساحل لكى ينبهوا بريستر يوحنا إلى وصولهم الوشيك. ولكن أمل الصليبيين فى العون الذى يستمدونه من هذا الشيخ الجليل الأسطورى سرعان ما انهار. فقد طردهم الترك السلاجقة من الرها سنة ١١٤٤، الأمر الذى قصر الوجود الأوروبى على الشريط الساحلى للبحر المتوسط.

وسرعان ماهُزم القره خطاى كذلك على يد قوة أكبر منهم هى مملكة خوارزم التجارية

المزدهرة التى قامت عند أسفل نهر جيحون، حيث كانت بخارى وسمرقند درتى تاجها. وأعلن حاكم خوارزم عن ادعاءاته باستعماله اللقب الفارسى «شاه». ولم يكن يرضى بأقل من استعادة النفوذ الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر ثم حُكم العالم الإسلامى كله من بغداد فى نهاية المطاف. وعندما أشرف القرن الثانى عشر على نهايته، أسرع خوارزم شاه بتقليص القره خطاى إلى مجرد تابع ثم تَوَجَّه إلى الهضبة الإيرانية حيث قتل آخر حكام السلاجقة فى الرى سنة ١١٩٤ وهدد خليفة بغداد نفسه. وبعد أن استولى ابن الشاه وخليفته على بلخ من حاكم مسلم آخر سنة ١٢٠٤، زحف نحو بغداد التى أنقذتها منه عاصفة شتوية أعاقت تقدم القوات الخوارزمية وجعلتها هدفاً سهلاً للجنود الأكراد المحليين فى التلال. وبذلك بدا الأمر وكأن على مملكة خوارزم أن تواجه جنكيزخان بشىء من المعارضة الرائعة عند تقدمه غرباً على طريق الحرير.

وكان جنكيزخان على قدر كبير من المهارة والذكاء والبطش. وكان من هذه الصفات ماهو جديد على المغول. فقد كان المغول قبل ما حققوه من نجاح فى بادئ الأمر قوماً بسطاء يعيشون على مطاياهم وقطعانهم وقوتهم هو اللبن الزبادى والكوميس (حليب الفرس المخمر) والدُخن. ورغم كون المغول أميين وغير متقدمين، فإن مفتاح نجاح جنكيزخان كان اعترافه بأهمية أصحاب المهارات والعلم وبحثه عنهم فى المدن التى فتحها. وقد نجا أصحاب المهارات الخاصة، سواء كانوا صاغة وكتبة أم مهندسى حصار وصانعى دروع، من حمامات الدم المعتادة حيث سيقوا إلى خدمة البلاط الإمبراطورى. وهكذا صارت معسكرات المغول المتنقلة تشبه إلى حد ما عاصمة الإسكندر المتنقلة فى الصورة التى كانت عليها قبل ١٥٠٠ سنة تقريباً. وكان لاستيلاء المغول على أصحاب التخصص من أهل الشرق أهمية خاصة عند تقدمهم غرباً. فقد ضرب هؤلاء حصاراً على كبرى مدن آسيا الوسطى، فى حين كانت تلك التقنيات جديدة على المغول الذين عاشوا فى السهوب.

وجاء جنكيزخان إلى حملاته بقدر كبير من الذكاء، الذى قد تكون السنوات التى عاشها فى البرية قد صقلته، والملاحظة الواعية التى نمّاها صعوده إلى السلطة ولم يكن معه سوى عقله وإرادته. وبصفته حاكماً لمعظم الشعوب المغولية والتركية التى تعيش فى السهوب المغولية وحوض التاريم، استخدم هذا الرجل العجيب آخرين كى يزودوه بالمعلومات المهمة التى يحتاجها لتخطيط حملاته وتنفيذها. كما أنه زرع الجواسيس فى قوافل التجار، التى كانت لاتزال تسير على مسالك طريق الحرير القديمة، ليأتوا له بالمعلومات. وبحلول وقت توجيه اهتمامه لتركستان الغربية، كانت تلك الحيل معروفة على نطاق واسع. لذلك عندما

وصلت بعثة من التجار المغول تضم مبعوثاً دبلـوماسياً إلى مدينة أُترار على نهر سيحون سنة ١٢١٨ قتلهم الحاكم الخوارزمى المحلى جميعـاً، الأمر الذى عجَّل بوقوع حرب كانت واقعة لا محالة.

وهنا ظهر بطش جنكيـزخان على حقيقتـه، حيث كان أشد مما كان عليـه فى حملاته السابقة فى السهوب الأوراسية وفى شمـال الصين. صحيح أن العاصمة بكين دُمرت وذُبح عدد كـبير من السكـان، ولكن مع تزايد قوة جنكيزخـان اختـارت كثيـر من شعوب آسـيا الوسطى الانضـمام إليـه بدلاً من قتـاله. ومن هذه الشـعوب التـرك الأويغور الذين كـانوا يقيـمون فى بيش باليق. ولجأ بعض أعداء جنكيـزخان القدامى لجـوءاً مؤقتاً إلى مدن تـبعد كثيراً إلى الغرب، مثل خوتان وكاشغر وبالاسـاغون غربى إيسيك قول وكانت عاصمة بقايا القره خطاى. ولكن هؤلاء المغتصبين تسـببوا فى كره الناس لهم مما جعل المواطنين المحليين يهبُّون ضدهم، وخاصة المسلمين المضطهدين الذين رحبوا بالمغول كمحررين لهم.

ولكن هاهم المغـول يواجهـون مدن تركـستـان ذات التحـصينات القـوية التى شُيِّدت وحُصنت بكل ما أوتى العـالم الإسلامى من مهـارة. ولعدم ثقة جنكيزخـان فى الأساليب المستـعارة وحدها للتعـامل مع هؤلاء الخصوم المسلمـين الذين تصعب هزيمتهم، بدأ عـهداً مرعبـاً لم تشهده المنطقة من قبل، ولا حـتى على أيدى الحشاشين الذين يبـدون إلى جانبه على قدر كـبير من الرقة فـيما قامـوا به. وكانت البداية خـادعة. إذ اتجه جنكيزخـان نحو خوارزم فى أوائل سنـة ١٢١٩ على رأس جيش يقدر بـ ٢٠٠ ألـف رجل. وكان ذلك فى السنة التالية لمقتل البـعثة المغولية فى أُترار. وأرسل فرقتـين بقيادة ولديه إلى خوجندة وأُترار (حيث صُب الذهب المنصهر فى حلق الحاكم عقاباً له على ما اقترفت يداه).

أما جنكيزخان نفسه قد اتجه إلى كبرى مدن المنطقة، وهى بخارى. وعقب قيامه ببعض أعمال السلب والنهب والحرق فى المدينة، صعد منبـر الجامع ليعلن أنه «مقرعة الإله» أرسله عقاباً لهم على خطايـاهم. وازداد الأمر سوءاً بالهجوم الذى تعـرضت له سمرقند فى بداية سنة ١٢٢٠. وقد أُعدمت الحامية التركية بعد حصار دام خمسة أيام، وهو نفس مضير نسبة كبـيرة من السكان، وإن كـان رجال الدين قـد نجوا من ذلك واستُثنى ٣٠ ألفـاً من الصناع المهرة أُرسلوا إلى القيادة المغولية فى منغوليا.

وفى ظل هذه الخسائـر الرهيبة، هرب خوارزم شاه على طريـق الحرير إلى بلاد فارس طالباً للعون. وتعقبه الفرسان المغـول على طول الطريق عبر الهضبة الإيرانية من الرى حتى

همذان (التى كانت تسمى إكبتانا من قبل). ولقى الشاه الشارد حتفه على جزيرة فى بحر قزوين كان قد لجأ إليها. وبينما بقى جنكيزخان فى تركستان، استمرت هاتان الفرقتان المغوليتان فى تحقيق سلسلة مذهلة ودموية من النجاح. وبعد أن دارتا حول بحر قزوين مروراً بالمنطقة التى نعرفها الآن باسم أذربيجان، اتجهتا نحو القوقاز وهزموا مملكة جورجيا (الكُرْج) فى تفليس سنة ١٢٢١. إلا أن حدوث تمرد فى مؤخرتيهما دفعهما إلى العودة حيث قامتا بدك همذان المتمردة وإعدام سكانها. وبعد ذلك استأنفتا جولتهما حول بحر قزوين حيث اقتحمتا ممر دربند الذى كان يوماً على قدر كبير من التحصينات الدفاعية.

ولم يعد الخزر أصحاب الكلمة العليا فيما وراء القوقاز. ففى أواخر القرن العاشر اتحد الروس (وهم قبائل من الفايكنج السويديين التى أقامت حول كييف) والبيزنطيون، ربما بدافع من غيرتهم من نجاح الخزر، كى يدمروا المملكة وينهبوا عاصمتها على نهر أتل. ورغم استمرار نشاط التجار الخزر فى المنطقة (وربما يكونون أسلاف كثيرين من اليهود الروس فى العصور الحديثة)، فلم تحتل دولة قوية الإقليم الحيوى الواقع شمالى القوقاز كى تحول دون وقوع غزو كهذا من الجنوب أو من الشرق، يأتى من السهوب الأوراسية. وهكذا استمر الجناحان المغوليان فى سيرهما حول بحر قزوين حيث هزما كل الجيوش التى تصدت لهما هزيمة سهلة ليعودا فى نهاية الأمر إلى تركستان الغربية منتصرين.

فى ذلك الوقت كان جنكيزخان يُتم فتح خوارزم وتدميرها. وظلت مدينة الجرجانية الواقعة على نهر جيحون صامدة سبعة أشهر عصيبة كبدت خلالها المغول خسائر كثيرة. إلا أن انتقام المغول كان شاملاً. فباستثناء الصناع الذين نُقلوا إلى منغوليا، كان مصير ماتبقى من أهلها، وقد يصل عددهم إلى مائة ألف نسمة، إما السبي أو القتل. كما دُمرت السدود الواقعة أعلى المدينة فأغرقتها المياه ودمرتها تدميراً تاماً. وكان الانهيار على قدر كبير من الشدة جعل نهر جيحون، على مايبدو، يُحوِّل مجراه ليصب فى بحر قزوين، ليستأنف مسيرته إلى بحر آرال بعد ثلاثة قرون. ولم تنهض المدينة من جديد، وإن كانت هناك مدينة تجارية جديدة أُقيمت على نفس الموقع فيما بعد واسمها أرجنج.

وكان الدافع وراء ذلك التدمير بعضه الانتقام والبعض الآخر حملة إرهاب قُصد بها دفع المدن الأخرى على الاستسلام بلا قتال. ويبدو أن هذا التكتيك أفلح فى بعض الحالات، ولكن الدم والتدمير كانا النمط الأعم. فقد دُمرت بلخ ومرو ونيسابور وهراة شمال غربى فارس وكابول القريبة من الهند تدميراً تاماً وذُبح أهلها، وإن كان بعضهم تُرك

حياً فترة من الزمن بعد استسلامهم. ويقدر أحد المؤرخين عدد من قُتلوا فى مرو بـ ٧٠٠ ألف نفس. وفى نيسابور كانت هناك تلال من رؤوس الضحايا، إلى جانب أكوام منفصلة من الرجال والنساء والأطفال. بل إن القطط والكلاب كان مصيرها هى الأخرى هو الذبح. وذكر المؤرخ المسلم الجوينى أن بساتين الورد صارت محارق. ولم ينج من أهل مرو سوى بضع عشرات من الصناع، يقول المؤرخ إنهم ٨٠ صانعاً، انتقاهم جنود جنكيزخان بعناية كى تنتفع بهم الإمبراطورية فيما بعد. وانطلق المغول بهذه الطريقة إلى أن بلغوا نهر السند ولم يتعدوه، إذ كانت السهول الحارة غير ملائمة للمغول ولخيولهم التى ألفت الجو البارد.

***

وبينما كان جنكيزخان يُلحق بقلب طريق الحرير أشد ما ألم به من التدمير دموية، كان فى الوقت نفسه يفكر جدياً فى الطريقة التى تمكنه من حكم الإمبراطورية العظيمة التى أقامها حكماً صحيحاً. ومع أنه لم يكن متعلماً، فقد كان إدراكه واضحاً لقوة الأفكار وقيمة من يحملونها وضرورة وضع أسس الإدارة التى تمكنه من حكم قارة بأكملها. لذلك استدعى إلى معسكره حكماء من ديانات مختلفة وفلسفات عدة موجودين فى أنحاء الإمبراطورية المتنامية. ومن حسن حظنا أن بعض هؤلاء خلَّفوا سجلات عن رحلاتهم وأمدونا بلمحات نادرة عن السفر عبر طرق آسيا الوسطى فى بداية العصور المغولية. ومن هؤلاء الحكماء تاوى يدعى تشانج تشون سجل حتى الاستدعاءات التى تلقاها. وهى تعطينا فكرة عن الرجل الذى أرسلها. فقد كتب كاتب جنكيزخان الصينى معبراً عن عزم سيده:

على مدى سبع سنوات نجحت فى إنجاز عمل عظيم. ألا وهو توحيد العالم كله فى إمبراطورية واحدة. أنا نفسى ليست لى صفات مميزة، غير أن سمو دافعى جعل الواجبات المفروضة علىّ ثقيلة هى الأخرى. وما يخيفنى هو أنه قد يكون هناك نقصان فى حكمى. ولكى نعبر نهراً نصنع القارب والدفة. وبالمثل ندعو الحكماء ونختار المعاونين للحفاظ على نظام الإمبراطورية.

لم يرفض تشانج تشون الدعوة، رغم تقدمه فى العمر. وبذلك بدأ رحلته سنة ١٢٢٠ ومعه ١٩ من تلامذته يصحبهم ٢٠ مغولياً إلى بلاد المغول. وقد أصابه الحزن وهو فى بكين، التى لقى فيها ترحيباً حاراً، فور علمه بأن الخان لم يكن موجوداً فى منغوليا، التى كانت على مسافة بعيدة، وإنما كان فى حملة فى خوارزم فى أقصى الغرب. ولم يكن هناك

بد من اللحاق به. وكان ذلك معناه السير عبر السهوب المغولية وسهوب جونغاريا شمالى جبال تيان شان. وكما هو الحال دائماً عندما يوفر الحكام الأقوياء الأمن المطلوب، كان ذلك هو الطريق المفضل، وكان مفضلاً أكثر عندما يتولى الحكم شعب شمالى.

وبينما كان تشانج تشون يعبر السهوب الشمالية وجد دلائل كثيرة على التغيرات التى حدثت فى المنطقة على مدار القرون السابقة. فشمال تورفان وهامى وشرقيهما رأى أول مسلم، وكان هذا الدين قد بلغ ذلك المكان القصى. وعلى مسافة من تلك البقعة كانت هناك مستوطنة منقولة للصناع الصينيين، وكانوا من نساجى الحرير والصوف البارزين، فرحبت بتشانج تشون ترحيباً سره وطافوا به فى مدينتهم وهم يحملون باقات زهور ملونة حلوة الرائحة وبيارق زاهية ترفرف. وبعد أن ترك تشانج تشون تسعة من تلامذته هناك انطلق فى إثر جنكيزخان عابراً سلسلة من التلال فى طريق جبلى شديد الانحدار، مما اضطرهم إلى إنزال عربتى القافلة من عليه بالحبال.

وعندما اتجه تشانج تشون إلى مدينة بيش باليق التى كانت لاتزال على أهميتها، مر بأرض الترك الأويغور الذين كانوا وقتها يحكمون تحت إشراف جنكيزخان. وهناك أيضاً خرج أناس كثيرون من المدينة لتحية الضيف ذائع الصيت. وكان بين مستقبليه كونفوشيون وكثيرون من الرهبان البوذيين والتاويين (ولكن ما قاله عن كون التاويين يرتدون أغطية رأس تختلف عن تلك التى يرتدونها فى الصين قد يجعل من رآهم كهنة مانويين). ونصبت القافلة خيامها فى كروم العنب بالمدينة، حيث انهالت عليهم الفاكهة وتدفق عليهم نبيذ العنب. كما قدموا لتشانج تشون كذلك كتاباً صغيراً عن تاريخ المدينة علم منه أنه فى عهد أسرة تانج كانت بيش باليق مقر حاكم المناطق الشمالية الصينى وأن بعض المدن الحدودية التى أقامتها الأسرة كانت لاتزال موجودة.

وتكرر الشىء نفسه فى مدن أخرى على الطريق إلى الغرب. وكان تكريم تشانج تشون لشخصه ولكونه حكيماً فى حماية جنكيزخان. لذلك كان يلقى عناية فائقة وتحييه فرقة من الحرس من كل مدينة وتُقدم له الفواكه، وخاصة الشمام والعنب شديد الحلاوة، إلى جانب النبيذ. وفى المدن التالية لبيش باليق التقى بالزرادشتيين والمسيحيين النسطوريين إلى جانب البوذيين، حيث لاحظ أن تلك البلاد جميعاً كانت تابعة للصين فى عهد أسرة تانج. إلا أنه بمجرد ابتعاده عن مدينة تشان باليق وجد أنه «لايوجد غربى هذا المكان بوذيون ولا تاويون. فليس هناك سوى المسلمين، هؤلاء القوم الذين يعبدون الغرب [يقصد أنهم يولون وجوههم فى الصلاة إلى مكة غربى الجزيرة العربية]».

وبعد أن يمضى تشانج تشون فى سيره على سفوح جبال تيان شان يصل إلى أرض صحراوية:

... حيث الرمال المتطايرة التى تذروها الرياح تكون مرة تلالاً ومرة مستوية، كأنها أمواج المحيط. وهى خالية تماماً من أى نبات. وكانت العربات تغوص فى الرمال وتسير فيها الخيل بمشقة...

كانت تلك هى الصحراء التى حذروا منها تشانج تشون. وكانوا يسمونها حقل العظام البيضاء، لسقوط العديد من الجنود صرعى فيها، إما فى ساحة القتال أو بسبب العطش. وكان يقال إن محاولة اجتيازها فى ساعات النهار معناها الهلاك. ولكن يبدو أن هذا لاينطبق على الوقت الذى اجتازتها فيه قافلة تشانج تشون، حيث كان عبورها لتلك الصحراء نهاراً. وعندما كانوا يتوقفون للراحة «كان الليل قارس البرودة ولا نجد ماء». وتأثر تشانج تشون وتلامذته تأثراً شديداً بتلك العظام الكثيرة التى لم تكن تلقى التكريم الواجب. وفى رحلة العودة كانوا يقيمون صلوات جنازة خاصة للموتى.

وبعد اجتياز القافلة للإقليم الجبلى الذى تتوافر فيه مياه الرى، وإن كان يتميز بالوعورة، وشق فيه أبناء جنكيزخان طريقاً، وصلت فى نهاية الأمر إلى مدينة ألماليك بما فيها من بساتين كثيرة للفاكهة. إلا أن تشانج تشون وصحبه كانوا أقل اهتماماً بالفاكهة من اهتمامهم بشىء لم يكن معروفاً لهم بالمرة، وهو القطن.

وكان الصينيون منذ زمن بعيد يستوردون سلعاً قطنية من الهند يشتهونها. والواقع أن شيوع الحرير فى الصين وندرة القطن فيها جعل المشترين الصينيين يفضلون أقمشة الغُزى القطنية على سواها باستثناء أفخر أنواع الحرير. وتبعاً لطول المسافة والاتصالات غير المضمونة وما كان عليه الأمر من اضطراب فى التجارة، فلم يكن مستغرباً أن نجد الصينيين لايعرفون عن القطن أكثر مما كان الرومان الأوائل يعرفونه عن الحرير. فكما وجد الرومان أنه من الصعب عليهم تصديق أن الحرير منتج حيوانى، لم يقبل الصينيون فكرة أن القطن يُستخرج من أحد النباتات. وفى القرن السادس اخترع الصينيون أسطورة عن «الحَمَل النباتى»، وهو مخلوق غريب كان يُزرع فى الأرض لتنبت منه حملان أخرى يُفترض أن القطن يؤخذ منها. وشاعت هذه الفكرة المخترعة فى آسيا قروناً عديدة، حيث التقطها الرحالة الأوروبيون السذج بعد ذلك ونقلوها إلى الغرب. إلا أن تشانج تشَون كانت لديه فى ذلك الوقت احتياجات أكثر أهمية، وخاصة أن الشتاء كان على الأبواب:

حصلنا على سبع قطع من هذا القماش لنصنع منها ملابس شتوية. ويشبه شعر هذه المادة الوبر الذى تكون بداخله بذور الصفصاف. إنه شديد النظافة والنعومة والليونة ويستخدم لصنع الخيوط والحبال والأقمشة والحشو.

وما إن عبر تشانج تشون نهر إيلى حتى وجد نفسه فى أرض تنبت فيها أشجار التوت. وكان قد لاحظ من قبل أن أهل المدن الواحات يستخدمون قنوات الرى لجعل الأراضى البور صالحة للزراعة. ولاحظ هنا كذلك أن كثيراً من المزارعين تخصصوا فى زراعة أشجار التوت لتربية دودة القز. كما علم أن تلك البلاد كانت ضمن الأراضى التى يسيطر عليها القره خطاى، وهم الحكام السابقون لشمال الصين الذين طُردوا إلى أماكن بعيدة من القارة. إلا أنه بعد انتشار الإسلام، نمت إمبراطورية خوارزم حول نهرى سيحون وجيحون. وهذا هو الإقليم الذى توقع تشانج تشون أن يجد فيه جنكيزخان. ولكن الرسول السريع الذى تقدمهم إلى المعسكر الإمبراطورى لإعلان وصول القافلة المرتقب وجد أن جنكيزخان قد رحل ليتعقب خوارزم شاه المنسحب.

وبعد أن تركت القافلة الصغيرة إحدى العربتين اللتين كانتا معها، سارت على سفوح جبال تيان شان ذات المياه الوفيرة «إلى أن استداروا ناحية الجنوب». وهناك وجدوا مدينة تالاس، بالقرب من الموقع الذى لقى فيه الصينيون هزيمة نكراء على يد العرب فى منتصف القرن الثامن، حيث كان بالإمكان رؤية آثار الحجارة الحمراء التى استُخدمت فى بناء أحد معسكرات الجند. والآن وقد اتجهوا ناحية الجنوب، كانت فرق الحراس المسلمين هى التى تخرج من المدن لتحية قافلة تشانج تشون وتصحبهم إلى مقر إقامة الضيوف. وعندما كانوا قريبين من طشقند عبروا نهر سيحون على جسر عائم وبعد ذلك ساروا بمحاذاة الجبال إلى سمرقند. وفى إحدى المدن التى مروا عليها وجدوا «شجرة توت عظيمة تكفى فروعها لأن تظل مائة رجل». وكان النبيذ لايزال يمثل جزءاً كبيراً مما يُقدم للضيوف (وكانوا يتحايلون على تحريم الإسلام له بغليه)[1] وكان أهل الفنون، مثل الراقصين بالسيف ولاعبى الأكروبات، يُؤتى بهم لتسليتهم.

وأخيراً، وفى ديسمبر من سنة ١٢٢١، وصلت القافلة إلى مدينة سمرقند الكبرى،

(١) هناك شك فى كون هذا السبب الحقيقى وراء غلى الخمر. فربما كانوا يفضلونها ساخنة أو يستسيغونها بعد غليها. (المترجم).

حيث رحَّب وزير جنكيـزخان يبه لو تشـو تساى، الذى كتب خطاب الاسـتدعاء، بتـشانج تشون. وعلى الفور أرسل نبأ وصول تشانج تشون إلى جنكيزخان، إلا أنه اقترح بقاء تشانج وصحبه عدة شهور فى سمـرقند، حيث كان الشتاء على الأبواب وكان «قطّاع الطرق» على مايبدو قد دمروا الجسر العائم والقوارب التى يحتاجونها لعبور نهر جيحون. وافق الحاج بعد تردد ودخل «مدينة القنوات». وهناك وجد أدلة كثيرة على تغير أحوال سمرقند. كما لاحظ أن المدينة التى كانت تسكنهـا فى يوم من الأيام مائة ألف أسرة لم يبق فيـها سوى ربع هذا العدد بعد قدوم المغول. وكان المسلمون يملكون معـظم الحقول والبساتين، التى كان يفلحها العمال الصينيون والخطاى والتانجوت (التبت).

وحتى قبـل وصول جنكيزخان شهـدت المدينة خصومات واضطـرابات. وكان خوارزم شاه قد بنى لنفسـه قصراً جديداً على تل ارتفاعه مـائة قدم داخل حدود المدينة. ولكن هذا الجزء من المدينة تعرض لأعـمال إرهابية من جانب اللصوص، مما جعله يهـجره إلى مسكن آخر فى حى أكثر أمـاناً. (والواقع أن حماسه الدينى جعله غير محـبوب حتى من المسلمين الذين يُفترض أنـه «حررهم» من القرى خطاى الكفار). وكـان ذلك القصر الشاغـر هومقر إقامة تشانج تشـون فى الشتاء، حيث كان يعتمـد على سمعته كحكيم فى حـماية نفسه من اللصوص. وجـاءته أعداد كـبيرة من الزوار. ولم يكـونوا فقط من الساسـة المطلوب منهم رعايته والعـمال الصينيين الذين تربطهـم به روابط عرقية، وإنما كان منهم أيـضاً علماء من المنطقة. كما راجع معه أحد علماء الفلك ما كـتبه عن خسوف الشمس الذى كان قد شهده قبل عدة أشهر فى منغوليا.

ومع انتهاء الشـتاء ومقدم الربيع، عـرف تشانج تشون السبب الذى اشـتهرت من أجله سمرقند بأنها أجمل مدن الإمبراطورية الإسلامية، كما يقول لنا كاتب سيرته:

فى الشهـر الأول [منتصف فبراير إلى منتصف مـارس] أزهرت أشجـار اللوز. وفاكهتـها صغيرة فى حجم الخوخ وطعمـها أشبه بالجوز. وهى تُجمع وتُؤكل فى الخـريف. وفى اليـوم الثـانى من الشهـر الثـانى، وهو وقت الاعتـدال، بدأت زهـور المشـمش فى السـقوط. ودعـا عـالم الفلك وآخرون الأستاذ لنزهة قصيرة غربى المدينة... كان الجو لطيفاً والهواء لذيذاً وكـانت الزهور والأشجـار نضرة يانعة. وحيثما ولينـا فثمـة مناظر بهيجة من البحيرات والبساتين والمعابد والمدرجات المزروعة والخيام.

وفى نزهة أخرى بعد أسبوعين لم يجـدوا «سوى الحدائق والأحراج الظليلة لمسافة تزيد على مائة لى. وحتى البساتين الصينية لايمكن مقارنتها بها. . .».

وجاء الربيع ومعه استدعاءات مـجددة من جنكيزخان، ولبى تشانج تشون النداء حيث صحبه ألف جندى ليعبروا به البـوابات الحديدية (مضيق بوزجالا)، وهو واد ضيق فى لسان الجبال التى تفصل فرغانة عن بلخ. كانت فـيه بالفعل بوابة حديدية فى يوم من الأيام (كما ذكر شيـوان تسانج قبل ذلك بعدة قـرون). وبعد عبور تشـانج تشون لنهر جيـحون وأنهار أخرى أصغر منه بالقـوارب، وكانت جميعاً تفـيض بالماء فى فصل الربيع، وصل فى نهاية الأمر إلى معسكر جنكيزخـان. ولكن الخان كان لايزال فى حملة. وبدلاً من الانتظار، عاد الحكيم التاوى إلى سمرقند. وهـذه المرة اتخذ طريقاً جبلياً مختلفـاً، حيث حدث عند أحد الجسور على نهر هائج أن:

سقط العديد من حمير الحمل ليغرق بينما كانوا يقودونها عبر الجسر [المصنوع من الحجارة] وعلى الشطآن التى أسفله حيث توجد جيف حيوانات أخرى نفقت وهى تحاول العبور.

وحتى فى هذا الإقليم الذى يصـعب السير فيه ويكاد يكـون الوصول إليه مستـحيلاً، التقى تشانج تشون وصحبه بقافلة تجارة عـائدة «من الغرب بحمل كبير من المرجان»، وكان على هيئـة قطع طول الواحدة منهـا قدم، اشتـرى منها الجنود المرافقـون مقابل سـبائك من الفضة زنة رطلين. وبعـد أن أمضى تشانج تشون بعض الوقت فى سمرقند، حـيث استمتع بموسم جمع الفواكه والخضروات مثل الباذنجان اللذيذ، توجّه مرة أخرى إلى الجنوب صوب معـسكر جنكيزخان، وكـان هذه المرة فى الجبال الثـلجية (هندوكـوش). وفى الطريق مروا بمدينة بلخ، التى ذبح المغول سكانها قبل عدة أسـابيع. وأثناء مرور مراقبنا التاوى على هذه المدينة، التى كانت يوماً عظيمة، لايذكر لنا عنها شيئاً سوى أنهم سمعوا الكلاب وهى تنبح فى شوارع المدينة وقد خيَّم عليها الظلام.

وبعد انتهـاء تشانج تشون الذى يبزه أحد من تدريس تعاليم تاو لجنكـيزخان، عاد إلى الصين. وقد سار تقريباً على نفس الطريق المؤدى إلى دائرة العرض الواقعة عليها هامى، إلا أنه بدلاً من أن يتـجه شمـالاً كمـا جاء، قرر أن يسـير مـسافة أطول إلى الجنـوب الشرقى مباشرة. وقد حذروه من أن:

الطريق الجنوبى أرضـه جـدباء شـديدة الوعـورة والكلأ والماء يندر

وجودهما. عددنا كبير. وسرعان مايصيب الخيل الإعياء لعدم كفاية الماء والعلف. وهى قد تبطىء فى السير بنا. وأى تأخير قد يكون فيه هلاكنا.

ولكن كما فعل الصينيون قبل قرون فى حملة خيول فرغانة السماوية، تغلب تشانج تشون على عدم كفاية المؤن بتقسيم القافلة إلى مجموعتين جعل بينهما أسبوعاً بحيث لايكونون عبئاً على موارد الصحراء القليلة جداً.

إلا أنه فى تلك الأقاليم الموحشة كانت هناك محطات أُتيح لتشانج تشون أن يستبدل الخيول فيها أثناء سيره. وعندما أصبحوا على مقربة من الصين نفسها بعد ذلك، كانت محطات البريد أوفر عدداً. وما أن ودعوا الأراضى الصحراوية حتى «بدأنا نرى الأكواخ والخيام ولم نجد مشقة فى الحصول على خيول مستريحة». ومن الواضح أنه رغم كون جنكيزخان لايزال يوسع حدود إمبراطوريته، كانت محطات البريد المعدة إعداداً جيداً، وهى ماسيتميز به أوج عظمة العصر المغولى، موجودة بالفعل. والواقع أنه بمجرد وصول المعلم التاوى إلى الصين جاءته رسالة من جنكيزخان يسأله فيها إن كان قد «زُود بما يكفى من المؤن والمطايا» فى الطريق وإن كان المسئولون قد قدموا له «المؤن الكافية لمأكله ومبيته».

***

كان نظام الاتصال الذى وضعه جنكيزخان فى هذه الفترة هو الذى وحَّد الإمبراطورية بعد وفاته وحال دون انهيارها على الفور، كما حدث مع كثير غيرها من إمبراطوريات البدو فى الماضى. وكان جزء من نظام الاتصال هذا يعود إلى اعتراف جنكيزخان بالمستشارين الموهوبين والاستفادة بهم. ونخص من هؤلاء ييه لو تشو تساى، وكان عالماً شاباً ينتمى إلى آخر أسرة مالكة (الخطاى أو أسرة لياو) حكمت شمال الصين قبل المغول. وقد ضُم إلى خدمة المغول سنة ١٢١٥ حيث صاحب الخان الأعظم فى حملاته الغربية وبدء العملية البطيئة التى استهدفت تمدين سكان السهوب البدو. ولاشك أنه هو الذى أقنع جنكيزخان بالتحدث مع تشانج تشون التاوى، كى يتعلم أفضل طرق الحكم. وكان جنكيزخان نفسه قد اعترف بأهمية الكتابة حيث استخدم فى بداية حكمه كاتباً من الأويغور كى يضع أسس كتابة اللغة المغولية وتدريس الكتابة للأسرة المالكة. (وليس واضحاً إن كان جنكيز نفسه تعلم الكتابة أم لا. والأمر المحتمل هو أنه لم يتعلمها).

واستناداً على هذا التقدير الفطرى، أقنع ييه لو تشو تساى جنكيزخان شيئاً فشيئاً بقيمة

الخدمة المدنية، كتلك التى استفادت منها الصين بنجاح على مدى القرون. وذات مرة اقترح قائد مغولى ذَبْح كل الفلاحين فى أحد الأقاليم الصينية التى فتحوها حديثاً، لأنهم لايصلحون أن يكونوا جنوداً ولأن أرضهم ـ حسب التفكير المغولى ـ تكون أفضل لو تحولت إلى مراع للخيول التى يقدرها المغول أكثر مما سواها. وحال ييه لو تشوتساى دون حدوث هذه المأساة بأن أوضح للخان أنه فى حالة الإبقاء على النظام الإدارى الصينى، سوف يدر هذا الإقليم على الخان فى كل سنة نصف مليون أوقية من الفضة و ٤٠٠ ألف كيس حبوب و ٨٠ ألف قطعة حرير. وإذا كان جنكيزخان قد أُعجب بهذا الوعد، فالواقع كان يستحق إعجاباً أكبر. وبعد ذلك تشجع الوزراء على تطبيق نفس الأساليب على أجزاء الإمبراطورية الأخرى.

لذلك فنحن ندين فى المقام الأول ليه لو تشو تساى فيما يتعلق بشبكة السفر والاتصالات التى أدهشت الزوار الأوروبيين الذين جاءوا بعد ذلك، أمثال ماركو بولو. إذ أُقيمت محطات البريد من الصين حتى الحدود الغربية للإمبراطورية المغولية. وكانت تلك المحطات لخدمة الرسل الإمبراطوريين، لإدراك جنكيزخان للضرورة الحيوية للاتصالات عبر إمبراطوريته الشاسعة، إلى جانب ماتقدمه من خدمات للتجار والمبعوثين. والمغول، الذين لم يكونوا يوماً أهل تجارة، أصبحوا الآن يمدون التجار برؤوس الأموال الضرورية للتجارة بعيدة المدى. وفى المقابل كانوا يحصلون على أرباح ضخمة جعلتهم يعفون هؤلاء التجار أصحاب المكانة الرفيعة من الضرائب المعتادة. وكان من مصلحة المغول أن تكون الطرق آمنة وخالية من اللصوص. وكان مطلوباً من الحكام المحليين أن يوفروا الأمن للمسافرين بصورة مشروعة وللتجار والمبعوثين. وأعاد المغول بناء التجارة وعملوا على تنميتها فى الأماكن التى سبق لهم تدميرها، وخاصة فى مدن تركستان وفارس. ولم يشهد طريق الحرير أو طريق السهوب الأوراسية سلاماً كهذا من قبل. وكما يقول هنرى يول، «لم يكن لكلب أن ينبح دون إذن من المغول» فى المنطقة التى امتدت حتى حدودهم الغربية فى الأراضى التى كانوا يسيطرون عليها من فارس.

وعملت التجارة الدولية التى بدأت من جديد فى التدفق على طريق الحرير، بعد أعمال السلب الرهيبة التى قام بها المغول، على توحيد الإمبراطورية الوليدة وجعلتها تبقى بعد موت جنكيزخان سنة ١٢٢٧. وظلت الإمبراطورية بلا خان أعلى لمدة عامين، إلى أن اجتمعت كل القوى التى فى الإمبراطورية فى قره قورم وانتخب المجلس الأعظم العرفى، ويسمى «قوريلتاى»، قائداً جديداً.

وفى حياة جنكيزخان، كان أولاده يحكمون كخانات لأقاليم شاسعة خاضعين لسلطان أبيهم. فقد حكم چوتشى، وهو الابن الأكبر، السهوب الروسية من جبال ألتاى غرباً حتى أوروبا. وعندما توفى قبل والده بعدة أشهر، قُسِّم ميراث الأب بين ولديه؛ أوردا، مؤسس «القبيلة البيضاء»، وباطو، مؤسس «القبيلة الذهبية». أما الابن الثانى لجنكيزخان، وهو چغتاى، فقد حكم الخانية الكبرى التى امتدت تقريباً من تورفان إلى نهر جيحون، بما فى ذلك طريق الحرير على جانبى جبال تيان شان ومدن القوافل فيما وراء النهر التى أُعيد بناؤها. كما أنه ظل مستشاراً يرجع إليه ومفسراً للقانون المغولى. وجرياً على العادة المغولية، تولى الابن الأصغر، تولوى، حكم البلاد الإمبراطورية الواقعة إلى الجنوب من بحيرة بايكال وقام مقام الحاكم إلى أن انتُخب الخان الأعظم الجديد. وبما أن كثيرين من حلفاء جنكيزخان الأوائل كانوا من غير المغول، فلم يكن مستغرباً أن تكون زوجة تولوى مسيحية نسطورية. وحكم اثنان من أولادهما، هما مانكو وقوبيلاى[1]، كخانين أعظمين للمغول. وأسس ثالث، وهو هولاكو، خانية جديدة فى غربى آسيا. ولكن الذى اختاره جنكيزخان لخلافته هو الابن الثالث أوجداى، حاكم البلاد الواقعة شرقى بحيرة بلخاش. فما كان من القوريلتاى إلا أن خضع لرغبة القائد الأعظم.

وفى عهد أوجداى استمر نفوذ المستشارين الصينيين، وبينهم ييه لو تشو تساى الذى احتفظ بنفوذه، حيث ظهر ذلك فى تحويل قره قورم[2] من موقع موسمى لمعسكر متنقل إلى مدينة دائمة يحيط بها سور سنة ١٢٣٥. ورغم تمتعه بقدرات والده، فقد مضى فى تنفيذ خطة شاملة وضعها جنكيزخان. وكانت هذه الخطة تدعو إلى استكمال فتح شمال الصين، الذى تم فى عهود لاحقة بالاستيلاء على صين السونج فى الجنوب أيضاً. إلى جانب القضاء المبرم على ماتبقى من نفوذ خوارزمى فى غرب آسيا. كما توسعت الإمبراطورية غرباً فى أوروبا فى سهول المجر وبولندا الشاسعة. وكان العملان الأخيران بمثابة كماشة عملاقة تمسك مرة أخرى ببحر قزوين والأراضى المحيطة به.

وكان القواد المغوليون منصفين عند اجتياحهم لآسيا وأرمينيا بصورة ملحوظة، حيث هاجموا المسلمين والمسيحيين على السواء. وكما حدث من قبل، كان المغول يقتلون كل سكان المدن التى تقاومهم. وفى مواجهة ذلك قررت بعض الممالك المسيحية فى أرمينيا

---

(١) سيأتى ذكره بالتفصيل. (المترجم).

(٢) بناها أوجداى واتخذها مانكو مقراً لحكمه. (المترجم).

ومرتفعات القوقاز إنقاذ نفسها بالاستسلام دون قتال. كما أنهم وجدوا تشجيعاً على التحالف مع المغول لوجود المسيحيين النسطوريين الذين يحتلون مكانة كريمة بين أبناء الإمبراطورية من البدو، وتطبيقاً لما ينص على التسامح الدينى فى القانون المغولى المسمى «ياسا» الذى أُعلن فى عهد جنكيزخان واستمر خلفاؤه فى العمل به. والواقع أنه عندما شعر المسيحيون فى مملكة الكُرج القوقازية سنة ١٢٤٠ بالظلم فيما يلقونه من معاملة، أرسلوا سفارة إلى أوجداى فى قره قورم يلتمسون منه رفع الظلم. ورداً على ذلك أرسل أوجداى مبعوثاً نسطورياً لإبلاغ القواد المغول بعدم تدمير الكنائس المسيحية. ورأى كثيرون من المسيحيين أنه لم تكن هناك سوى خطوة واحدة بين هذا التسامح الدينى وحلم التحالف المسيحى المغولى ضد المسلمين، ذلك الحلم الذى أوجده النفوذ المتزايد للنسطوريين فى بلاط أوجداى وقوّته تلك الشائعات الخاصة ببريستر يوحنا، الحليف والمخلّص المنتظر.

وتحطمت تلك الأحلام تحطماً شديداً عندما بدأ المغول اجتياحهم المدمر لأوروبا سنة ١٢٣٦. وربما كان أوجداى وبلاطه فى الشرق أكثر تحضراً لاتصالهم بالصينيين والمسيحيين النسطوريين، ولكن الخانات والقواد المغول فى الغرب، وخاصة فى روسيا، لم يتعرضوا إلا لقدر يسير من تلك المؤثرات التى هدأت من حدة طباعهم. وهؤلاء المغول، الذين يمتازون بمهارات حربية عالية وتحركهم فى الوقت نفسه رغبة جامحة فى التدمير، شنوا على أوروبا هجوماً لم يشن مثله أحد من قبل، ولا حتى سلفهم آتيلا الهونى. إذ ذُبح الآلاف وسويت المدن بالأرض ودُمرت المزروعات. وتحدث مؤرخ فى إحدى المدن نيابة عن كثيرين قائلاً: «لم تبق هناك عين لتبكى على الأموات». وبعد عبورهم لأنهار الفولجا والدون والدنيبر والدانوب، حيث فضلوا أن يكون ذلك شتاءً وقد تحولت الأنهار إلى طرق، دمروا مملكة كييف الروسية وبعدها المجر وبولندا.

وفى سنة ١٢٤١ باتت أوروبا كلها مفتوحة أمامهم. وكانت الممالك المسيحية مشغولة فى الاقتتال فيما بينها، فلم تتمكن من إقامة دفاع مشترك. وإذا كانت أوروبا قد أُنقذت، فلم يكن ذلك بجهد أبنائها. فما حدث هو نقص إمدادات المغول. وكانت تلك مشكلة ضخمة، لعدم قدرة جيوشهم الحصول إلا على القليل من الدعم من البلاد التى دمروها. يضاف إلى ذلك تمزق المغول بسبب الغيرة والانشقاق. وليس من الواضح إن كان المغول قادرين على المضى غرباً أكثر من ذلك فى الشتاء التالى أم لا. وصارت هذه المسألة محل جدل عقب وفاة أوجداى سنة ١٢٤١. وعاد أحفاد جنكيزخان إلى أوكرانيا، ويعنى هذا الاسم «التخوم» وهو يعود إلى ذلك الوقت، وحكموا الأراضى الروسية التابعة لهم من

المدينة المعسكر التى أُنشئت حـديثاً عند سراى على نهر الفولجـا الأسفل بالقرب من الموضع الذى اتخذه الخزر عاصمة لهم، وهو أتل. وكان ذلك هو مركز القبيلة الذهبية. بينما كانت القبيلة البيضاء تقع إلى الشرق منها فى السهوب القرغيزية.

***

ظل المغـول بلا خـان أعظم طوال أربع سنوات تلت وفـاة أوجداى. وقـامت أرملتـه بأعمال الحـاكم بينما انسحبت القوات من كل تخـوم الإمبراطورية واجتمـعت فى قوريلتاى لاختيار زعـيم جديد. وانضم إلى هؤلاء مبعوثون من كل أنحاء أوراسـيا، حيث كان لكل منهم مصلحة فيما سيسـفر عنه المجلس. وكان من بين هؤلاء أرشيدوق من روسيا وسلطان من آسيا الصغرى ممثلاً لسلاجقة الروم وحاكم أرمينيا واثنان من المطالبين بعرش مملكة الكُرج وأمير من كوريا ومبعوث من الخليـفة فى بغداد. كما أرسل بابا روما إنوسنت الرابع، وكان هو الآخر قـد انتُخب حديثاً، مـبعوثه الراهب چون دى پـلانو كاربينى، الذى صحـبه فى مهمته راهب آخر، هو بينيدكت البولندى.

هؤلاء المسـافرون جـاءوا من أوروبا من طريق السـهوب الأوراسـيـة لحضـور المجلس المغولى. وأثناء سيـرهـم فى البلاد الروسية المدمرة رأوا أطلال المدن وأكوام العظـام البيضاء. وعندما دخلوا الأراضى المغولية، «اندفع نحونا التتار [المغـول] بصورة مخيفة وهـم مسلحون وسألـونا أى صنف من الرجال نحن؟»، كـما قـال چون دى پلانو كاربينى. ولكـن ما إن أظهـروا أوراق اعتـمادهـم حتى سُمح لهم بالمـرور من قبـيلة لأخـرى إلى أن بلغوا مـوقع القوريلتاى. وإذا كان من بين هـؤلاء المسافرين من رأى قره قورم نفسهـا فهم قليلون. فقد أقامت أرملة أوجداى معسكـراً خاصاً على بعد أميال منها أُعد خصـيصاً للمجلس الأعظم الذى ضم (حسب رواية الراهب چون) أربعـة آلاف مبعـوث. وعند وصول المسيحـيين لم يجدوا قدراً كبيراً من الراحة. فييـه تشو تساى الذى ظل زمناً طويلاً أحد قوى التسامح كان قد أُعفى من منصبه ومات بعـد ذلك بقليل. أما الرجل الذى حل محله، وهو تاجر مسلم اسمه عبدالرحمن، فكان مهتماً فى المقام الأول بمضاعفة عائدات المغول من الضرائب.

وفى أواخـر أغسطـس من سنة ١٢٤٦ عندما كـانت السـهـوب لاتزال تملؤها الزهور والأعشاب الطويلة، انتـخب المغول زعيماً جديداً، هو كـويُك بن أوجداى. وحيث أنه لم يكن له أى ميل نحو المسيحية، فقد اعتقـد أن ما حققه المغول من نجاح كان دليلاً على سمو الإله المغولى تنجرى، أى السماء الخالدة. ولم يملك مبـعوثا البابا أن يفعلا مايغير رأيه. بل

إنه بينما انحنى كل السفراء القادمين من أوراسيا، جرياً على العادة الصينية، أمام عرش كويُك، لم يمتنع عن القيام بذلك سوى الراهبين چون وبنديكت. وفى حين اكتظت خيام كويوك بهدايا من الفضة والذهب والحرير والجواهر والفراء، حمل ٥٠٠ عربة، بالإضافة إلى ٥٠ جملاً عليها سروج مطرزة تطريزاً ثميناً، لم يكن لدى الراهبين المسكينين ما يقدمانه بعد أن باعا القليل الذى كان معهما، وهو بضع قطع من الفراء فى الغالب، فى رحلتهما التى امتدت ثلاثة آلاف ميل من سراى ليحصلا به على خدمات القبائل على طول الطريق وليشتريا طعاماً قليلاً. وبعد أن أعلن كويُك أنه ماكان لبشر أن يحكم تلك البلاد الشاسعة إلا بمشيئة الإله قال إنه إذا كان البابا يريده أن يُعَمَّد مسيحياً فعليه أن «يأتى بنفسه ليجرى لنا الطقوس. وساعتها سوف أعلن كل أوامر الياسا».

رحل الراهب المحبط چون إلى أوروبا، حيث قطع جزءاً من الطريق فى صحبة سفير سلطان مصر، ليعود إلى ليون بفرنسا بعد سنتين ونصف من بداية رحلته. وكانت مثل هذه الرحلة أمراً نادراً وشاقاً، حتى أنه عند ظهوره فى كييف حيَّاه الناس هو ومن معه «وكأننا عدنا من عالم الموتى». وتشير بعض الروايات إلى احتمال تعميد كويُك، ربما تلبية لرغبة أمه، ولكن الراهب چون لم يأت معه بما يريح المسيحيين الأوروبيين، باستثناء ما قاله عن رؤيته لبوادر انشقاق فى معسكرات المغول قد تؤدى إلى إضعاف قوتهم وتحول دون زحفهم نحو الغرب. وكان چون بعيد النظر فيما قال. ففى السنوات التالية تولى أمر المغول العديد من الخانات الأعاظم، إلا أن أياً منهم لم يبق طويلاً فى الحكم. فقد اقتتل ورثة جنكيزخان فيما بينهم من أجل السيادة. وفى تلك الأوقات المضطربة كان المسيحيون لايزالون يرغبون فى إدخال المغول المسيحية. وكان يشجعهم على ذلك أهمية النسطوريين التى ظلت قائمة فى البلاط المغولى.

***

فى سنة ١٢٥٣ خرج راهب أوروبى آخر اسمه ويليام الدوبروكى فى مهمة مشابهة لتلك التى قام بها الراهب چون. وبعد زيارته للملك لويس التاسع عاهل فرنسا، وكان وقتها موجوداً فى الممالك الصليبية على البحر المتوسط، ركب البحر من القسطنطينية إلى القرم. وروى أنه عند بلوغه السهول الواقعة شمال البحر الأسود «بدا لى الأمر وكأننى أدخل عالماً آخر». فقد وجد عند نهر الفولجا معسكراً ضخماً، سراى، «بدا كأنه مدينة ضخمة تمتد مسافة طويلة وتزدحم بالناس فى كل جنباتها». ولكن وجود الشقاق فى البلاط

جعل السفـر أمراً ليس بالسهل. فمن كان يفـترض أنهم مرشدو قافلتهم سـرقوهم وأساءوا إليهم، ورغم ذلك كله وصل الراهب ويليام وبعـثته الصغيرة إلى قره قـورم فى السنة التالية وصحبهم إلى داخل المدينة مـوكب من المسيحيين النسطوريين خرج للاحـتفاء بهم. وويليام هو أول من قدم لنا العاصمة المغولية برؤية غربية:

وبخصـوص مدينة قره قورم، لابد أن تعرف أنها بدون قصر الخان لاتزيد فى حجمها على قرية سان دينى [وهى جزء من باريس الآن]. كما أن دير سان دينى يساوى عشرة أمثال مساحة القصر... وهى تنقسم إلى شطرين: حى المسلمين، وفيـه المتـاجـر ويفد إليـه تجـار كثيرون بسبب البلاط القريب منه دائماً وبسبب عدد المبعوثين. والآخر هو حى الخطاى وجميعهم من أصحاب الحرف. وبخلاف هذين الحيين هناك القصور الكبيرة الخاصة بكتبة البلاط. وهناك اثنا عشر معبداً وثنياً تتعبد فيها أمم شتى ومسجدان تقام فيهما شريعة محمد وكنيسة واحدة للمسيحيين عند الطرف الأقصى من المدينة. ويحيط بالمدينة سور من الطين له أربعة أبواب. عند الباب الشرقى يباع الدُخن وغيره من الحبوب، إلا أنه نادراً ما يشتريه الناس هناك. وعند الغربى تباع الأغنام. وعند الجنوبى الثيران والعربات. وتباع الخيول عند الشمالى.

وتعد المدينة برهاناً سـاطعاً على سيـاسة جنكيزخان الخـاصة بتجمـيع الصناع الأسرى وترحيلهم إلى مـنغوليا. وعند زيارة الراهب ويليـام لقره قورم كـان ضمن الكثـيرين الذين التقى بهم وتحدث معهم معلم صـائغ من باريس أسره المغول فى غاراتهم على المجر. وكان ذلك هو الصائغ ويليام بوشيـيه الذى صنع النافورة الشهيرة فى قره قـورم ووصفها الراهب ويليام:

رأى المعلم ويليـام الباريسى أنه من غـيـر اللائق وضع قـرب الحليب وغيره من المشروبات عند مدخل قصر [الخان] فصنع له شجرة كبيرة من الفضة جعل أسفلها أربعة أسود من الفضة لها أنبوب وكل منها يخرج حليب الفرس الأبيض. وداخل جذع الشجرة أربعة أنابيب تصل إلى أعـلاها حيث تنثنى أطرافـهـا لأسفل وجعل على كل طرف حـيـة مذهبة يلتف ذيلها حول جذع الشجرة. أحد هذه الأنابيب يصب نبيذاً

وآخر قره قوسموس [كوميس]، وهو حليب الفرس المكرر، والثالث شراب عسل النحل والرابع بتع الأرز، الذى يُسمى تيراسينا. وكل منها له وعاء فضى أُعِدَّ لتلقِّيه أسفل الشجرة بين الأربعة أنابيب الأخرى. وعند منتهى ارتفاع الشجرة جعل ملاكاً يمسك نفيراً. كما جعل تحت الشجرة سرداباً، يمكن لرجل أن يختبىء فيه، وأنبوباً يصعد إلى الملاك من وسط قلب الشجرة... وتوجد خارج القصر حجرة تُخزَّن فيها المشروبات حيث يقف الخدم استعداداً لصبها عندما يسمعون الملاك ينفخ فى النفير. وللشجرة فروع وأوراق وفاكهة من الفضة.

وعندما تقل المشروبات يطلب رئيس السقاة من الملاك أن ينفخ نفيره. وعندما يسمع الرجل المختبىء فى السرداب ذلك ينفخ فى الأنبوب الواصل إلى الملاك بكل قوة. وهنا يضع الملاك البوق على فمه وينفخه نفخة شديدة الصوت. وعندما يسمع الخدم الذين فى الغرفة ذلك يصب كل منهم شرابه فى الأنبوب الخاص به، حيث تصبها الأنابيب من أعلى وأسفل فى الأوعية المعدة لذلك. وهنا يأخذ السقاة المشروبات ويدورون بها فى أنحاء القصر على الرجال والنساء.

حيَّا المعلم ويليام، مخترع تلك الآلة العجيبة، مواطنه القادم من أوروبا بـ«فرح شديد»، كما قد نتخيل. ودُعى الراهب ويليام إلى العشاء، حيث التقى بزوجة المعلم ويليام، التى وُلدت فى المجر لأب فرنسى. وانضم إلى ذلك الحفل الحلو المر رجل إنجليزى اسمه بازل، وُلد أيضاً فى المجر. ولم يكونوا سوى قليل من الصناع المهرة الكثيرين الذين بدأوا حياتهم على نهر الدانوب أو نهر هوانج أو نهر سيحون ليجدوا أنفسهم الآن مستخدمين فى معسكر المغول الرئيسى، أو جوالين فى أنحاء آسيا فى بعض الأحيان كجزء من حاشية الخان الأعظم العسكرية.

بقى الراهب ويليام بعض الوقت فى قره قورم، إلا أنه لم يحقق أى نجاح يزيد عما حققه الراهب چون لتحويل المغول إلى المسيحية. وكان له راهب يرافقه عجز عن مواجهة أهوال رحلة العودة فآثر أن يقضى مابقى له من عمر فى قره قورم. ولكن الراهب ويليام عاد إلى أوروبا بتقرير يبعث على الحزن. (ورأى البعض أنه أتى معه بتركيبة البارود وأعطاها خفية لزميله العالم روچر بيكون. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فهو لم يذكره فى تقريره

الرسمى، ربما لأنه رأى القوة المدمرة لهذا الخليط المتفجر من ملح البارود والكبريت والفحم). إلا أن مواطنى الراهب ويليام الأوروبيين كانوا بحاجة إلى تأكيد عجزه عن تقديمه لهم. فقد كانوا شديدى الخوف من تجدد الهجوم على أوروبا نفسها. وكان الراهب ويليام قد رأى عند بداية رحلة العودة جيشاً مغولياً ضخماً تحت قيادة هولاكو حفيد جنكيزخان ينطلق غرباً. ولكن بدلاً من الاتجاه نحو أوروبا عبر الأراضى التى يسيطر عليها آخرون من ورثة الخان الأعظم، اختار جيش هولاكو أن يسلك طريق الحرير إلى فارس. وكان ما حققه من نجاح وراء تغيير وجه غرب آسيا.

ففى سنة ١٢٥٦ بلغ جيش هولاكو معقل الحشاشين. وهذا النظام المخادع، الذى صمد أمام كل الهجمات التى تعرض لها طوال ٢٠٠ سنة، سقط أخيراً تحت وطأة أعداد المغول الساحقة ومهارة من معهم من مهندسى الحصار الصينيين. وهكذا استسلمت الحصون واحداً تلو الآخر، وإن كان آخرها وأقواها، وهو حصن ألموت، صمد ثلاث سنوات. وكان مصير سكان الحصون جميعاً هو القتل. كما أُحرقت مكتبتهم، فيما عدا بعض المصاحف والكتب التعليمية، لما فيها من هرطقة. وهكذا تطهرت الدنيا، كما قال المؤرخ الجوينى. وتحرر هذا الجزء من طريق الحرير من نفوذ الحشاشين الخبيث. إلا أن بعضاً من أبناء مذهبهم كانوا موجودين فى أماكن أخرى، مثل سوريا، حيث ظلوا يعملون قروناً عديدة فى المنطقة، ولكنهم لم يعودوا قط إلى ما كانوا عليه من مَنَعة.

وأثناء تقدم هولاكو غرباً جعل مركز قيادته فى همذان التى أُعيد بناؤها (وكانت تسمى يوماً ايكبتانا وهى عاصمة الميديين القديمة). إلا أن هدفه الفعلى كان بغداد. ولم يكن تدهور هذه المدينة التى كانت يوماً عظيمة وقوية دليلاً فقط على ضعف آخر الخلفاء العباسيين[1] الذى يحكم من هناك، بل كان أيضاً دليلاً على تدهور طريق الحرير فى أقصى غرب آسيا. فعلى امتداد نهر دجلة كانت المستودعات والأسواق خالية. إلا أن بغداد كانت لاتزال قلب العالم الإسلامى. ولهذا السبب كانت هدفاً محدداً للمغول. ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى تخلق فيها الحرب تحالفات غريبة. ففى هذا الهجوم لقى المغول عوناً من جنود مسيحيين من الكرج وأرمينيا ومن المواطنين الشيعة الذين يكرهون حكم الخليفة السُنى. وفى النهاية، وبعد أسبوع من القصف بالحجارة التى جاءت بها القوافل من على

(١) المستعصم بالله هو آخر الخلفاء العباسيين وكان حاكماً ضعيفاً أهمل شئون الحكم وتركها لوزيره الشرير الذى خانه وأسلمه لعدوه. (المترجم).

مسيـرة ثلاثة أيام، استسلمت المدينة. نُهبت قـصور بغداد وبيوتها وحـملت القوافل كنوزها وتوجهت فى الغالب إلى قره قورم. أمـا المدينة نفسها فأُضرمت فيها النيـران ولم تستعد ما كانت عليه من بهاء. ورغم نجاة كثيرين من المواطنين المسيحيين من القتل، كان الذبح مصير معـظم أهلها من المسلمـين. وكانت رائـحة العـفن الصادرة من الجـثث من الشدة بحـيث اضطرت المغول إلى الرحيل عنها. وهكذا انتقل مركز العالم الإسلامى إلى القاهرة ولم يعد مرة أخرى إلى بغداد.

وسيـراً على طريق الحرير، وصل المغول إلى حـلب التى استولوا عليـها سنة ١٢٦٠. وهكذا دُمرت المدينة التى ازدهرت فى ظل حكم المسلمـين وذُبح أهلها أو سبُوا. وبعد ذلك لم يبد أن هناك شيـئاً يمكنه وقف المغول. ولعدم قدرة مسلمـى غرب آسيا ومسيحـييه على الوحدة، إلى جانب وجود طوائف متصـارعة داخل الدين الواحد، بدا من المحقق أن المغول سرعان مايسـتولون على ماتبقى من إمارات صليـبية وبلدان مسلمة خاضـعة لمصر فى ذلك الوقت. ولكن مرة أخرى يكون السبب المحتمل لإنقاذ البلاد الغربية وفاة إنسان على الجانب الآخر من الأرض. فعندما علم هولاكو بموت الخان الأعظم مانكو تخلى عن خطته لمهاجمة دمشق واسـتعد لـقوريلتاى جـديد. واستمـرت الإمبـراطورية الفرعيـة التى أسسـها باسم الإمبـراطورية الإيلخانية (إيلـخان معناها الحـاكم التابع)، وكانت عـاصمتـها مقـر هولاكو الشتوى تبريز وامـتدت من نهر جيحون إلى حلب ومن البـحر الأسود إلى الخليج الفارسى والمحيط الهندى. وهذه الوحـدة التى فرضها حكم هولاكو لهـا أهميتهـا فى انتعاش طريق الحرير الوشيك.
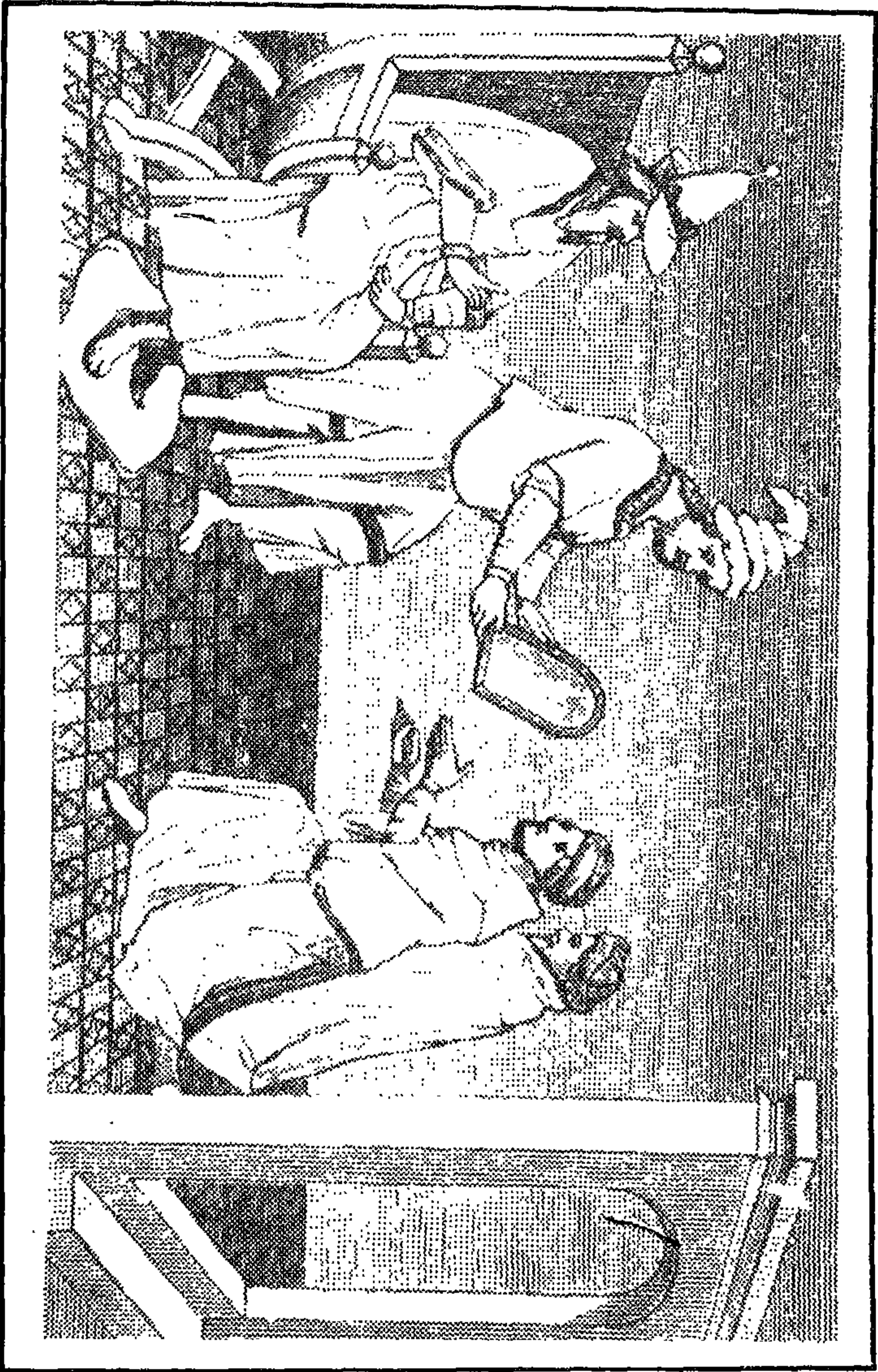
هذا الرسم الذى يعود إلى القرن الرابع عشر يبين الخان الأعظم يقدم اللوح الذهبى لنيقولو ومافيو بولو. (من Livre de Merveille du Monde، أعيد طبعها فى نسخة يول من «ماركو بولو».

الفصل العاشر

السلام المغولى

فى زانادو أمر قوبيلاى خان بإقامة قبة عظيمة
لمتعته . . .
فأحيطت أرض خصبة مقدارها ضعفا الخمسة أميال
بالأسوار والأبراج ،
وكانت هناك حدائق تتلألأ فيها الجداول الملتوية
حيث أزهرت أشجار كثيرة تفوح منها رائحة البخور؛
وكذلك غابات قديمة قِدم التلال ،
تحتضن المواضع الخُضر التى أضاءتها الشمس .

ـ صمويل تايلور كوليردچ
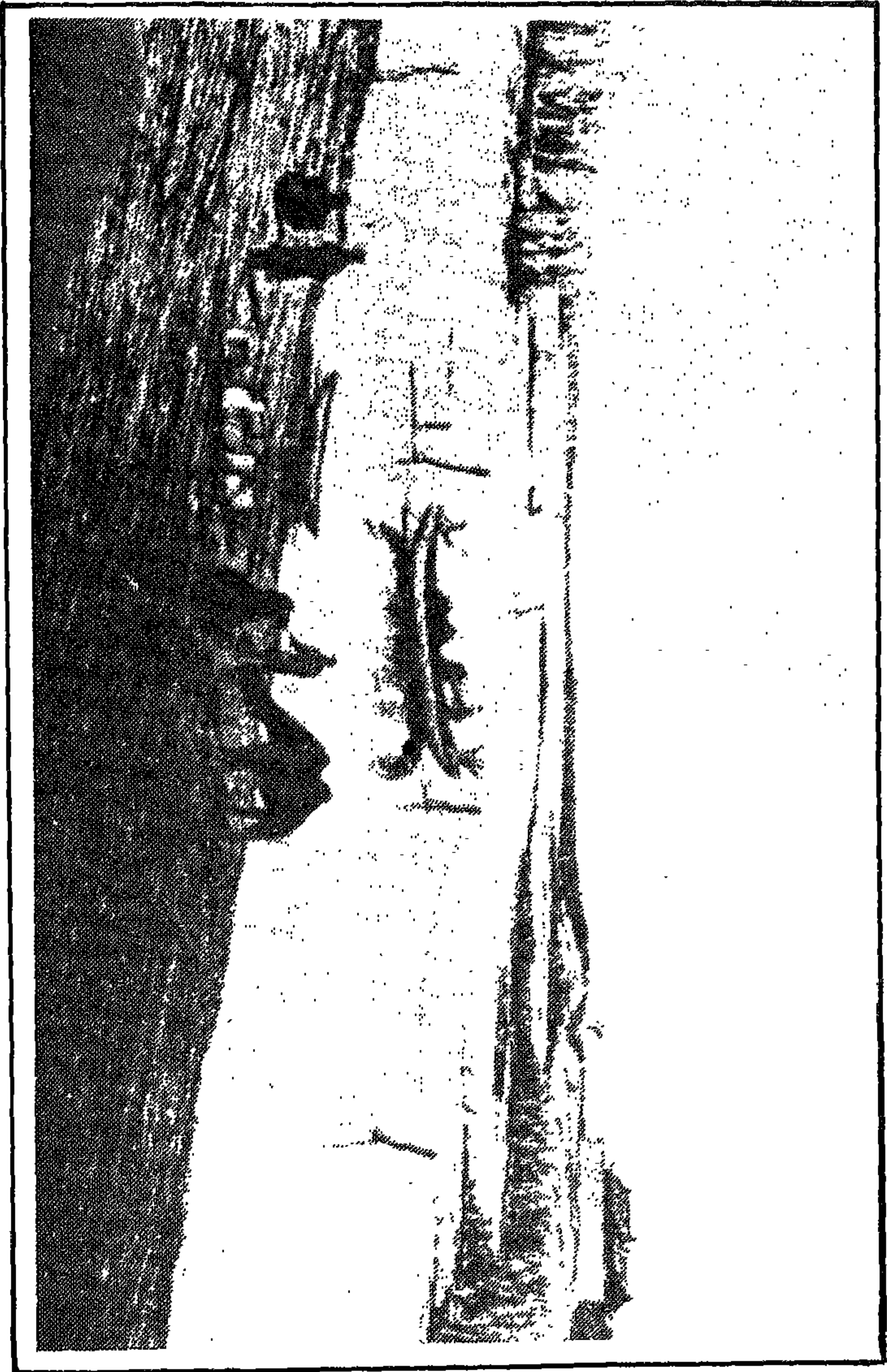
على الأنهار الصغيرة، مثل هذا الرافد الجنوبى لنهر التاريم. غالباً ما كانت هناك معديات حديثة يستخدمها المسافرون عبر آسيا. (رسم سفن هيدن، من كتابه Through Asia، ١٨٩٩).

اضطُر المغول لانتخاب خان أعظم جديد. ولم يكن ذلك بالأمر الهيِّن، حيث أدت التوترات العائلية، التى ازدادت فى بعض المرات بسبب الانتماءات الدينية المتعارضة، إلى اقتتال الورثة الخصوم أربع سنوات. وفى النهاية برز الفائز، وهو قوبيلاى[1] خان حاكم الصين المغولية الذى أسس أسرة يوان. وفى عهده كثر تردد الأوروبيين على طريق الحرير بحيث أصبح السفر أمراً روتينياً تقريباً. وهكذا بدأ السلام المغولى (Pax Mongolica) الذى دام قرناً اتسم بالأهمية من ١٢٦٠ إلى ١٣٦٨.

وفى ظل التقليد الغربى الذى بدأ منذ زمن بعيد وظل قائماً، وهو تجارة البضائع الشرقية التى يرغبونها بشدة، لن يكون مستغرباً أن تغرى بشرى قيام اتحاد سلمى يضم الإمبراطورية المغولية تحت قيادة حاكم واحد التجار الغربيين بالذهاب إلى آسيا الوسطى. ربما كان هناك غير هؤلاء، إلا أنه من حسن حظنا أن نعرف الكثير عن مجموعة من التجار الجوالين، هم نيكولو بولو وابنه ماركو وأخوه مافيو، وجميعهم من البندقية. وفى الخمسينيات من القرن الثالث عشر، قبل مولد ماركو أو تولية قوبيلاى خان، أبحر الأخوان بولو من البندقية إلى القسطنطينية، وكانت وقتها مقصداً معتاداً لتجار البندقية.

حدث أن تجار الدول الإيطالية التجارية، وخاصة البندقية، كانوا فى وضع يتيح لهم التوجه إلى الشرق. ومنذ الحملة الصليبية الأولى فى أواخر القرن الحادى عشر، أصبح لدى الدول المدن الواقعة على البحر المتوسط، مثل البندقية وجنوا وبيزا، تجارة مزدهرة فى البضائع الشرقية. وما إن قامت الإمارات الصليبية حتى تولت تلك الدول نقل الحجاج والفرسان إلى الأراضى المقدسة. وتكوَّن لدى هؤلاء الحجاج والفرسان تذوق للسلع الشرقية من خلال التجارة السلمية أو النجاح فى سلبها. وكانت النتيجة انتشار تجارة متواضعة من الإمارات الصليبية عبر البحر المتوسط إلى إيطاليا وإلى أسبانيا إلى حد ما. إلا أن الحروب المستمرة بين المسيحيين والمسلمين، ناهيك عن المغول، جعلت ذلك الطريق غير مضمون، الأمر الذى حدا بتجار البحر المتوسط إلى فتح طرق إلى الشرق عبر البحر الأسود الذى أقاموا عليه محطات تجارية. ومن بين الأماكن التى نهبها المغول، عندما اجتاحوا شرق أوروبا، المحطات التجارية الإيطالية فى القرم.

---

(١) أصبح إمبراطوراً للصين سنة ١٢٨٠ بعد قضائه على أسرة سونج الجنوبية حيث أسس أسرة يوان. وظل أبناء الصين من الهان والقوميات الأخرى يعانون من الاضطهاد العنصرى لمدة ٨٩ سنة هى فترة حكم المغول. فقد قسم حكام يوان السكان إلى أربع درجات: المغول فى الدرجة الأولى وشعب سمو (من المناطق الغربية) فى الثانية وشعب الهان فى الثالثة وشعب الهان الجنوبى فى الأخيرة. (المترجم).

وما إن بدأ القــرن الثالث عشــر حتى كانت البندقــية من القوة بما أتاح لهــا إبعاد جنود الحملة الصليبية الرابعة عن أعدائهم المسلمين وتوجيــههم إلى حلفائهم السابقين، المسيحيين البيــزنطيين. وفى سنة ١٢٠٤ استــولى البنادقة على القسطــنطينية ونهبــوا المدينة التى كانت عظيمة يوماً مــا، ونقلوا ما لايُحصى من المنتجات إلى البندقيــة (بما فى ذلك خيول القديس مرقص). واستمرت الإمبراطورية اللاتينيــة التى أقاموها فى القسطنطينية حتى سنة ١٢٦١، عندمــا استرد اليــونان البيــزنطيون، الــذين اجتاحــوا المناطق البــعيدة عــن الساحل، مــركز إمبراطوريتهم.

وهكذا، فعندمــا بدأ نيكولاس ومافــيو بولو ما أصــبح رحلة تاريخيــة، ذهبا أولاً إلى القسطنطينية بـ«ببضائعهما». ويبــدو من الحكاية التى رواها ماركو بولو فيما بعد أنه لم يكن فى ذهنهما خط سـير محدد أو مقــصد معلوم، شأنهــما فى ذلك شأن كثيــرين من التجار الجوالين. وفى القسطنطينية «تشاورا» بشأن عبور البــحر الأسود. وبعد أن توافر معهما قدر من الجواهر توجها إلى صولدايا فى القرم، وكــانت مدينة لاتزال فى يد اليونان البيزنطيين. وهناك «تدارسا الأمر» مرة أخرى ومضيا إلى سراى، وهى المدينة العسكرية المغولية على نهر الفولجا بقيا هناك سنة واحدة. وبعــد أن أهديا الجواهر للخان المحلى حصلا على «ما لايقل عن ضعف قيمتها» رداً على ماقدموه له. وهكذا كانت تجارتهم رابحة. ولكن الحرب نشبت وهُزم الخان المحلى. وكانت النتيجة أنه:

... بسبب هذه الحـرب لم يستطع إنسان السفـر دون أن يكون معرضاً لخطر الأسـر. وكـان الحال كـذلك على الطريق الذى جـاء منه الأخـوان على الأقل، وإن لم تكن هناك أية عقبات فى طريق سيرهما قُدماً.

وسواء كانت تلك إرادتهم أم لا، فبــعد أن دخل الأخوان بولو فى منعطف عند أعالى النهر توجها شرقاً حيث عبرا نهر الفولجا وسارا فى الصحراء ١٧ يوماً، «حيث لم نجد مدينة ولا قرية ولم نصادف سوى خــيام التتار الذين يرعون ماشيــتهم فى المراعى». والواقع أنهما لم يسيرا فى خط مســتقيم إلى الشرق، وإنما مالا على طريق التجارة المعــتاد الذى أوصلهما إلى بخارى، المدينة الـتى وجدا أنها «أفــضل مافى بلاد فارس قــاطبة». ومرة أخــرى وجدا نفسيهما محاصرين واضــطُرا للبقاء هناك ثلاث سنوات. وحدث أن مبعوثين من بلاد المغول الغربية كانوا يعبرون بخارى. وعندما أدركا أن «شرفاً عظيماً وربحاً سوف يعودان من ذلك» اقترحوا أن يسافر الأخوان بولــو معهم إلى بلاط الخان الأعظم الذى «لم يسبق له رؤية أحد

من اللاتين ولديه رغبة شديدة فى أن يراهم». فى ذلك الوقت، أى فى حوالى سنة ١٢٦٥، كانت قد مضت خمس سنوات على تولى قوبيلاى خان الحكم كخان أعظم.

والواقع أن قوبيلاى خان سُر أيَّما سرور برؤية زائريه الأوروبيين ووجه لهما العديد من الأسئلة وثيقة الصلة بوطنهما وحكامه. وفى النهاية أرسلهما كمبعوثين له إلى البابا فى روما وبصحبتهما واحد من كبار موظفيه (الذى أصابه المرض فى الطريق ولم يكمل الرحلة). وبالتحديد:

التمس من البابا أن يرسل ما عددهم مائة رجل يدينون بعقيدتنا المسيحية. رجال أذكياء على علم بالفنون السبعة مؤهلين للدخول فى جدال مع الوثنيين وغيرهم من الناس كى يثبتوا لهم بقوة البرهان أن شريعة المسيح هى الأفضل وأن ماعداها من الأديان باطل ولا قيمة له. وإن هم نجحوا فى إثبات ذلك فسوف يدخل هو وكل من يحكمهم فى المسيحية...(١)

أعطى الخان الأعظم الأخوين بولو لوحاً ذهبياً نُقش عليه أمره بأن يُقدم لهما «كل مايحتاجان إليه فى كل البلاد التى يمران بها»، بما فى ذلك الخيول والحرس الذى يرافقهما. وهكذا انطلقا إلى إيطاليا ومعهما تكليف إضافى بأن يأتيا لقوبيلاى خان «بشىء من زيت المصباح(٢) المضاء فوق ناووس سيدنا فى أورشليم».

ما قاله ماركو بولو بعد ذلك لايوضح لنا على وجه الدقة الطريق الذى سلكاه. ولكن الاحتمال الأكبر هو أنهما اتخذا طريق التاريم الشمالى عبر آسيا الوسطى وطريق الحرير عبر الهضبة الإيرانية. وكانت الرحلة البرية شاقة واستغرقت ثلاث سنوات:

... لأن سيرهما لم يكن متصلاً، إذ كانت الثلوج تحول دونه أحياناً ويمنعهم سقوط الأمطار من المضى قُدماً أحياناً أخرى. وفى بعض المرات كانوا يجدون السيول الشديدة فى حالة يستحيل معها عبورها.

وبدلاً من أن يسيرا فى الطريق القديم الذى يهبط بهما إلى السهول متجهاً إلى بغداد، وهو ما كان سيوردهما إلى طريق مسدود عند الصحراء السورية، وكانت لاتزال داخل البلاد

---

(١) هذا هو الكلام الذى وضعه كاتب رحلات ماركو بولو على لسان قوبيلاى. (المترجم).

(٢) زيت مقدس يزعمون أنه يشفى المرضى وكان بطريرك بيت المقدس وحده صاحب الحق فى بيعه للأساقفة والقسس. (المترجم).

المسلمة المعادية، بقيا فى طرق السفر الرئيسية الواقعة فى البلاد الصديقة حيث دارا حول بحر قزوين عبر أذربيجان وأرمينيا إلى عاصمة الإيلخان فى تبريز. وبعد ذلك سارا فى اتجاه الشمال الغربى إلى ملتقى الطرق الجبلية فى أرضروم. وكانت فى تلك الفترة فى سبيلها لأن تصبح مركز قوافل كبيراً. ومن هناك كانت المسافة قصيرة نسبياً، ١٢٠ ميلاً، إلى طرابزون على البحر الأسود، وكانت دولة تجارية مستقلة بلغت أوجها فى العصور المغولية.

ولكن الأخوين بولو اتخذا طريقاً بديلاً من أرضروم، حيث اتجها إلى الجنوب الغربى على هضبة الأناضول ليخرجا على السهول القريبة من خليج إيسوس، حيث ألحق الاسكندر يوماً الهزيمة بدارا. وكان الميناء الرئيسى هناك هو لاياس الذى يخدم كلاً من أنطاكية وأرمينيا الصغرى الدولة التى تكونت حديثاً. وقد سُميت بهذا الاسم بسبب العدد الكبير الذى هاجر إليها من البلد الواقع فى المرتفعات ويسمى فى الغالب بأرمينيا الكبرى. وبعد أن تحالف الأرمن مع المغول، لحماية أنفسهم وكرد فعل مضاد للمسلمين، كان ذلك هو الطريق المنطقى الذى يسلكه تجار البر مثل الأخوين بولو. وكما ذكر ماركو بولو فيما بعد، كانت لاياس:

> **... بها تجارة عظيمة. فلابد أن تعرف أن كل التوابل والعطارة والحراير والذهب وغيرها من البضائع الثمينة الآتية من داخل [آسيا] تصب فى هذه المدينة. ويأتيها تجار البندقية وچنوا وغيرهما من البلاد ليبيعوا بضائعهم وليشتروا مايحتاجون إليه. وكل من يسافر إلى الداخل، سواء كان من التجار أم من غيرهم، فإنه يمر على مدينة لاياس هذه.**

نحن الآن فى سنة ١٢٦٩، وبينما كان الأخوان بولو فى طريقهما إلى معقل الصليبيين فى عكا، علما بموت البابا[1] وبات عليهما أن ينتظرا ليحققا مطلب الخان الأعظم بعد أن يتمكن المسيحيون الأوروبيون من حل مشكلتهم الخاصة بمن يخلف البابا[2]. وفى الوقت نفسه رأيا أنه «بينما تجرى عملية انتخاب البابا» يمكنهما زيارة بيتيهما فى البندقية. وهناك وجدا أن زوجة نيكولو قد توفيت وأنه رُزق بولد لم يره منذ مولده وكان وقتها يافعاً اسمه

---

(١) البابا كليمنت الرابع الذى توفى فى التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٢٦٨. (المترجم).

(٢) ظل كرسى البابوية شاغراً لمدة ثلاث سنوات تقريباً لصعوبة الاتفاق على البابا الجديد بسبب مايحاك من مكايد داخل مجمع الكرادلة. (المترجم).

ماركو. ظل الأخوان بولو فى البندقـية سنتين إلى أن شعرا بأنه لم يعد فى وسـعهما انتظار انتخاب البـابا فتوجها إلى عكا. وفى هذه المرة كـان بصحبتهمـا ماركو ابن نيكولو. وهناك أعطاهم القاصد الرسولى تصريحـاً لدخول بيت المقدس، حيث يمكنهم على أقل تقدير أن يأتوا بالزيت الذى طلبـه قوبيلاى خـان. وعندما عادوا إلى عكا اسـتفسـروا عن الأمر من القاصـد الرسولى مرة أخـرى فبدا أن البابا الجـديد لم يُنتخب بعد، فـانطلقوا ببركـته إلى قوبيلاى خان.

وما كادوا يبلغون لاياس حتى استُدعوا إلى عكا. وكـانت مفاجأة القاصد الرسولى أنه هو من وقع عليه الاختيار ليكون بابا المسيحية ويصبح اسمه جريجورى العاشر. وبذلك أعد الردود اللائقـة على رسائل قـوبيلاى خـان وأرسل راهبين ليـصحـبا عـائلة بولو فى رحلة عودتهم إلى قره قورم. وكان هذان أبعد مايكونان عن العدد مائة المطلوب. إلا أن المسيحيين فى أوروبا، ودونهم بكثـيـر فى الإمارات الصلـيـبـية، لـم يكن لديهم الكثـير من الرجـال الموهوبين الذين يمكنهم الاستغناء عنهم. وفى ظل الاتصالات السابقة من خلال السفراء مع المغول، ربما تكون السلطة الكهنوتية المسيحيـة قد أدركت أن الخانات يفضلون الاستفادة من الموهوبين وأنه لايبدو أنهم قابلون للتحول إلى المسيحية. وقال كثيرون إن المسيحيين فى هذه الحالة ضاعت عليهم فرصة كسب المغول، وبالتالى آسيـا، إلى المسيحية. ومهما كان الأمر، فإن راهبين اثنين فـقط قد أُرسلا ثم عادا أدراجهما مع أول بادرة مـشاكل. حدث ذلك فى أرمينيا الصغرى التى شن المسلمون هجـوماً عليها. وكانت تلك هى أولى المشاكل فى رحلة العودة إلى قره قورم التى استغرقت ثلاث سنوات ونصف.

وهكذا سافر أفراد عائلة بولو بمفردهم إلى أرمينيا الكبرى، عبر أرزنجان الشهيرة بنسجها للبوكرام، وهو قمـاش من القطن أو الكتان ربما يكون اسمه مشتـقاً من اسم مدينة بخارى. وهنا قد تكون الأنباء التى وصلتـهم عن أهل الجبال المشاغبـين، الذين وُصفوا بأنهم «خلق شريرون متعـتهم سلب التجار»، وراء عدم مضـيهم شرقاً أبعد مما وصلوا إليـه. وكما ذكر ماركو بعد ذلك:

هناك العديد من المدن والقرى [فى بلاد الكرج]. وهم ينتجون الحرير بقدر كبير من الوفرة. كما أنهم ينسجون أقمشة من الذهب وكل أنواع الأقمشة الحريرية الفاخرة. وينتج هذا البلد أفضل أنواع صقر الباز فى الدنيا. وهى بحق لاينقصها شىء ويعيش الناس على التجارة والحرف.

والإقليم الذى تقع فيه جبلى وبه الكثير من الشعاب الضيقة والحصون. الأمر الذى أعجز التتار [المغول] تماماً عن إخضاعه.

وفى تلك المناطق التى لم يُثبِّت فيها المغول قواعد حكمهم، كانت التجارة لاتزال معرضة للخطر. وكان ذلك ينطبق على أجزاء كثيرة من بلاد فارس، التى لاحظ فيها ماركو بولو أنه:

إن لم يكن التجار مسلحين تسليحاً كافياً، فسوف يتعرضون للقتل، أو على الأقل سرقة كل مامعهم. ويحدث أحياناً أن تهلك قافلة بالكامل لعدم وجود حراسة.

وكانت نتيجة ذلك أن عائلة بولو اتجهت على مايبدو إلى الجنوب من هضبة الأناضول إلى مركز القوافل فى الموصل (بالقرب من نينوى) فى أعالى نهر دجلة. وذكر ماركو أن «كل الأقمشة المصنوعة من الذهب والحرير التى تسمى موسولين تصنع فى هذا البلد. وأن هؤلاء التجار العظام الذى يُسمون موسولين، ويبيعون تلك الكميات الكبيرة من التوابل والعطارة واللؤلؤ والأقمشة الحريرية والذهب، هم أيضاً من هذه المملكة».

بعد ذلك اتجهوا جنوباً مع النهر حتى بلغوا مدينة بغداد التى «كانت فى الماضى مقر خليفة كل المسلمين فى العالم، شأنها شأن روما التى هى مقر بابا كل المسيحيين». ومنذ أن نهب المغول بغداد لم تعد قط إلى ماكانت عليه من رفعة فى الماضى، ولكنها كانت لاتزال معروفة بأنها «أشرف وأعظم مدينة فى تلك الأصقاع» حيث «تمر أعداد كبيرة من التجار ومعهم بضائعهم». وسمع ماركو بولو إشادة بأقمشة بغداد الحريرية وديباجها و«كثير غيرها من الأقمشة الجميلة التى عليها نقوش حيوانات وطيور». وبعد أن ساروا مع دجلة فى اتجاه الخليج الفارسى ثم ركبوا السفينة إلى ميناء هرمز، اتخذوا طريقاً برياً يوصلهم إلى طريق الحرير شرقى بلاد فارس.

ورغم ذلك كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر. فما إن عبروا البلاد التى خرّبها المغول حتى وجدوا كثيراً من القرى والمدن ذات الأسوار، التى أثْرت يوماً بالتجارة، وقد سكنتها عصابات اللصوص. وعن إحدى هذه العصابات قال ماركو بولو:

عندما يريد هؤلاء شن غارة للسلب والنهب، فإن لهم سحراً شيطانياً يغطشون به النهار، بحيث لايمكنك رؤية رفيقك الذى يسير بجانبك. وهذه الظلمة يجعلونها تمتد إلى مسيرة سبعة أيام. وهم يعرفون البلاد

معرفة وثيقة ويسيرون بخيولهم جنباً إلى جنب، حيث يصل عددهم فى بعض الأحيان إلى عشرة آلاف، قد يزيدون أو ينقصون فى أوقات أخرى. وبهذه الطريقة ينتشرون فى كامل السهل الذى ينوون سلبه ويأخذون كل شىء حى يجدونه خارج المدن والقرى، سواء كان رجلاً أم امرأة أم بهيمة. فلا شىء يفلت منهم! والرجال المسنون الذين يأسرونهم بهذه الطريقة يذبحونهم. أما الشبان والشابات فيبيعونهم رقيقاً فى بلاد أخرى؛ وهكذا تُدَمر الأرض كلها وتصير إلى مايشبه الصحراء.

ولم تكن الأخطار التى تحدث عنها مجرد حكايات أُلقيت على مسمعيه. وهو مايتضح من وصف روستيكيللو، الكاتب الذى أملى عليه ماركو حكايته بعد ذلك فى أحد سجون جنوا:

... وكادت عصاباتهم أن تمسك بالسيد ماركو نفسه فى واحدة من تلك الظلمات التى حدثتكم عنها. ولكنه نجا بمشيئة الرب واختبأ فى إحدى القرى القريبة منه... ومع ذلك فقد كل من كانوا فى صحبته ماعدا سبعة أفراد فروا معه. أما الآخرون فأمسكوا بهم وبيع بعضهم وقُتل البعض الآخر.

ورغم ما نجده من خيال فى الحديث عن «الظلمة» وغيرها من أعمال اللصوص السحرية، لابد أن نتذكر أنه إذا كان التاريخ قد كُتب بأقلام المنتصرين فإن كتب الرحلات كتبها الناجون. فمقابل كل من ماركو بولو أو تشانج تشون، كم من الرحالة لقوا حتفهم على طريق الحرير العظيم دون أن يسجل أحد وفاتهم؟

***

وبعد اجتياز آل بولو «صحراء شديدة الجدب»، بلغوا طريق الحرير شرقى بلاد فارس حيث وجدوا «العديد من المدن والقرى» التى «يتوافر فيها كل شىء طيب. فالمناخ غاية فى الاعتدال». وهناك سمعوا عن شيخ الجبل وحشاشيه، وكيف أنهم ذاقوا الهزيمة على أيدى المغول. إلا أن ذلك حدث فى طبرستان الواقعة خلفهم ناحية الغرب. وهاهم آل بولو يمضون عبر تركستان الغربية إلى بلخ:

... يسير المرء فى سهول غنّاء وأودية جميلة وعلى سفوح بهية تنبت

عليها مراعى الكلأ الوفير وتكثر فيها الفواكه وغيرها من الخيرات، وتسعد الجيوش بالإقامة هنا لوفرة ما بهذا المكان. وهذا النوع من الأرض يمتد لمسيرة ستة أيام ويتخلله عدد كبير من المدن والقرى وأهلها يعبدون محمداً[١]. وفى بعض الأحيان قد تقابلك أرض صحراوية تمتد لمسافة ٥٠ أو ٦٠ ميلاً أو أقل. وفى هذه الصحارى لاتجد الماء الذى لابد أن تحمله معك. وتظل الدواب بلا شرب حتى تجتاز الصحراء وتصل إلى مواضع الماء.

وبعد سفر ستة أيام، كما أسلفت، تصل إلى مدينة تسمى سابورجان [غربى بلخ]. كل شىء متوافر فيها، وخاصة أفضل شمام فى العالم. وهم يحفظونه بتقطيعه إلى رقائق ثم يجففونه فى الشمس. وعندما يجف يكون أحلى من العسل ويحملونه إلى أنحاء البلاد لبيعه. وهناك أيضاً وفرة من حيوانات الصيد وطيوره.

أما بلخ نفسها فوجدها مدينة شهدت أيام عز قبل أن يعمل فيها المغول «التخريب والتدمير». ومن بين «الكثير من الأماكن الجميلة والمبانى الرخامية» لم يتبق إلا الأطلال. وهناك زائر آخر للمدينة، هو الرحالة المسلم العظيم ابن بطوطة[٢] الذى رآها بعد ٦٠ سنة وأضاف هذا إلى وصف المدينة التى لاحياة فيها: «ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن، ونقوش مبانيها مدخلة بأصبغة اللازورد». بل إن القرى والريف الذى يلى بلخ كان شاهداً على ماحدث من تدمير، حيث وجد ماركو أن:

... المرء يسير حوالى ١٢ يوماً إلى الشمال الشرقى والشرق، دون أن تقابله مساكن للبشر. فالناس قد لجأوا إلى الحصون التى فى الجبال تحسباً لهجوم اللصوص والجيوش التى تتحرش بهم. والماء كثير على الطريق، كما أن الصيد وفير. وهناك أيضاً السباع. ولكن لايمكنك

---

(١) هذا التصور سببه الفهم الخاطىء للإسلام وهو الذى جعل بعض الأوروبيين ينسبون دين الإسلام لمحمد صلى الله عليه وسلم، الذى لم يفعل المسلمون معه كما فعل النصارى مع عيسى عليه السلام من إضفاء صفة الألوهية عليه. (المترجم).

(٢) محمد بن عبدالله اللواتى المكنى بأبى عبدالله. أما اسم ابن بطوطة فقد اشتهر به هو وعائلته. وُلد فى ٢٥ فبراير سنة ١٣٠٤ ميلادية فى مدينة طنجة شمالى المغرب. وكانت عائلته تشتهر بالقضاء وتنتمى إلى قبيلة لواتة البربرية. بدأ رحلته سنة ١٣٢٦ حتى وصل إلى الصين شرقاً. (المترجم).

الحصول على أى مؤن وأنت فى الطريق، إذ لابد أن تحمل معك مايكفيك ١٢ يوماً.

وعندما دخلوا جبال البامير مروا فى إقليم بذخشان (حيث يقع الموطن الأصلى لـ«الغربيين» الذين يُعزى إليهم إدخال الزراعة والنسيج الصين فى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد) وتعجبوا من حكايات الياقوت واللازورد الفاخر الثمين الذى يُستخرج من هناك. ولاحظ ماركو أن ذلك البلد البارد تُربى فيه خيول ممتازة «تجرى بسرعة كبيرة حتى فى المنحدرات، حيث لايستطيع سواها من الخيول أن يحذو حذوها»، وهى صفة مميزة لأن الطرق الجبلية كانت غاية فى السوء. وبينما كان ماركو فى بلخ سمع عن زواج الإسكندر من روكسانا. لذلك سمع هناك أن بعض خيول بذخشان تعود أصولها إلى «نسل فرس الإسكندر بوسيفالوس».

وبينما كان الرحالة على مر العصور يشكون من المشاق والمخاطر التى يجدونها على جبال البامير، كان ماركو بولو بليغاً فى مدحه للجبال. ربما لأنه أمضى وقتاً هناك يستجم فيه بعد المرض الذى ألم به، مما جعله يتعود على هواء المرتفعات الذى يقل فيه الأوكسجين:

تلك الجبال شاهقة الارتفاع، الأمر الذى يجعل الصعود إلى قمتها يستغرق نهاراً كاملاً، من الصباح حتى المساء. وعندما تصعد تجد سهلاً فسيحاً ذا كلأ وأشجار وفيرة وينابيع غزيرة ينساب ماؤها الزلال بين الصخور والوهاد. وفى تلك الجداول تجد أسماك السالمون المرقَّط وغيره من الأنواع اللذيذة. والهواء فى تلك الأقاليم شديد الصفاء والإقامة فيها تجلب الصحة، حتى أنه إذا وجد من يعيشون أسفلها فى المدن، وفى الأودية والسهول، أنهم أصيبوا بالحمى، أو أى علة أخرى قد تلم بهم، هبوا على الفور إلى التلال. وبعد قضاء يومين أو ثلاثة أيام هناك يستردون عافيتهم بسبب جودة الهواء.

وبعد أن سار آل بولو فى «كثير من المضايق المحفوفة بالمخاطر التى بلغت وعورتها حداً جعل الناس لايخشون غزواً»، وصلوا الهضاب العالية التى اشتقت الجبال اسمها منها:

يطلق على السهل اسم بامير ويمكنك أن تسير فيه بالفرس اثنى عشر يوماً متصلة دون أن تجد شيئاً سوى الصحراء التى تخلو من المساكن

أو أى شىء حى، مما يضطر المسافرين إلى حمل كل مايحتاجون إليه. وتلك الأرض شديدة الارتفاع والبرودة بحيث لاترى طيراً محلقاً. [أشار العديد من علماء الطبيعة إلى أنه من المحتم أن آل بولو عبروا هذه المنطقة فى الشتاء، لأنها فى الشهور الدافئة تعج بالطيور]. ولاحظت أيضاً أنه بسبب البرد القارس [وهو فى واقع الأمر هواء المرتفعات الذى يقل فيه الأوكسچين] لاتشتعل النار اشتعالاً قوياً ولا تصدر عنها حرارة شديدة كالمعتاد، إلى جانب أنها لا تطهو الطعام طهواً تاماً.

وهكذا ساروا ٤٠ يوماً على الأقل وهم يشقون طريقهم بصعوبة بين الجبال متجهين إلى الشمال والشمال الشرقى:

... سائرين دوماً فى الجبال والتلال أو خلال الأودية ومجتازين الأنهار والفيافى. وطوال هذا الطريق لاتجد سكناً لبشر ولا أى شىء أخضر. ولابد أن تحمل معك كل مايلزمك.

والإقليم الذى مروا فيه، عند منابع نهر يرقند، قد يكون هو نفسه موقع تاشكرجان التى كان يلتقى فيها التجار الهنود والصينيون والبارثيون فى زمن الرومان. وليست البلاد كلها شديدة الجدب وخالية من الحياة، فعبورها مرة أخرى فى وقت لاحق من السنة سوف يفسر ذلك الوصف بعض الشىء.

وفى آخر المطاف خرج آل بولو إلى الجانب الشرقى من جبال البامير عند كاشغر، التى وجدها ماركو بلداً ذا «بساتين جميلة وكروم وضياع لطيفة» ومنها «يخرج تجار كثيرون يجوبون الدنيا فى أسفار تجارية». وبعد أن أشار إلى أن سكان غالبية المدن التى مروا عليها أكثرهم مسلمون، يبدو أنه سُر لاستطاعته القول بأنه فى كاشغر كان هناك «مسيحيون نسطوريون كثيرون لهم كنائسهم». كما أشار إلى أن سمرقند (التى لم يزرها وزارها أبوه وعمه فى رحلتهما السابقة) كان يسكنها كذلك «كل من المسيحيين والمسلمين».

وسجل ابن بطوطة، الذى سافر عبر تركستان بعد مايقرب من ٦٠ سنة من عبور ماركو بولو لآسيا، دمار سمرقند التى كانت يوماً مدينة عظيمة، رغم إدراكه أن المغول لم يكونوا السبب الوحيد، أو حتى الرئيسى، وراء ذلك. ورغم أنها كانت لاتزال فى ذهنه «من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً»، وهو مديح له شأنه لأنه صادر عن رجل طاف بأنحاء العالم الإسلامى والمغولى. ومع ذلك تحسر على أنه:

فيما مضى كانت على شواطئه قصور عظيمة وعمارة تُنبىء عن علو همم أهلها، فدُثر أكثر ذلك. وكذلك المدينة خُرِّب معظمها، ولا سور [يحتمل أنه لم يعاد بناؤه بعد تدمير المغول له] ولا أبواب عليها وفى داخلها البساتين [قد يعنى بذلك السوق وليس حدائق للمتعة].

وفى يرقند، وهى المدينة الكبرى التالية التى مر عليها آل بولو، وجدوا مسيحيين أيضاً. كما لاحظوا شيئاً مازال يلفت نظر المراقبين المحدثين، وهو أن عدداً كبيراً من الناس مصاب بالجوتر (تضخم الغدة الدرقية). وقد رأى ماركو بولو أن هذا مرجعه «إلى بعض مايتميز به الماء الذى يشربونه». ولكننا نعرف اليوم أن السبب فى ذلك هو نقص اليود فى الغذاء. وبعد أن هبط آل بولو إلى حوض التاريم وساروا بمحاذاة حافته الجنوبية، بلغوا خوتان. ورغم أنهم وجدوا هناك أن الناس لديهم كروم وبساتين وضياع» و«يعيشون على التجارة والصناعة»، فقد ذكروا تغييرا كبيراً واحداً حدث منذ تلك الأيام التى كان فيها هذا الطريق هو المفضل لدى الحجاج البوذيين المتجهين إلى الهند. فها هو ماركو يقول «إنهم جميعاً ممن يعبدون محمداً».

وتساءل البعض عما إذا كان ماركو قد خلط بين عبادة الأوثان (وهو رأى الغربيين فى البوذية) والإسلام لكون الكلمتين الإسلاميتين اللتين تدلان على الاثنين تشبهان بعضهما من حيث الصوت[1]. وسواء حدث ذلك أم لا، فإن وصف ماركو كان على الأقل تنبؤاً دقيقاً لما أصبح عليه الأمر فى المستقبل. فخوتان كانت بالفعل فى سبيلها لأن تصبح مركزاً إسلامياً كبيراً فى آسيا الوسطى.

وفى هذا المكان وإلى الشرق منه كانت هناك أنهار يغوص فيها الغواصون منذ آلاف السنين لاستخراج اليشب. وعن شرشان[2] (شان شان)، حيث الناس أيضاً «يعبدون محمداً»، قال:

يضم هذا الإقليم أنهاراً تأتى باليشب والعقيق الأبيض الذى يُنقل إلى خطاى حيث يباع بأثمان غالية.

وبعد ذلك وجد آل بولو أن:

---

(١) ربما يقصد «الإسلام» و«الأصنام» اللتين قد يخلط بينهما من لايتحدث العربية لتقاربهما صوتياً وخاصة عندما ينطق بهما أهل تلك البلاد من غير العرب، حيث يتأثر نطق الكلمات العربية باللسان الأصلى لهؤلاء المسلمين. (المترجم).

(٢) اختلفت المصادر بشأن موقعها. إلا أنها قد تكون إلى الجنوب من واحة هامى بالقرب من لوب نور (المترجم).

أرض الإقليم كلها رملية وكذلك كل الطريق الذى يبدأ من بين، وكثير من الماء الذى تجده مر ولا يصلح للشرب... وبعد مغادرة شرشان تسير خمسة أيام فى الرمال حيث لاتجد سوى الماء المر. ثم تصل بعد ذلك إلى مكان الماء فيه حلو. وهناك تقوم مدينة... تسمى لوب... وهى عند مدخل صحراء [لوب] الكبرى. وهنا يستريح المسافرون قبل دخولهم الصحراء.

***

وهكذا وصل آل بولو إلى حافة الصحراء المالحة التى كانت مصدراً لشقاء المسافرين عبر آلاف السنين. وقد تعاملوا مع هذه الصحراء العجيبة بحرص وحذر واستعدوا استعداداً خاصاً للرحلة:

... هؤلاء الذين يعتزمون عبور الصحراء يستريحون أسبوعاً فى هذه المدينة ليجددوا نشاطهم ونشاط دوابهم. وبعد ذلك يستعدون للرحلة ويأخذون معهم من المؤن ما يكفيهم والدواب شهراً.

وعلى الطرف الأقصى من الصحراء كانت تقوم مدينة ساتشيو (مدينة الرمال) التى نعرفها باسم تونهوانج. وهنا وجد آل بولو أن «الغالبية من عبدة الأوثان. ولكن هناك أيضاً بعض المسيحيين النسطوريين وبعض المسلمين». والوثنيون يتحدثون «لغة خاصة بهم». وربما يكون ذلك إشارة إلى أهل التبت الذين وفدوا على هذا الإقليم مع انهيار أسرة تانج. ولكن الشىء الأكثر غرابة هو ماقاله عن كونهم «ليسوا تجاراً». وربما ما كان يريد قوله ببساطة هو أن البوذيين من أهل التبت تركوا التجارة لغيرهم. ولكن التعليق يعكس كذلك تلك الأيام المظلمة التى عاشها ذلك الجزء من طريق الحرير.

إن آل بولو الآن فى تونهوانج عند رأس ممر كانسو، وهو المدخل إلى الصين نفسها. وحتى إذا كان آل بولو، كسفراء للخان، مضطرين للذهاب إلى بلاطه أول مايذهبون، فلابد أن نتوقع منهم بعض الكلمات التى تنم عن إعجابهم بمدن الحرير العظيمة. أما كونهم صامتين، فهذا تأمل حزين فيما آلت إليه مدينتا تشانج آن ولو يانج ـ سيرا متروبوليس وسينى متروبوليس. والواقع أنهما تعرضتا للدمار فى عهود أسرات متعاقبة من البدو ثم انحرف الطريق ليبعد عنهما. ورغم إعادة بنائهما، فإن أياً منهما لم تستعد ما كانت عليه من عظمة.

أما الأسرات الشمالية فجعلت عواصمها فى أماكن أخرى إلى الشرق، حيث يمكن حمايتها بشكل أفضل، أو إلى الشمال، حيث تكون أقرب إلى موطنها فى السهوب. واسم بكين (بيه چنج)، ومعناها «العاصمة الشمالية»، شاهد على نقل مركز الحكم. وكان الاسم البديل للمدينة على مر العصور هو بيه بنج ومعناها «السلام الشمالى». (وأطلق المغول عليها خان باليق أى «مدينة الخان»). إلا أن هاتين كانتا عاصمتين صينيتين. أما المغول فاتخذوا لبلاطهم الرئيسى مكاناً آخر، فى قره قورم فى الشتاء وفى شانجتو (البلاط العالى) فى الصيف، وهى التى خلدها كوليردج[1] باسم زانادو، وتقع شمالى بكين وشرقى قره قورم. وذهب آل بولو إلى هاتين المدينتين الشماليتين لإتمام مهمتهم.

وخط سيرهم ليس واضحاً وضوحاً تاماً، حيث يذكر ماركو بولو عدداً من المدن التى زارها فى غير هذه الرحلة فى فترة إقامتهم بعد ذلك فى الشرق المغولى، مرتبة ترتيباً جغرافياً. وربما كانت مغادرتهم لمر كانسو عبر الواحة النهرية المسماة إتسين جول. ومن المحتمل أنهم استعدوا مرة أخرى لرحلة فى الصحراء فى نقطة عسكرية تسمى إتسينا أقامها قوبيلاى خان:

فى هذه المدينة لابد أن تعد مؤناً تكفى أربعين يوماً. فعندما تغادر إتسينا تدخل صحراء تسير فيها أربعين يوماً إلى الشمال دون أن تجد أحداً يعيش فيها...

هذه هى صحراء جوبى المخيفة. ولابد من اجتياز جزء كبير منها للوصول إلى المدن المغولية. وليس لدى ماركو الكثير مما يقوله عن قره قورم نفسها سوى أنها مدينة «محيطها ثلاثة أميال... حولها سور قوى من الطين»، وبها قلعة عظيمة وقصر لطيف للحاكم.

أما شانجتو فهو التى استحوذت على مخيلته. ومن الواضح أن وصفه لها هو ما أوحى للشاعر كوليردج بقصيدته عن «قبة المتعة العظيمة» التى أمر بإقامتها قوبيلاى خان:

هذا المكان [شانجتو] فيه قصر من الرخام غاية فى الجمال. غرفه جميعاً مطلية بالذهب وعليها صور للإنسان والحيوان والطير وأنواع

---

(١) صموئيل تايلور كوليردج شاعر رومانسى إنجليزى (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) وكان أيضاً فيلسوفاً وناقداً أدبياً. وتعد «قوبيلاى خان»، التى تجدون مقطعاً منها فى صدر هذا الفصل، إحدى ثلاث قصائد كانت السبب فى شهرته كشاعر. كما أنها أبرزت الجانب الغامض فى الرومانسية البريطانية. (المترجم).

كثيرة من الأشجار والزهور. وجميعها مرسومة بأسلوب فنى رائع يسرك إن أنت نظرت إليها وتتملكك الدهشة.

وشُيد حول القصر سور يحيط بأرض مساحتها ١٦ ميلاً. وهناك نافورات داخل المنتزه وأنهار وجداول ومروج جميلة. وفيه أيضاً كل أنواع الحيوانات البرية (ماعدا ذات الطبيعة الشرسة)، التى جمعها الإمبراطور ووضعها هناك لتكون غذاء لصقوره وسناقيره التى يحفظها هناك فى أقفاص. ومن بين هذه ٢٠٠ من السناقير وحدها، بخلاف الصقور الأخرى. ويذهب الخان نفسه كل أسبوع لرؤية طيوره وهى جالسة فى أقفاصها. وفى بعض الأحيان يجوب المنتزه على فرسه وخلفه فهد يحمله على كفلها. فإذا ما استهواه حيوان رآه أطلق عليه فهده. ويعد ذلك يؤخذ الصيد ليكون طعاماً للصقور فى أقفاصها. وهو يفعل ذلك من أجل اللهو والتسلية.

وله فى جزء من المنتزه به غابة ساحرة قصر آخر بنوه بالغاب الهندى (البامبو)... وهو مطلى بالكامل بالذهب وداخله أبدع مايكون من حيث اللمسات الفنية. فيه أعمدة مطلية بالذهب واللك على كل منها تنين مطلى كله بالذهب وذيله متصل بالعمود فى حين تسند الرأس عارضة السقف، بينما تمتد مخالبه يميناً ويساراً لتحمل العارضة. والسقف، شأنه شأن سائر القصر، مصنوع من الغاب المغطى بطبقة سميكة من الورنيش القوى كى لايبليه ماء المطر. والواحدة من هذا الغاب محيطها ثلاثة أشبار ويتراوح طولها بين ١٠ أشبار و١٥ شبراً. وهى تُقَطَّع بالعرض عند كل كعب ثم تُشق هذه القطع بحيث تتكون منها بلاطتان مجوفتان. وهذه البلاطات يُسقَّف بها المنزل... خلاصة القول أن القصر بكامله مُشيد بهذا الغاب الذى... يُستخدم أيضاً فى العديد من الأغراض المفيدة. ورُوعى فى تصميم القصر أن يكون فكُّه وتركيبه على قدر كبير من السهولة. فهو يُفَك إلى قطع وينقل متى أمر بذلك الإمبراطور. وبعد نصبه يؤمنونه ضد نوائب الريح بأن يثبتوه بأكثر من ٢٠٠ حبل حريرى تُشد إلى أوتاد فى الأرض.

ويقيم الخان فى متنزهه هذا، حيث ينزل أحياناً فى القصر الرخامى وفى أحيان أخرى فى قصر الغاب، ثلاثة أشهر من السنة، هى يونيو ويوليو وأغسطس. وهو يفضل هذا المقر لأنه ليس حاراً بالمرة. وهو بحق مكان بارد. وما إن يحل اليوم الثامن والعشرون من أغسطس حتى يرحل ويُفك قصر الغاب.

أقام آل بولو فى الصين (الجزء الشمالى منها يُسمى خطاى والجنوبى مانزى) مايقرب من ١٦ سنة قضوها فى التنقل فى أنحائها خدمة للخان. وبما أن قوبيلاى خان وخلفاءه كانوا حديثى عهد بالبلاد الأجنبية التى استولوا عليها، فقد كانوا فى ريب من المستشارين الصينيين الذين استعاضوا عنهم بالأجانب فى الإدارة، كلما أمكن ذلك. ولو كان البابا المسيحى أرسل ١٠٠ راهب لصاروا بالدرجة الأولى موظفين فى جهاز الخان الإدارى، بغض النظر عن حبه للتنازع الدينى. ولم يكن بمقدور آل بولو أنفسهم الحصول على إذن بالرحيل لولا مرافقتهم لأميرة مغولية إلى زوجها المنتظر فى إيلخانية فارس. وعودتهم بطريق البحر حول الهند، وليس بطريق البر، اعتراف بصعوبة السفر على طريق الحرير. وقد حذر مستشارو الخان من «عظم مشقة تلك الرحلة البرية الطويلة على سيدة».

وبعد رحلة فى طريق التوابل نزلوا فى ميناء هرمز الفارسى وعبروا جنوب غربى فارس ليصلوا تبريز التى كانت وقتها العاصمة الفعلية لإيلخانية فارس، حيث أوصلوا العروس بسلام، بينما «بكت حزناً على الفراق». ورغم الاضطرابات التى كان الجزء الفارسى من طريق الحرير يشهدها، وجد آل بولو أن تبريز والإقليم الواقعة فيه فى حالة ازدهار:

التجارة والصناعة هما مصدر رزق أهل تبريز. فهم ينسجون أنواعاً جميلة وثمينة من الحرير المُقَصَّب بالذهب. وللمدينة موقع ممتاز جعل البضائع تأتيها من الهند وبغداد وهرمز [فى فارس] وأقاليم كثيرة غيرها. وهذا يجتذب كثيرين من التجار اللاتين، وخاصة أبناء جنوا، كى يأتوا لشراء البضائع والقيام بأعمال تجارية أخرى فيها. وهى أيضاً سوق كبيرة للأحجار الكريمة. إنها بحق مدينة يجنى منها التجار أرباحاً كبيرة.

وذكر ماركو بولو أن أهل جنوا كان لهم نشاط كبير فى بحر قزوين، الذى أخطأ عندما قال إن نهر الفرات يصب فيه. وهذا دليل على ضآلة المعلومات الجغرافية التى كانت لدى

الرحالة الأوائل. كما أشار إلى أن تجار چنوا «بدأوا مؤخراً فى السفر بالبحر، حيث يُحملون سفنهم إلى الجانب الآخر ويدشنونها فيه». وهذا النوع من التجارة البحرية (الذى بدأ قبل عدة قرون كنوع من الإغارة البحرية، عندما نجح الروس فى الوصول إلى بحر قزوين بالقرب من الخزر) يُعد شاهداً على دور چنوا المتزايد فى التجارة الشرقية فى ذلك الوقت. وعندما استعاد البيزنطيون القسطنطينية سنة ١٢٦١، كان ذلك بمساعدة چنوا التى استفادت من الاتفاقيات التجارية التفضيلية التى نتجت عن ذلك. وكانت الجاليات التجارية الإيطالية، وخاصة أهل چنوا، موجودة فى أنحاء الإقليم.

وهكذا عبر آل بولو أرمينيا الكبرى إلى أرضروم (التى أُطلق عليها هذا الاسم تخليداً لحكم البيزنطيين الذى دام فيها عدة قرون قبل مجىء الترك السلاجقة). وأثناء عبورهم، ذكر ماركو ينابيع النفط الشهيرة فى بلاد الكرج قائلاً:

هذا الزيت لايصلح فى الطعام، ولكنه صالح للحرق. وهو يستخدم كذلك فى طلاء الأجرب من الجِمال.

وفى العصور الحديثة، هذه هى حقول البترول الغنية التى تحصل منها روسيا على ما تحتاجه وتتركز فى ميناء باكو على بحر قزوين. وخرجت القافلة من التلال عند طرابزون، وهى ميناء على البحر الأسود أبحروا منه إلى القسطنطينية ونجرو بونتى (وهى جزيرة فى بحر إيجة من محميات البندقية) ومنها إلى موطنهم البندقية.

***

وبذلك يكون آل بولو قد أكملوا رحلتهم، التى لم يسبق لها مثيل، من أوروبا إلى الصين براً ثم العودة. والواقع أنها الرحلة الثانية غير العادية، ذهاباً وعودة، لكل من نيكولو ومافيو. ولكن إذا كان آل بولو هم أول من قاموا بتلك الرحلة، فهم ليسوا آخرهم. ولا ندرى إن كان الآخرون اتخذوا نفس الطريق الذى ساروا عليه أثناء إقامتهم فى الشرق أم لا. ولكن ما إن عاد آل بولو بما يروونه عن ثروات الشرق حتى انطلق كثيرون من تجار أوروبا، وخاصة الإيطاليين منهم، يسيرون على خطاهم.

كما أنهم لم يكونوا وحدهم على طريق الحرير. ففى فترة السلام النسبى الذى حل بآسيا على يد المغول، استطاع ورثة المهن التجارية أن يشقوا طريقهم فى الصحراء والجبال. واستمر الخانات فى دعمهم للتجار كى يعملوا فى تجارتهم بعيدة المدى، إذ كان ذلك يحقق

لهم أعظم الفوائد. فكثيرون من التجار وقتها صاروا مسلمين، وإن اختلفت أصولهم العرقية. وكان الإسلام يشجع التجار ويضعهم فى مكانة اجتماعية أعلى من تلك التى يضعهم فيها أى دين آخر. واستمر أصحاب الديانات الأخرى فى العمل على طريق الحرير فى الوقت نفسه. وكما اعتمد قوبيلاى خان على المستشارين الأجانب لعدم ثقته فى رعاياه الصينيين، آثر أوائل إيلخانات فارس استخدام المسيحيين واليهود كلما أمكن ذلك، تحسباً لخيانة رعاياهم المسلمين. وينطبق ذلك بصورة خاصة على طبرستان التى كانت لاتزال متأثرة بالأفكار التى ساهمت فى ظهور طائفة الحشاشين.

وبما أن التجارة كانت تحقق فائدة للخانات، فقد سعوا إلى توفير الأمن للتجار وغيرهم من المسافرين على الطريق. فعلى سبيل المثال، كان على عامة أهل فارس أن يعملوا بالسخرة على الطرق وفى الحصون التى تحميها. وكان عليهم أيضاً رعاية الخيول والحمير اللازمة لشبكة الاتصالات الواسعة التى تربط الإمبراطورية المغولية. وبلغت الخدمة البريدية فى الأراضى الصينية فى عهد المغول أقصى اتساع لها وكانت فى أكمل حالاتها. وعلى سبيل المثال، وصف ماركو بولو بشىء من التفصيل الخدمة البريدية الممتدة بين عاصمة المغول خان باليق (بكين) والأقاليم القريبة منها:

والآن فلتعلم أنه يخرج من مدينة خان باليق طرق كثيرة تؤدى إلى أقاليم عديدة، طريق إلى إقليم ما وآخر إلى غيره. وكل طريق يسمى باسم الإقليم المؤدى إليه. وهذه طريقة معقولة. أما رسل الإمبراطور المنطلقون من خان باليق متخذين ما شاءوا من هذه الطرق، فيجدون كل خمسة وعشرين ميلاً من سفرهم محطة يطلقون عليها يامب، أو لنقل «دار الخيل والبريد». وفى كل محطة من هذه المحطات التى يستخدمها الرسل بناء كبير جميل المنظر يأوون إليه، كل غرفة بها أسرّة لطيفة كل لوازمها من الحرير الثمين. ويُقدم لهم فيها كل مايحتاجون إليه. بل إنه إذا نزل ملك فى واحدة من هذه المحطات لوجد أنه نزل منزلاً لائقاً.

وفى بعض هذه المحطات وُضعت نحو أربعمائة فرس معدة لاستعمال الرُسل. وفى غيرها وُضع مائتين. كل ذلك حسب الحاجة وتبعاً لما أمر به الإمبراطور فى كل حالة. وبعد كل خمسة وعشرين ميلاً، كما

أسلفت، وربما كل ثلاثين مـيـلاً، نجـد واحـدة من هذه المحطات على الطرق الرئيسيـة المؤدية إلى الحكومات الإقليميـة المختلفة. والحـال كذلك فى كل أنحـاء الأقاليم الرئيسية الخاضعة للخان الأعظم. وحتى فى حال اضطرار الرسل إلى المرور فى أصقاع لا طرق فيها وليس بها منزل أو نُزُل، هناك أيضاً الدور المحطات التى أُقيمت بنفس الطريقة، غير أن المسافات التى تفصل بينها أكبر. كما أن المرحلة التى يقطعها الفارس فى اليوم الواحد تتراوح بين خمسة وثلاثين وخمسة وأربعين مـيلاً، بدلاً من خـمسة وعشرين إلى ثلاثين. إلا أن بها خيولاً وكل اللوازم التى سبق وصفها، بحيث إذا ما جاء رسل الإمبراطور من أى صوب وجدوا كل شىء معداً لهم.

والواقع أن هذا ما هو إلا شىء واحد من بين أكبر آيات العظمة التى لم يشهد مثلها أحد. ولم يكن يوما لإمبراطور أو ملك أو زعيم مايدل عليه هذا كله من ثروات! فحقيقة الأمر أن مافى محطات البريد مجتمعة يزيد على ٣٠٠ ألف فرس مخصصة لاستخدام الرُسل. والأبنية العظيمة التى ذكرتها يزيد عددها على ١٠ آلاف جميعها مؤثث تأثيثاً فاخراً كما أسلفت. وهذا أمر من العجب وعظم التكلفة بحيث يصعب على المرء وصفه...

واعلم أنه بناء على أوامر الخان الأعظم أُقيم بين دور البريد هذه ويعد كل ثلاثة أميـال نقطة للجنود يحيط بها نحو أربعين منزلاً يقيم فيها عدَّاءو الإمـبـراطور. وكل واحـد من هؤلاء العـداءين يتـمنطق بحـزام عريض عليه أجراس، فما إن يجرى مسافة الثلاثة أميـال التى بين نقطة وأخرى حتى تُسمع أجراسـه وهى تجلجل من على بُعـد. وعند وصوله إلى النقطة يجد رجلاً آخر على هيئته مستعداً لأن يحل محله وعلى الفور يحمل عنه المهمة المكلف بها ويأخذ بذلك ورقة من الكاتب الموجود دائماً لهذا الغرض. وهكذا ينطلق الرجل الآخر ثلاثة الأميال الخاصة به. وفى المحطة التالية يتم ماحدث فى سابقتها. وهكذا يمضى البريد مع التبديل كل ثلاثة أميال. وبهذه الطريقة يتلقى الإمبراطور، الذى يعمل لديه عدد ضخم من هؤلاء العدائين، رسائل تحمل أخباراً

من أماكن على مسيرة مائة يوم فى عشرة أيام بلياليها. وهذا ليس بالأمر الهيّن! (والواقع أنه فى موسم الفاكهة كثيراً ماتُقطف ذات صباح فى خان باليق لتكون فى مساء اليوم التالى عند الخان الأعظم فى شانجتو، وبينهما مسيرة عشرة أيام. وفى كل محطة يسجل الكاتب موعد وصول العدائين ومغادرتهم. وهناك موظفون آخرون عملهم هو القيام بزيارات تفقدية كل شهر لكل النقاط، حيث يعاقبون العدائين الذين يتهاونون فى عملهم). ويعفى الإمبراطور هؤلاء الرجال من كل أنواع الضرائب ويدفع لهم رواتب.

وعلاوة على ذلك، هناك أيضاً فى تلك المحطات رجال آخرون ممنطقون بأحزمة شبيهة تتدلى منها أجراس يتولون أعمال البريد السريع، عندما تكون هناك ضرورة لوصول رسالة ما إلى حاكم أحد الأقاليم على وجه السرعة، أو الإبلاغ عن تمرد أحد كبار الموظفين أو ما شابه ذلك من حالات الطوارىء. وهؤلاء قادرون على الجرى مسافة مائتى ميل تقريباً بالنهار ومثلها بالليل. وسوف أفسر لكم ذلك. فالواحد منهم يأخذ فرساً من تلك التى فى المحطة تكون مُسرجة ومستريحة ويمتطيها وينطلق بأقصى سرعة وبأشد ما أوتى من عزم. وعندما يسمع من هم فى المحطة التالية الأجراس يعدون فرساً ورجلاً على شاكلته يأخذ منه الرسالة أو ما معه ثم ينطلق إلى المحطة الثالثة حيث توجد فرس مستريحة على أهبة الاستعداد. وهكذا تمضى الرسالة بأقصى سرعة من نقطة إلى أخرى مع التبديل المنتظم للخيول. والسرعة التى ينطلقون بها مذهلة. (إلا أنهم لايستطيعون السير ليلاً بنفس سرعتهم بالنهار، حيث يصحبهم عداءون يحملون المشاعل لايمكنهم مجاراتهم فى السرعة).

وهؤلاء الرجال يقدرون تقديراً عظيماً. وهم لايمكنهم القيام بذلك إن هم لم يشدوا على بطونهم وصدورهم ورؤوسهم أربطة قوية. وكل منهم يحمل معه لوحاً عليه صورة صقر، إشعاراً بأنه مكلف بمهمة عاجلة. فإذا تصادف أن أصيبت فرسه أو واجهته أية مشكلة أخرى وهو فى الطريق، فإنه مُخوّل بأن ينزل من على فرسه ويستبدلها بغيرها. ولا

يجـرؤ إنسـان على الرفض فى مـثل هذه الحـالة. وبذلك يكون لدى الرسول دائماً المطية المستريحة التى تحمله. ومع ذلك فكل خيـول البريد هذه لاتكلف الإمبراطور شيئاً. وسأروى لكم كيف ولماذا. فكل مدينة أو قرية أو دسكرة تقع بالقرب من إحدى تلك المحطات عليها أن تقدم لها عدداً معلوماً من الخيل، حسب استطاعتها. وبهذه الطريقة تحصل كل مراكز المدن على حاجتها من الخيل، وكذلك مراكز القرى والدساكر المحيطة بها. وفى الأصقاع غير المأهولة وحدها يكون توفير الخيل على نفقة الإمبراطور.

(ولم تكن المدن تُبقى عدد الخيـول بالكامل، ولنقل ٤٠٠ فـرس، فى محطاتها على الدوام. بل إنها فى كل شهر تجعل ٢٠٠ فى المحطة وتترك ٢٠٠ أخرى ترعى، كى تحل فى الشهر التـالى محل الأولى لتريحها. وإذا تصادف أن هناك نهراً أو بحيرة فى طريق العدائين وخيول البريد، يُفرض على المدن المجاورة إبقاء ثلاثة أو أربعة قوارب فى حالة استعداد دائم لهذا الغرض) .

ومع أن محطات البريد فى السهوب أو الصحراء لم تكن بكل تأكيد فى جمال تلك التى فى الصين، فإن محطات الغرب الأقصى من آسيا كانت على قدر كبير من هذا الجمال. وهذا صحيح رغم أن إيلخانات فارس اعتنقوا الإسلام حوالى سنة ١٢٩٥، وفى الوقت نفسه تخلصوا من كل شيء فيه تبعية للخان الأعظم فى خان باليق. إلا أنه فى بعض الأوقات والأماكن انفرط عقد النظام. وكما أشار أحد المؤرخين المسلمين فى إيلخانية فارس[١]:

جاء زمن كان فيه الأمراء والأميرات ورجال البلاط وأمراء العشرة آلاف والألف والمائة وقادة الأقاليم ومربو الصقور ومربو الفهود وقيّمو الاصطبل الإمبراطورى وصانعو الدروع والمشرفون على المطبخ الإمبراطورى وغيرهم من الناس يرسلون رسل الدولة بكل شيء، عظم شأنه أو صغر، إلى الأقاليم وكذلك إلى المستوطنات المغولية البدوية، لأى سبب من الأسباب...

---

(١) هذه ترجمة للنص الإنجليزى، إذ لم يذكر المؤلف اسم المؤرخ. (المترجم).

وزاد عددهم إلى حد أنه إذا وُضعت خمسون ألف مطية فى كل محطة بريد ما كانت لتكفى. وبعد ذلك بدأ الرسل يتشاجرون فيما بينهم. واستغل اللصوص الموقف لتحقيق مآربهم، حيث قاموا هم بدور الرسل وكانوا يتربصون بمن هم أصغر حجماً ويستولون على خيولهم وشاراتهم التى ما إن يحصلوا عليها حتى ينهبوا القوافل فرحين. ولم يكن رسل الدولة يطالبون بالخيل والطعام فحسب، بل كانوا يسرقون من الناس عمائمهم وملابسهم وغيرها من متعلقات. وبينما يسيرون فى طريقهم كانوا يبيعون مايفيض عن حاجتهم من طعام تسلموه، بمهارة وحذق يفوق ما عليه التجار الصينيون والهنود. وكانوا يُعذِّبون الناس ويجلدونهم بالسياط ويشنقونهم ويؤذونهم بشتى الطرق. وليس مستغرباً أن يقل الزرع وينشغل الفلاحون بحماية ممتلكاتهم من السرقة. وساءت سمعة هؤلاء الرسل المزيفين لدى مأمورى البريد والحكام. وبناء على ذلك، كان إذا سافر رسول فى عمل مهم وسرى يتعلق بأمور الدولة اعتبره الناس مساوياً لهؤلاء الأوغاد. ولذلك تكون سمعته سيئة. الأمر الذى يجعل رحلته تستغرق وقتاً يزيد مرتين أو ثلاث مرات عما هو متوقع، حيث تُعطى له خيل عجفاء أو لا تُقدَّم له خيول بالمرة عندما يمر على محطات البريد وغيرها. وحتى إذا كان هناك ما يصل عدده إلى خمسين فرساً فى محطة البريد، لم يكن بينها اثنتان عُلفت علفاً كافياً ليركبها رسل البريد السريع. أما المال المخصص لدور البريد فكان الحكام يحتفظون به لينفقونه على أغراضهم الخاصة. وكانت المكوس والضرائب، التى هى أكثر مصادر موارد الدولة تدفقاً، تُستخدم فى تغطية نفقات رسل الدولة. وحتى هذه لم تكن كافية. وكان الحكام يكتبون الحوالات ويجدون لأنفسهم مهرباً. وعندما لم يكن ذلك كافياً أيضاً كان موظفو المكوس والضرائب يختفون ويبدأ الرسل فى الاقتتال فيما بينهم، وأقواهم هو من يستولى لنفسه على حصيلة الضرائب. وكان الأوباش الذين انضموا إلى الرسل قد بلغ عددهم المائتى، بل الثلاثمائة، رجل من الركبان فى حال الرسل الذين يسافرون بأوامر بسيطة. وكان بعض من هم على قدر أكبر من الشهرة معهم مايربو

على خمسمائة أو ألف رجل من الركبان. وفى نهاية السنة كان كل هؤلاء الرسل يعودون إلى البلاط دون أن يحققوا شيئاً سوى استهلاك مبالغ ضخمة من النفقات.

وكان هؤلاء الرسل يقيمون على نفقة السكان المحليين. وكانت إقامتهم تمتد شهوراً فى بعض الأحيان، يخربون أثناءها الحياة المحلية، كما يشير المؤرخ نفسه:

... الأبواب التى كانت على قدر كبير من الجمال صارت تُستخدم وقوداً للنار. والحدائق التى نمت بعد سنين من الكد والتعب دمرها الرسل فى يوم واحد، حيث تركوا بهائمهم ترعى فيها.. المشرفون على رسل الدولة حطموا أسوار البساتين واتخذوا من أشجار الفاكهة وقوداً لنيرانهم فى الشتاء. وإذا كانت شجرة من الأشجار على قدر كبير من الاستقامة كان الحكام يأمرون بقطعها لتصنع منها الرماح.

وبلغت الأمور مبلغاً جعل الناس «يغيّرون مداخل بيوتهم ويخفونها تحت الأرض جاعلينها ملتوية إلى أقصى حد ممكن، لكى يمنعوا رسل الدولة من النزول فيها». وفى بعض القرى كان أهلها يتفقون على أنه «إذا اقترب أى إنسان ورآوه عن بُعد، فإنهم طبقاً لإشارة معينة يختبئون جميعاً فى قناة الرى أو الرمال» إلى أن ينصرف الدخلاء.

وفى تلك الظروف انتعش نشاط قُطَّاع الطرق. ويمضى المؤرخ الحزين قائلاً:

فى إحدى المرات كانت هناك أعداد كبيرة من اللصوص، المغول [والفرس]، فضلاً عن العبيد الآبقين وفتوات المدن. وفى بعض الأحيان كان ينضم إليهم الفلاحون والمستوطنون الأفراد ويصبحون مرشدين لهم. وكان لهم جواسيس فى كل المدن يخبرونهم فى الوقت المناسب بموعد مغادرة القوافل. واشتهر بعض هؤلاء اللصوص بشجاعتهم. وكانوا إذا وقعوا فى يد قبيلة من القبائل يُتركون لحال سبيلهم بسبب شجاعتهم وإقدامهم. وعند حدوث أى كمين كانت القاعدة بالنسبة للقوافل والرسل والمسافرين من الأفراد أن ينضموا جميعاً إلى بعضهم البعض لقتال اللصوص. ولكن الحال لم يعد كذلك الآن. فقد أصبح مبدأ اللصوص هو أن يسرقوا فقط من هم على قدر معين من الثراء. وبهذه الطريقة انفصل الفقراء عن غيرهم ممن أصبحوا فريسة سهلة.

وكان اللصوص قد اتخذوا أصدقاء لهم من أكابر القوم فى كثير من القرى. وكان لهم أيضاً أصدقاء من بين تجار المدن يبيعون لهم ما استولوا عليه من ملابس. وفى بعض الأحيان كان اللصوص يمضون شهراً معهم، حيث ينفقون الأموال المسروقة معاً بطيش وعدم اكتراث.

... وعموماً كان خوف المسافرين من اللصوص أقل من خوفهم ممن يحمون الطريق، حيث كانت الفئة الأولى تسرقهم أحياناً، أما الثانية فكانت لاتتوقف عن سرقتهم حيثما حلّوا.

مثل هذا الموقف ما كان ليستمر فقد كانت التجارة تأتى بأرباح كثيرة لكل الخانات. وشيئاً فشيئاً أعادوا الأمور إلى نصابها مرة أخرى.

***

أصبح السفر على طريق الحرير مرة أخرى مريحاً وآمناً بشكل نسبى. كان اللصوص أقل ميلاً للقتل والسلب خوفاً من بطش الإمبراطور. وفى أغلب الأحيان كانوا يرضون بتحصل «مال الحماية» مقابل «مرافقة» القافلة إلى حدود مناطق نفوذهم. وتلك المبالغ المدفوعة أخذت شكلاً يكاد يكون رسمياً. فبعد عدة عقود من زيارة آل بولو لأرمينيا، على سبيل المثال، كتب مواطن إيطالى مثلهم أنه فى الطريق بين لاياس وتبريز «قد تدفع نحو ٥٠ أسبرى عن كل حمل، بسبب أعمال السلب التى يقوم بها على الطريق المغول، أى التتار الجوالين».

الكاتب هنا يدعى فرانشيسكو دى بالدوتشيو بيجولوتى، وكتب ذلك فى فلورنسا بإيطاليا بعد عدة عقود من عودة آل بولو إلى البندقية سنة ١٢٩٥. وأصبح السفر إلى الشرق أمراً شائعاً فى تلك الأيام، حتى أن بيجولوتى أصدر كتاباً بعنوان «ممارسة التجارة»، وهو كتاب إرشادى للتجار يتناول كل مايحدث فى إحدى الرحلات إلى الصين. وربما لايكون بيجولوتى نفسه قام بمثل هذه الرحلة. فالظاهر أنه جمع معلوماته من هؤلاء الذين قاموا بها ثم صاغ كتابه باقتدار.

ويفضل بيجولوتى الطريق الشمالى. ففى عهد السلام المغولى وصل كثيرون من التجار، على مايبدو، إلى الجزء الأوسط من طريق الحرير عن طريق السهوب الأوراسية التى فضلوا أرضها الواسعة المنبسطة، إلى جانب إمكانية استعمال العربات، على السير الطويل المرهق فى مرتفعات الأناضول وأرمينيا وإيران. وأكثر مايلفت النظر فيما ذكره

يبجولوتى عن «نصائح خاصة بالرحلة إلى خطاى بالطريق المار بتانا» (مدينة بالقرب من مصب نهر الدون على بحر آزوف شمالى البحر الأسود) للتجار «الذين يروحون ويعودون بالبضائع»، هو أنه جعل الأمر يبدو وكأنه خط سير:

أولاً، من تانا إلى استراخان [أتل سابقاً] تستغرق المسافة خمسة وعشرين يوماً بالعربات التى تجرها الثيران، ومن عشرة أيام إلى اثنى عشر يوماً بالعربات التى تجرها الخيل. وعلى الطريق يقابلك مغول كثيرون، وهم رجال مسلحون.

ومن أستراخان إلى سراى يوم واحد عن طريق النهر، ومن سراى إلى سراى تشوك ثمانية أيام عن طريق النهر. ويمكنك أن تسافر بالبر والنهر، إلا أن الناس يسافرون بالنهر كى يدفعوا أقل [على نقل] البضائع.

ومن سراى تشوك إلى أورچنش [على نهر جيحون] تستغرق المسافة عشرين يوماً فى العربات التى تجرها الجمال - وبالنسبة لمن يحملون معهم بضائع يكون من الأفضل لهم الذهاب عن طريق أورچنش، لأنها سوق رائجة للبضائع - ومن أورچنش إلى أُترار [على نهر سيحون] تحتاج المسافة إلى مابين خمسة وثلاثين إلى أربعين يوماً بالعربات التى تجرها الجمال. وإذا كنت مغادراً سراى تشوك ومتجهاً مباشرة إلى أُترار، فسوف تقطع المسافة فى خمسين يوماً. أما من لايحمل معه بضائع فسوف يكون أفضل له من السفر عن طريق أورچنش.

ومن أُترار إلى آلماليك خمسة وأربعين يوماً على الحمير. وتلتقى بالمغول كل يوم.

ومن آلماليك إلى خان تشو [فى الصين] سبعين يوماً على الحمير.

ومن خان تشو إلى نهر يدعى [يانجتسى؟] خمسة وأربعين يوماً على ظهور الخيل.

ومن النهر يمكنك أن تسافر إلى كوينسى [هانج تشو] وتبيع هناك ما معك من سبائك الفضة. فهذه سوق رائجة للبضائع. وتسافر من

كوينسى بالنقود التى بعث بها الفضة، أى بنقود ورقية(١). وهذه النقود تسمى balisci الأربعة منها تساوى سبيكة فضة واحدة فى أنحاء خطاى.

ومن كوينسى إلى خان باليق [بكين]، وهى كبرى مدن خطاى، ثلاثين يوماً...

وخطاى إقليم به مدن كثيرة وقرى كثيرة. ومن بين الكثير من المدن مدينة كبيرة يتجمع فيها التجار وبها معظم التجارة. وهذه المدينة هى خان باليق. والمدينة المذكورة محيطها مائة ميل وعامرة بالبشر والمنازل، وبسكان المدينة المذكورة.

والطريق الذى وصفه بيجولوتى يسير بالتجار من بحر آزوف، شمالى البحر الأسود، عبر السهوب الروسية إلى أستراخان على بحر قزوين، فى ذلك الإقليم الذى كان الخزر يحكمونه يوماً ما. ويبدو أن بعض التجار آثروا اتخاذ الطريق البرى الأقصر طولاً إلى العاصمة المغولية الإقليمية سراى فى أعالى نهر الفولجا، ربما ليقوموا ببعض الأعمال التجارية هناك (كما فعل آل بولو) ثم يشحنون بضائعهم فى النهر، قبل استئناف رحلتهم البرية من أستراخان. وكانت التجارة على طول الطريق أمراً مهماً لهؤلاء التجار، ذلك أنهم لم يأخذوا الطريق الأسهل الذى يتجه بشكل مباشر أكثر عبر السهوب إلى قره قورم (وإن كان الرسل والمبعوثون قد يفعلون ذلك). وبدلاً من ذلك يتجهون جنوباً بين بحرى قزوين وآرال إلى المدن الأسواق مثل أورجنج وكثيراً ما يتجاوزون ذلك جنوباً إلى بخارى وسمرقند، قبل أن يعاودوا الاتجاه شمالاً إلى أُترار ثم يتجهون شرقاً ليسيروا فى الطريق الواقع إلى الشمال من جبال تيان شان. وفى الصين كذلك كانوا يلفون حول الريف ـ وهو مالم يكن يقدر عليه التجار الأجانب بهذه السهولة فى العصور السابقة ـ ليصلوا إلى ميناء هانجتشو العظيم على الشاطىء الشرقى للصين، وهى مدينة قال عنها ماركو بولو وبعض المراقبين الثقاة إنها تساوى أى ميناء أوروبى آخر فى ذلك الوقت أو تفوقه، وربما كانت أعظم ميناء فى العالم. وكانت العاصمة الجنوبية خان باليق مجرد واحدة من أماكن كثيرة يقصدها التجار.

---

(١) تشير المصادر إلى وجود العملات الورقية فى الصين فى عهد إمبراطورية يوان التى أنشأها قوبيلاى خان فى الصين، حيث ظهرت لأول مرة سنة ١٢٣٤. (المترجم).

وذكر بيجولوتى أيضاً لقرائه أنه ينبغى عليهم أن يرتبوا أمورهم لرحلة إلى خطاى. وفى أول الأمر نصحهم بعدم حلق ذقونهم وإطلاق لحاهم. وعليهم ثانياً وهم فى تانا أن يستأجروا التراجمة والمرشدين الذين يتولون الترتيبات على الطريق. كما ينصحهم نصيحة مهمة وهى أن استئجار الترجمان الجيد يستحق مايُدفع له من مال، حيث أن الترجمان الضعيف شره وطماع. علاوة على توصيته التجار بأن يستأجروا خدماً يتحدثون اللسان الكومانى، لكون الكومان القبيلة المغولية السائدة فى الإقليم فى ذلك الوقت. كما أن الواحد منهم سوف «ينظر إليه على أنه رجل رفيع الشأن» إذا أخذ معه امرأة من تانا. وكما أشار ماركو بولو وآخرون غيره، كان فى كثير من مدن القوافل نساء يعرضن أنفسهن كـ«زوجات مؤقتات» وبعد أن يبقى «أزواجهن» معهم عدداً محدداً من الأيام، وليكن ٢٠ يوماً، تكون حرة فى «الزواج» مرة أخرى[1]. وذكروا أنه فى بعض المدن كان أهلها يؤجرون فى بعض الأحيان زوجاتهم وبيوتهم، بحيث تكون ملكاً للتجار الجوالين مدة إقامتهم بها. وكان لابد أيضاً من حمل الطعام من تانا، أى مايكفى من الدقيق والسمك المملح لـ ٢٥ يوماً، «ذلك أنكم ستجدون اللحم غير كاف فى أى مكان تنزلون فيه على الطريق». وهناك ترتيبات مشابهة كان عليهم القيام بها فى كل مدينة تموين على الطريق.

وفيما يتعلق بالأمن، قال بيجولوتى:

الطريق الواصل بين تانا وخطاى آمن تماماً بالليل والنهار، حسب ما قاله التجار الذين سافروا عليه. غير أنه إذا مات التاجر وهو فى الطريق، أثناء ذهابه أو إيابه، فإن كل شىء معه يذهب إلى سيد البلد الذى يموت فيه، حيث يأخذ موظفو السيد كل شىء. والأمر كذلك إن هو مات فى خطاى. وإن كان له أخ أو رفيق قريب منه يقول إنه أخوه، أُعطيت له أملاك المتوفى، وبذلك تكون أملاكه قد أُنقذت. إلا

(١) جاء فى «رحلات ماركو بولو» أن أهل كامول، وهى واحة هامي، من الرجال يغادرون بيوتهم عند وصول الغرباء الراغبين فى السكن والراحة فى تلك البيوت. كما أنهم يعطون زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم أوامر بإمتاع الضيوف وتحقيق كل رغباتهم. وبذلك يعيش الغريب معهن معيشة الرجل مع زوجته. وفى الوقت نفسه يرسل الرجال كل مايحتاجه البيت ولا يعودون إلا بعد انصراف الغريب. ورغم تحريم مانكو خان لهذه العادة المشينة وإقامته الدور العامة التى ينزل فيها الضيوف لم يستمر توقفها طويلاً. فقد تصادف أن انقطع المطر وقل الزرع فأرجع أهل هامي ذلك إلى إقلاعهم عن عادة إكرام الضيف. وعندما أرسلوا إلى الخان يلتمسون موافقته على إعادتها سمح لهم على مضض كى يعودوا إلى عاداتهم الدنيئة والسماح لزوجاتهم بتلقي تلك الأجور الحقيرة عما يمارسنه من بغاء. والمعروف أن قانون المغول كان يحرم البغاء. وقد وردت روايات تؤكد ما قاله ماركو بولو عن تلك الممارسات. (المترجم).

أن هناك خطراً آخر، وهو أنه إذا مات سيد عمت الفوضى فى الفترة الفاصلة بين وفاته ووصول السيد الجديد. وكان ذلك موجهاً فى بعض الأحيان ضد الإفرنج وغيرهم من الأجانب - وهم يطلقون اسم «إفرنج» على مسيحيى الإمبراطورية البيزنطية وما هو إلى الغرب منها. ويظل الطريق غير مأمون إلى أن يُرسل السيد الجديد الذى يتولى الحكم بعد من مات.

ويُذكر أنه فى المسافة من تانا إلى سراى يكون الطريق أقل أمناً من سائر الرحلة. ولكن ينبغى أن يكون هناك ستون رجلاً [فى القافلة]، [حتى] إذا كان الطريق فى أسوأ حال أمكنكم السفر فى أمان كما [لو كنتم] فى بلدكم.

وكانت الفوضى التى تحدث أثناء خلافة الحكم مشكلة دائمة، وقد واجهها آل بولو أنفسهم فى رحلتهم الأولى داخل الأراضى المغولية. وكانت هناك أيضاً حالات متفرقة من الفوضى على الطريق عندما يتذمر السكان المحليون تحت وطأة إعداد الطرق وتوفير المطايا للرسل الإمبراطوريين والتجار. وفى بعض الأحيان كانت إحدى المناطق يهجرها سكانها، كما حدث عندما ندم أحد خانات فارس على إعفائه الناس من الضرائب لمدة ثلاث سنوات فطالبهم بتسديد ضرائب أربع سنوات دفعة واحدة وفرض عقوبات رهيبة على من لايدفع. فى تلك الحالة لم يكن مستغرباً أن كثيراً من السكان فروا إلى التلال.

وأثناء إشارة بيجولوتى إلى أن «التجار فى سفرهم قد يركبون فرساً أو حماراً أو أى مطية» حدد تكلفة كل منها، بما فى ذلك ما يتقاضاه الخدم والتكاليف المتفاوتة تبعاً لنوع الدابة التى تجر العربات المحملة بالبضائع، أهى ثيران أم جمال أم خيول.

وفيما يتعلق بما يُباع ويُشترى، كان لدى بيجولوتى نصائح محددة:

كل من يرغب فى السفر من جنوا أو من البندقية إلى الأماكن المذكورة ثم يسافر منها إلى خطاى فإنه يُحسن صنعاً إن هو حمل كتاناً واتجه إلى أوريجنش واشترى سبائك فضة من أوريجنش ومضى بها دون أن يستثمرها فى أى بضاعة، إلا أن تكون معه بضع بالات من قماش الكتان الفاخر التى لاتعد كبيرة الحجم ولا تحتاج إلى تكلفة [حمولة] تزيد عما يحتاجه أى كتان من نوع أردأ.

ويبدو مما ذكره بيجولوتى عن الأوزان والتكاليف أنه مهما كانت البضائع التى يأتى بها التجار إلى تركستان، فإنهم كانوا يأتون إلى الصين فى المقام الأول بالمعادن الثمينة على هيئة نقود يشترون بها الحرير والديباج. إلا أن التجارة لم تكن مباشرة، حيث كانت الحكومة الصينية تستخدم منذ زمن بعيد نظاماً للنقود الورقية كما يشير بيجولوتى:

كل الفضة التى يحملها التجار [معهم] عند ذهابهم إلى خطاى يأمر سيد خطاى[١] بسحبها وإيداعها خزينته[٢]. ثم يعطى التجار الذين يأتون بها نقوداً ورقية، وهى عبارة عن ورق أصفر ضُرب عليه خاتم السيد المذكور. وهذه النقود تسمى balisci[٣]. ويمكنك بها أن تشترى الحرير وأى سلعة أو بضائع ترغب فى شرائها. وأهل البلاد جميعاً ملزمون بقبولها. ومع ذلك لايُدفع ثمن أكبر للبضائع رغم كونها نقوداً ورقية[٤]. وهناك ثلاثة أنواع من النقود آنفة الذكر، كل واحد منها تزيد قيمته عن الآخر تبعاً لما حدده السيد له.

وأكثر ما كان التجار الأوروبيون يقبلون على شرائه هى الأقمشة الحريرية كثيرة النقوش، كالدمقس والديباج، وهى عكس الغزى الخفيف الذى كان يُنقل من الصين إلى الغرب فى العصر الرومانى.

وأشار بيجولوتى إلى النقود الورقية على أنها «ضُربت»، وذلك لتعوده على النقود المعدنية وحدها. والواقع أنها كانت تُطبع بطريقة الطبع بالقوالب المستخدمة فى الصين منذ عدة قرون. ومن خلال أشياء مثل النقود الورقية وورق اللعب، ومعها كوتشينة البخت، وهى جميعاً أشياء بهرت الأوروبيين، انتقلت أسس الطباعة بالقوالب غرباً إلى أوروبا فى العصر المغولى. إلا أنه من الغريب أن الطريقة التى كانت مستخدمة فى طباعة كتب بكاملها

---

(١) الخان الأعظم. (المترجم).

(٢) جعل هذا ماركو بولو يقول إن خزانة الخان الأعظم كان بها من الأموال والكنوز مايفوق ذلك الذى لدى أى ملك على وجه الأرض. (المترجم).

(٣) تسمى بالصينية تشاؤ. (المترجم).

(٤) إذا بليت العملة الورقية وأراد صاحبها استبدالها بأخرى جديدة، دفع لدار «سك العملة» مايساوى ٣٪ من قيمتها. (المترجم).

طوال ما لايقل عن سبعة قرون فى الصين لم تُستخدم فى الغرض نفسه فى أوروبا التى ظلت مبهورة باستخداماتها المتواضعة[1].

واستمر تجار كهؤلاء الذين خاطبهم پيجولوتى فى السفر على طريق الحرير، وابن عمه طريق السهوب الأوراسية، بضعة عقود فى ذلك القرن الرابع عشر المميز. إلا أنه عندما طُرد المغول من الصين سنة ١٣٦٨[2] لم يعد هناك وجود لذلك الطريق الذى ظل مفتوحاً طوال المائة سنة السابقة. وأول من سقط كان طريق السهوب الأوراسية، وكان ضحية للانقسام الذى أصاب السهوب مرة أخرى. وظل طريق الحرير مستخدماً استخداماً متواضعاً بسبب حمايته النسبية. ولكن الأوروبيين لم يعودوا يجرؤون على محاولة القيام بتلك الرحلة الخطرة فى بلاد آسيا الوسطى غير المستقرة. وظلوا بعض الوقت يعبرون إيلخانية فارس إلى الهند. وسُمح لهم ذلك بالتحايل على المصريين الذين كانوا يبيعون لأوروبا البضائع الشرقية بما يساوى ٣٠٠٪ من قيمتها أو يزيد. ولكن ذلك أيضاً صار محظوراً على الأوروبيين عندما أصبح الفرس الإيلخانية (بعد اعتناقهم الإسلام) لايسمحون لغير المسلمين بالمرور بسلام فى أراضيهم.

وهكذا تبخرت أحلام أوروبا فى كسب آسيا إلى عقيدتها. ورغم أن المسيحيين الآسيويين كان منهم بعض مستشارى البلاط ذوى النفوذ، بل وأفراد من العائلة المالكة، فلم يكن خلفهم تلك الأعداد الكبيرة من المؤيدين التى وفرها الإسلام والبوذية. كما أن جاذبية المسيحية لم تزدد بالاقتران بحضارة متقدمة على درجة رفيعة من الثقافة، بعكس الإسلام الذى تَقرَّب إلى العصر الذهبى للثقافة الفارسية والبوذية التى ارتبطت بالتراث الهندى والصينى القديم. فقد كانت أوروبا فى ذلك الوقت جاهلة لا علم فيها. والأسوأ من ذلك أن ممثليها القليلين نسبياً، وهم اللاتين واليونان والنسطوريون، قد أضروا رسالتهم التبشيرية

---

(١) انتقلت طريقة الطباعة بالقوالب من الصين واليابان وكوريا وغيرها من دول الشرق الأقصى إلى أوروبا خلال طريق الحرير. فى البداية استخدمت فى طباعة صور القديسين لتعليقها على الجدران كوسيلة للحماية من الأمراض والشرور. تلى ذلك طباعة الكتب الدينية. وكانت البداية فى ألمانيا وهولندا فى أواخر القرن الرابع عشر. وأقدم أثر مطبوع بهذه الطريقة ومحفوظ إلى اليوم لوحة للقديس كريستوفر مع أحد النصوص الدينية تعود إلى سنة ١٤٢٣. أما أول كتاب كبير من حيث عدد صفحاته فكان الترجمة الألمانية لدليل السفر «عجائب روما» الذى طُبع فى روما سنة ١٤٧٥ وكان يتضمن ٩٢ صفحة من النصوص والرسوم التوضيحية. وقد استمر العمل بطريقة القوالب ستين سنة بعد اختراع الألمانى جوتنبرج للطباعة بالأحرف المتحركة وطبعه أول كتاب بالطريقة الجديدة، وهو الكتاب المقدس سنة ١٤٦٠. (المترجم).

(٢) استطاع تشو يوان تشانج قائد القوات التابعة لـ قوه تسى سنج، زعيم إحدى الانتفاضات، الإطاحة بحكم يوان وتصفية خصومه الآخرين ثم أسس أسرة منج التى استمر ملكها من ١٣٦٨ إلى ١٦٤٤. (المترجم).

وأضعفوها بما شجر بينهم من خلافات حول العقيدة. وهكذا نرى أنه بينما كانت الإيلخانيات الغربية تدخل فى الإسلام أفواجاً وأصبحت الخانيات الشرقية أكثر تمسكاً بالبوذية، صارت الكراسى الأسقفية، التى سبق إقامتها من سراى مروراً بآلماليك حتى بكين، شاغرة. كما أن المؤمنين المسيحيين، الذين حملوا عقيدتهم عبر آسيا إلى الصين قبل عدة قرون، أخذوا يختفون شيئاً فشيئاً.

***

ولكن إذا كان التواجد المسيحى واليهودى أصبح نادراً على طريق الحرير، فإن اعتناق الشعوب المغولية الغربية للإسلام أتاح الفرصة لظهور طائفة جديدة من المسافرين، وهم الذاهبون لأداء فريضة الحج فى مكة. لقد سمح السلام المغولى لكثيرين بالحج خلال ذلك القرن المميز. كما أن البعض صار عاشقاً للترحال فى تلك السنوات الذهبية، حتى أنهم كانوا يطوفون العالم لمجرد المتعة. ويتضح بُعد الأماكن التى ذهب إليها هؤلاء المسلمون فيما ذكره ابن بطوطة، وهو من أهل تونس[1]، عن لقائه على حدود الصين بشقيق رجل تعرف عليه فى شمال أفريقيا!

ولكنه حتى بعد تصدع الوحدة والسلام فى آسيا، فإن الإيمان المشترك بالإسلام جعل الطريق آمناً نسبياً أمام الحجاج المسافرين على طريق الحرير. وازداد الوضع تحسناً بتنامى أعداد الداخلين فى الإسلام، حيث أدت الأعداد الكبيرة من الحجاج إلى زيادة الشعور بالأمن. وهكذا، وطبقاً للتقويم الإسلامى، كان المسلمون فى كل عام يطرحون خلافاتهم المذهبية جانباً ويجتمعون فى مدن تقع على الطرق الرئيسية المتجهة غرباً ليشكلوا قوافل تسير فى الهضبة الإيرانية لتهبط منها إلى بغداد، حيث ينضمون إلى إخوانهم المسلمين القادمين من أرمينيا والكُرْج والأناضول. وباستثناء فترات توقف قصيرة، ظل الحجاج يقومون بهذه الرحلة الطويلة، الأمر الذى أعاد طريق الحرير إلى سابق عهده كطريق للحجاج. واستمر ذلك حتى القرن السابع عشر عندما بدأت فارس تغلق حدودها فى وجه الأجانب، وعندما أصبح من الأسهل السفر بحراً من الخليج الفارسى أو بحر العرب للوصول إلى جدة التى هى ميناء مكة.

وعقب تفكك الإمبراطورية المغولية حاول زعيم ينتمى إلى آسيا الوسطى السيطرة على

(١) بل هو من طنجة بالمغرب كما أسلفنا. (المترجم).

طريق الحرير، وكان ذلك محارباً تركياً مغولياً يسمى تيمورلنك[١] (أى تيمور الأعرج وسُمى بذلك بسـبب جرح قـديم فى سـاقه). وكـونه ابن واحـد من الحكام المحليـين فى جنوبى سمـرقند جعله قـادراً منذ شبـابه على رؤية قيـمة تجارة آسـيا التى تمر عليـه. وبحلول سنة ١٣٦٩، أى بعد سنة من طرد المغول من الصين، أعلن نفسه سيداً على بلخ. وفى السنوات التالية ضم تحت جناحه إقليـمى خوارزم وماوراء النهر. وفى محاولة واضحـة لإجبار تجارة آسيا على المرور عليه، عبر المسـار القديم لطريق الحرير، شن هجوماً على المدن التى تخدم الطريق الشمـالى الذى وصفه بيجولـوتى ودمرها. وكان بين تلك المدن استـراخان وسراى أورجنج. وبحلول ثمانينيات القرن الرابع عشر كـان تيمور يزحف بجيشه على طريق الحرير عبر فـارس، حيث دمر الأراضى الزراعـية ونقل إلى بلاده كل ماهو ثمين ليُثـريها به وترك وراءه تلالاً مرعبة من الجماجم والجثث، تعيد إلى الأذهان تلك التى أقامها المغول قبل ذلك بقرن من الزمـان. كما استـولى على تبريز وفعل مـا قام به سلفه جنكيزخـان، حيث نقل الصنّاع المهرة والفنانين شرقـاً إلى سمرقند. وعندما وجه انتـباهه إلى الهند عدداً من السنين أحدث بها دماراً مشابهاً وفعل الشىء نفسه ببغداد مع بداية القرن الخامس عشر.

استفادت سمرقند حيناً من الزمن مما تدفق عليها من رجال وخيرات. وكانت المدينة فى عهد تيمورلنك مركز طريق الحـرير. وفى سنة ١٤٠٤ (وهى السنة السابقة لوفاة تيمور وهو فى السبعين) ذكر أحد المراقبين أن سمرقند وصلتها قافلة من الصين تضم ٨٠٠ جمل تحمل الكثير من الأقـمشة الحريرية والساتان، إلى جـانب الجواهر والمسك والراوند[٢] (وهو نبات برى يُجمع ويُباع على نطاق واسع فى أنحاء أوراسيا). وكـانت القافلة تضم كذلك مبعوثين من سيـبيريا يحملـون هدايا من فرو السمّور وفرو السِّنْسـار بالإضافة إلى الصـقور. وهناك أيضاً التجار الروس الذين يحملون الكتان وأنواعاً أخرى من الجلود.

ولكن ذلك النظام الذى فرضه تيمور على طريق الحرير، بما انتهجه من سياسة الأرض المحـروقة، انهـار بوفاته. وبذهابه ذهـب آخر أثر للنظام على ذلـك الطريق العظيم. ولكن التجارة ظلت قائمة بالطبع. فما أن بدأت حتى كان من الصعب أن تتوقف. إلا أنها كانت، وظلت بعد ذلك، فى أيدى التجار المحليين الذين أقاموا فيما بينهم صلات على ما كان يوماً

---

(١) ادعى تيمور لنك (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥) أنه ينحدر من صلب جنكيز خان. والواقع أنه ينتمى إلى قبـيلة مغولية متركة كانت تعيش فيما تعرف حالياً بجمهورية أوزبكستان. وأعلن تيمور نفسه حاكماً لمملكة عاصمتها سمرقند. ورغم كونه مسلماً، فقد أنزل بأرواح المسلمين وأملاكـهم من الدمار ما لم يحدثه سلفه الوثنى. ويختلف تيـمور لنك عن جنكيز فى أنه كان يحارب بلا أى خطة. كـما أنه لم يسـهم بشىء فى نظم الحكم والإدارة فى البلاد التى فـتحهـا. وفى سنة ١٤٠٥ مات تيمور لنك أثناء محاولة فاشلة كان يستهدف بها غزو الصين. إلا أن أسرته استمرت فى الحكم حتى سنة ١٥٠٦ وعُرفت فى التاريخ بالمغول التيمورية. (المترجم).

(٢) من الأعشاب الطبية مفيد للكبد والمعدة وضعفهما وأوجاعهما. (المترجم).

طريقاً دولياً رئيسياً. ويرى بعض الباحثين أن طريقة الطباعة بحروف معدنية، التى ظهرت وانتشر استخدامها فى القرن الخامس عشر فى كوريا، ربما وصلت إلى أوروبا من خلال شبكة دقيقة كهذه، وقد تكون هى التى أوحت بعبقرية يوهان جوتنبرج وزملائه المبتكرين الأقل شهرة فيما اخترعوه.

وعلى أية حال، فقد ولت أيام طريق الحرير العظيمة. وكان سقوط القسطنطينية[1] فى يد الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ بمثابة تأكيد للعالم بأن الطريق الذى بلغ طوله ٥ آلاف ميل قد مات. ولم تكن القسطنطينية قد نهضت منذ استيلاء البنادقة عليها فى أوائل القرن الثالث عشر. كما انقضى زمن طويل على الوقت الذى كانت فيه السوق الرئيسية للبضائع الشرقية أو المُورِّد الرئيسى لأوروبا، وإن ظلت سوقاً رئيسية يتجمع فيها التجار. وحين استولى الأتراك على المدينة فى نهاية الأمر لم تكن سوى أطلال. وحتى فى القرن الرابع عشر ذكر الجغرافى المسلم أبو الفدا أن هناك حقولاً مزروعة داخل أسوارها وبيوتاً خربة كثيرة. وذلك الخط القوى من الدول الإسلامية التى منعت الأوروبيين من دخول آسيا اتحد على أمر واحد: فقد فُرضت رسوم باهظة على الأوروبيين لقاء مايحصلون عليه من نفائس. وفى النهاية أدى هذا، ومعه المهارة التى اكتسبها الأوروبيون حديثاً فى الإبحار بالمحيطات، إلى القضاء على أى أمل فى إحياء طريق الحرير. فقد حاول الأوروبيون الوصول إلى الشرق بحراً تدفعهم حكايات كتلك التى رواها ماركو بولو. وبعد ما يقل عن قرن من وفاة تيمور كان البحارة البرتغاليون موجودين فى الهند. وبعد بضعة عقود، وفى سنة ١٥١٤، كانوا قد بلغوا الصين.

وفى عهد أسرة منج، التى جاءت بعد المغول، عادت الصين مرة أخرى إلى ماوراء أسوارها الدفاعية لتبنى النموذج الحديث من سورها العظيم، ذلك «الثعبان الحجرى العظيم» الذى مازال واقفاً حتى اليوم فى شموخ مهيب. ولم تقتصر الصين على إغلاق حدودها الغربية، بل غيرت توجهاتها. فقد صارت اتصالاتها الرئيسية مع العالم الخارجى تتم عن طريق البحر[2]. وغالباً ما كانت مجبرة على ذلك. إذ ولّت تلك القرون الطويلة التى كان فيها طريق الحرير طريق الاتصال الرئيسى بين الصين وعالم البحر المتوسط، أى بين الشرق والغرب.

---

(١) فتح القسطنطينية محمد الثانى بن مراد الثانى الذى تولى الحكم من ١٤٥١ إلى ١٤٨١ وهو المعروف بمحمد الفاتح. وبفتح القسطنطينية انتقل إليها السلطان من العاصمة القديمة أدرنة فأصبحت هى عاصمة الدولة العثمانية. وبذلك أصبح للدولة المركز الثقافى والإدارى الذى كانت تفتقر إليه. (المترجم).

(٢) قام تشنج خه (١٣٧١ ـ ١٤٣٥) أحد أغوات البلاط الإمبراطورى بسبع رحلات بحرية مع أسطوله الكبير إلى جزر بحر الصين الجنوبى والمحيط الهندى ووصل إلى شواطىء شرق آسيا وأقام علاقات تجارية وثقافية مع تلك البلاد التى ذهب إليها صينيون كثيرون ساهموا فى تطوير اقتصادها. وبلغت التجارة الخارجية مستوى رفيعاً فى أول عهد أسرة منج. فقد وصلت السفن التجارية البرتغالية جوانجدونج سنة ١٥١٦ مفتتحة بذلك خطاً بحرياً بين الصين وأوروبا. ثم جاء من بعدهم البحارة الأسبان سنة ١٥٥٧ وتبعهم الهولنديون سنة ١٦٠٦ ثم الإنجليز سنة ١٦٣٧. (المترجم).

الفصل الحادى عشر

مدن تحت الرمال

هات لى نظيراً لهذه الأعجوبة فى غير مناخ الشرق،

إنها مدينة وردية فى نصف عمر الزمان.

ـ من قصيدة «بترا»

لچون ويليام برجون
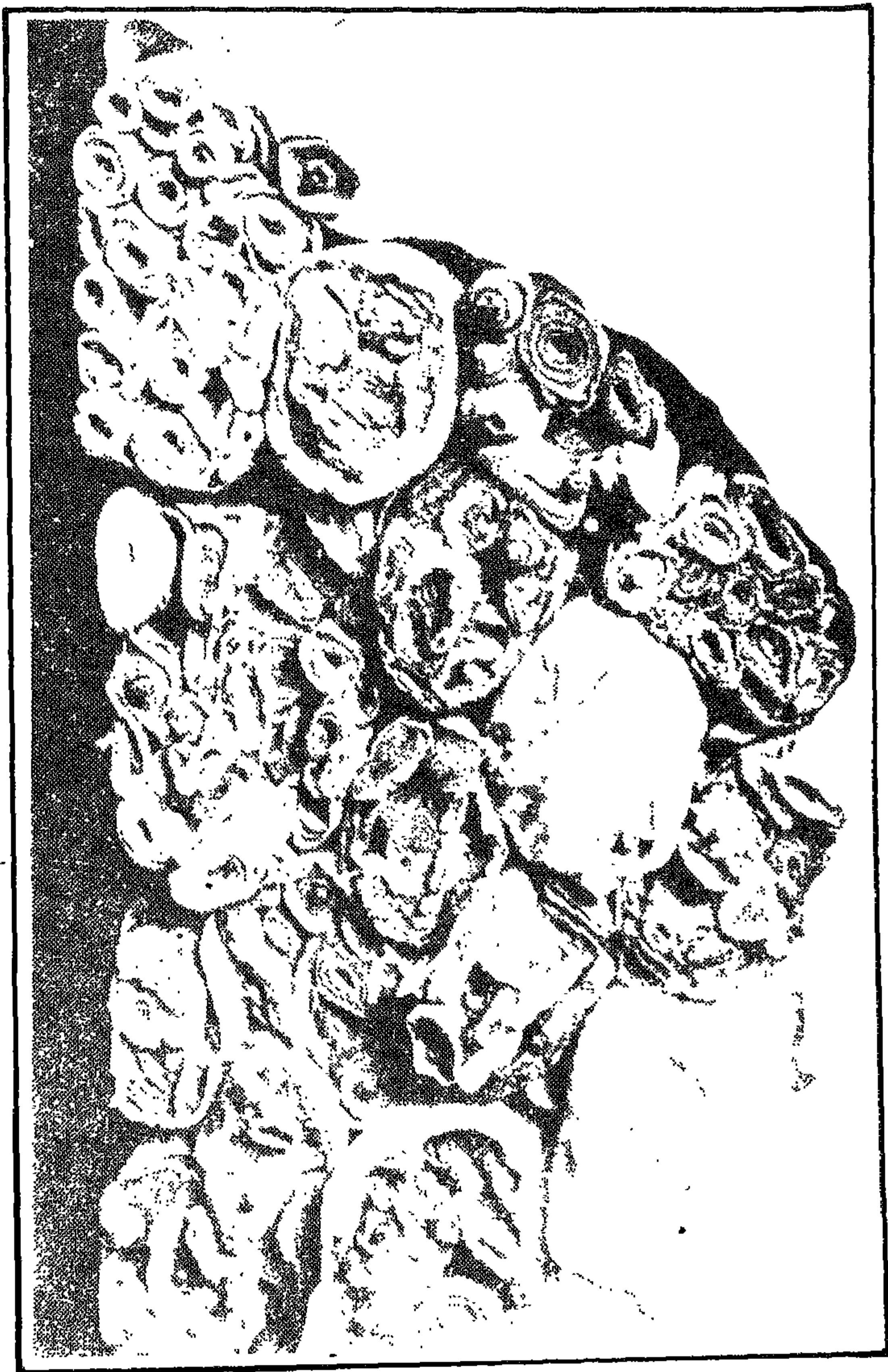
هذه مجرد حزمة من آلاف المخطوطات التى أخذها المستكشفون المحدثون من غرفة فى كهوف الآلف بوذا. (تصوير أوريل ستاين، من كتابه Ruins of Desert Cathay).

بعد ذلك أضحت مدن القوافل العظيـمة فى بلاد الشرق أطلالاً يكاد لا يسكنها أحد. كما صارت المدن الواحـات فى تاكلامكان أماكن محظورة تغمرها رمال الصـحراء الزاحفة. إنها لم تُنس نسـياناً تاما. وبغض النظر عن مـدى خلو تلك المدن المفقودة من البشـر، كان السكان المحليون يعـرفون أنها موجـودة. وكانت الواجهـة الفارغة للبتـراء التى حُفرت فى الصخر ماتزال تشهد مرور حفنة من التـجار البدو. كما أن أطلال پالميرا «تدمر» ظلت مأوى لبعض العـائلات من الرعاة. فى حين احـتفظت مدن مـثل حلب وبغداد ببعض الأهمـية، ولكن بصفتها ملتقى طرق. فهى لم تعد مـحطات أخيرة لطرق عابرة لقارة آسيا. وخدمت المدن الواقعة على الهضبة الإيرانية فى المقام الأول ثقافة فقيرة منغلقة على نفسها. أما الدمار الذى ألحقه المغول بنظام الرى الذى جعل من بلاد فارس ما يشـبه البستان فلم يُعاد إصلاحه إصلاحا تاماً. ولم تعد البلاد تثريها التجارة العالمية التى ظلت تتدفق عليها آلاف السنين.

وهناك فى أقصى الشرق، كانت جواهر آسيا الوسطى المسلمة مثل سمرقند وبخارى قد فقدت بريقها، وإن ظلت المساجد ذات النقوش الجميلة شاهدا على العظمة السابقة. وكانت الآثار القديمـة العظيمة خـارج أسوار المدينتين تروى نـفس الحكاية بهدوء أشد. فـالمدينتان نفساهما «متاهة محيرة من الشوارع الملتوية التى تحيط بها أفنية قذرة ومنازل مزرية» كما جاء وصف الأميـر بيتر ألكسيـفتش كروپتوكين لسـمرقند فيمـابعد. كما أن مـدن التاريم، التى غمرتها الرمـال وأضطر أهلها للإقامة على مقربة من الجبـال، كان يذكرها السكان المحليون الذين كـانوا يعرفـون بالفعل أن الأطلال مـوجـودة. إلا أن بعض المحظورات منعتـهم من الكشف عنها.

وما نسيـه أهل الصحراء والعالم بأسره كـان مغزى كثير من المدن الواحـات المهجورة، خاصة تلك التى فى تاكلا مكان، وأهميتها بالنسبة للشئون الدولية يوما ما. وعبَّر فولتير عن ذلك ببلاغة حـين قال: «هؤلاء الذين يسكنون الصحراء الآن لا يعرفون سـوى أن أسلافهم غزوا العالم قـديما». لذلك كان لابد من «إعادة اكتـشاف» الأوروبيين لطريق الحرير، ليس فقط الآثار المادية التى كانت متوافـرة لكل من أراد رؤيتها، بل أيضاً الحكايات التى ترويها تلك الآثار.

فبالنسبة للأوروبيين كان طريق الحرير ومعالمه العظيمة تاريخا وقصة خيالية وأسطورية. بل ومـوضعـا التقت فـيه كل شـعوب أوراسـيا وتاجـرت وحاربت وحـملت منه الأفكار وتضافرت لتشكل معا أكبر قسم منفـرد فى العائلة البشرية شديدة التباين. وهذا وحده يبرر

الاهتمام الضخم الذى لا ينقطع بطريق الحرير فى كل أنحاء العالم. ولم تعد قبائل البدو تخرج من آسيا موجة إثر أخرى لتغزو الحضارات المتطورة المحيطة بها وتغير طبيعتها. فالبدو هنا. أنهم نحن العائدين بعقلنا إلى قومنا وإلى تاريخنا.

تلك هى أفضل طريقة نفهم بها إعادة اكتشاف الأوروبيين لطريق الحرير فى أواخر عصر الاكتشافات الأوروبية العظيم والتوسع العالمى. كانت هناك بالتأكيد دوافع استعمارية، مثلما اتجه الروس شرقا نحو المحيط الهادى وتحرك البريطانيون شمالا من الهند، وكانت آسيا الوسطى هى الجائزة التى يطمعون فى الحصول عليها. ولكن الدوافع الاقليمية لا تفسر الدوافع الأوروبية تفسيرا تاما، ولا حتى بقدر معقول. كان مارك أوريل ستاين وسفن هيدن ونيكولاى بريالفسكى وألبرت فون لوكوك وپول بيو وألبرت جرونفيدل وسائر المستكشفين وعلماء الآثار والمؤرخين الذين بدأوا التحرك فى أنحاء آسيا الوسطى منذ قرن مضى وراءهم مجموعة أكبر من الدوافع، بينها مجرد الرغبة فى المعرفة والرغبة فى أن يكون لهم قصب السبق وأن يشتهروا بكونهم الأوائل، وأخيرا وليس بآخر الرغبة فى الحصول على الكنوز المدفونة. والواقع أن هؤلاء الأوروبيين قاموا بعمليات نهب وسلب على مستوى عال. وحاليا تُشَرِّف كنوز آسيا الوسطى المنهوبة كبرى المجموعات المتحفية فى أنحاء العالم.

وأوجدت المنافسات الاستعمارية الذريعة التى تمت من خلالها عملية إعادة الاكتشاف الأوروبى لطريق الحرير. فعلى طول طريق الحرير من البحر المتوسط وما بين النهرين وصولا إلى شيآن، المدينة الحديثة التى حلت محل تشانج القريبة، التقت امبراطوريات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تماماً كما إلتقت على مدى عدة آلاف من السنين. بل وكما تلتقى الآن. ففى الغرب كانت إمبراطورية الأتراك العثمانيين، التى تدهور بها الحال شيئا فشيئا من فاتح القسطنطينية القوى إلى «رجل أوروبا المريض»، حيث قامت بعض الشعوب الخاضعة لها بحركات قومية ثورية، فى حين تقاتلت الدول الأوروبية على الغنائم. وفى الشمال امتد نفوذ الروس جنوبا وشرقا بعد اجتياح سريع لسيبريا ليصلوا إلى المحيط الهادى فى القرن السابع عشر. وفى الجنوب توسع البريطانيون شرقا عبر العالم العربى وشمالا فى شبه القارة الهندية. وكان التنافس البريطانى الروسى فى آسيا هو ما سماه البريطانيون «اللعبة الكبرى»، وكانت فى حد ذاتها مجرد جزء من اللعبة الاستعمارية الأكبر التى كانت ذروتها الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية.

وفى الشرق، لعبت الصين لعبة أقدم من ذلك بكثير، مع من سيطر على التخوم

الشمالية ومن جاء إلى الصين من الغرب، أى من آسيا الوسطى. وهذا هو على أية حال التاريخ والجغرافيا بالنسبة للصينيين. فحتى العصر الحديث لم يأت أى من أعداء الصين أو فاتحيها العظام من البحر أو من شبه القارة الهندية. فالشيونج نو والترك والعرب والمغول والمنشو[١] جاءوا جميعا من الشمال والغرب. وهذا أيضا هو ما فعله الروس فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عندما سيطروا على الصحراء والسهوب الآسيوية فى إطار «اللعبة الكبرى» الأوسع[٢].

ولم يكن الصينيون لاعبين سلبيين فى هذه اللعبة، حيث تقلصت أراضيهم فى ظل الضغط الأوروبى المستمر. وبينما كان الروس يزحفون شرقا إلى المحيط الهادى ليعبروا إلى أمريكا الشمالية فى منصف القرن السابع عشر، كان المنشو يستولون على السلطة فى الصين. وفى القرن التالى زادت الأسرة الحاكمة مساحة الأراضى التى تحت سيطرتهم المباشرة ثلاثة أضعاف، حيث استولت على مساحة كبيرة فى سنكيانج فى الشمال والغرب لتجعل منها مرة أخرى «الأملاك الجديدة». وكان الاسم مازال صالحا. فالصين لم يسبق لها السيطرة على هذا الجزء الكبير من آسيا الوسطى منذ آلاف السنين. أى منذ نهاية أملاك أسرة تاريخ هناك. (المغول هم الذين سيطروا على آسيا الوسطى والصين فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وليس الصينيين).

ومع أن سنكيانج هى ماكشفت عنه دراما إعادة اكتشاف طريق الحرير الرئيسية، فالشرق الأدنى هو المكان الذى بدأ فيه الأوروبيون فهم تاريخ أورسيا والطريق العظيم إلى الصين لأول مرة.

وفى النصف الغربى من طريق الحرير كان التجار لا يزالون يجوبون المسالك بين البحر المتوسط ومدينتي القوافل القديمتين سمرقند وبخارى. ولكن هذه التجارة المحلية التى كانت تقوم بها شعوب من قوميات كثيرة منها العرب واليهود واليونان والأرمن على وجه

---

(١) شعب بدوى موطنه منشوريا شمال شرقى الصين حاول المنشو غزو الصين فى القرن الثانى عشر ولكنهم طردوا منها سنة ١٢٣٤. وفى سنة ١٦١٦ أقاموا إمبراطورية أصبحت تعرف فيما بعد باسم تشينج بعد تجميع عدد من القبائل. وفى عهد الإمبراطور فو لين استولت قواتهم على بكين وأصبح اسمه الإمبراطور شي تسو. ظلت أسرة تشينج تحكم الصين حتى اندلاع ثورة ١٩١١. (المترجم).

(٢) انتهز الروس فرصة حرب الأفيون الثانية واستولوا على أجزاء واسعة من الأراضى الصينية بلغت مساحتها ١,٥ مليون كيلو متر. وبعد احتدام التنافس الروسى البريطانى توصل البلدان سنة ١٨٩٩ إلى اتفاقية أعطت حوض يانجتسى لبريطانيا والأراضى الواقعة شمالى السور العظيم لروسيا القيصرية. وكانت كل من ألمانيا وفرنسا واليابان تسيطر على أجزاء أخرى. (المترجم).

الخصوص، كانت أقل ربحية بكثير عما كانت عليه التجارة بعيدة المدى فى السلع الفاخرة التى كانت يوما ما تتدفق عبر البلاد. كما فقدت المدن التجارية على الطريق كثيرا من ثروتها وأهميتها. ولم يكن السبب فى ذلك هو إغلاق الطرق المتجهة شرقا فحسب. فالأمر الأكثر أهمية هو أن النفوذ والأسواق فى أوروبا قد انتقلت إلى الغرب والشمال مع عصر الاكتشافات الأوروبية العظيم. وأصبحت التجارة بعيدة المدى الرئيسية الخاصة بالدول الناشئة فى غرب أوروبا وشمالها تنقل عبر الطرق البحرية، غربا إلى الأمريكتين ومنها عبر المحيط الهادى إلى الشرق، أو جنوبا إلى أفريقيا ثم شرقا إلى الهند والصين. وكان البحر المتوسط لبعض الوقت أشبه بالمياه الراكدة.

ولكن طول الطرق البحرية إلى الشرق والبحث المستمر عن أسواق جديدة أجبر الأوروبيين على الاتجاه إلى الشرق الأدنى مرة أخرى. ومع بداية القرن السابع عشر أقام البريطانيون شركة الشرق ذات الصفة الملكية سعيا وراء التجارة فى الشرق الأدنى وإقامة قنصليات فى ميناءى طرابلس وأزمير القديمين، وكذلك فى القسطنطينية (التى أصبحت تعرف الآن باسطنبول أو استامبول) وحلب. وبالإضافة إلى دخولهم فى التجارة الشرقية، كانوا شديدى الاهتمام بإيجاد طريق أقصر إلى الهند. وقبل ذلك أنشأ البرتغاليون (بدافع من اهتمامهم الشديد بالهند والشرق الأقصى) والبنادقة (الذين حاولوا سُدى إحياء تجارتهم الأسيوية) طرق اتصالات بين حلب وبغداد. ولكن البريطانيين كانوا يفضلون مسار طريق الصحراء الكبرى القديم من حلب إلى البصرة، ذلك الميناء الواقع جنوبى نهر دجلة حيث كان الرسل وغيرهم من المسافرين يستقلون السفن إلى الشرق. ومن خلال هذا الطريق المختصر استطاع الرسل البريطانيون أن يوفروا كثيرا من الوقت اللازم بين ارسال سؤال من الهند وتلقى إجابة عنه من لندن. كما أن بعض التجار خاطروا بالسير فى هذا الطريق، حيث سافروا مع قوافل عبرت حلب إلى البصرة فى أبريل وسبتمبر، وذلك لتستطيع السفن الاستفادة من الرياح الموسمية فى المحيط الهندى.

إلا أن موقف الترك العثمانيين، الذين كانوا يحكمون المنطقة من التجارة البرية الأوروبية كان سيئا. فكما هو حال أشد أنواع الطفيليات سوءا، قتلوا من يعيشون عليهم بفرض رسوم عقابية بشكل رسمى وغير رسمى، فى صورة رشاوى. إلا أنه رغم الرشاوى التى تؤخذ قسرا، لم يكن بمقدور العثمانيين ضمان الأمن على الطريق. فعرب الشرق الأدنى، ليس فقط بدو الصحراء وإنما باشوات مدن مثل حلب وبغداد والبصرة، كانوا يتمردون كل فترة ويقطعون الطريق الموصل إلى الهند. وعندما أدرك البريطانيون ذلك كانوا

يرسلون البريد على طريق الصحراء الكبرى من نسختين مع رسولين منفصلين، فى محاولة منهم لضمان وصول نسخة واحدة على الأقل بسلام إلى مقصدها. وأصبح السفر على قدر كبير من الخطورة بحلول ستينيات القرن السابع عشر، مما جعل الأوروبيين يهجرون الطرق البرية لمدة قرن تقريبا حتى حوالى سنة ١٧٤٥.

فى تلك الفترة انطلق بعض التجار الأوروبيين المحبين للمعرفة ويقيمون فى حلب لرؤية بعض الآثار فى الصحراء السورية التى سمعوا عنها من السكان العرب. إلا أن تجربتهم التى تمت سنة ١٦٧٨ لم تشجع على أى استكشاف آخر:

سرعان ما وصل هؤلاء السادة إلى هناك، إلى تدمر، ولكنهم وقعوا لسوء حظهم فى يد جماعة من اللصوص العرب... الذين أضطروا لإعطائهم كل ملابسهم إرضاء لهم. وكانت خسارتهم كبيرة وخوفهم شديد أمما أفسد عليهم رغبتهم فى المعرفة وحال دون قيامهم باستطلاع الآثار القديمة كما ينبغى فعادوا على الفور إلى ديارهم فرحين بالإياب.

ولم يكن هؤلاء أول الأوروبيين الذين جُرِّدوا من «كل ملابسهم» ولا آخرهم. وقد عاد بعضهم وليس عليه سوى بعض الجرائد القديمة. هذه المعاملة جعلت غيرهم يحجم عن محاولة الوصول إلى تدمر، حتى ليبدو أن الأوروبيين لم يزوروا ذلك المكان لإلقاء نظرة عليه من قرب إلا بعد ١٣ سنة حيث وجدت مجموعة ما أن ما بين ٣٠ و٤٠ أسرة من الرعاة يعيشون فى «أكواخ صغيرة من الطين داخل أسوار تحيط بفناء فسيح به أجمل معبد وثنى.» وذُهل الدكتور ويليام هاليفاكس الذى كان يرأس تلك الحملة (يحميه تصريح مرور اشتراه من الشيخ المحلى) لمرأى ذلك «العدد الكبير من الأعمدة الرخامية» التى كان الكثير منها يرقد على الأرض محطما. بل إنه شعر أن:

لدى المرء تصور عن تلك الآثار العظيمة وإذا كان فى مقدورى من الناحية القانونية أن أعيد للمكان ما كان عليه من جمال بما تبقى فيه، فأى مدينة فى العالم يمكنها أن تتحدى هذه بأن تفوقها مجدا.

أشار الدكتور هاليفاكس إلى أن السكان العرب المحليين كانوا ينظرون إلى النوايا الأوروبية نظرة مشوشة تتسم بالتعصب. وعندما زارت القافلة الشيخ الذى أعطاهم تصريح المرور بأمان سألهم:

... ما رأينا فى تدمر؟ وهل وجدنا كنزا هناك؟ فهذه الفكرة تعشش فى رؤوس هؤلاء الناس وهي أن الإفرنج [مازال المصطلح المحلى الذى يدل على كل الأوروبيين فى ذلك الوقت] يذهبون لرؤية الآثار القديمة فقط لأنهم يجدون هناك نقوشا ترشدهم إلى كنز مدفون. لذلك فليس مستغربا أنهم حين يجدون حجرا عليه نقش يقلبوه لكى لا يراه أحد أو يقرأه. إلا أننا أكدنا له أننا لم نذهب بمثل هذا الأمل، وإنما رغبة فى رؤية المكان. ولم نعد من هناك إلا بقطعة من حجر البروفير أطلعناه عليها بناء على طلبه...

وكان هاليفاكس فريدا بين الأوروبيين فيما يتعلق بهذا الأمر. والمخاوف التى أعرب عنها العرب لها مبرراتها القوية فى أنحاء آسيا، وإن كان الكنز الذى كان المستكشفون يسعون إليه ليس بالضرورة من ذلك النوع الذى تصوره العرب.

ولم يكن هناك مسح حقيقى لموقع تدمر حتى سنة ١٧٥١ حين قام بذلك الإنجليزيان روبرت وود وجيمس دوكنز. وكانت المنطقة لاتزال بها بعض القلاقل. بل إن باشا دمشق الذى كانت له السيطرة الاسمية على المنطقة، اعترف لوود ودوكنز بالكثير:

أخبرنا باشا هذه المدينة أنه لا يمكنه أن يعد بأن اسمه أو نفوذه يشكلان أى ضمان لنا فى الجهة التى كنا نقصدها.

وبناء على نصيحته استأجروا حراسا من زعيم بدوى محلى وخرجوا فى قافلة تضم ٢٠٠ شخص ومثلهم من الحيوانات متجهين إلى تدمر:

... فى حراسة... أفضل الفرسان العرب المسلحين بالبنادق والرماح الطويلة... [وفى أخطر جزء من الرحلة أعرب المرشد عن] رغبته فى ضرورة خضوعنا خضوعا تاما لتوجيهاته، وهى أن يكون الخدم والأحمال خلف الحراس العرب مباشرة. وكان يرسل فردا أو اثنين أو أكثر من الحرس من حين لآخر للاستكشاف من على أى مكان مرتفع يرونه ثم ينتظروننا حتى ندركهم... وهؤلاء الفرسان ينطلقون دائما من القافلة بأقصى سرعة، كما يفعل التتار والهوسيار. وقد داخلنا الشك فيما إذا كانت كل هذه الاحتياطات لأنهم يستشعرون الخطر بالفعل، أم أنهم أرادوا فقط أن يجعلونا نُقَدِّر فائدتهم ويقظتهم.

قد نتخيل مدى غرابة الأمر بالنسبة لهم عندما خرجوا من الصحراء بهذه الطريقة ليجدوا أمامهم مدينة يونانية رومانية لو نُقلت إلى سهول إيطاليا لما كانت غريبة عنها:

... عندما انفرجت التلال كشفت لنا عن أضخم قدر من الآثار سبق أن رأيناه. كانت كلها من الرخام الأبيض وكانت تقع خلفها فى اتجاه نهر الفرات صحراء منبسطة على مدى البصر، دون أن يكون هناك أى أثر لحياة أو حركة. ولا يمكن أن تتخيل شيئا أكثر غرابة من ذلك المنظر: أعداد كبيرة من الأعمدة الكورنثية بينها القليل من الجدران الصغيرة أو المبانى الراسخة، بحيث تشكل معا أكثر المناظر رومانسية فى تنوعها.

وكانت القصة الخيالية هى مـا سلب لب أوروبا. وكان كتاب وود ودوكينز «آثار تدمر» مثار الاهتمام من لندن حتى سانت بطرسبرج. وشعرت كاثرين الكبرى إمبراطورة روسيا بالفرح لمقارنتها بزنوبيا ملكة تدمر التى ذكر اسمها وشهرتها فى النقوش الموجودة على أعمدة المدينة المفقودة. ووجود مدينة على هذا القدر من العظمة وسط الصحراء كان تصديقا لتلك التجارة الآسيوية العظيمة التى تحَّدث عنها ماركو بولو وغيره. وكان ذلك فى أغلب الأحيان يُلقى على آذان غير مصدقة لما تسمع.

***

ظل الأوروبيون زمنا طويلا مهتمين بالآثار التوراتية (تدمر نفسها جاء ذكرها فى التوراة). وهاهم يهتمون بمدن آسيا المفقودة فى حد ذاتها وبصفتها الآثار الباقية من عدد من الحضارات التى ظهرت فى فجر التاريخ الإنسانى. وعثر الرحالة على الصحراء والمدن القديمة والشعوب الجديدة وغلَّفوها جميعا بغلاف من الحكايات الخيالية. جاء الرجال، وكذلك النساء، ليروا المناظر المدهشة التى اكتشفوها على الطرق القديمة فى الشرق الأدنى ويكتبوا عنها ويرسموها. رأوا جميعا كل ما تمنوا رؤيته. وهكذا علَّق طباخ إدوارد لير على رؤيته لآثار البتراء التى حُفرت فى الصخر لأول مرة قائلا: «أيها السادة، لقد دخلنا عالما كل شيء فيه صُنع من الشوكولاتة ولحم الخنزير والكارى والسالمون.» بينما وجد آخرون لا يقلون عنه رومانسية وإن كانوا أكثر علمية، أنها جنة من الآثار.

لم «يكتشف» الأوروبيون البتراء الوردية إلا سنة ١٨١٢. وكان يوهان بوركهارت قد تنكر فى هيئة تاجر مسلم من الهند (وهى حيلة شائعة بين الرحالة الأوروبيين) كى يتنقل فى الشرق الأوسط دون أن يُقابل بأى عداء. وحتى ذلك الوقت كان الموقع مستوطنة عربية

صغيـرة تُعرف محليا باسم وادى مـوسى وتسكنها ست أسر فقيـرة. فى تلك السنوات وما تلاها كان الرحـالة، ومن بعدهم علماء الآثار، يقـومون باستكشـافات وحفـائر فى اليونان وفارس وما بين النهرين ومصـر وعشرات غيرها من المواقع فى العالم القديم. وشيئـا فشيئا استطاعوا أن يجـمعوا تفاصيل قـصة عالم البحر المتوسط. وأثـناء ذلك عرفوا حكاية طريق الشرق العظيم. وحتى فى ذلك الحين كانت الصـورة لاتزال بعيدة عن الكمال. ولم يحدث قبل الاحـتلال البـريطانى أن حدد علمـاء الآثار موقع مـدينة دورا أوربوس البارثيـة تحديدا صحـيحاً وبدأوا حـفائرهم فيـها. وهى على أطراف الأراضى التـابعة لتدمـر. وحتى ذلك الوقت كانت مجرد مدينة محلية تسمى الصلاحية.

وبينما استـمر عـلماء الآثار فى عملهم فى الشـرق الأدنى، أخذ البـعض يتجه شـرقا ليعرف قصة طريق الحرير. وكما هو الحال فى كل مكان مأهول آخر، كان يرشد الأوروبيين الذين يستكشـفون «القفار الخـالية من الطرق» السكان المحليـون الذين كان وطنهم هو تلك المنطقة. ويتذكر الضابط الإنجليزى فرانيس يانجهسباند مقدار شعور السكان المحليين بأنهم فى وطنهم فى تاكـلامكان، بينمـا كـان عائـدا إلى النهر مـن منشوريا عـبـر صـحراء جـوبى وتاكلامكان فى ثمانينيات القرنى التاسع عـشر، قبل زمن طويل من بدء سفن هيدن ومارك أوريل لاستكشافاتهما. وهو يتحدث عن مرشده قائلا:

كان المرشد رجلا قصيرا محنى الظهر لا نرى عينيه فى أغلب الأحيان، وإن كانتا تلمعان فى بعض الأوقات من خلف تجاعيده فتخترق المرء كـأنها مـثقـاب.. وكـانت الطريقـة التى يتـذكـر بهـا مـواضـع الآبار، كل مرحلة فى الصحراء، تدعو للعجب. فكان ينام نوعا عميقا على ظهر الجمل مـائلاً برأسـه إلى الأمـام ليـستـقـر على سنام الجـمل أو يتـدلى بجـانبه. وفجأة يستيقظ وينظر أولا إلى النجوم التى يحدد بهـا الوقت حتى ربع السـاعة، ثم إلى المدى الذى يمكن أن يصل إليـه بصـره فى الظلام. وبعد فترة يميل بالجمل قليلا عن الطريق فنجد أنفسنا عند أحد الأبار تماما.. والقاعدة أننا لا نرى مدقات بالمرة، خاصة فى الأراضى الرمليـة. ولكنه كـان يقـودنا بطريقـة مـا. وغـالبا مـا يكون ذلك اهتـداء ببعر جمـال ما سبقنا من قوافل. وكثيرا ما يكون بأثارها الخفيفة التى لم أكـن أميزها بنفسى حتـى وإن بينوهـا لى. فـالجمل لا يترك كثيرا من الآثار على الحصباء التى تشبه ممرا مدكوكا فى إحدى الحدائق.

إلا أن المرشد كان يستطيع قص أثرها ولو فى الظلام بفضل أدلة هنا وهناك.

وليس كل مرشد لديه مثل هذه المهارات الدقيقة. ففى الأيام الأولى من هذا الاختراق الأوروبى كـان بعض السكان المحليـين يهولون فى مـعلومـاتهم، رغبـة فى الحصـول على مكاسب سـهلة بما يدفـعـه لهم الأوروبيـون من مـال. وأدى ذلك إلى وقـوع كـوارث فى تاكلامكان. وتعلم المستكشف الأوروبى سفن هيدن هذا الدرس القاسى سنة ١٨٩٥. فعندما أكد له مـرشده أنه على علم تام بالصحراء لـم يأخذ معه إلا مـا يكفى أربعة أيام من الماء، بدلا من عشرة أو أكثر. وكان المرشد نفسـه بين أول من لقوا حتفهم من القافلة عند محاولة إجتياز تاكـلامكان. والذين بقوا على قيد الحياة ظلوا يكافـحون أملا فى بلوغ الماء، إلى أن وصل بهم الأمر إلى شرب دم الدجاجات القليلة التى تركوها وأكل دم الخروف الذى ذبحوه قربانا لهذا الغرض (إذ كان السائل يتخثر فـورا ليصبح كتلة چيلاتينية). بل إن أحد الرجال أخذ يقضم رئتى الذبيـحة الملطختين بالدم. وعلق هيدن على ذلك فيـما بعد قائلا: «أدرك الآن كيف يجعـل العطش الرجل شبه مجنون.» كـما جمع بعض أفراد القافـلة بول الجمال وأضافوا إليه الخل والسكر وشربوه. وسرعـان ما أصاب الكل حالة من القىء الشديد. ولم يتبق سوى هيدن ورجل آخر قادرين على الاستمرار فى السير بحثا عن الماء، إذ أبى كلاهما أن يشرب هذا الخليط المقزز.

وبعد أن تركـا وراءهما خيـمة منصـوبة على كثيب رملى، كـدليل يستـرشدان به عند عودتهما المزمعة، اتجها ناحية الشرق بحثـا عن نهر خوتان الذى سينقذ حياتهما. كان هيدن يرتدى ملابس بيضاء: «إذا كان مقدرا لى أن أموت فى الرمال، فلتكن ملابسى لائقة. كنت أريد أن تكون الملابس التى أدفن فيها بيضاء ونظيفة». وخلال تلك الأيام العصيبة خطر ببال هيدن مرارا احتمال أن يضيع إلى الأبد وأثر ذلك على من سيتركهم خلفه:

... تعذبت روحى عندما تصورت ما سوف يلحق بمن هم قريبون منى وأعزاء على نفسى من اضطراب وقلق عندما لا نعود ولا يعرفون عنا شيئا. كانوا سيترقبون قدومى سنة بعد أخرى، ولكنه انتظار بلا طائل. فما كان لأى معلومات أن تصلهم.. وكان مستر بتروفسكى [القنصل الروسى فى كاشغر] سيرسل بطبيعة الحال رسلا للاستعلام عنا. كانوا سيذهبون إلى ميركت حيث يُبلِغونهم هناك أننا غادرنا ذلك المكان فى

العاشر من أبريل قاصدين الشرق. ولكن آثارنا فى ذلك الوقت ستكون قد ضاعت فى الرمال. وسيكون من رابع المستحيلات معرفة الاتجاه الذى ذهبنا فيه. وفى الوقت الذى يبدأ فيه البحث المضنى المنظم تكون أجسامنا قد مضى عليها أشهر عديدة تحت أمواج الرمال الملتهمة غير المستقرة.

جاهد الرجلان فى سيرهما شرقا لعدة أيام بحثا عن مجرى نهر خوتان. وفى النهاية بلغ الضعف برفيق هيدن مبلغا جعله عاجزا عن الاستمرار فى السير. وبعد أن أصبح هيدن وحيدا قادته الصدفة إلى إحدى البرك المتسعة فى مجرى النهر الذى جف مع قدوم الصيف. وبعد أن تخلص هيدن مما كان معه معدات بسبب ضعفه لم يكن معه وعاء مناسب يحمل فيه الماء الذى ينقذ به رفيقه. إلى أن هداه تفكيره إلى حذائه الذى لا ينفذ منه الماء. وهو الذى قال عنه فيما بعد إنه الحذاء الوحيد الذى عرفه «ولم ينقذ حياة رجل فحسب، بل سافر عبر آسيا وعاد مرة أخرى». كان ذلك فى ليلة ٥ مايو ١٨٩٥. وبعد عدة أيام التقى الرجلان عند نهر صغير ببعض الرعاة الذين أطعموهما وآووهما إلى أن استردا عافيتهما. أما بقية من كانوا معهما فى القافلة فهلكوا جميعا. وفى الشتاء التالى عندما وصلت قافلة صيد إلى المؤن والخيمة التى تركها هيدن لتكون دليلا يسترشد به، كانت الخيمة (ويفترض أن معها جثث من تخلفوا عن السير) قد دفنت تحت ستة أقدام من الرمال المتراكمة.

وحتى فى المسار الرئيسى لطريق الحرير كان حوض التاريم يحوى بعض الأخطار للمستكشفين، مهما كانت خبرة مرشديهم. ففى الرياح الشديدة، التى كثيرا ما تهب فى ثوان، قد يقتل ما تحمله من رمال وحصى من لا يأخذ حذره اليوم، تماما كما كان يحدث منذ ألفى سنة. ووصف يانجهسبند هبوب العواصف الترابية المفاجىء قائلا:

... بينما كنا نستعد لبدء السير رأينا سحابة داكنة عظيمة الحجم على مسافة بعيدة فى السهل. كانت عاصفة ترابية قادمة نحونا. وبينما كان الهواء ساكنا حيثما كنا، وكانت السماء فوقنا صافية تماما، إذا بنا نرى سحبا داكنة على مسافة منا ناحية الغرب. كانت سوداء كأنها الليل البهيم. وشيئا فشيئا أخذت تحجب السماء كلها. وما إن اقتربت العاصفة حتى سمعنا صوتا مدويا.. وبعدها دوى فوقنا بقوة رهيبة، مما اضطرنا إلى الاستلقاء خلف متاعنا...

عموما، وجد سهول الحصباء وقد تناثرت فيها الكثبان الرملية:

... أكثر البلاد التى رأيتها قفرا. وهى لا تقارن بأى شىء مررنا به. إنها سلسلة من تلال الحصباء التى ليس فيها أى دليل على الحياة أو الحيوان أو النبات وليست بها نقطة ماء...

رغم كل تلك الشدائد، كان كثير من هؤلاء الأوروبـيين الذين عاشوا فى القرن التاسع عـشـر وأوائل القـرن العـشـرين على الأطراف الشـرقـيـة لطريـق الحـرير لا يزالون على رومانسيتهم. فبعد أسبوعين من العاصـفة الترابية، وبعد مسيرة صعبة فى تاكلامكان لاحظ يانجهسبند أن:

الغروب كـان رائعاً. فحتى فى التلال الهندية أثناء المطر لم أر قط هذا اللون الأحمر الغريب الذى كـانت عليه السحب الليلة. لم تكن حمراء، ولم تكن قـرمـزية، وإنما خليط من الاثنين معـاً. كـانت شـديدة العـمق، وفى الوقت نفـسـه كـان ضـوؤها غـاية فى الإشـراق... وعـندمـا أوشك الظلام أن يحل، خيّمت على مغرب الشمس سحابة خفيفة فوسفورية...

ومع أن سفن هيدن وأوريل ستاين هما أول من قام بحـفائر حقيقية فى المدن الواحات فى تاكلامكان من الأوروبيين، كان هناك عدد لا بأس به من الرحالة الأوروبيين الذين ذهبوا إلى هذا الجزء من آسـيا، فى وقت سـابق لذلك بقليل من القرن التـاسع عشر. وسـاعدت رحلاتهم وكـتاباتهم علـى تعريف الأوروبيين المحـدثين بالمنطقـة. وكان معظمـهم، وليس كلهم، يجتازون آسيا الوسطى ويرسمون خرائط لمصلحة الحكومتين الروسية والبريطانية. من هؤلاء يانجهسبند وأعظم الرحالة والمستكشـفين الروسى نيكولاى برياليفسكى الذى قام بأربع رحلات كبرى فى آسيا الوسطى فيـما بين ١٨٧٠ و ١٨٨٥ قطع خلالها نحو ٢٠ ألف ميل ورسم خرائط لوب نور، التى لم يكن الأوروبـيون المحدثون يعرفـون شيئاً عنهـا حتى ذلك الوقت. كما شاهد بعض المدن الواحات التى بلغها هيدن وسـتاين وغيرهما من المستكشفين وعلماء الآثار الأوربيين، إلا أنه لم يقم فيها بأى حفائر.

***

وحتى قبل يانجهسبند وبريالفسكى كان الأوروبيـون قد بدأوا السفر إلى الأجزاء الشرقية من طريق الحرير القـديم. والواقع أن المصور الفوتوغرافى والرحـالة الألمانى العظيم البارون فرديناند فون ريشتوفن (عم البطل الطائر فى الحرب العـالمية الأولى البارون الأحمر مانفريد

فون ريشتوفن)، هو من صاغ الاسم الحديث Seidenstrasse، أى طريق الحرير. وذكر المسَّاح ويليام چونسون، الذى كان يستكشف المنطقة الواقعة شمالى الهند حتى تاكلامكان، أنه زار آثاراً مدفونة فى الرمال سنة ١٨٦٥. وكانت الزيارة نتيجة مباشرة للعبة الكبرى، حيث كان چونسون يعمل طبقاً لمعلومات مقدمة من جواسيس هنود استأجرهم البريطانيون للذهاب شمالاً وجمع معلومات من المناطق التى كان محرماً على البريطانيين دخولها.

وفى سنة ١٨٩٠ بدأ المستكشف والمصور الفوتوغرافى السويدى الشاب سفن هيدن نصف قرن من الترحال فى شرقى آسيا الوسطى. وفى تلك السنة، وكان فى الخامسة والعشرين، ذهب إلى كاشغر حيث التقى بكل من المندوبين الروسى والبريطانى، نيكولاى بيتروفسكى وچورچ ماكارتنى، وكذلك بفرانسيس يانجهسبند وآخرين من أفراد الجالية الدولية الصغيرة هناك. وهؤلاء أصبحوا على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لهيدن وستاين وكثير من المستكشفين الذين جاءوا بعدهم، إذ كانت كاشغر نقطة الانطلاق الأساسية لاستكشاف آسيا الوسطى الصينية، وهى المكان الذى كان ينبغى الحصول منه على تصاريح ضرورة من المسئولين الصينيين. كما كانت مكاناً للراحة، والعلاج إن لزم الأمر. فعلى سبيل المثال أمضى هيدن فى كاشغر فترة نقاهة امتدت ٥٠ يوماً تحت رعاية بتروفسكى، فى أعقاب محاولة لتسلق الجبال كادت تتحول إلى كارثة وأدت إلى إصابته بالتهاب فى عينيه أفقده البصر لبعض الوقت.

وكان بتروفسكى وماكارتنى خصمين لدودين يمثل كل منهما حكومته فى واحدة من أقصى مناطق آسيا الوسطى وأكثرها حساسية. ورغم ذلك كانا يقدمان العون للمستكشفين الغربيين فى آسيا الوسطى الصينية طوال نصف قرن. ولابد أن يُذكر هنا أنهما، من وجهة النظر الصينية، كانا يمثلان قاعدة لمن كانوا ينهبون بعض أثمن كنوز الصين فى تلك السنين.

أمضى هيدن الفترة من ١٨٩٤ إلى ١٨٩٧ فى آسيا الوسطى. وفى ٩ يناير ١٨٩٦ كانت أولى زياراته لواحدة من أقدم المدن الواحات فى تاكلامكان وهى يوتكان، وكانت فى ذلك الوقت قرية صغيرة اسمها بورازان على مقربة من خوتان. وكان بتروفسكى وهيدن قد علما بهذا المكان، حيث كان تجار خوتان يأتون بالقطع الأثرية من بورازان إلى كاشغر، حيث أوجد بتروفسكى وغيره من الأوروبيين سوقاً لمكتشفاتهم. وما إن اتضح أن الأوروبيين يتهافتون على أنواع معينة من القطع الفنية المستخرجة من الآثار حتى ظهر على الساحة من يقوم بالحفائر من السكان المحليين، وبينهم أيضاً مزيفون، كما يحدث فى كل أنحاء العالم

فى مثل هذه الظروف. اشترى هيدن من بورازان بعض التحف كما وجد بعض القطع الخزفية واستأجر بعض السكان المحليين كى يبحثوا له عن المزيد، بينما مضى هو فى رحلته إلى تاكلامكان. وكانت النتيجة حصوله على ٥٢٣ قطعة، كانت أساس المجموعة الرئيسية فى مؤسسة سفن هيدن بستكهولم. وكانت تلك إشارة البدء فى السباق العظيم على غنائم الاستكشاف الذى ميَّز العقود الثلاثة التالية من الاستكشافات والحفائر الأوروبية فى آسيا الوسطى الصينية، وخاصة على مسار طريق الحرير القديم. ولاحظ هيدن أيضاً فى بورازان أن التحف التى جمعها اتضح أن لها أصولاً مشتركة هلينية وآسيوية عديدة، وهى الفكرة التى طورها أوريل ستاين فيما بعد تطويراً تاماً فى العديد من الأعمال الكبرى، وخاصة «سيريندا».

وفى وقت لاحق من تلك السنة اكتشف هيدن أولى مدنه المدفونة تحت الرمال، وهى دندن أويلك التى كان السكان المحليون يسمونها تاكلامكان. وفى رحلة تالية قام بها من ١٨٨٩ إلى ١٩٠٠ اكتشف تحفاً فى لولان الواقعة على الحافة الشمالية الشرقية من تاكلامكان وأخذها معه. وكانت مدينة الحامية الصينية القديمة قد هُجرت فى أعقاب انهيار أسرة هان، أى قبل حوالى ١٦٠٠ سنة، حيث غطتها رمال الصحراء من ذلك الوقت. ومن لولان، التى يعتبرها الغرب أعظم اكتشافاته المبكرة فى الصين لكونها أثمنها، أخذ تحفاً كثيرة بينها خبيئة ضخمة من المخطوطات القديمة.

كان سفن هيدن مستكشفاً وعالم جغرافيا أكثر منه أثرياً أو مؤرخاً. كما أنه كان رومانسياً كذلك، تماماً كما كان يانجهسبند أو أى أوروبى آخر كان يستكشف الحضارات القديمة فيما كان بالنسبة لهم صحراء شاسعة تكاد تخلو من الطرق. وقد أوحت له أولى مدنه المدفونة تحت الرمل، وهى تاكلامكان (دندون أويليك)، بهذه التأملات:

متى كانت تلك المدينة المحيرة مأهولة بالبشر؟ متى نضج آخر محصولاتها من المشمش الخمرى اللون فى الشمس؟... متى هجر أهلها اليائسون مساكنهم آخر مرة وتركوها نهباً لملك الصحراء؟ من هم الذين عاشوا هنا؟ ماهى اللغة التى كانوا يتحدثون بها؟ من أى مكان فى الصحراء جاء سكان تدمر الذين لانعلم عنهم شيئاً؟... مدينة تاكلامكان هذه... تلك المدينة التى لم يسمع أى أوروبى شيئاً عن وجودها، كانت واحدة من أكثر الاكتشافات التى توصلت إليها فى رحلاتى الآسيوية

مفاجأة لى. من كان يتخيل أنه داخل صحراء جوبى الرهيبة [وكانت تلك أيضاً إشارة إلى تاكلامكان فى ذلك الوقت]، وفى ذلك الجزء منها على وجه التحديد الذى يفوق فى كآبته ووحشته كل ماعداه من صحارى على وجه الأرض، نامت مدن حقيقية تحت الرمال، مدن طمرتها الرياح آلاف السنين؟ إنها الأطلال التى بقيت مما كانت يوماً حضارة مزدهرة. ومع ذلك وقفت هناك وسط حطام وخرائب شعب قديم، لم يدخل مساكنه سوى العواصف الرملية أيام عربدتها المجنونة. وقفت هناك كالأمير فى الغابة المسحورة، حيث أيقظت المدينة التى نامت آلاف السنين على حياة جديدة، أو على الأقل أنقذت ذكرى وجودها من النسيان.

ظل هيدن على نشاطه فى آسيا الوسطى حتى أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين، حيث أفسحت الجمال المجال للمركبات ذات المحركات وزاد حجم البعثة زيادة ضخمة. وكان فى مستهل أمره قد ذهب مع أربعة رجال، جميعهم من أهل البلاد. وبحلول عشرينيات القرن العشرين كان يقود مئات الأفراد إلى آسيا الوسطى. وعلى مدى عقدين من الزمان تقريباً كان واحداً من أشهر الشخصيات الرومانسية فى عصره، وإن فقد تلك الشعبية فى بعض البلاد عندما ساند الجانب الألمانى فى الحرب العالمية الأولى. وعندما أعلن تعاطفه مع النازيين فى الحرب العالمية انصرف عنه سائر العالم. وتوفى هيدن سنة ١٩٥٢ عن ٨٧ سنة ونسيه الناس إلا عدد قليل من المتخصصين. ومع ذلك فهو أول من شد الرحال من أهل الشرق أو الغرب إلى المدن المفقودة فى حوض التاريم، تلك المدن الواحات الواقعة على طريق الحرير القديم، واستكشفها وأدرك أهميتها وكتب عنها.

وبعد سنة ١٩٠٠ كان هناك تواجد أوروبى كبير جديد على طريق الحرير. وفى تلك السنة اجتاز المؤرخ وعالم الآثار البريطانى مارك أوريل ستاين جبال البامير إلى كاشغر ليبدأ عملاً استمر أربعة عقود فى صحارى آسيا الوسطى والشرق الأدنى وجبالهما. ولم يتوقف عمله إلا بموته فى كابول سنة ١٩٤٣، عن عمر يناهز الثمانين سنة، وهو على وشك أن يبدأ بعثة جديدة فى آسيا الوسطى.

وكان أوريل ستاين، الذى أصبح بعد ذلك سير أوريل ستاين، مؤرخاً ومستكشفاً بارزاً ورائداً لطريق الحرير والثقافات التى التقت على ذلك الطريق وتداخلت على مر الآلاف من

السنين. وصل إلى آسـيا الـوسطى والشرق الأدنى وفى ذهنه افـتـراضات يريد اخـتـبـارها بخصوص خط سير الإسكندر والدور الذى قامت به كل من دورا أوربوس وتدمر والتأثيرات اليونانية على شمالى الهند وامتداد نفوذ أسرة هـان قبل ألفى سنة وانصهار الثقافات الصينية والهندية والفارسية واليـونانية وغيرها فى ثقافة بوذية واحدة على امـتداد طريق الحرير، قبل ألف سنة أو يزيد فى عهد أسـرة تانج. وهو لم يكن مثل سفن هيدن يتسلق جـبلاً أو يعبر صحـراء لمجرد أنها مـوجودة، وهو مـايفعله المستكشـفون والمغـامرون. كان أوريل سـتاين مختلفاً، وبقدر كبير، عن هؤلاء. فهو أول من لفت انتباه عالم القرن العشرين المندهش إلى الحضارات القديمة على طريق الحرير وفى آسيـا الوسطى. وهذه بلا جدال مساهمة ضخمة فى كتابة تاريخ العالم وتطوير علم الآثار وفنها.

ولا جدال أيضاً فى أنه استولى على أعداد ضخمة من التحف، كما هو حال كل كبار علماء الآثار الأوروبيـين العاملين فى آسيـا والشرق الأدنى فى عصره. فـاعتباراً من عـصر سفن هيدن ظل علماء الآثار «يستولون» على امتـداد طريق الحرير. ولكن بعضهم كان أكثر تدميراً من غيره. فالبعثات الألمانية برئاسـة فون لوكوك وجرونفيدل كانت على قدر كبير من الإهمال فيما يتـعلق بحفائرها وما تتبعه من أساليب النقل. وكـانت تدمر الكثير من المواقع والقطع الفنية ذات الأهـمية غيـر العادية بصورة يصـعب إصلاحهـا. أما ستـاين فلم يفعل ذلك. إذ كان حريصاً على الحفر بطريقة سليمة، وإن كانت أسرع من اللازم. وهو ما أشار إليه علماء آثار كثيرون غيره منذ ذلك الوقت.

وقام أوريل ستـاين بثلاث بعثات إلى حوض التاريم نجـحت جميعها نجـاحاً ملحوظاً. وكانت الأولى من ١٩٠٠ إلى ١٩٠١ والثـانية من ١٩٠٦ إلى ١٩٠٨ والثـالثة من ١٩١٣ إلى ١٩١٦. والتقـى ستاين، وهو مـجرى ذهب إلى إنجلتـرا كطالب للدراسات العـليا فى اللغات والآثار الشـرقية، بالعـديد من المستشرقـين البارزين فى ذلك الوقت وصار صـديقاً لهم. وكان بين هؤلاء السير هنرى يول والسير هنرى رولنسون. وفى سنة ١٨٨٨ وجدوا له وظيفة كـمسجل لجامـعة البنجاب ومدير للكليـة الشرقية الجديدة فـى لاهور، وهى وظيفة أمضى فيها ١٠ سنوات كان خلالها نافد الصبر وكان يتجه شمالاً إلى كشمير، كلما سنحت له فـرصة لمتـابعة مـهنته الحـقيـقيـة. وفى سنة ١٨٩٨ اقتـرح على الحكومة الهندية عـمل استكشافات أثرية فيـما وراء جبال البامير، حيث حصل على مـوافقة بذلك بعد أن توفر له الرعاية القوية. وقد استعان فى ذلك كثيـراً بما رواه سفن هيدن عن رحلته التى قام بها فيما بين ١٨٩٤ و ١٨٩٧، وهى الرحلة التى فتحت مسألة استكشـاف آسيا الوسطى بصورة غير

مسبوقة. كما أنه استفاد من اللعبة الكبرى. فقد ألمح بذكاء فى اقتراحه إلى أن الروس كانوا يعدون لبعثة إلى تاكلامكان وأن هيدن، الذى كان على صلة أوثق بالروس منه بالبريطانيين، قد يُعوِّل عليه فى العودة إلى التاريم.

وصادفت أول بعثة يقوم بها ستاين إلى تاكلامكان نجاحاً عظيماً. فقد جلبت له الشهرة بمجرد الإعلان عن اكتشافاته وعرض تحفه. وكان قد اتجه شمالاً عبر البامير وحصل على تصاريح الحكومة الصينية اللازمة من كاشغر بمساعدة ماكارتنى. وبعد ذلك اتجه مباشرة إلى مدينة هيدن المدفونة فى تاكلامكان، حيث أمضى ثلاثة أسابيع هناك وجد خلالها مايكفى لإثبات مقولته الأساسية الخاصة بالحضارة البوذية ذات الثقافات المتداخلة والخروج منها بكنوز كثيرة. فعل الشىء نفسه فى نى يا ويوتكان وعديد غيرهما من المواقع فى التاريم. وهى عملية فتحت أبواباً عبر منها الكثير من علماء الآثار والباحثين الغربيين عن الكنوز على مدى العقود الثلاثة التالية.

وبحلول موعد البعثة الثانية لستاين فى آسيا الوسطى سنة ١٩٠٦، كان هناك سباق بين المتنافسين من الباحثين الأوروبيين عن الكنوز، وهو صورة من التنافس الذى سرعان ما مزق المجتمع الأوروبى إلى شيع. وفى هذه الرحلة قطع الفرع الجنوبى من طريق الحرير حول تاكلامكان بأقصى سرعة، ليصل إلى ثانى أكبر اكتشافات هيدن عند لولان قبل منافسيه. كما توقف عند سلسلة متوالية من المواقع، بينها راواك وخداليك ونى يا، مرة أخرى، وإندير وميران، حيث عمل على عجل. وقد استولى على تحف من كل مكان. فمن خداليك أخذ «ستة صناديق كبيرة» من «الزخارف الجصية واللوحات الجدارية». ومن نى يا «أرشيف من الوثائق». ومن ميران «لوحات جدارية هشة كالحلوى».

وفى ذلك كله كان لايزال عالم آثار ومؤرخاً، ولكنه كان أيضاً، وبكل وضوح، صائد كنوز شديد المنافسة كله عزم على اكتشاف ما أمكنه والاستيلاء عليه، لحكومته وليس لنفسه. ولم يكن ذلك حال هيدن أو جرونفيدل أو فون لوكوك أو بيليو أو كل من شارك فى هذه المنافسة الحامية تقريباً. وكانت تلك البعثات باسم حكومات قومية ومؤسسات راعية مازال معظمها يحتفظ بهذه التحف الآسيوية حتى يومنا هذا.

وجاءت كبرى ضربات ستاين بعد ذلك. وقبلها بسنتين، وفى كهوف الألف بوذا، وهى مكان بوذى مقدس بالقرب من تونهوانج، استخرج كاهن من أهل المنطقة اسمه أبوت وانج كنزاً ضخماً من المخطوطات والأعمال الفنية الموغلة فى القِدم التى ظلت قروناً عديدة

حبيسة الجدران. وعندما سمع ستاين عن الكنز قدَّم رشوة لوانج مقابل السماح له بأخذ مايزيد على ٥٠٠ عمل فنى بينها العديد من قطع الحرير التى تحمل رسوماً و٣ آلاف لفافة مكتملة أو شبه مكتملة من المواد المطبوعة و ٦آلاف قطعة أخرى من المواد الوثائقية. وكان الكثير من قطع الحرير المطبوعة قد طُوى على هيئة لفائف. وعندما فَضَّها العلماء فى المتحف البريطانى بعد جهد اتضح أنها لوحات رائعة كبيرة على قماش غُزى فاخر جداً من الحرير. كانت إحدى اللفافات «السوترا الماسية» التى طُبعت بطريقة القوالب الخشبية سنة ٨٦٨ ميلادية، وتُعد أقدم كتاب مطبوع عرفناه حتى الآن. (هناك شذرات مطبوعة أقدم منه). وهذا وحده كنز لايقدر بثمن. وهو، وبقية ما استولى عليه ستاين من كهوف الألف بوذا، يُعد واحداً من أعظم المجموعات فى تاريخ العالم. أما كونه مصدراً للبحث والدراسة فيستحق أكثر من ذلك بكثير.

ولكى يزيد پول پيليو الطين بلة ذهب إلى تونهوانج سنة ١٩٠٨ وقدم رشوة إلى وانج ليسمح له بأخذ آلاف أخرى من المخطوطات المكتملة والشذرات الوثائقية. ولم يكن أوريل ستاين قد انتهى من عمله. ففى زيارة تالية لتونهوانج سنة ١٩١٤ استولى على ٦٠٠ لفافة أخرى من المخطوطات البوذية. وبالمثل نشر فون لوكوك وجرونفيدل وغيرهما كثيراً من اللوحات الجدارية ونزعوها من على جدران المعابد على طول طريق الحرير، وخاصة تلك التى فى بيزيكليك وقيزيل، حيث عادوا بها إلى برلين ليدمر قصف الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية معظمها.

واليوم نجد أن هناك نزاعاً حديثاً يستحق الاهتمام بشأن أنشطة هؤلاء المستكشفين الأوربيين فى الجزء الشرقى من طريق الحرير. وترغب الصين فى استعادة ما استولوا عليه من سنكيانج فى تلك السنوات، بزعم أن أى تصاريح منحتها فى ذلك الوقت حكومة صينية ضعيفة مغلوبة على أمرها لابد أن نعتبرها الآن باطلة. فكل ما أخذوه سلبوه سلباً. وهذا الموقف يشبه موقف اليونان فيما يتعلق بتماثيل إلچين الرخامية[1]، حيث تزعم أن التصريح التركى بالاستيلاء على الكنوز القومية اليونانية ينبغى اعتباره باطلاً. ولاشك فى أن الكنوز الصينية مساوية لها فى الأهمية.

والحجة الصينية قوية، وكذلك اليونانية. أما الذين بحوزتهم الكنوز فيمكنهم أن يردوا

(١) مجموعة من التماثيل اليونانية القديمة جُمعت من أثينا فيما بين ١٨٠١ و ١٨٠٣ ونقلها إلى إنجلترا توماس بروس، إيرل إلچين السابع. وهى عبارة عن أعمال فنية من الأكروبول. اشترت الحكومة البريطانية التماثيل سنة ١٨١٦ حيث تُعرض حالياً فى المتحف البريطانى. (المترجم).

على ذلك بقولهم إنهم إن لم يستولوا عليها لأتلفها من يقومون بالحفائر من السكان المحليين سعياً وراء بيعها قطعة قطعة أو لقضت عليهـا الحروب العصبية والقومية فى قرن الصراعات الذى خرَّب آسيا الوسطى، أو لدمرها الحرس الأحمـر. وهذا الرد فيه بعض الحقيقة، فقط بعضها. فمهما حدث من قبل، هذه الأعمال لاتزال موجودة وستعود إلى أوطانها عاجلاً أم آجلاً.

لقد ولَّى عـهد «الاسـتيلاء» فى الصـين وعلى طول طريق الحرير القـديم حتى البـحر المتوسط. والآن يقـوم علماء الآثار من أنحاء العـالم بحفائر، ويقدمـون مساهمات عظيـمة لدراسة تاريخ البشرية من خلال حفائرهم، ولكنهم لايأخذون ما يكتشفونه معهم.

وبينما كان القرن العـشرون يمضى بطيئاً بدأ طريق الحرير يكتـسب شكلاً حديثاً. ففى غرب آسيا بدأ استخدام السيـارات فى الصحراء السورية إبان الحرب العالمية الأولى. وكانت تسير بسهولة على الأراضى الصحراوية التى تغطيها الحـصباء وتسمح للمسافرين بالاستفادة من الطرق الصحراوية المختصرة، مع الخوف بعض الشىء من نقص الماء. وإلى الشرق منها بدأ المستكشفون الأوروبيـون استخدام المركبات ذات المحركات. وغالبـاً ما كان ذلك ملازماً لاستخدام الجمال التى كـانت تحمل البنزين. وهكذا أخذت التكنولوجيا الحديثة تـغيِّر طبيعة السفر على الطريق الآسيوى العظيم.

ولم يكن القدر الذى وفرته السيارات من الراحة فى تلك الأيام كبيراً. ومع ذلك كانت مفـضلة على تلك الأيام الطويلة من السفر على ظـهور الدواب فى السهوب والصـحارى. وهكذا بدأت المسافـات تقل عبر أوراسيـا لأول مرة فى تاريخ طريق الحرير. ومـا إن أصبح الوصول إلى المنطقـة متاحـاً لكل إنسان حتى صـار طريق الحرير مفـتوحاً أمام الجـميع من الناحية النظرية. أو كـما قال روى تشابمان أندروز يوماً: «لقـد فقدت الصحراء عفـتها إلى الأبد».

إلا أن المستكشـفين الأوروبيـين لم يكونوا بحال من الأحـوال بمنجى من قُطَّاع الطرق والمغيـرين عليهم الذين يمارسـون مهنتهم على الطريق على مـر آلاف السنين، رغم دخول السيارة. والواقـع أن المستكشفين والعلمـاء فى شرق آسيا وجدوا أن قَطْع الطـريق قد اتخذ شكلاً له طقوسه، كما كان عليه الحال فى غرب آسيا. وتحدث أندروز عن ذلك قائلاً:

... التقت قافلتنا بخمسة آلاف جمل على مقربة من أورجا [وكانت وقتها عاصمة منغوليا] يصحبها «ضابط اتصال» مع قُطَّاع الطرق.

وكان هذا قبل عدة سنوات مالكاً محترماً لأحد الفنادق التى تخدم ركاب السيارات على طريق أورجا. وكنت أعرفه حق المعرفة وأعرف أنه الآن شيخ منصر. بل إنه عرف أنى أعرف ذلك. لقد تصرف وكأنه «جنرال» يمكنه توفير الحماية لقافلتنا من خلال «الجنود» التابعين له. ومضت نصف ساعة فى احتساء الشاى والحديث غير المترابط قبل أن ندخل فى العمل. اقترح هو أن ندفع إتاوة قدرها خمسة دولارات عن الجمل الواحد. وعرضت أنا دولاراً واحداً. وأدرك هو أن صناديقنا لم يكن بها مايمكن لعصابته أن تستفيد منه أو تبيعه. وفى النهاية اتفقنا على نصف المبلغ المعتاد.

لقد انفصل الرحالة المحدثون على طريق الحرير فى أغلب الأحيان عن تجربة رحالة الماضى. ومع أنهم قطعوه بسرعة فى مركبات ذات محركات، أبطؤها أسرع كثيراً من الزحف المعتاد للقوافل التى كانت تسير بسرعة ميلين فى الساعة، أو بالقطارات أو حتى منفصلين تماماً عن الأرض، حيث تحملهم الطائرات الحديثة عبر أراضى آسيا الشاسعة، فمن المؤكد أنه كانت لديهم رغبة قوية فى أن يبدأوا رسم صورة لطريقة الحياة على طريق الحرير عندما كان كل شىء يربطه خيط واه من طرق القوافل.

ولكنهم مازالوا يأتون، تجذبهم تلك الحكايات الخيالية عن طريق الحرير.

وفى أعقاب علماء الآثار والمستكشفين جاء صنف جديد من الرحالة إلى طريق الحرير، إنهم السائحون. وكما هو حال من ساروا على خطاهم، انجذب السائحون فى بادىء الأمر إلى الشرق الأدنى، حيث استأجروا التراجمة ليصحبوهم إلى المواقع القديمة فى غرب آسيا. وغالباً ماكان ذلك فى إطار جولة تشمل الهند، وربما إيران أو تركستان أو الصين لو سمحت الظروف السياسية بذلك. واقتضى الأمر أن الرحلات الشاملة فى القرن العشرين ظلت عقوداً كثيرة تتبع خط سير واحد.

ولكن كما هى العادة فى معظم تاريخ طريق الحرير، فإنه فى العصر الحديث نادراً ما كان مفتوحاً للجميع أو على طول امتداده. فالثورة والحرب الأهلية فى روسيا والثورة والحرب الأهلية فى الصين والتوترات على الحدود السوفيتية الصينية ووجود الجيش ومعدات الطاقة النووية (كتلك التى فى لوب نور) والحرب العراقية الإيرانية والاشتباكات الإسرائيلية العربية اللبنانية التى استمرت عشرات السنين فى الشرق الأوسط والصراع الأفغانى السوفيتى

وعشـرات غيرهـا من الاضطرابات الصغرى والكـبرى حالت دون قـيام الرحالة بـرحلتهم الطويلة جداً عبر أراضى أوراسيا التى تُميز الحد الحقيقى والكامل لطريق الحرير.

من ناحية أخـرى كان بالإمكان عبور أجـزاء كثيرة من طريق الحـرير فى أوقات عديدة خلال العقود القليلة الماضية. فبالنسبـة للبعض، مثل فتزروى ماكلين، كان ذلك معناه رحلة عبر آسيا الوسطى السوفيتية إلى بعض مدن القـوافل العظيمة القديمة. وبالنسبة لغيرهم كان يعنى السفر إلى الصين حتى ينتهى بهم الأمر إلى القيام برحلة صعبة من شيآن، وهى مدينة صناعية صاخـبة فى الوقت الحالى، إلى سنكيانج حيث ما حل محل المدن الواحـات القيمة المحيطة بتـاكلامكان. واستطاع البعض السـفر شمالاً من الهند علـى طريق قره قورم متـبعاً الطريق الذى سار فـيه الحجـاج والمستكشفـون إلى آسيا الوسطى. وعندمـا كانت الظروف السياسية مـواتية، سافر آخرون إلى غرب آسيا ومابين النهـرين وإلى مواقع كثيرة من طريق الحرير القديم وطريق التوابل.

وحيثما ذهبوا، ومهما كان الوقت الذى ذهبوا فيه، فإن الرحالة المحظوظين والمجتهدين سوف يشعرون بنبض التاريخ على طول طريق الحـرير. وبغض النظر عن بعد البلاد ومقدار ماتبدو عليـه من عدم تخطيط وإقفار، فإنهم قد يكونون على يقـين من أن آخرين مروا من هذا الطريق وتركوا بصمتهم عليهم. ورغم تغير أشياء كثيرة، فإن ذكرى طريق الحرير باقية. إنها ذكرى واحـد من أقدم طرق العالم. فـهو نهر عظيم له العديد من الروافـد ينساب بين أقدم حضارات البشرية على مر آلاف السنين.

وحتى بعد أن قَطَّع الواقـع السياسى[١] أوصاله، سـيبـقى الطريق، ذلك الطريق الذى شـهد الحـرير الصـينى والذهب الرومـانى وكل الكنوز والأفـكار والديانات والمختـرعـات والمنتجـات ومهارات الشـعوب عبـر أوراسيا. وصـحيح أن طريق الحرير لابد أن يحـيا فى ذاكرتنا وخيالنا كواحد من أعظم الطرق الإنسانية قاطبة.

(١) تغيـر هذا الواقع فى العقـد الأخير من القـرن العشرين بعـد انهيار الاتحـاد السوفيـتى وانفتاح الصـين على العالم وبدء مشروعات ربط آسيا الوسطى وإيران بسكك حديدية ضخمة. (المترجم).

مراجع المترجم

* **ابن بطوطة، عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتى:** تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأمصار، تحقيق د. على المنتصر الكتانى، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١.

* **حسين، أحمد:** موسوعة تاريخ مصر، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠.

* **الإدريسى، أبو عبدالله محمد بن محمد عبدالله إدريس الحمودى الحسنى:** نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

* **الاصطخرى، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى:** مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن ١٩٢٧.

* **بارندر، جفرى:** المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة (١٧٣)، الكويت.

* **الدمقشى، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبى طالب الأنصارى:** نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٨٨.

* **عثمان، د. شوقى عبدالقوى:** تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة (١٥١)، الكويت ١٩٩٠.

* **الفردوسى، أبو القاسم:** الشاهنامه، ترجمة الفتح بن على البندارى وتحقيق د. عبدالوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانية (١١٤ ـ ١١٥)، القاهرة ١٩٩٣.

* **الكتاب المقدس:** دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط، ١٩٩٣.

* **كريم الله، د. أبرار:** من هم التتار، ترجمة د. رشيدة رحيم الصبروتى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانية (١٤٧)، القاهرة ١٩٩٤.

* **كولر، چون:** الفكر الشرقى القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة (١٩٩)، الكويت ١٩٩٥.

* **مارسدن، وليم:** رحلات ماركو بولو، نقلها إلى العربية عبدالعزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانية (٢٠١ ـ ٢٠٣)، القاهرة ١٩٩٥ و١٩٩٦.

* **المسعودى، أبو الحسن على بن الحسن بن على:** مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، المكتبة الإسلامية بيروت.

* **المقدسى:** أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، تحقيق د. محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٨٧.

* **هازارد، هارى و.:** أطلس التاريخ الإسلامى، ترجمه وحققه إبراهيم زكى خورشيد، مؤسسة فرانكلين للطباعة، القاهرة ١٩٥٦.

* *LEXICON UNIVERSAL ENCYCLOPEDIA*, Lexicon Publications, Inc. New York 1989.

ببليوجرافيا المؤلف

* Allchin, Bridget, and Raymond Allchin. *The Birth of Civilization: India and Pakistan Before 500 B.C.* Harmondsworth: Penguin, 1968.
* Ashtor, Eliahu. *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages.* Berkeley: University of California Perss, 1976.
* Basham, A.L. *The Wonder That Was India: A Survey of the Culture of the Indian Sub-Continent Before the Coming of the Muslims.* New York: Grove Press, 1959.
* Barthold, Vasili V. *Turkestan Down to the Mongol Invasion,* 2nd edition. London: Luzac & Co., 1928. Translated from the Russian by the author with the assistance of H.A.R. Gibb. Original title: *Turkestan at the Time of the Mongol Invasion.*
* Bausani, Alessandro. *The Persians.* New York: St. Martin's, 1962. Translated from the Italian by J.B. Donne.
* Beal, Samuel. *Buddhist Records of the Westem World.* New York: Paragon, 1968. Reprint of 1906 edition.
* Bell, M.S. "The Great Central Asian Trade Route from Peking to Kashgaria." *Proceedings of the Royal Geographic Society,* Vol. 12 (1890), pp. 57 ff.
* Benveniste, Emile. *Indo-European Language and Society.* Coral Gables, Florida: University of Miami Press, 1973. Miami Linguistic Series No. 12. Translated from the French edition of 1969.
* Boulger, G.S. "The History of Silk." *Asiatic Review,* Vol. 16 (1920). pp. 662-77.
* Bourlière, Françoise. *The Land and Wildlife of Eurasia.* New York: Time, 1964.
* Blunt, Wilfrid. *The Golden Road to Samarkand.* New York: Viking, 1973.
* Braudel, Fernand. *Civilization and Capitalism, 15th-18th Century,* 3 volumes. New York: Harper and Row. Volume 1, *The Structures of Everyday Life: The Limits of the Possible,* 1981; originally translated as *Capitalism and Material Life, 1400-1800* by Miriam Kochan, revised by Soân Reynolds. Volume 2, *The Wheels of Commerce*, 1982, and Volume 3, *The Perspective of the World,* 1984, both translated by Siân Reynolds.
* Brent, Peter. Genghis Khan: *The Rise, Authority and Decline of Mongol Power.* New York: McGraw-Hill, 1976.
* Boulnois, L. *The Silk Road.* London: George Allen & Unwin, 1966. Translated by Dennis Chamberlin.
* Bretschneider, Emil. *Medieval Researches from Eastem Asiatic Sources: Fragments Towards the Knowledge of the Geography and History of Central and Western Asia from the 13th to the 17th Century,* 2 volumes. London: Kegan Paul, Trench, Trubner & Co., n.d. (c. 1888).
* Brown, Slater. *World of the Desert.* Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1963.

* Browning, Iain. *Palmyra.* Park Ridge, New Jersey: Noyes Press, 1979.
* Browning, *Petra,* new and revised edition. London: Chatto & Windus, 1982.
* Buchanan, Keith, Charles R. Fitzgerald, and Colin A. Ronan. Foreword by Joseph Needham. *China: The Land and the People.* New York: Crown, 1980.
* Burnaby, Fred. *A Ride to Khiva.* London: Century, 1983. Reprint of 1877 edition.
* Byron, Robert. *The Road to Oxiana.* New York: Oxford University Press, 1982. Reprint of 1937 edition.
* Cable, Mildred, and Francesca French. *Through the Jade Gate and Central Asia.* Boston: Houghton Miffin, 1927.
* Carpenter, Rhys. *Beyond the Pillars of Heracles.* New York: Delacorte, 1966. Part of the Great Explorers series.
* Cameron, Nigel. *Barbarians and Mandarins: Thirteen Centuries of Western Travelers in China.* Chicago and London: University of Chicago Press, 1976.
* Carruthers, Douglas, ed. *The Desert Route to India: Being the Journals of Four Travellers by the Great Desert Caravan Route Between Aleppo and Basra, 1745-1751.* London: Hakluyt Society, 1929.
* Chambers, James. *The Devil's Horsemen: The Mongol Invasion of Europe.* New York: Atheneum, 1979.
* Chandra, Moti. *Trade and Trade Routes in Ancient India.* New Delhi: Abhinav Publishers. 1977.
* Chard, Chester S. *Northeast Asia in Prehistory.* Madison: The University of Wisconsin Press, 1974.
* Chêng Tê-K'un. "Travels of the Emperor Mu". *Journal of the Royal Asiatic Society, Norht China Branch,* Vol. 64 (1933), pp. 124 ff; Vol. 65 (1934), pp. 128 ff.
* Childe, V.G. *The Aryans: A Study of Indo-European Origins.* Port Washington, New York: Kennikat Press, 1970. Reprint of 1926 edition.
* College, Malcolm A.R. *The Parthians.* New York: Praeger, 1967. Part of the Ancient Peoples and Places series.
* Collins, Robert J. *East to Cathay: The Silk Road.* New York: McGraw-Hill, 1968.
* Coon, Carleton S. *Caravan: The Story of the Middle East.* New York: Henry Holt, 1951.
* Coyajec, J. C. *Cults and Legends of Ancient Iran and China.* Bombay: Karami, 1936.
* Culican, William. *The First Merchant Ventures: The Ancient Levant in History and Commerce.* London: thames and Hudson, 1966. From the Library of Ancient Civilizations.
* Curzon, Robert. *Armenia: A Year at Erzeroom, and on the Frontiers of Russia, Turkey, and Persia.* New York: Harper and Brothers, 1854.
de Gaury, Gerald, and H.V.F. Winstone. *The Road to Kabul: An Anthology.* London: Quartet, 1981.
* Dilke, O.A.W. *Greek and Roman Maps.* Ithaca, New York: Cornell University Press, 1985. Part of the Aspects of Greek and Roman Life serices.
* Downey, Glanville. *Antioch in the Age of Teodosius the Great.* Norman: University of

Oklahoma, 1962. Part of the Centers of Civilization series.
* Dubs, Homer. *A Roman City in Ancient China.* London: The China Society, 1957. No. 5 in the China Society Sinological series.
* Dunlop, D.M. *History of the Jewish Khazars.* New York: Schocken. 1967.
* East, Gordon. *The Geography Behind History,* revised and enlarged edition. New York: Norton, 1967.
* Edwardes, Michael. *East-West Passage: The Travel of Ideas, Arts and Inventions Between Asia and the Western World.* New York: Taplinger, 1971.
* Etherton, Percy Thomas. *In the Heart of Asia.* London: Constable, 1925.
* Fairbank, John K., Edwin O. Reischauer, and Albert M. Craig. *East Asia: The Modern Transformations.* Boston: Houghton Mifflin, 1965. Volume Twe of *A History of East Asian Civilizations; see Reischauer.*
* Fairley, Jean. *The Lion River: The Indus.* New York: John Day, 1975.
* Fleming, Peter. *News From Tartary: A Journey From Peking to Kashmir.* Los Angeles: J.P. Tarcher, n.d. Reprint of 1936 edition. Part of the Library of Travel Classics.
* Fox, Ralph. *Genghis Khan.* New York: Harcourt, Brace & Co. 1936.
* Franck. Irene M., and David M. Brownstone. *To the Ends of the Earth: The Great Travel and Trade Routes of Human History.* New York: Facts On File, 1984.
* Frye, Richard Nelson. *Bukhara: The Medieval Achievement.* Norman: University of Oklahoma Press, 1965. Part of the Centers of Civilization series.
* Frye. *The Heritage of Persia.* Cleveland and New York: World, 1963.
* Gernet, Jacques. *Daily Life in China: On the Eve of the Mongol Invasion, 1250-1276.* New York: Macmillan, 1962. Translated from the French by H.M. Wright.
* Gernet, *A History of Chinese Civilization.* Cambridge: Cambridge University Press. 1982 Translated by J.R. Foster.
* Ghirshman, Roman. *Iran from the Earliest Times to the Islamic Conquest.* Harmondeworth: Penguin, 1954.
* Gibb, Hamilton Alexander Rosskeen. *The Arab Conquests of Central Asia.* London: Royal Asiatic Society, 1925.
* Giles, H.A., translator and editor. *The Travels of Fa-Hsien (391-414 A.D.) or Record of the Buddhist Kingdoms.* Cambridge: Cambridge University Press, 1923.
* Giles, L. *Six Centuries at Tunhuang.* London: China Society, 1944.
* Glover, T.R. *The Ancient World: A Beginning.* Baltimore: Penguin, 1964.
* Grant, Michael. *From Alexander to Cleopatra: The Hellenistic World.* New York: Scribner, 1982.
* Grant, Christina Phelps. *The Syrian Desert: Caravans, Travel and Exploration.* New York: Macmillan, 1938.
* Grousset, René. *Chinese Art and Culture.* New York: Grove Press, 1961. Translated from the French by Haakon Chevalier.
* Grousset. *The Civilization of India.* New York: Tudor, 1939. Translated from the French by Catherine Alison Phillips.

* Grousset. *Conqueror of the World: The Life of Chingis-Khan.* New York: Orion. 1966. Translated from the French by Marian McKellar and Denis Sinor.

* Grousset. *The Empire of the Steppes: A History of Central Asia.* New Brunswick, New Jersey: Rutgers University Press, 1970. Translated from the French by Naomi Walford.

* Grousset. *In the Footsteps of the Buddha.* New York: Grossman, 1971. Translated from the French by J.A. Underwood.

* Grousset. *The Rise and Splendour of the Chinese Empire.* Berkeley: University of California Press, 1953. Translated by Anthony Watson-Gaudy and Terence Gordon.

* Hambly, Gavin, et al. *Central Asia.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1969.

* Hart, John. *Herodotus and Greek History.* Berkenham: Croom Helm, 1983.

* Hayashi, Ryoichi. *The Silk Road and the Shoso-in.* New York: Weatherill, 1975. Volume 6 of the Heibonsha Survey of Japanese Art.

* Hedin, Sven. *The Silk Road.* New York: Dutton, 1938. Translated from the Swedish by F.H. Lyon.

* Hedin. *Through Asia,* 2 volumes. London and New York: Harper & Brothers, 1899.

* Heichelheim, Fritz Moritz. *An Ancient Economic History, from the Paleolithic Age to the Migrations of the Germanic, Slavic, and Arabic Nations,* 3 volumes. Revised and complete English edition. Leiden: A.W. Sijthoff, 1958.

* Hirth, F. *China and the Roman Orient: Researches into Their Ancient and Medieval Relations as Represented in Old Chinese Records.* New York: Paragon, 1966. Reprint of original, 1885 Shanghai edition.

* Hitti, Philip K. *The Near East in History: A 5000 Year Story.* Princeton. New Jersey: D. Van Nostrand, 1961.

* Hopkirk, Peter. *Foreign Devils on the Silk Road: The Search for the Lost Cities and Treasures of Chinese Central Asia.* London: John Murray, 1980.

* Hudson, G.F. *Europe and China: A Survey of Their Relations from the Earliest Times to 1800.* London: Edward Arnold, 1931; reprint, Boston: Beacon Press, 1961.

* Humble, Richard. *Marco Polo.* New York: Putnam, 1975.

* Huzzayin, S.A. *Arabia and the Far East: Their Commercial and Cultural Relations in Graeco-Roman and Irano-Arabian Times.* Cairo: Publications de la Société Royale Géographie D;Egypte, 1943.

* Ibn Battuta. *Travels, A.D. 1325-1354,* 3 volumes. Cambridge: Cambridge University Press, 1958-71. Hakluyt Society Publications, 2nd Series, No. 110. Translated by H.A.R. Gibb.

* Irving, Clive. *Crossroads of Civilization: 3000 Years of Persian History.* New York: Barnes & Noble, 1979.

* Isidore of Charax. *Parthian Stations: An Account of the Overland Trade Between the Levant and India in the First Century B.C.* Chicago: Ares, 1976. Reprint of 1914 London edition. Translated by Wilfred H. Schoff.

* Kirchner, Walther. *Commercial Relations Between Russia and Europe 1400 to 1800.*

Bloomington. Indiana University Press, 1946. Volume 33 in the Russian and East European series.

* Klimburg-Salter, Deborah E. *The Silk Route and the Diamond Path: Esoteric Buddhist Art on the Trans-Himalayan Trade Routes.* Los Angeles: University of California, Los Angeles, Art Council, 1982.
* Koestler, Arthur. *The Thirteenth Tribe: The Khazar Empire and Its Heritage.* London: Pan, 1977.
* Krader, Lawrence. *Peoples of Central Asia,* 3rd edition. Bloomington: Indiana University Press, 1971. Volume 26 in the Uralic and Altaic series.
* Kuhn, Delia, and Ferdinand Kuhn. *Borderlands.* New York: Knopf, 1962.
* Kwanten, Luc. *Imperial Nomads: A History of Central Asia, 500-1500.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1979.
* de Lacoupérie, Terrien. *Westem Origins of Early Chinese Civilization: From 2300 B.C. to 200 A.D. or Chapters on the Elements Derived from Old Civilizations of West Asia, in the Formation of the Ancient Chinese Culture.* London: Asher, 1894.
* Larsen, M.T. *Old Assyrian Caravan Procedures,* Istanbul: Nederlands Historisch-Archaéologisch Institut in Het Nabije Oøsten, 1967.
* Latourette, Kenneth Scott. *The Chinese: Their History and Culture,* 4th edition, two volumes in one. New York: Macmillan, 1967.
* Lattimore, Owen. "Caravan Routes of Inner Asia." *Geographical Journal.* Vol. 72 (December 1928), pp. 497-531.
* Lattimore, *Inner Asian Frontiers of China.* Boston: Little, Brown, 1962.
* Lattimore, "Origins of the Great Wall of China." *Geographical Review,* Vol. 27, (October 1937), pp. 529-49.
* Lattimore, "A Ruined Nestorian City in Inner Mongolia." *Geographical Journal,* Bol. 84 (December 1934), pp. 481-97.
* Lattimore, *Studies in Frontier History: Collected Papers 1929-58.* London: Oxford University Press, 1962.
* Lattimore, *The Desert Road to Turkestan.* Boston: Little, Brown, 1929.
* Lattimore, Owen, and Eleanor Lattimore, eds. *Silks, Spices and Empire: Asia Seen Through the Eyes of Its Discoverers.* New York: Delacorte, 1968. Part of the Great Explorers series.
* Laufer, Berthold. *Jade: A Study in Chinese Archaelogy and Religion.* Chicago: Field Museum of Natural History, 1912. Publication 154, Anthropological Series, Volume 10. Reprint, New York: Dover, 1974.
* Laufer. *Sino-Iranica: Chinese Contributions to the History of Civilization in Ancient Iran: With Special Reference to the History of Cultural Plants and Products.* Chicago: Field Museum of Natural History, 1919. Publication 207, Anthropological Series, Number 3.
* Leemans, W.F. *Foreign Trade in the Old Babylonian Period as Revealed by Texts from Southern Mesopotamia.* Leiden: E.J. Brill, 1960.

* Legg, Stuart. *The Heartland.* New York: Farrar, Straus & Giroux, 1971.
* Lewis, Bernard. *The Arabs in History.* New York: Harper, 1960.
* Lewis, editor. *Islam and the Arab World: Faith, People, Culture.* New York: Knopf, with American Heritage, 1976.
* Lewis, Richard Percival. *Genghis Khan.* New York: Stein and Day, 1969.
* Lloyd, Seton. *Early Highland Peoples of Anatolia.* London: Thames and Hudson, 1967. Part of the Library of the Early Civilizations.
* Lopez, Robert S., and Irving W. Raymond, translators and editors. *Medieval Trade in the Mediterranean World.* New York: Norton, n.d. Part of the Records of Civilization, Sources and Studies series.
* McGovern, W.M. *The Early Empires of Central Asia: A Study of the Scythians and the Huns and the Part They Played in World History.* Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1939.
* Menen, Aubrey. *Cities in the Sand.* New York: Dial, 1973.
* Micheli, Silvio. *Mongolia: In Search of Marco Polo and Other Adventurers.* New York: Harcourt, Brace & World, 1967.
* Miller, James Innes. *Spice Trade of the Roman Empire, 29 B.C. to A.D. 641.* Oxford: Clarendon Press, 1969.
* Mirsky, Jeanette, editor. *The Great Chinese Travelers.* New York: Random House, 1964.
* Mirsky. *Sir Aurel Stein: Archaeological Explorer.* Chicago and London: University of Chicago Press, 1977.
* Morton, W. Scott. *China: Its History and Culture.* New York: Lippincott and Crowell, 1980.
* Moscati, Sabatino. *The Face of the Ancient Orient: A Panorama of Near Eastern Civilization in Pre-Classical times.* Garden City, New York: Doubleday. 1962.
* Munro, Eleanor C. *Through the Vermilion Gates: A Journey Into China's Past.* New York: Pantheon, 1971.
* Myrdal, Jan. *The Silk Road: A Journey From the High Pamirs and Ili Through Sinkiang and Kansu.* New York: Pantheon, 1979. Translated from the Swedish by Ann Henning.
* Needham, Joseph. *Science and Civilization in China,* Volume 1- London: Cambridge University Press, 1954.
* Nöldeke, Theodore. *Sketches from Eastern History.* Beirut: Khayats, 1963. Reprint of 1892 London edition. English translation by John Sutherland.
* Obolensky, Dimitri. *The Byzantine Commonwealth: Eastern Europe, 500-1453.* New York: Praeger, 1971. Part of the Praeger History of Civilization series.
* Pan Ku. *The History of the Former Han Dynasty, 2 volumes.* New York: American Council of Learned Societies, 1944. Translated by H. Dubs.
* Panikkar, K.M. *A Survey of Indian History,* 3rd edition. Bombay: Asia Publishing House, 1956.
* Pareti, Luigi, et al. *The Ancient World 1200 B.C. to A.D. 500.* New York: Harper & Row,

1965. Volume II of UNESCO's *History of Mankind: Cultural and Scientific Development.*

* Parker, E.H. *A Thousand Years of the Tartars,* 2rd edition. New York: Knopf, 1926. Part of the History of Civilization series.
* Parker, W.H. *An Historical Geography of Russia.* Chicago: Aldine, 1969.
* Penkala, Maria. *A Correlated History of the Far East: China, Korea, Japan.* The Hague and Paris: Mouton, 1966.
* Penrose, Boies. *Travel and Discovery in the Renaissance, 1420-1620.* New York: Atheneum, 1972. Reprint of Harvard University Press, 1952 edition.
* Perkins, John, with the American Museum of Natural History. *To the Ends of the Earth: Four Expeditions to the Arctic, the Congo, the Gobi, and Siberia.* New York: Pantheon, 1981.
* Philips. E.D. *The Royal Hordes: Nomad Peoples of the Steppes.* London: Thames and Hudson, 1965. Part of the Library of the Early Civilizations.
* Philips. *The Mongols.* New York: Praeger, 1969. Part of the Ancient Peoples and Places series.
* Piggott, Stuart. *Prehistoric India: To 1000 B.C.* Harmondsworth: Penguin, 1950.
* Plinius Secundus, C. (Pliny The Elder). *Natural History,* 10 volumes. Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, Loeb Classical Library, 1938. Translated by H. Rackham.
* Polo, Marco. *The Travels of Marco Polo.* Harmondsworth: Penguin, 1979. Translated by Ronald Latham.
* Polo. *The Book of Ser Marco Polo, the Venetian...* New York: Scribner, 1926. Translated and edited by Col. Sir Henry Yule, 3rd edition revised by Henri Cordier.
* Pulleybank, E.G. "Han China in Central Asia." *International Historical Review,* Vol. 3, pp. 278-86.
* Rawlley, Ratan C. *Silk Industry and Trade: A Study in the Economic Organizations of the Export Trade of Kashmir and Indian Silk with Special Reference to Their Utilization in the British and French Markets.* London: P.S. King & Son, 1919.
* Reischauer, Edwin O., and John K. Fairbank. *East Asia: The Great Tradition.* Boston: Houghton Mifflin, 1960. Volume One of *A History of East Asian Civilization;* see Fairbank.
* Roberts, Frances Markley. *Western Travellers to China.* Shanghai: Kelley and Walsh, 1932.
* Roerich, George Nicholas. *Trails to Inmost Asia: FiveYears of Exploration Woth the Roerich Central Asian Expedition.* New Haven, Connecticut: Yale University Press, 1931.
* Rostovzeff, Mikhail Ivanovich. *Caravan Cities.* Oxford: Clarendon Press, 1932. Translated by E. And T. Talbot Rice.
* Rostovzeff. *Social and Economic History of the Roman Empire,* 2 volumes, 2rd edition. Oxford: Clarendon Press, 1957.

* Rostovzeff. *Iranians and Greeks in South Russia.* New York: Russell and Russell, 1969. Reprint of 1922 Clarendon edition.

* Rostovzeff. *Social and Economic History of the Hellenistic World,* 3 volumes. Oxford: Clarendon Press, 1941.

* Sabloff, Jeremy A., and C.C. Lamberg-Karlovsky, editors. *Ancient Civilization and Trade.* Albuquerque: University of New Mexico Press, 1975.

* Salisbury, Charlotte Y. *Tibetan Diary.* New York: Walker, 1981.

* Saunders, J.J. *The History of the Mongol Conquests.* New York: Barnes & Noble, 1971.

* Schafer, Edwerd H. "The Camel in China Down to the Mongol Dynasty." *Sinologica,* Vol. 2 (1950), pp. 165-94, 263-90.

* Schafer. *The Golden Peaches of Samarkand: A Study of T'ang Exotics.* Berkely and Los Angeles: University of California Press, 1963.

* Schober, Joseph. *Silk and Silk Industy.* New York: Richard R. Smith, 1930. Translated by R. Cuthill.

* Schoff, W.H. *Early Communication Between China and the Mediterranean.* Philadelphia: no piblisher listed, 1925.

* Schreiber, Hermann. *The History of Roads: From Amber Route to Motorway.* London: Barrie and Rockliff, 1961. Translated by Stewart Thomson.

* Seligman, C.G. "The Roman Orient and the Far East," *Antiquity,* Vol. 11 (1937), pp. 5ff. Also Annual Reports of the Smithsonian Institution 1938, pp. 547ff.

* Seligman. "Some Aspects of the Overland Oriental Trade at the Christian Era." *Journal of the American Oriental Society,* Vol. 35 (1915), pp. 31ff.

* Severin, Timothy. *The Oriental Adventure: Explorers of the East.* Boston: Little, Brown, 1976.

* Sherwood, Merriam, and Elmer Mantz. *The Road to Cathay.* New York: Macmillan, 1928.

* Simkin, C.G.F. *The Traditional Trade of Asia.* London: Oxford University Press, 1968.

* Skrine, C.P. *Chinese Central Asia.* New York: Barnes & Noble, 1971. Reprint of 1926 edition.

* Skrine, Francis Henry, and Edward Denison Ross. *The Heart of Asia: A History of Russian Turkestan and the Central Asian Khanates from the Earliest Times.* London: Methuen, 1899.

* Spuler, Bertold. *History of the Mongols: Based on Eastern and Western Accounts of the 13th and 14th Centuries.* Ber keley and Los Angeles: University of California Press, 1972. English translation by Helga and Stuart Drummond.

*Stark, Freya. *Rome on the Euphrates: The Story of a Frontier.* New York: Harcourt, Brace & World, 1966.

* Stark. *The Valley of the Assassins: and Other Persian Travels.* Los Angeles: J.P. Tarcher, n.d. Reprint of 1936 edition. Part of the Library of Travel Classics.

* Stein, Aurel. *Innermost Asia: Detailed Report of Explorations in Central Asia, Kan-su and Eastern Iran,* 5 volumes. Oxford: Clarendon Press, 1928.

* Stein. edited by Jeannette Mirsky. *On Ancient Central-Asian Tracks: Brief Narrative of Three Expeditions in Innermost Asia and Northwestern China.* New York: Pantheon, 1964.
* Sullivan, Michael. *A Short History of Chinese Art.* Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1967.
* Teggart, Frederick John. *Rome and China: A Study of Correlations in Historical Events.* Berkeley: University of California Press, 1939.
* Toynbee, A., editor. *Cities of Destiny.* New York: McGraw-Hill, 1967.
* Trippett, Frank, and editors of Time-Life Books. *The First Horsemen.* New York: Time-Life Books, 1974. Part of the Emergence of Man series.
* Vlahos, Olivia. *Far Eastern Beginnings.* New York: Viking, 1976.
* Vollmer, John E., et al. *Silk Roads-China Ships.* Toronto: Royal Ontario Museum, 1983.
* Von Grunebaum, Gustave E. *Medieval Islam: A Study in Cultural Orientation,* 2rd edition. Chicago: University of Chicago Press, 1961.
* Von Hagen, Victor Wolfgang. *The Roads That Lad to Rome.* Cleveland and New York: World, 1967.
* Waley, Arthur. *Ballads and Stories From Tun Huang.* New York: Macmillan, 1960.
* Waley. "The Heavenly Horses of Ferghana: A New View." *History Today,* Vol. 5 (1955), pp. 95-103.
* Waley. *The Secret History of the Mongols and Other Pieces.* London: George Allen and Unwin, 1963.
* Warmington, Eric Herbert. *The Commerce Between the Roman Empire and India.* New York: Octagon Books, 1974. Reprint of Cambridge University Press edition of 1928.
* Watson, Burton, translator and editor. *Records of the Historian: Chapters from the SHIH CHI of Ssu-ma Ch'ien.* New York: Columbia University Press, 1969.
* Wheeler, Mortimer. *Civilizations of the Indus Valley and Beyond.* London: thames and Hudson, 1966. Part of the Library of Ancient Civilizations.
* Wheeler. *Rome Beyond the Imperial Frontiers.* London: G. Bell, 1954.
* Wintle, Justin. *The Dragon's Almanac: Chinese, Japaness and Other Far Eastern Proverbs.* London: Routledge and Kegan Paul, 1983.
* Wu, K.C. *The Chinese Heritage.* New York: Crown, 1982.
* Yu, Antohony C., translator and editor. *The Journey to the West,* 4 volumes. Chicago: University of Chicago Press, 1977.
* Yule, Henry. *Cathay and the Way Thither,* 2nd edition, 2 volumes. Taipei: Ch'eng-Wen, 1966. Revised by Henri Cordier; based on original 1866 edition.
* Zewen, Luo, et al. *The Great Wall.* New York: McGraw-Hill, 1981.

طريق الحرير .. طريق الحضارات والديانات والفتوحات . إنه الطريق الذى سار عليه دعاة البوذية والمسيحية ونشر من خلاله التجار العرب الإسلام فى ربوع آسيا . وعلى الطريق نفسه مضت جيوش الإسكندر ، وقورش ، وجحافل جنكيز خان ، وهولاكو ، وتيمورلنك تقيم الإمبراطوريات . كما قطع سهوبه وسهوله ووديانه شبان تسونج ، وابن بطوطة ، وماركو بولو وغيرهم من الرحالة العظام .

وإذا كان الكتاب يحدثنا عن تاريخ **طريق الحرير** .. فهو ليس كتاباً عادياً للتاريخ . فما يحويه بين دفتيه يُعد خلفية لما يجرى الآن فى هذه المنطقة الحيوية من العالم .. التى تمتد من الصين شرقاً إلى تركيا غرباً . وهو ضرورى لمن أراد أن يفهم ما يجرى هناك بعد أن اتجهت الأنظار من جديد إلى **طريق الحرير** .

ومع أن السكك الحديدية حلت محل الجمال .. فما زالت أطماع الدول الواقعة على **طريق الحرير** كما هى . فإيران تأمل فى استعادة مكانتها كمفترق طرق .. وترغب دول آسيا الوسطى فى الوصول إلى المياه الدافئة خلال خط السكك الحديدية الجديد .. وتراه الصين وسيلة سهلة لوصو[ل] منتجاتها إلى البحر المتوسط والشرق الأوسط .

طبعت بمطابع الأهرام ـ كورنيش النيل